مجلة ثقافية فصلية محكّمة/ العدد الثامن و العشرون / خريف/ ٢٠١٩

جدلية المثقف والسياسي	عمر شبلي
إحكي يا شهرزاد للكاتبة درية فرحات	عماد نبيه خليل
اللغة العربية بين الأصالة والاعلام	د. خليل بيضون
تعلمية التعبير الشفهي بالتكنولوجيا	د. مايا بطرس قزعور
الأثر التراثي والديني في شعر عمر شبلي	د. منال شرف الدين
ظاهرة الموالي في العصر الراشدي	باسم سليمان العشعوش
فقدان هوية الانتماء في ظل الحرب الأهلية اللبنانية	د.هيبة عبدالصمد
الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي	يحي وفيق خفاجة
الطائفية السياسية وأثرها على الاستقرار في لبنان	محمد سليمان
الهم الفلسطيني المشترك بين القصيدة العربية والايرانية	د. غسان تويني
التعبيرية في البلاد العربية	خولة طفيلي
دراسة حول إمكانية إنشاء مطمر صحي	ماجدة شحيتلي الخطيب / جوسلين أدجيزيان جيرارد
الشخصية في أعمال سعيد أبو نعسة	هبة العوطة
المشرق العربي - الهوية الجيوبولوتيكية	حنان ناصر
بلاد الشام إبان الحرب العالمية الأولى	د. رمضان أحمد العمر
زمن القلاقل والاضطرابات في روسية القيصرية	د. زياد منصور
فن الرسم عند هيفل	د. ديمة بو ملحم
ديوان " لو أن الضوء ينام " لخليل عاصي	د. ياسين بن عبيد

- موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدّي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكّمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد الثامن والعشرون - خريف ٢٠١٩

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
د.درية فرحات

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان
د. عماد هاشم
د. علي أيوب
د. نصر قرحاني
د. هبة الحشيمي
د. عيدا زين الدّين
د. زهور شتوح (الجزائر)
د. ندى الرمح
د. منال شرف الدين
د. رضا العليبي (تونس)
د. منى دسوقي
د. سمية طليس
أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش
أ. زينب راضي
أ. إيمان صالح
أ. سوزان زعيتر
أ. فاطمة البزال
أ. رولا الحاج حسن

اللجنة المحكِّمة

د. ديزيريه سقَّال
د. حسن جعفر نور الدّين
د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل
د. لارا خالد مخول
د. علي حجازي
د. جمال زعيتر
د. مها خير بك ناصر
د. محمد عواد
د. عائشة شكر
د. أحمد رباح
د. يوسف كيال
د. ماغي عبيد
د. سعيد عبد الرحمن

تصميم المجلة	إخراج	المدير المسؤول
عبير سمير نجم	عبد القادر نجيب كرزي ٧٠/٦٢١٤١٠	علي حمود

موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com
مركز المجلة: ريفييرا سنتر – كورنيش المزرعة – دار العودة – الطابق الخامس
الاشتراكات السنوية:
لبنان – للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية – للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية
باقي الدول العربية:
للأفراد ١٠٠ دولار – للمؤسسات ٢٠٠ دولار
للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

جدلية المثقف والسياسي
بقلم عمر شبلي ٥
اللغة العربيّة بين الأصالة والإعلام تباين وتصويب
د. خليل بيضون ٧
احكي ياشهرزاد للكاتبة دريّة فرحات
عماد نبيه خليل ٣٤
فن الرّسم عند هيغل
د. ديمه بو ملحم ٤١
ظاهرة الموالي في العصر الراشدي
باسم سليمان العشعوش ٥٤
فقدان هويّة الانتماء في ظلّ الحرب الأهليّة اللبنانيّة من خلال رواية حجر الضّحك لهدى بركات
د. هيبة عبد الصّمد ٧٥
تعلّميّة التّعبير الشّفهيّ بالتّكنولوجيا من فهم المسموع إلى التّعبير الشّفهيّ
د. مايا بطرس قزعور ٨٤
الأثر التّراثي والدّيني في شعر «عمر شبلي» ١١٦
د. منال شرف الدين ١١٦
التّعليم التّكامليّ في مادّتي الرّياضيّات والاقتصاد في المرحلة الثانويّة
فيصل زيود ١٣٣
الأماكن المفتوحة والمغلقة في رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي
غنى الريّس ١٤٧
السيميائية والتناص في الإعلان التلفزيوني في دولة الكويت
إعداد الباحث: مبارك حمد الدسمة ١٦٣
«الشّبكة العنكبوتيّة ومواقع التّواصل الاجتماعي في حياة تلامذة المرحلة الثانويّة»
يحيى وفيق خفاجة ١٧٣

بلاد الشام إبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ -١٩١٨
د. رمضان أحمد العمر ١٩٠
ديوان «لو أن الضوء ينام» لخليل عاصي التجربة... سياقاتها وتحولاتها
د. ياسين بن عبيد/ الجزائر ٢١٥
زمن القلاقل والاضطرابات في روسيا القيصرية
د. زياد منصور ٢٢٣
المشرق العربي - الهوية الجيوبوليتيكية
حنان ناصر ٢٥٥
الشخصية في أعمال «سعيد أبو نعسة»
هبة العوطة ٢٦٩
دراسة حول إمكانية إنشاء مطمر صحي للنفايات في المنطقة الواقعة غرب بعلبك
ماجدة شحيتلي الخطيب & جوسلين أدجيزيان جيرارد ٢٨٥
الطائفية السياسية وأثرها على الاستقرار في لبنان
محمد سليمان ٢٩٤
الهمّ الفلسطينيّ المشترك بين القصيدة الايرانيّة والعربيّة
د. غسان تويني ٣١٤
التّعبيريّة في البلاد العربيّة
خولة الطفيلي ٣٢٥
تأثير عجز الكهرباء على القطاعات الرئيسية والدين العام في لبنان
أ. مازن محمد نديم جبري ٣٣٩
شكٌّ... ويقين
فاطمة البزال ٣٤٣
لولا القشرة لفسد اللبّ
زينب فايز راضي ٣٤٤
The Role of Media in the Conduct of Terrorists' "Hybrid Warfare" ISIS Case Study
KASSEM ATEF HAMDAN ٣٤٦
Under Television Sky: The Disappearing City in "Neuromancer"
Eliane Salameh ٣٥٦

جدلية المثقف والسياسي

بقلم عمر شبلي

أولُ ما يجب أن نقوله للمثقف العربي: «لا تأكلْ خبزَكَ على مائدة سواك»، وخبزُ الإنسان المثقف كرامته، وكرامته تقتضي أن يكون رغيف خبزه من تنّور قلمه، ومن ثقافته التي يجب أن تتحوّلَ سلوكًا، وقتها يكون مُتَوَّجًا، ولكن تاجه يكون داخلَ رأسه، يوم يكون تاجُ السياسي خارج رأسه، وقابلاً للتحوّل والخلع والارتزاق في سوق نخاسة السياسة. وذلك لأن السياسة حرفة، والحرفة تنزل إلى السوق غالبًا، وغالبًا ما تنزل إلى سوق الكساد، فيضطر السياسي لترخيص أثمان حرفته. وسبب رخصِ هذه الحرفة هي أن صاحبها يظنُّ أنه يستطيع تحقيق شهرة خارج الفكر، وقد يتراءى له وهم الشهرة الذي ينقشع بسرعة حين يزدحم سوق الكساد. على الإنسان أن يدرك أن الشهرة بغير الفكر سذاجة، وشهرة الفكر هي عمرٌ ثان للإنسان. وعلى الإنسان أن «يأكلَ ليعيش، لا أن يعيش ليأكل» كما يقول موليير.

على المثقف أن لا يكونَ مرتزِقًا على باب السياسي، والصحيح أن يكون السياسيُّ على باب المثقف ليقوِّمَ سياسته، وليُخرجها من بازار العرض والطلب الرخيص المبتذل الآنيّ، ولِيُعَمِّق فهمه لتطور الحياة وقوانينها التي لا تأبه بالسياسي العابر. السياسي يكون سياسيًا حقيقيًا إذا كان مثقفًا، وإذا قرأ كل أسبوع كتابًا هادفًا، وعليه أن لا يُبقي كتاب «الأمير» لميكافيلي تحت وسادته ليلاً ليقرأه بين الغفوة والصحوة. علينا أن نحترم السياسي الذي يهتم بالثقافة والفكر، وعلينا أن نقول للمثقف لا تكنْ آنيًّا ورخيصًا، ومبررًا لسلوك السياسيّ المنحرف الذي يستأجرك لجعل الفكر خادمًا له. فلا يمكن لقوةٍ مهما عظمت في هذه الدنيا أن تكون قادرةً على استعباد العقل والفكر وأضواء الروح التي لا يحجبها ظلام السياسة الداكن. فالقوة الحقيقية تكمن في العقل وليس على كرسيِّ الحاكم الآيل إلى زوال. كان «وليُّ الدين يكن» يقول للسلطان عبد الحميد: «لأُزلزِلَنَّ أركانَ قصرِكَ بقلمي هذا».

علينا أن ندرك أنّ الخالدين في التاريخ الإنساني والعباقرة لم يحققوا أشياءَ عظيمةً إلاّ لأنّ أهدافهم كانت عظيمة، والأهداف لاتكون عظيمةً إلاّ حين يُنشئِها الفكر، ويُرسي قواعدَها العقل، فالفكر أساس الحضارة، والسياسة تكون مقبولة حين تتبع أوامر الفكر والثقافة، وحين تكون تابعة لا متبوعة. وأخطر حالات المثقف أن يكون تابعًا، وتزداد خطورته حين يكون تابعًا سياسةً فاسدة وسياسيين فاسدين ومفسدين. ونحن نقول إن خطورة المثقف التابع أشدُّ إيذاءً من الجهل. فحين يُسخِّر المثقف ثقافته لخدمة المفسدين يكون هدّامًا وأشد تأثيرًا من الجهل والجهلاء في زعزعة البنيان الحضاري في أمته. يقول روسو: «فضيلةٌ بلا علم خيرٌ من علمٍ بلا فضيلة.، والفضيلة لا تنتجها إلاّ المعرفة». ولذا ترى الإنسان الفاضل غير خائف لأنه مُحصّنٌ بالفضيلة، وقلّما تنام الفضيلة والسياسي في فراش واحد. وسبب ذلك أن الفضيلة صعبة التحقيق وذات تكلفة، وتجعل داخل الإنسان وخارجه شيئًا واحدًا، أما الرذيلة فلا تحتاج جهدًا لوجودها، ويكفي أن تلبس قناعًا للغوص في هِناتها وعيوبها.

وإذا جنفت السياسة عن الفكر غدت تجارة، وتكون تجارة هزيلة لأنها لم تسترشد بهدف عال ينشئه الفكر العظيم فالفكر هو الإمام كما يقول حكيم المعرة، وما عدا الفكر يكون وهمًا. وعلينا أن نؤكد أنّ الأهداف العظيمة لا يمكن إنجازُها إلا بوسائل نبيلة ومنطلقة من الوعي والثقافة والالتزام السلوكي بالقيم العليا.

اللغة العربيّة بين الأصالة والإعلام
تباين وتصويب

د. خليل بيضون

مقدّمة:

أخذت اللغة العربية في استخدامها الإعلامي المعاصر منحى جديدًا مع دخول وسائل الإعلام الحديثة على المجتمعات العربية، فسلكت مسارًا مغايرًا لأصالة استعمالها، وأخذت مفهومًا مستقلاً؛ تمايز عن اللغة التقليدية المعهودة في التّراث العربي، وغدت اللّغة المُستعملَة في وسائل الإعلام تُعرف باللغة الإعلامية، وفي ظل انتشار وسائل الإعلام وتنوّعها أصبحت هذه أكثر اللغات استخدامًا وشيوعًا، وقد أحيطت بحظوة واهتمام من أهل اللغة أنفسهم، وأهل الإعلام والعاملين في مجاله على حدٍّ سواء، لأنّ مهنة الإعلام – بكل تفاصيلها وتفريعاتها – تقوم في أداء رسالتها على اللغة بشكل أساس، ولأنّ اللّغة تشكّل حجر الزّاوية الذي ترتفع عليه سارية الإعلام في أداء مهمته. ونظرًا لأهمّيتها فإنّها تحتاج دائمًا إلى من يتولّي أمرها، ويعمل على تطويرها وتعميمها، وأن يُحسن توظيفها في الاستعمالات الحيّة والمجدية.

وقد شكّلت لغة الإعلام مصدر قلق وريبة لأهل اللغة والمهتمّين بها، لجهة ما تخلّلها من استحداثات وتنوّع في مستوى استعمالها في وسائل الإعلام المختلفة، نظرًا إلى التفاوت الحاصل في لغة برامجها ومنشوراتها بين المرئيّ، والمقروء، والمسموع، وما هو مزيج بين الفصحى والمحكي.

وعليه، فإنَّ وضع لغة الإعلام على مجهر الرّقابة والدراسة، ورصد استعمالاتها المتنوّعة والمتعدّدة، أصبح من الضّرورات الملحّة لما فيه خير وسائل الإعلام نفسها ونجاح رسالتها الإنسانيّة، وحفظ اللغة وسلامة أدائها المعرفي والثقافي، وذلك بإعادة تصويب ما يشوبها من أخطاءٍ، ومعالجة تدنّي مستوى البرامج الإعلاميّة. وأصبح الحديث عن حالها بين الأصالة والإعلام مشروعًا وبنّاءً. وكان

البحث في هذا المجال قائمًا ومستمرًا، منذ ظهور الصحافة المكتوبة والمطبوعات الدوريّة في المشرق العربي، وشيوعها في البلاد العربيّة بأنواعها واتجاهاتها المختلفة، إلى أن عمّت القنوات الفضائية العربية والمستعربة أقطار الأرض، ودخلت بصورة لغتها الجديدة والمستجدّة، وبكل ما في هذه اللغة، كل بيت، فصار خطر الإعلام على اللّغة في حاضرها ومستقبلها واضحًا وجليًا، لما للإعلام من تأثير بالغ في سلوكيات الأفراد والمجتمعات، لجهة تكوين الرّأي العام، والانطباعات المعرفيّة والقيميّة، فصارت معالجة هذا الأمر ضرورة علميّة ملحّة، وواجبًا تفرضه الحقيقة القائمة على كل باحث ومختص في اللغة العربيّة القومية وغيور عليها، ومحب لها، لأنّها لغة الحضارة الإسلامية العريقة، وتراثها الغني على امتداد قرون من الزمن، إضافة إلى أنّها لغة ملايين العرب التي يتطلع إليها مئات الملايين من المسلمين.

وهذا البحث يهدف إلى الإسهام في تسليط الضوء على هذا الموضوع مجددًا، ورصد بعض المشكلات اللغويّة الشّائعة على وسائل الإعلام المتنوّعة، ووضع وسائل الإعلام أمام مسؤولياتها الحضاريّة والثقافيّة باعتماد لغة موحَّدة وموحِّدة وسليمة؛ تحفظ تراثنا العريق، وتصون لغة القرآن المعجزة.

ويأتي هذا البحث استكمالاً لبحوث سابقة – تناولت هذا الموضوع من جوانب مختلفة– نُشرت في بلاد عربية عدّة في مراحل متفاوتة، شارك فيها باحثون في علوم اللغة، والإعلام، والاجتماع، والسياسة، حاولوا دراسة ظواهرها وتثبيت أصولها، وبيّنوا تطورها، وعالجوا بعض أخطائها، لتكون عونًا كافيًا لطلاب كليات الإعلام، والعاملين في وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة.

والإعلام العربي في نشاطه اللّغوي المختلف يقوم بتحقيق مهمتين مختلفتين ومتباينتين: الأولى إيجابية، من خلال نشره اللغة العربية، وتعميمها على أفراد المجتمع على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم ومستوياتهم، من متعلمين وأميين، ومن متابعين أو متلقّين. والثانية سلبية، من خلال ترويج المحكيات المحلّية والعادات المحدودة بإشاعتها عبر البرامج المسموعة والمباشرة، فيسهم بقوّة في نشر الأخطاء اللغويّة ويثبّتها في الأذهان وعلى الألسن، ويكرّس حالات الانفصال والفرقة بين أقطار الأمة العربية.

ومن فرضيات هذه الدراسة في هذا المقام:

- اعتبار اللغة الإعلامية لغة مختلفة في جوهرها عن لغة سائر الأغراض الأدبية.
- أن بمقدور وسائل الإعلام اعتماد خطاب لغوي فاعل يناسب الذوق العام، ويؤدّي الوظيفة الإعلامية المطلوبة.

- أن مهمّة لغة الإعلام تعميم اللغة العربية ونشرها بشكلها السليم.
- أن اللغة المحكيّة في وسائل الإعلام تمثّل الوجه السّلبي للإعلام من خلال استعمالها في البرامج الإعلامية، فيكرّس الإعلام من خلالها التفريق بين الأقطار العربيّة لجهة وحدة اللغة.

تميهد:

اللغة هي عمدة الإعلام وحجر زاويته، فيها تكمن قوّة الجذب والتأثير، وعليها تقوم عمليّة التواصل مع الجمهور المتلقّي وتكوين رأيه العام، فإذا أراد القيمون على وسائل الإعلام أن تؤدي تلك الوسائل مهمتها، وتحقق أهدافها، وتحظى برضى الجمهور المتلقي، لجهة الجذب إليها، والتشجيع على متابعتها، كان لزامًا عليهم انتقاء مستخدمي اللغة في وسائلهم من الضليعين في اللغة، والعارفين بأسرارها ومكامن جواهرها، ليوائموا بين الأداة ومستويات المستخدمين.

وقد استمرّت اللغة كأداة أساسيّة أولى في التواصل الإعلامي، ولم تفقد مكانتها وأثرها في الرسالة الإعلامية، على الرغم من دخول الصورة على خط هذه الوسائل بقوّة تأثيرها، وازدياد أهميتها في العمل الإعلامي، مع أن «اللغة ليست وسيلة من وسائل الاتصال بالمفهوم الإعلامي للوسائل، ولكن الاتصال وظيفة من وظائف اللغة»[1].

وقد واجهت وسائل الإعلام مأزقًا حرجًا في المستوى اللغوي الذي تستعمله، كونها تتوجه إلى جمهور تختلف مستويات أفراده اللغوية، وتتفاوت من بيئة إلى أخرى، إضافة إلى استقدام أفراد من خارج السلك الإعلامي، وإشغالهم في العمل الإعلامي من دون تأهيل مناسب، وهم لا يجيدون استخدام اللغة العربية استخدامًا سليمًا يتناسب مع الغايات الإعلامية، ولا يحسنون توظيفها توظيفًا مدروسًا ومؤثرًا في برامجها ومنشوراتها، فظهر ما أُطلق عليه «لغة الإعلام».

تعريفها:

تفاوتت آراء الباحثين في تعريف لغة الإعلام، ولم يستطيعوا وضع تحديد واضح ونهائي لتوصيفها وتحديد ميزاتها، فمنهم من أطلق عليها اسم «اللغة الثالثة» على سبيل التوصيف والتّعريف، واعتبروا أنها اللغة التي تتوسط الفصحى والعامية، أو فصحى العصر التي تواكب مظاهر الحياة العصرية وتُماشي التطور الاجتماعي

(١) الإعلام واللغة - محمد سيد محمد - عام الكتب - القاهرة - ١٩٨٤ م - ص٣.

والمعرفي عند العرب، أو اللغة العربية الجديدة التي تعود في جذورها إلى العربية القديمة وتستند إليها، وتلبّي حاجات الناطقين بها من المفردات التعبيريّة الطارئة عليها حديثًا. وذهب بعضهم إلى أنها النثر العملي الذي ظهر مع ظهور الصحافة، ويقع «في منطقة وسطى بين لغة النثر الفني، أي لغة الأدب، والنثر العادي، أي لغة التخاطب اليومي»[١].

وكما يبدو أنّ هذه اللغة المتداولة لا ضوابط لها، فلم تستقر بعد على هيئة واضحة وثابتة، بل تتجاوز ذاتها كل يوم، وتتبدّل في وسائل الإعلام تبعًا للظروف والمواضيع التي تعالجها، فتأتي بألفاظ جديدة، واستخدامات لغوية مخترَعة لا قاعدة لها، وتتطور في أدائها بلا حدود أو قيود، وهذا ما يجعلها عرضة لأن تأخذ منحى لا ضوابط له بعد تحطيمها قواعد الفصحى، فهي تعتمد في كثير من وجوه استعمالها على المحكيات من اللهجات المحلية، وعلى المترجَمات من الألفاظ المستوردة، وأساليب التقليد المتّبعة، وعلى التبسيط والاستسهال في البناء اللغوي، بحجة إيصال الرسالة الإعلامية إلى أوسع شريحة ممكنة من الجمهور بلغة يمكنه فهمها والتفاعل معها.

وهي «اللغة التي تمتاز بالبساطة والوضوح، وتنأى ما أمكن عن صفات التّعالي على القرّاء أو التقعّر أو الغرابة»[٢]. ولتمييزها من اللغة التراثيّة أُطلق عليها تسمية فصحى العصر وعامية المثقفين والمتنورين، وهي في أدائها تجمع ما بين صحة الفصحى وسلامتها، ووضوح العامية وبساطتها[٣].

وبنى أهل الإعلام قواعدهم في صياغة النص الإعلامي على «أن أساس نظرية الإعلام وتطبيقاتها في وسائل الاتصال المختلفة يعتمد من الوجهة العملية على ضرورة حدوث تماثل واتفاق على مضامين الكلمات وأساليب التّحرير التي يفسرها كلٌّ من المستقبِل والمرسِل في عملية الاتصال»[٤].

وهذا الأمر يرتبط بالمؤدّى البياني للألفاظ في سياق النّص الإعلامي، الذي ينبغي أن يكون واضحًا ومفهومًا بالنسبة

(١) إنتاج اللغة الإعلامية في النصوص الإعلامية - د. محمود خليل ومحمد منصور وهبة - جامعة القاهرة - مركز التعليم المفتوح ٢٠٠٢م - ص٣٣.

(٢) الصحافة والأدب في مصر - د.عبد اللطيف حمزة - معهد الدراسات العربية - القاهرة - ١٩٥٤ م. - ص١٤.

(٣) أنظر مستويات العربية المعاصرة في مصر - سعيد محمد البدوي - دار المعارف - ١٩٧٣م - ص٨٩ وص ١١٢.

(٤) التذوق الفني والفن الصحفي الحديث (١٩٥٢ - ١٩٢٤) - أحمد المغازي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤م - ص٢١٥.

للمتلقي ليتم التأثير المطلوب فيه، ومن هنا يأتي أثر الإعلام في تطور اللغة وتبدّل دلالات ألفاظها.

وهذه اللغة العربية التي نتحدّث عن استخدامها ليست اللغة المتّبعة في وسائل الإعلام فحسب، بل هي اللغة التي تؤدّي في صيغها الجديدة المتوقعة «مرونة في اللغة العربية وغناها الواسع، فتساير حركية اللسان العام، وتشد إليه الألسنة الخاصة، وتنزل إلى ما يجعلها مرآة لمستخدميها»[1].

وإنّ السّهولة التي تُعنى بها وسائل الإعلام في أدائها اللغوي ينأى عن الابتذال والاستغراق في العامية، بل تعتمد وضوح التعبير وبساطة الأسلوب، من خلال توظيف الكلمة المفهومة بعيدًا من التّكلّف والابتذال في آن معًا، ووفق النظام الذي يقوم عليه بناء الجملة العربية وقواعد النحو والصرف المعتمدة. وقد أثبتت اللغة المتداولة في نشرات الأخبار مثلاً؛ أن الجمهور يفهمها ويدرك مراميها، رغم تجنّبها الألفاظ العامية والتّعابير الشعبية، مع وجود المصطلحات السياسية والاقتصادية، التي تبدو غريبة عن مفهوم السهولة والوضوح إلى حدٍّ ما، لا بل إن الجمهور المتلقّي من مختلف المستويات يحرص بدقّة على متابعتها والاستماع بتأنٍ إلى التحليلات المعتمدة باللغة الفصحى.

مستويات استخدام اللغة:

للغة مستويات ثلاثة في الاستخدام، هي: المستوى الفني والجمالي، وهو ما يعرف بالمستوى الأدبي، الذي يستعمل في الأدب والفن، والمستوى العلمي النظري التجريدي، الذي يستعمل في أداء العلوم وأبحاثها، وهو ما يعرف بالمستوى العلمي، والمستوى العملي الاجتماعي الذي يستعمل في ناحية منه في الإعلام.

وما يهمنا في بحثنا هذا هو المستوى العملي الاجتماعي، لأنه فرض وجوده مع الوقت على أشكال الاستخدامات اللغوية الأخرى، حتى أصبحت لغة الإعلام تشكّل القاسم المشترك بين فروع المعرفة والأعمال.

ولغة الإعلام جاءت من مصادر ثلاثة: المصدر الأول، هو اللغة العربية الفصحى أو فصحى التراث، وهي المرتكز الأساس لها، لأنها منحتها المفردات ونظام التركيب. والمصدر الثاني، هو ما جاء من اللغات الأجنبية التي أثرت في اللغة العربية مباشرة بفعل الاستعمار من جهة، وعبر ثقافة الذين تلقوا دروسهم في بلاد الغرب من جهة أخرى، وكذلك من خلال رواج

(١) الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية - د. نسيم الخوري - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ٢٠٠٥م. - ص٣٥٣.

الترجمة وتزايدها في مجالات المعرفة كلها بصورة غير مباشرة، ومردّ ذلك إلى ثورة الاتصالات، وسهولة التواصل، وتوافر المعلومات.

والمصدرة الثالث، جاء من اللهجات العامية التي أخذت منها وسائل الإعلام مفردات وتراكيب سهلة الفهم والتأثير، أحدثت أحيانًا تغييرًا في نظام الجملة العربية وبنائها.

أما بخصوص العلاقة بين اللغة الفصحى والعامية فهي علاقة وثيقة، تقوم على التكامل والتناسق، ولا تقوم على الصراع، إذ إن أكثر من ثمانين بالمئة من جذور العامية مرده إلى الفصحى دون انفصام أو عداء، ما يدعو إلى التقارب بينهما في ظل انتشار الفصحى الميسرة، والعاميّة الرّاقية[١].

فاللغة المستخدَمة في التواصل هي لغة بمستويات ثلاثة: فصحى عالية المستوى، يستخدمها أهل الأدب، والمشتغلون في التّراث القديم. ولغة فصحى ميسّرة يفهمها معظم الناس، وتستخدم في الإعلام، وفي المؤسسات التعليمية والثقافية، ولدى العاملين في الدولة، وربما وُضعت بها الكتب. ولهجة عامية راقية، يستخدمها المثقفون في أحاديثهم اليومية، ترتد في معظمها إلى الفصحى. ولهجة عامية مغرقة في عاميتها، يستخدمها الأميون من الناس، الذين لا يقدرون على مقاربة العلوم العصرية بأشكالها المختلفة، ولا يملكون القدرة على الإسهام في حركة الثقافة، كونهم بعيدين من عالم المعرفة وصناعتها، وبهذا لا يؤثرون في الفصحى بشيء.

والملاحظ أن «اللغة التي نألفها الآن في الصحف والكتب والأحاديث الإذاعية، ونسميها العربية الفصحى، تختلف اختلافًا واضحًا عن تلك التي كانت سائدة في العصر العباسي مثلاً... إنها تشترك معها في أمور كثيرة، وتختلف عنها في أمور كثيرة.. بعد الشوط الذي قطعته اللغة العربية الحديثة في تطورها، وبعد أن تغيرت البيئة والظروف الاجتماعية والاقتصادية»[٢].

اللغة الإعلاميّة المكتوبة:

أول ما ظهرت اللغة الإعلامية المكتوبة كانت في الصحافة التي شكّلت بداية وجودها، كون الصحافة كانت الوسيلة الإعلاميّة الوحيدة، فأُطلق على لغتها اسم «لغة الإعلام»، وكانت هذه اللغة تتّسم في بدايتها بالرّكاكة والضّعف، ثم تدرّجت من

(١) عودة إلى الصحة اللغوية - عبد الله التطاوي - جامعة القاهرة - ٢٠٠٢م - ص٨.

(٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة - إبراهيم أنيس - معهد الدراسات العربية القاهرة - ١٩٧٦م - ص٤٨.

العصر الذي ظهرت فيه، إلى القوّة والفصاحة عندما شارك في الكتابة الصحفية مجموعة من أهل الفكر والأدب أمثال العقاد والمازني والرافعي، وطه حسين الذي كتب للصحافة بأسلوب «يقوم على الوظيفة الهادفة والوضوح والإشراق من غير إغراق. وهو الأسلوب الذي يقوم على التناغم والتوافق بين الكاتب وقرائه في الاتصال اللغوي»(١).

وفي المقابل نجد أنّ الكاتب محمد حسين هيكل صاحب رواية زينب يرى أن الأسلوب الصحفي «يستمد بلاغته الحقيقية من واقع العامة... ويؤكّد سلامة اللغة وإتقانها، والبعد عن الغريب، وتلافي الأسلوب القديم، والميل إلى السلاسة»(٢).

وقد حرص الكتاب والأدباء الذين شاركوا في الكتابة الصحفية آنذاك على أن تكون لغتهم سهلة واضحة وبسيطة، وتُجاري الفصحى في اللفظ والتّركيب، لذلك ابتعدوا عن الغرابة في اللفظ والتقعّر في الأداء، كي لا يشعر القارئ أن الكاتب يبرز مواهبه على حسابه ويتعالى عليه، وأنه يورد في كتاباته ماهو أعلى من مستوى فهمه، وأنّ ما يكتبه خاص بأهل الكلمة والأدب، وبهذا تفقد الصحافة جماهيريتها، لأن اللغة تصبح سدًا يحول بين المتلقي والرسالة الإعلامية.

ولم تقتصر الكتابة الصحفية على الأدباء فقط، أو الذين امتلكوا إمكانيات اللغة العربية الفصحى، بل شارك فيها أشخاص تختلف خبراتهم اللغوية، فتباينت مقدراتهم اللغوية تباينًا شاسعًا، لذلك برز نمط جديد من الكتابة عرف بالكتابة الصحفية، تجاوز الكتّاب فيه قواعد اللغة الفصحى في الاستخدام اللغوي، وخاصة في المواد المترجمة، وفي مقدمتها الأخبار، فإن دقّة الترجمة للصحافة تقتضي السّرعة والمقاربة الواضحة، وهذا ما أدخل ألفاظًا أجنبيّة كثيرة إلى لغة الصحافة، أو ألفاظًا لم يُحسن المترجمون ترجمتها وصياغتها وفق القواعد الصحيحة للصرف العربي، وتسربت الأساليب الأعجمية في الكتابة إلى الكتابة العربية، فضلاً عما تأثر به الصحافيون وأخذوه من لهجات بلادهم، في محاولات لمراعاة الحال، أو تسهيلاً منهم لإفهام العامة.

وقد حاولت مجامع اللغة العربية مجاراة الواقع ومواكبة ما هو جديد في لغة الصحافة، فكانت تصدر تباعًا تصحيحات لما تمّ تعريبه من ألفاظ وأساليب، فكتب عبد

(١) في التفسير الإعلامي للأدب - د. عبد العزيز شرف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٢م - ص٤٥.
(٢) المصدر نفسه - ص١٠٨.

القادر المغربي سنة ١٩٣٤م عن تعريب الأساليب، وكتب محمد النّجار سلسلة من المقالات تحت عنوان لغويات، عرض فيها للأساليب الشائعة في الصحافة، وكان إبراهيم اليازجي قد وضع كتابًا عام ١٩٠٤م بعنوان لغة الجرائد[١].

وقد قصّرت مجامع اللغة العربية في مواكبتها احتياجات الصحافة اللغوية، نظرًا إلى غزارة المواد المترجمة، والتأثير البالغ لأساليب الكتابة الغربية في الصحافة العربية بسبب انفتاح الشرائح المثقفة على الواقع الغربي. وفي الوقت نفسه لم يعر كثير من الصحفيين اهتمامهم للجهود المبذولة من هذه المجامع لمواكبة مستندات اللغة الصحفيّة، فدخلت إلى لغة الصحافة «آلاف الألفاظ والتراكيب التي لا نعرف لها واضعًا ولا صانعًا، وأصبحت من صميم اللغة وثروتها الواسعة... هي مِن عملِ رجال الصحافة وابتكارهم، إما بالترجمة، وإما باستعمال المجاز والاستعارة توسعًا في دلالات الكلمات...»[٢].

وهذا التداخل والتباين بين ما يُستخدم في لغة الصحافة وما هي عليه الفصحى الأصيلة؛ أحدث تباينًا بين فصحى الصحافة وفصحى التراث، وتباينت جراءه لغة الأدب والتأليف، ولغة الكتابة الصحفية، فعانى أهل الصحافة بداية من الفجوة التي «كانت تفصلهم عن الأدب. وخلقت مسافات بين الصحيفة والكتاب، بدت مشروعة ومقبولة حتى من أشد الغيارى على اللغة العربية الفصحى. وتم التسليم بالبساطة والسهولة اللتين أوجدتهما الصحافة المكتوبة في لغتها تبعًا لمقتضيات الاتصال أو إزالة المسافات بين الكتابة والقراءة»[٣].

واستطاعت الصحافة في مسيرتها الطويلة منذ نشأتها أن تفرض أسلوبها اللغوي الخاص القائم على الوضوح والدقة والسهولة، رغم تبدّل لغتها ومجاراتها أحوال المجتمع، وتطورها من حقبة إلى أخرى وفق ما تقتضيه الظروف، وبهذا التنوّع في الأسلوب استطاعت الصحافة أن تجمع حولها فئات مختلفة من القراء، يتفاوتون في ثقافتهم ومهارتهم اللغوية، فكان أثرها واضحًا وفضلها كبيرًا في تعميم الفصحى الميسّرة، كما أنّها أثارت حركة نقدية لغوية كان هدفها تصحيح الأخطاء في لغتها، وتحسين الأداء في أساليبها.

ولكنّ هذا التأثير الإيجابي أخذ يتراجع بفعل اتساع نشاط الصحافة، واختلاف

(١) لغة الصحافة المعاصرة - محمد حسن عبد العزيز - دار المعارف - القاهرة - لا ت - ص٤.
(٢) إنتاج اللغة الإعلامية - ص٣٧.
(٣) الإعلام العربي - انهيار السلطات اللغوية - ص٣٣٣.

توجهاتها، وغوصها في تقديم الأسهل والأوضح على حساب سلامة القول وصحّته، فأهملت التّصحيح اللغوي، الذي أدى إلى شيوع الأخطاء وترسيخها في الأذهان، وخاصة في حركة النّقل والتّرجمة عن الأساليب الأعجمية المعرّبة، أو الأساليب العامية المفصّحة، فكثرت فيها الألفاظ الأعجمية والاشتقاقات اللغوية الغريبة عن اللغة وقواعدها.

وكانت «لغة الصحافة يومية سائغة، يسهل الانتقال بينها وبين لغة التخاطب اليومي، وبينها وبين اللغة الأدبية، دون أن تتحول إلى هذه وتلك. كأن اللغة الإعلامية هي اللغة الثالثة التي يبحث عنها أو ينادي بها بعض المعنيين بالشأن اللغوي»(١).

وعلى إثر ذلك عُدت الصحافة أفضل مدرسة لإكسابنا الفصحى، أو تعميق هذا الاكتساب وترسيخه... على ألاّ ترتفع باللّغة الإعلامية نحو ما هو فوقها بما يوقعها في التّزمت. ولا تنحدر بها نحو ما هو دونها بما يورثها الضعف والركاكة»(٢).

لغة الإعلام المسموع:

بعد عقود على ظهور الصحافة؛ تطوّر قطاع الإعلام في العالم وأحدث قفزة نوعيّة بظهور الإذاعة في مجموعة من الدول الأوروبية، وبدأت تأخذ مكانها الإعلامي لإسماع الجمهور، وذلك في العقد الثاني من القرن العشرين، ثم ما لبثت أن عمت مختلف دول العالم ومنها العالم العربي، فشهدت مصر أول بث إذاعي لها سنة ١٩٢٠م، وكانت الإذاعة بالنّسبة للعرب هي باب «العودة إلى الحضارة السمعية التي عرفها قبل التدوين»(٣)، في أسواقهم الأدبية، فاستقطبت جماهير غفيرة من المستمعين، لا فرق بين متعلم وأمّي. وظل إرسالها يتسع حتى شملت كل الشعوب والأقطار النّاطقة بالضاد، فكان صداها بين الناس مرغوبًا، وأثرها في نفوسهم كبيرًا، وتأثيرها في اللغة عميقًا، حيث تجاوز أثر الصحافة بأشواط، لأن التواصل معها يقوم على السّماع ولا يستدعي معرفة القراءة والكتابة والخبرة اللغوية التي تفرضها الصحافة، فاتسع جمهورها وعمّ كل أفراد المجتمع إذ لا فرق معها بين متعلّم وأمّي.

سارت الإذاعة في أدائها اللغوي على خطى الصحافة، فقدّمت ثلاثة مستويات مختلفة من الأداء اللغوي، توزّعت بين الفصحى التي اعتمدتها في البرامج الثقافية، والعامية التي حكمت البرامج التّرفيهية،

---

(١) الإعلام العربي - انهيار السلطات اللغوية - ص١١٧.
(٢) المصدر السابق - ص٢٦٩.
(٣) الأجناس الإعلامية وتطور الحضارات الإتصالية - د. عبد العزيز شرف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط٢٠٠٣م - ص٢٣٥.

مرورًا باللغة الوسطى أو لغة الصحافة التي تؤدَّى بها الأخبار والتّحليلات والتعليقات والمقابلات والحوارات، رغم أنّها كانت في بدايتها ملتزمة «الفصحى فضلاً عما جدّ من تغيرات واصطلاحات استلزمتها المرحلة الجديدة»[١].

ومع تصدر الإذاعة واجهة الإعلام في حينها، تمكّنت من نشر لغة الصحافة والوصول بها إلى أوسع شريحة من العامة. وقد تمايزت اللغة المنطوقة في الإذاعة عن اللغة المكتوبة في الصحافة، حين يبدأ الحديث في الإذاعة ولا يكون قراءة من مادة مكتوبة سلفًا، لأنّ «اللغة المكتوبة متماسكة، والمنطوقة مقطعة الأوصال... هناك ترتيب منطقي... وهنا ترتيب انفعالي»[٢] إلا عند بعض أصحاب المواهب الخطابية المميزة.

وقد وجد أهل اللغة في الإذاعة وسيلة ميسّرة ومتقدّمة لنشر اللغة العربية الفصحى وتعميمها، فاستبشروا بها خيرًا لمجرّد بدء البث الإذاعي، وازدادوا بشرى عندما توسع هذا البث عابرًا الحدود إلى جميع الأقطار الناطقة بالعربية لتخاطب الناس على اختلاف مستوياتهم من متعلمين وأميين معًا، مستندة إلى إرث صحفي غني، وتجربة إعلامية جاهزة وجدتْها في خدمتها، فمكنتها من الاستفادة منها والاعتماد عليها في إغناء برامجها.

وبهذا الأسلوب المبسّط والسهل استطاعت الإذاعة أن تجمع حولها تشكيلات متجانسة من المستمعين باستخدامها خطابًا لغويًا موحّدًا يفهمه الناس جميعًا. فكان تأثيرها اللغوي واضحًا وجليًا. إلا أنها لم تستمر على المنوال نفسه، فعمدت بعض الإذاعات في الدول العربية إلى تقديم موادها الإذاعية باللهجة العامية المحلية التي يعجز عن فهمها الجمهور العربي في البلاد الأخرى، وزاد الأمر خطورة وتعقيدًا عندما ظهرت المحطات الإذاعية الخاصة التي اعتمدت اللهجات العامية المحلّية لغة لها ووسيلة تواصل أساسية مع جمهور محدد، ولبيئة واحدة من المستمعين، وذلك لأهداف ظاهرة وأخرى مقنّعة. فالظاهر منها هو دعائي غايته كسب مزيد من المستمعين ومخاطبتهم باللهجة التي يستخدمونها في حياتهم اليومية، والمقنّع منها هو ما ينطلق من المواقف السياسية لينتهي بالمشاركة في الدعوات التي يوجهها المستشرقون إلى أنصارهم من العرب لإحلال اللهجات المحلية مكان اللغة العربية الفصحى في كل شؤون الحياة. وبذلك، أحبطت هذه الإذاعات

(١) في التطور اللغوي - عبد الصبور شاهين - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ - ١٩٨٥م. - ص١٢.
(٢) محاضرات في علم الاجتماع اللغوي - محمد حسن عبد العزيز - ص١٠٩.

الأثر الحسن لها في نشر اللغة العربية الفصحى، ومزّقت الوحدة اللغوية للأقطار العربية المفهومة لدى الجميع على اختلاف أقطارهم ولهجاتهم، والتي بدت متحققة بداية مع الإذاعة في انطلاقتها، وبفضل سلوك المحطات الإذاعية العربية الرسمية هذا النهج في استخدام الفصحى في معظم موادها الإذاعية.

لغة الإعلام المرئي:

شهد الإعلام ثورة فعلية مع ظهور القنوات الإعلاميّة المرئيّة، لكن لغته لم تختلف عن لغة الإعلام المسموع، بل جاءت مكمّلة لها وسارت على منوالها، ولم يكن الفارق بينهما سوى وجود الصورة إلى جانب السمع، فجاءت مهمّة التلفاز مكمّلة لمهمة الإذاعة الإعلامية، وسار في مسارها اللغوي، لكنه سرعان ما طغى على وسائل الإعلام التي سبقته، ودخل حياة النّاس من بوّابتها الواسعة، وصار جزءًا أساسيًا من حياتهم، يؤثر في سلوكيّاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ونمط عيشهم، وثقافتهم العامة، ولغتهم. وزاد تأثيره عندما تحول البث إلى بثٍّ فضائي تجاوز كل الحدود، فصار باستطاعة القنوات الفضائية الوصول إلى المشاهد العربي في حلّه وترحاله، حاملة له رسائل مختلفة، فيها الغث والسّمين، وبمستويات متفاوتة من الخطاب اللغوي.

وعلى الرغم من مشاركة التلفاز الإذاعة في اللغة المنطوقة، إلا أنّ الصورة حدّت من استخدام اللغة، وحوّلت الانتباه عنها إلى وسيلة أخرى، فتراجع دور اللغة لحساب الصورة، ولم تعد تؤدّي اللغةُ دورها كوسيلة الاتصال الوحيدة كما كانت عليه من قبل، فحلّت اللغة في البرامج التلفزيونيّة في المركز الثاني بعد الصّورة، واقتصر استعمالها على التّقديم والتّعليق، ومادة للبرامج الحوارية.

وتصدّر التلفاز مصادر الثقافة لشرائح واسعة من الناس، وقد أثرت لغته التي هبطت إلى مستوى ضعيف في تدنّي المستوى اللغوي، حتى وصلت إلى العامية الخالصة في بعض القنوات الخاصة والمتخصصة في نشاطها، كما وصلت في كثير من المواد الإعلامية إلى المحطات التلفزيونية الرسمية أيضًا.

وقد تفاوت المستوى اللغوي بين القنوات الناطقة باللغة العربية لجهة المستوى اللغوي الذي تقدم به برامجها الإعلامية، ويمكننا تقسيم هذه المحطات من حيث اللغة إلى التالي:

أ – استخدام الفصحى الصحيحة دون مزجها بالعامية أو بلغة أجنبية.

ب – استخدام العامية في مادة الأخبار ممزوجة بشيء يسير من الفصحى.

ت – مزج الفصحى والعامية.

والمترقّب للغة العربية في هذه المحطات يلاحظ غالبًا أن الفصحى تُحكم بالتسكين، وذلك تجاوزًا لقواعد اللغة، وهروبًا من الوقوع في اللحن، وتخفيفًا من ضوابط الإلقاء، وبذلك يكون التلفاز قد أوجد واقعًا لغويًا جديدًا، فرضه المستوى اللغوي المتدني عند الإعلاميين، وحاجة الجمهور المتنوّع في المستوى، ومصالح القنوات في إيصال رسالتها الإعلاميّة، وهذا ما أدى إلى تراجع الفصحى لصالح العامية المطعّمة بألفاظ أجنبية.

اللغة بين الأصالة والإعلام :

حقّق الاتصال الإعلامي في البلدان العربية غايته القصوى في إيصال الكلمة الإعلامية إلى الشرائح المتنوّعة في المجتمع، حين أصبحت الوسائل الإعلامية متاحة وفي متناول الجميع، فانتشار المطبوعات من صحف ومجلات وإعلانات، وانتشار المذياع، ومن ثمّ التلفاز وسماعهما، أدخلا الكلمة الإعلامية إلى كل منزل، وأوصلاها إلى كل مواطن، وهذا ما كان له التأثير البالغ في ألسنة العرب وتفكيرهم ومشاعرهم وسلوكهم. فاللغة بما تتضمّن؛ تشكل المادة التي تروّض عقول الجماهير وتشكّل رأيهم العام، وتصوغ رؤيتهم للحياة التي يفسرون بها واقعهم، ويستوعبون مندرجاته ويتلاءمون معه. لذلك فإن وسائل الإعلام تسعى إلى استخدام المستوى اللغوي المناسب لها، والمتناغم مع توجّهاتها، ليؤدّي رسالتها الإعلامية، ويحقق مصداقيتها لدى جمهورها.

وقد تمكّنت وسائل الإعلام – عن غير قصد – أن تُخرج أزمة اللغة العربية من دوائر الاهتمام الضّيقة إلى العلن، وبدل أن تسهم في حلّها فقد زادت في تعقيدها كما كان متوقعًا من قبل. واللغة العربية تعاني من انفصام في محوريتها على ألسن الناطقين بها، يتمثّل هذا الانفصام في تلك الازدواجية القائمة ما بين لغة العلم والثقافة من جهة، ولغة التخاطب اليومي من جهة أخرى، ولم يعرف العرب كيف يتجاوزون هذه الازدواجيّة رغم الجهود المبذولة في هذا الاتجاه. فكيف يتجاوزون هذه الأزمة وهم عاجزون عن إنتاج المعرفة، ويقومون باستيرادها مع ألفاظها من أمم أخرى. وهذه المعاناة وهذا العجز في توظيف اللغة العربية توظيفًا سليمًا؛ وضعا اللغة في مأزق كبير، أسهم في إحداثه انقسام العرب فيما بينهم، وذلك بإصغاء بعضهم إلى دعوات التحوّل من العربية إلى لغة أخرى، أو إلى اعتماد اللهجات المحلية بديلاً منها.

وهنا، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: هل أنّ وسائل الإعلام تخدم اللغة العربية أم أنّها تؤدّي إلى فسادها؟

تطالعنا وسائل الإعلام يوميًا بجديدها

على المستوى اللغوي، وإذا اعتبرنا أنّ هذا الجديد هو من اللغة، فيمكننا القول بأنّ وسائل الإعلام صارت أحد أسباب تطور اللغة ونموّها، من خلال ما تنقله من الواقع الاجتماعي والحضاري واللغوي لدى العرب، ومن خلال ما تُبرزه من تطورهم بين مرحلة وأخرى، وإنّ التطور الاجتماعي لدى أي شعب يؤدي حتمًا إلى تطور لغته، لأن اللغة تُعدُّ من الظواهر الاجتماعية القابلة للطور والنّمو، وهي ليست وسيلة تواصل فقط، بل هي عامل تأثير وتأثّر في حياة الفرد والجماعة، وهي في الوقت نفسه أداة التفكير عند الإنسان، فهو لا يدرك أفكاره ومشاعره إلا مجسدة بكلمات، ولذلك فإن اللغة هي التي توجه تفكير الإنسان، وتعطيه ملامحه الحضارية.

وعطفًا على الاحتكاك المتمادي مع الغرب على المستويات كافّة، فإنّه بالإمكان اعتبار الإعلام قد قاد موجَة التّعريب الحاصلة، بعد الموجة التي هبّت على معاقل اللغة في العصر العباسي، فنلاحظ كثرة التعريب في المصطلحات، واتساع حركة الكتّاب في تناول المشتقات متجاوزين معانيها، وازدياد عمليّة النحت من كلمتين، وإدراج الألفاظ الأعجمية على صورتها الحقيقيّة، أو إجراء بعض التغيير أو التعديل في حروفها وهيئة بنائها، وكذلك في تطبيق قواعد النسبة ويائها[1].

واستطاعت الصحافة أن تتخطّى العناية بالألفاظ إلى الاهتمام بالأساليب، فطبّقت عمليّة التعريب «بتركيب جملة من كلمات عربية وفق نظام الجملة العربية، لتؤدي معنى جديدًا، مثل: طلب يدها»[2].

وقد استغرق الإعلاميون في استخدام الألفاظ العاميّة وعباراتها، ولم يترددوا في ذلك، ولم ينبّهوا إليها، وخاصة في برامج الإعلام المسموع، فقلّما نجد حوارًا خاليًا من هذه الظاهرة، حتى مع المثقفين في البرامج الثقافية التي تستضيفهم، وتجاوز الأمر في بعض وسائل الإعلام ليصل إلى استخدام العامية المحلية التّامة. وقد خصّصت هذه الوسائل محطات تهتم بالأدب الشعبي الملحون.

إنّ ضعف اهتمام وسائل الإعلام بتصحيح مادتها الإعلامية، وإن عمدت في بعض الأحيان إلى استخدام بعض المصححين لهذه المهمة، إلا أنها أسهمت في شيوع الخطأ اللغوي وترسيخه في الأذهان، مدفوعة إلى ذلك بمقولة خرقاء تقول بأن خطأً شائعًا أفضل من صحيح مهجور. وبذلك تحوّلت وسائل الإعلام إلى منصّة تبثُّ الأخطاء اللغوية، بدل أن تكون

(١) لغة الصحافة المعاصرة - م.س - ص٤٣.

(٢) لغة الصحافة المعاصرة - ص٩١.

عاملاً من عوامل تصحيحها، وتنقية اللغة منها.

ولم يقتصر انتشار أخطاء اللغة على وسائل الإعلام فقط، بل هناك عوامل أخرى أسهمت في انتشار هذه الأخطاء، منها:

١. عمل الجهات الاستعمارية على التفرقة بين الأقطار العربية من خلال استهداف اللغة والحث على استعمال اللغات العامية المحلّية، بهدف تجريد العرب من العامل الأساس في توحيدهم.

٢. مواكبة الدعايات الاستعمارية بدعوات لاستعمال العامية، بحجة أنها تسهّل على العامة، وتنهي الازدواج اللغوي. وكذلك ظهور دعوات إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية بهدف التخلص من الحركات الإعرابية، وتسهيل القراءة والكتابة كما جرى مع اللغة التركية.

٣. قيام الدارسين في البلاد الغربية من أبناء العرب بالترويج – افتراءً – أن اللغة العربية قاصرة عن مواكبة التطورات الحضارية الحاصلة على مستوى العالم، ويقومون بدورهم باستخدام الألفاظ الأجنبية في مزيج مع العربية.

٤. اختلاف اللهجات العامية بين الأقطار العربية وتشعّبها.

٥. الدّعوة إلى التخلّي عن الإعراب، واستبدال الحركات بالتسكين.

٦. التفاعل بين اللغات بفعل الاختلاط السكاني، ووجود مجموعات أجنبية في البلاد العربية تستخدم لغاتها المغايرة للعربية.

٧. استعمال اللغات الأجنبية في تدريس المواد العلمية في الجامعات العربية، تحت ذريعة تقول بأن المواد يجب أن تدرّس باللغة التي وضعت فيها.

٨. تراجع دور المؤسسات التعليمية في تطوير أساليب تعليم اللغة العربية والتركيز على استخدامها والمحافظة عليها، وإظهار العيوب في شخصيات معلمي اللغة العربية من خلال الدعايات والمسلسلات التلفزيونية.

٩. تأثر اللغة العربية باللهجات المحلّية في الدول العربية.

١٠. تراجع دور العرب في الشأن السياسي والثقافي، وانعدامه في إنتاج المعرفة[١].

أمام هذا الواقع المتردي المحيط باللغة العربية، يبرز دور وسائل الإعلام المفترض أن تؤدّيه في الحفاظ على اللغة العربية الفصحى، وصونها من المؤثرات السلبية، والعمل على تقويم ألسنة متكلّميها، وإزالة

(١) العربية في الإعلام – محي الدين عبد الحليم وحسن الفقي – دار الشعب – القاهرة – ٢٠٠٢ م. – ص٣١.

الأخطاء الشائعة فيها، لأن وسائل الإعلام باستطاعتها أن تروّض الألسن، وتقودها إلى استخدام اللغة استخدامًا سليمًا من خلال ما تطرحه من برامج سمعية تعتاد الأذن عليها. وقد كانت انطلاقة وسائل الإعلام في هذا المجال غاية في الالتزام، بفضل الحرص الذي بذله القيمون عليها لجهة استخدام الفصحى في برامجها كلها. لكن هذا الحرص أخذ يتراجع ويضعف بسبب ظهور وسائل الإعلام الخاصة، وانتشارها بكثرة.

وقد حدّد الدارسون أن الأسلوب الصحفي يقوم على السلامة النحوية، والصحة الصرفية، وبساطة الأسلوب، واعتماد الإيجاز، والتّخلي عن الكلمات الزائدة، والجمل المسهبة في الشرح، واستخدام الألفاظ السهلة[1]. والدّقة والتّحديد اللذين يتحققان في التعبير المباشر الذي لا يحتمل التأويل، واستخدام أفعال مبنية للمعلوم، وترك الفضول كالجمل الإعتراضية والمصطلحات الغامضة[2].

وفي الوقت نفسه تلتزم اللغة في الإذاعة الخصائص ذاتها، مرفقة بالإلقاء الجيد، والتزام فن الأداء، وتتابع اللغة مع التلفاز هذه الطريقة مع الالتفات إلى تحويل الانتباه عن الصورة كي لا تنحصر مهمة المقدِّم في الوصف فقط[3].

كما أن للغة المقروءة علامات تتعدّى إلى سمات فنيّة في الأسلوب، إلى جانب السمات الصرفية والنحوية، فهي «تزيد نسبة استخدام الجملة الإسمية على الجملة الفعلية.. وتشيع ظاهرة التسكين في وصل الكلام، وُتقرأ الأرقام كما تُنطق في اللهجة العامية»[4].

واستمرّت وسائل الإعلام على ما هي عليه من ترداد الأخطاء الشائعة، حتى حسب المتابع من غير المتخصصين أن هذه الألفاظ هي من أصل اللغة ويُحتجُّ بها. وسارع الغيارى من أهل اللغة إلى معالجة هذه الظاهرة من الأخطاء بطرق مختلفة، فعمدوا إلى وضع الكتب التي تجمعها وتصححها وفق قواعد الصرف والنحو، أو تخصيص الزوايا الثابتة في الصحف لمعالجة هذه الأخطاء، أو تقديم البرامج المختصة في الوسائل المرئية والمسموعة.

ولكن أهل الإعلام لم يعطوا العناية الكافية لهذه الجهود، حتى استشرت الأخطاء اللغوية في البرامج الإعلامية، وصارت من سمات لغتها، مع أنّ إمكانيّة تصويبها بسيطة وسهلة، ولا تحتاج إلى ذلك الجهد الكبير، والنباهة العالية،

(١) إنتاج اللغة الإعلامية - م. س - ص٤٠.
(٢) إنتاج اللغة الإعلامية - ص١٦٨.
(٣) المصدر نفسه - ص٨٢.
(٤) محاضرات في علم اللغة الاجتماعي، ص٨٨.

فبالإمكان تخطيها من خلال تمكين المدقق اللغوي في الوسيلة الإعلامية بتصويبها أو استبدالها؛ مهما بلغت المكانة التي يشغلها الصحفي الكاتب، ثم وضع الشروح اللازمة لأسباب هذا التصحيح أو الاستبدال في متناول العاملين في المؤسسة الإعلامية، كما أنه باستطاعة كليات الإعلام في الوطن العربي أن تعطي حيزًا أوسع في مناهجها لتدريس اللغة العربية المتخصصة وفنونها الصحيحة، وأن تجعلها من المقررات الأساسية في نجاح طلابها.

وبعد متابعة وتدقيق، ورصْدنا لبعض الوسائل الإعلامية؛ وقفنا على مجموعة كبيرة من الأخطاء اللغوية الشّائعة على وسائل الإعلام، توزعت بين أخطاء صرفيّة وأخرى نحويّة، ونظرًا لكثرتها نقتصر على إيراد الأهم منها، فجاءت على الشكل التالي:

١. تثنية الاسم المقصور: تقول القاعدة الصّرفيّة إن الألف إذا كانت ثالثة تُرَد إلى أصلها عند التثنية، فيقال في تثنية فتى فتيان، وفي عصا عصوان. وإذا كانت رابعة فما فوق تُبدّل ياءً.

الكلمة	ورودها في لغة الإعلام	الأمثلة	الصواب
عصا	عصاتان	يتوكأ على عصاتين	عصوين
عظمى	عظمتان أو عظميتان	الدولتان العظمتان أو العظميتان	العظميان
كبرى	كبرتان	الدّولتان الكبرتان	الكبريان
دعوى	دعوتان	أقام عليه دعوتين	دعويين

٢. استعمال «كلا» و«كلتا»:

الكلمة مفردة	الجملة التي جاءت بها	الصواب
امرأة	قامت كلا المرأتين	كلتا المرأتين
دولة	كلا الدولتين تتنافسان في شراء السلاح	كلتا الدولتين
لغة	أجاد كلا اللغتين	كلتا اللغتين
منطقة	في كلا المنطقتين	كلتا المنطقتين

نوع الكلمة	الجملة التي وردت فيها	الصواب
مضافة للضمير	لأنّ كلاهما لا يتفق مع مصلحة الجماهير	لأن كليهما
مضافة للاسم الظاهر	هو فاتح كلتي عينيه	كلتا عينيه
	في كلتي الحالتين	كلتا الحالتين

٣. أخطاء في إعراب «كلا» و«كلتا»

٤. أخطاء الجمع:

١. أخطاء في ضبط عين «فَعْلة» المجموعة جمع مؤنث سالمًا: تقول القاعدة الصرفية: إذا كانت «فَعْلة» صحيحة العين، فعند جمعها جمع مؤنث سالمًا يجب تحريك عينها بالفتح إتباعًا لفائها.

أما إذا كانت «فَعْلة» معتلّة العين، فإنه يمتنع تحريكها بالفتح وتظل ساكنة. وتكثر مخالفة هاتين القاعدتين في أجهزة الإعلام المسموعة، كما يتبين من الجدولين التّاليين:

أ – «**فَعْلة**» صحيحة العين:

الكلمة مفردة	العبارات التي وردت مجموعة فيها	الصواب
جَلْسة	جَلْسات المؤتّمر	جَلَسات
حَلْقة	تُعد إحدى الحلْقات المهمّة	الحَلَقات
حَمْلة	لوقف الحمْلات الإعلامية	الحَمَلات
رَكْلة	رَكْلات الجزاء	رَكَلات
صَفْقة	عدم عقد صَفْقات للإفراج عن الرهائن	صَفَقات
طَلْقة	عدّة طلْقات تحذيرية	طَلَقات

ب – «**فَعْلة**» معتلّة العين:

الكلمة مفردة	العبارات التي وردت مجموعة فيها	الصواب
جَوْلة	في جولة جديدة من جَوَلات الكاميرا	جَوْلات
دَوْرة	في إحدى الدّوَرَات التدريبية	دَوْرات
نَوْبة	تَعرَّض لعدّة نَوَبات قلبيّة	نَوْبات

ج – أخطاء في ضبط فاء «فِعْلة» المجموعة جمع مؤنث سالمًا:

الكلمة مفردة	العبارات التي وردت مجموعة فيها	الصواب
خِدْمة	مقابل خَدَماته الاجتماعية	خِدْماتِه
رِحْلة	ألغتْ جميع رَحَلاتِها إلى المنطقة	رِحْلاتِها
فِلْذة	فَلَذات أكبادِنا	فِلْذاتُ

٢. عدم التفريق بين جمع التكسير وجمع المؤنث السالم: فالمعروف أنّ جمع التّكسير يُنصب وعلامة نصبه الفتحة، بينما جمع المؤنث السالم ينصب وعلامة نصبه الكسرة. ولكن يلاحظ حصول خلط بين النوعين، وبخاصة في معاملة جمع المؤنث معاملة جمع التكسير، ونصبه بعلامة الفتحة كما تُبين الأمثلة التالية:

جمع المؤنث	الجملة التي ورد فيها	الصَّواب
بنات	ليت بناتَنا	بناتِنا
سلطات	تولى الرئيس سلطاتَه بتاريخ	سلطاتِه
سمات	إذا عرفوا سماتَ هذا العمل	سماتِ
شبهات	استطاعوا أن يغرسوا الشبهاتَ والشكوك	الشّبهاتِ
قوّات	أمريكا لن تُرسلَ قوّاتَها إلى المنطقة	قوّاتِها

٣. ويقع الخلط كذلك بصورة عكسية، أي في طريق معاملة جمع التكسير معاملة جمع المؤنث السالم، فيتم نصبه بالكسرة، كما تبين ت الأمثلة التالية:

الجمع	العبارة التي ورد فيها	الصّواب
قضاة	إنّ قضاتِنا	قضاتَنا
أصوات	أصدر أصواتٍ	أصواتًا
أوقات	فَهُم يَدَعُون الأوقاتِ تمرّ	الأوقاتَ

٤. الاشتباه بين المفرد وجمع المؤنث السّالم: كثرة الشّبهة في بعض المفردات التى تنتهى بتاء مربوطة أو مفتوحة على تَوهّم أنها من جمع المؤنث السالم، فبدل أن تُنصب بالفتحة نُصبت وعلامة نصبها الكسرة. وقد ورد هذا الخلط في ثلاث كلمات هي:

الجمع	العبارة التي ورد فيها	الصّواب
رفات	وجدوا رفاتِ الجنود	رفاتَ
مباراة	خَسر مباراتِه	مباراتَه
معاناة	تحمل معاناةِ حرب استمرت ثماني سنوات	معاناةَ
حرارة	تفقد حرارتِها	حرارتَها

٥. أخطاء الإسناد: هناك حالات عدّة كثر فيها الزّلل عند إسناد الأفعال إلى الضمائر، نذكر منها:

١. الفعل الثلاثى المجرد المقصور في إسناده إلى ألف الاثنين: تقول القاعدة في هذا النوع من الأفعال أن تُرَد الألف في الفعل الواوي إلى الواو، نحو: غَزا من الغزو: غَزَوَا. وفي الفعل اليائي إلى الياء، مثل: رَمَى من الرّمي: رَمَيَا. وظهرت لغة الإعلام أمثلة كثيرة خرجت على هذه القاعدة، حيث ردّت فيها الأف الواوية إلى الياء، كما يبدو من الأملة التّالية:

الفعل	الجملة التي ورد فيها	الصّواب
دعا	دَعَيَا الرئيس إلى الاستقالة	دَعَوَا
هجا	هَجَيَا صاحبهما	هَجَوَا
جثا	جَثَيَا على ركبتيهما	جَثَوَا
رجا	رَجَيَا الله أن يرحمْهما	رَجَوَا
تلا	تَلَيَا الرّسالة	تَلَوَا
صحا	صَحَيَا باكِرًا	صَحَوَا
بدا	بَدَيَا في صورة مريبة	بدَوَا

وبذلك ساوت لغة الإعلام بين هذا النوع، وما كانت ألفه يائية مثل: قضى: قَضَيا. وسقى: سَقَيا.

٢. الفعل الناقص الواوي عند إسناده إلى نون النسوة: تقول القاعدة الصرفية التي تلحظ هكذا أفعال، مثل: يسمو، يدعو، يرجو، هي أن تظل الواو كما هي، وتزاد النون على الفعل دون تغيير فيقال: النساء يسمُون ويدعُون ويرجُون...

ولكن في لغة الإعلام تم إبدال الواو ياء بتأثير الشّبهة أن الصيغ السابقة متعلّقة بالمسند إلى واو الجماعة. ولذا فالفعل «يشكو» يأتى في لغة الإعلام على النحو التالى:

طالبات الفرقة الثانية يَشْكِيْنَ من طول المنهج. والصّواب «يشْكُونَ» وهي صورة تشابه المسند إلى واو الجماعة، في مثل: الطلاب يشكون. ففي (الطالبات يشكون) الواو هي لام الفعل، والنون نون النسوة، بينما في (الطلاب يشكون) الواو واو الجماعة والنون نون الرفع[١].

٣. إسناد الفعل المقصور إلى واو الجماعة أو ياء المخاطبة: تقول القاعدة في ذلك أن تُحذف الألف وتبقى الفتحة قبل واو الجماعة أو ياء المخاطبة للدلالة على الألف المحذوفة، كما في الأمثلة الآتية:

اسْتَوْلى: استَوْلَوْا – اسْتَدْعَى: اسْتَدْعَوْا – يَرْضَى: يرْضَوْن، تَرضَيْن – يسْعَى: يَسْعَوْن، تَسْعَيْن.

ولكن في لغة المذيعين كثيرًا ما يُضمُّ ما قبل واو الجماعة كما في الجدول التالي:

(١) أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتّاب والإذاعيين – أحمد مختار عمر – عالم الكتب – القاهرة – ط١ – ١٩٩١م – ص١٠٦.

الفعل قبل الإسناد	الفعل في جملته بعد الإسناد	الصّواب
يبقى	الجنودُ سيبْقُون على استعداد	سَيَبْقَوْنَ
أجرى	المجتمعون أجْرُوا محادثات حول سوريا	أجرَوا
أدلى	الشهود أدْلَوا بشهاداتهم	أدْلَوْا
أردى	وأرْدُوهُ قتيلًا	أرْدَوْهُ
اعتدى	وقد اعْتَدُوا عليه بالضّرب	اعْتَدَوْا
أعطى	وأعْطُوه فرصةً أخيرةً	وأعْطَوْهُ
يتعالى	يتعالُونَ على النّاس	يَتَعَالَوْنَ
لاقى	لاقُوا حتفهم	لاقَوْا
نجا	نَجُوا من الكارثة	نَجَوْا

ويتم أحيانًا فتح ما كان يجب أن يُضم قبل واو الجماعة، كما يبدو في الأمثلة التالية:

الفعل قبل الإسناد	الفعل في جملته بعد الإسناد	الصّواب
بَقِيَ	بَقَيْتُ مكاني	بَقِيْتُ
حَظِيَ	الذين حَظَوْا بثقة المواطنين	حَظُوا

٤. إسناد الفعل المقصور المؤنث بالتاء إلى ألف الاثنين: تقول القاعدة الصرفية أنه إذا أسند فعل مقصور إلى ألف الاثنين، فإن كانت الألف ثالثة رُدت إلى أصلها، وإن كانت رابعة فصاعدا أُبدلت ياء.

وهناك قاعدة أخرى تقضي بحذف الألف المقصورة عند تأنيث الفعل بالتاء، مثل: اقتدى: اقتدَت، افتدى: افتَدت[١].

ويظل الحكم كما هو – أي بحذف الألف – إذا أسند الفعل بعد تأنيثه إلى ألف الاثنين، وأحيانًا يأتي عكس ذلك في وسائل الإعلام، كما يظهر من الجدول الآتي:

الفعل	الفعل بعد تثنيته	الفعل بعد تأنيثه	الفعل بعد تأنيثه وإسناده	الفعل الخطأ في جملته
اختفى	اختَفَيا	اخْتَفَتْ	اختَفَتا	كانت البنتان قد اختفيتا
ارتمى	ارتميا	ارتَمَتْ	ارتمَتا	ارتميتا في حضن والدتهما
اهتدى	اهتديا	اهتَدَت	اهتدتا	اهتديتا فورًا إلى الحقيقة

٥. إسناد فعل الغائب إلى نون النّسوة: تقول القاعدة الصرفية أنه إذا أسند فعل الغائب إلى

(١) الموسوعة الشّاملة في الصّرف والنّحو – أيمن أمين عبد الغني – دار الكتب العلميّة – بيروت ١٩٧١م، ج٧، ص١٧٩ .

نون النسوة يبقى حرف المضارعة ياء، ولا يبدل تاء[1]، ولكن شاع في لغة الإعلام إبدال هذه الياء تاء ظنًا أنها تاء المؤنث مع أنها تاء الخطاب، وتاء الخطاب لا تأتي مع الغائب، والأمثلة الآتية توضح ذلك:

الفعل في جملته بعد الإسناد	الصّواب
الطالبات تكتسحْنَ المراكز الأولى في الثانوية العامة.	يكْتَسِحْنَ
إن مقدِّمات التلفيزيون تفعلْنَ ذلك من باب الدلال.	يَفْعَلْنَ
اثنتان وأربعون سيدة من ألمانيا تزُرْن مصرَ.	يَزُرْنَ
ثمان وأربعون وزيرة بالكومنولث تبْحَثْنَ قضايا المرأة.	يَبْحَثْنَ

٧. إسناد الماضي المضعف إلى ضمائر الرفع المتحركة: يشيع نوعان من الخطأ في هذا النوع من الأفعال عند إسنادها إلى ضمائر الرّفع المتحركة، وهما:

١. إبقاء التّضعيف في الفعل، وزيادة ياء بعده، والواجب فك التّضعيف[2]، والأمثلة الآتية من لغة الإعلام:

الفعل	العبارة التي ورد فيها	الصّواب
استغلَّ	استَغَلَّيْتُم الأرضَ	اسْتَغْلَلْتُم
اسْتَقَلَّ	اسْتَقَلَّيْتَ برأيكَ	اسْتَقَلَلْتَ
اسْتَشَفَّ	استَشَفَّيْتُ مِن كلام الرّئيس	اسْتَشْفَفْتُ

٢. ضبط عين الماضى الثلاثى المجرد ضبطًا خاطئًا بعد فك إدغامه حين يكون من باب «فرح» كما يبدو من الأمثلة الآتية:

الفعل	العبارة التي ورد فيها	الصّواب
برَّ	بَرَرْتُ	بَرِرْتُ
غَصَّ	غَصَصْتُ بالطَّعام	غَصِصْتُ
ظلَّ	ظَلَلْتُ سهران	ظَلِلْتُ

بعد هذا الاستعراض الملخّص للأخطاء اللغويّة في الإعلام يُطرح السؤال التالي:

مَن يعيد الأمور إلى نصابها ويحافظ على اللغة العربية السليمة؟

إذا أردنا إعادة الأمور إلى نصابها، والحفاظ على اللغة السليمة، فلا بد من العودة إلى إسناد مهمة تصحيح اللغة إلى الوسائل الإعلامية نفسها، وذلك من خلال برامجها المتنوّعة،

(١) الموسوعة الشاملة في النحو والصّرف، م.س، ص١٩٤. (٢) م. س. ص١٩٥.

لأنها السبيل الأصح، والطريقة الأنسب لنشر اللغة الصحيحة وترسيخها في أذهان المتلقين، نظرًا إلى انتشار وسائل الإعلام وإقبال الناس عليها على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم، ولتصحيح ما درجنا عليه من الأخطاء الشائعة، والتخلص من الشوائب اللغوية، للوصول إلى لغة قومية سليمة يتحدّثها العرب على مساحة أوطانهم، ويكون ذلك من خلال التعاون والتنسيق مع المجامع اللغوية والمؤسسات التعليمية المعنية بهذا الموضوع أولاً، ثم المؤسسات الثقافية على اختلافها، لتتحقق الكفاية الاتصالية التي تمكّن المتكلم من استعمال اللغة استعمالاً صحيحًا، ويكتمل ذلك من خلال الكتابة الصحفية أو التقديم الإذاعي والتلفزيوني.

ومن الثابت أنّ الإعلام هو العامل الأهم والأكثر تأثيرًا في لغة الناطقين بالعربية، نظرًا لاستمراريته على مدار الساعة بأشكاله المختلفة، المكتوبة، والمسموعة، والمرئية، دون توقّف. ومن خلال هذه المكانة التي يشغلها الإعلام، فعليه أن ينتقل بالمتلقين إلى مصاف الفصحى السليمة، بدل أن يهبط بهم إلى ميدان العامية وتشتتها، وأن يخرج من خصوص اللهجة المحليّة إلى عموم اللغة الجامعة.

ولغة الإعلام، أو ما يعرف بالفصحى الميسرة، هي الأداة التي بإمكان أي فرد ينطق بالعربية أن يفهمها، ولا تصعب على أحد من العرب، فهي لغة مستقيمة القواعد، غنيّة بتراثها، يألفها الجميع لما لها في نفوسهم من مكانة خاصة ترتبط بالانتماء والهويّة، لجهة الشعور القومي والانتماء الديني، كالدين الإسلامي الذي يدين به غالبية العرب، فضلاً عن الشعوب الإسلامية التي تحرص على تعلّمها لارتباطها المباشر بالقرآن الكريم، وبأداء الشعائر الدينية اليوميّة والموسميّة.

ولا يمكن لأي لهجة عاميّة مهما بلغت أن تؤدّي دور الفصحى وتحل مكانها، لأنّ اللهجات العربية العامية لا تملك ذلك النظام الذي تمتلكه الفصحى من القواعد الضابطة، والأصول الحاكمة، ولا يوجد لديها مخزون ثقافي أو حضاري يخوّلها أن تكون لغة رسمية يُعتدّ بها في أي دولة عربية.

ويمكن حصر مهمّة الوسائل الإعلامية متّحدة تجاه أداتها اللغوية بإجراءات بسيطة وواجبة، تقوم على انتقاء الواضح من الألفاظ مما شاع استعماله بين الناس، وسلم بناؤه الصرفي، واستساغه السمع، وخف به اللسان، واستخدام الأساليب الواضحة البعيدة من الغريب والملحون والاسفاف، والالتزام الدّقيق بقواعد اللغة وأصول صياغة الكلام المناسب لمقتضى الحال، والعناية بفن الإلقاء، وضبط النطق من خلال التشديد والتنبّه لمخارج الحروف. «فاللغة أولى المهارات التي يكتسبها الأفراد

من وسائل الإعلام المختلفة، بطريق مباشر... البرامج التعليمية... أو غير مباشر... وعلى وسائل الإعلام تضييق المسافة بين لغة الخطاب ولغة الكتاب، وفتح الطريق أمام الفصحى لتتسرب في كل مكان، وليكون لها السلطان في التّعبير الإعلامي»[1].

وباستطاعة وسائل الإعلام أن تؤدي مهمتها في نشر العربية الفصحى «إذا اتسعت مساحة البرامج الثقافية، أو تمّ بث برامج الأطفال والشباب بالفصحى الميسّرة، أو قدمت القصائد المغناة بدلاً من المهاترات الغنائية المبتذلة في مفردات السّوقية والتّرخيص، وإذا وضعت فواصل إذاعية جيدة من قراءات الشّعر العربي في كل عصوره، بما يصقل الذاكرة القومية والوطنية، ويرضي الوجدان الجمعي، ويقرّب المسافة التي تتسع مع فوضى الفضائيات ومؤامرات خصوم اللغة»[2].

كما استطاعت وسائل الإعلام أيضًا أن تنقل الاستعمال اللغوي من العالم المغلق للكتب إلى فضاء الناس الرحب، بعدما ترك هذا الاستعمال في وسائل الإعلام آثارًا إيجابية وأخرى سلبية، وتمكّنت أيضًا من وضع المسألة اللغوية على مشرحة الاهتمام، وجعلتها في مقدمة المسائل المصيرية بالنسبة للعرب جميعًا، ووضعتهم أمام خيارين لا ثالث لهما، فإذا رغبوا بأن يكونوا أمة ذات مكانة بين الأمم، فما عليهم إلا أن يحرصوا على لغتهم التي تحفظ هويتهم، وأن يسهّلوا استخدامها من خلال تحسين طرائق تعليمها، وأن يولوا أهميّة عالية لتعريب كل مستجدات العلوم من حولهم. وهذا يستدعي تظافر الجهود القومية، بمشاركة الدول العربية جمعاء، وتسخير كل ما تملكه من مؤسسات تعليمية، وإمكانات ثقافية وإعلامية لبلوغ هذا الهدف.

وإذا قصّر العرب في تدارك الأمر ومعالجة مفاعيله، كرّست وسائل الإعلام اللهجات المحلّية كأمر واقع، واستقلّت الأقطار العربية عن بعضها لجهة الثقافة واللغة، وذهب كل قطر إلى ما يعنيه، وتقيّد بما يُملى عليه، دون أن يملك حق تحديد مصلحته وتأمينها، وعمّت التّبعيّة للممسكين بأطراف الحضارة. فلا يستطيع أن يتفاعل أو يتماهي مع ثقافة سائدة ولغة محدودة، ولا بمقدوره أن يصنع ثقافة مستقلّة ولغة قادرة على مواكبة العصر وتدفق المعارف من العالم.

وإشكالية اللغة في الإعلام ليست طارئة وحديثة، فإنها شكّلت وما زالت تشكّل إحدى إشكاليات الإيصال في الفنون

(١) العربية في الإعلام - م. س - ص٥٢.

(٢) عودة إلى الصحة اللغوية - م.س - ص٢٣.

والأدب، وما ينبثق عنها من كتابة الأعمال المسرحية، وبالأخص الروائيّة منها، لتصل بعدها إلى الكتابة السينمائية.. فكتّاب الفنون الروائية يعانون من عدم إمكانية التوليف والتماهي بين الواقع المعيوش، وحديث الشّخصيّات في العمل الفني، ويعانون أيضًا من صعوبة الوصول في فنونهم إلى أوسع شريحة من المتلقين الذين لا يتمتعون بثقافة لغوية تمكّنهم من فهم العمل الفني وإدراك غاياته.

وفي ظل هذا العجز المتواصل جاءت اللغة الثالثة أو العربية الفصحى المبسّطة، لتكون أحد الخيارات المطروحة لحل إشكالية اللغة في علاقتها بالإعلام، ولإدراك اللغة من انزلاقها نحو العامية المحلية في البرامج الحوارية التي تعيق تلقي هذه الفنون في الأقطار العربية الأخرى، وتبنّت وسائل الإعلام هذا الحل، وقامت بتطبيقه في أدائها، كتابة ونطقًا.

والجدير بالذكر أن الإعلام هو وسيلة لبلوغ هدف معين، وليس لغة بحد ذاته، هو وسيلة يتم بواسطتها إيصال رسالة محدّدة المضمون، إلى شريحة معيّنة من المتلقّين، بلغة محددة تناسب مستواهم اللغوي، وهنا تكمن أهمية الإعلام ومدى تأثيره في اللغة.

وإذا أردنا أن ندقق في أصل المشكلة فإننا لا نجدها في اللغة الفصحى كما يريد البعض أن يشيع، ولكنها تكمن في أصحاب اللغة والناطقين بها. فاللغة تفرض نفسها وتتطور من خلال المنتج الثقافي أوالفكري الذي يبدعه صاحبه ويعلن تسميته باللغة التي يشغلها، ولكن العرب انكفأوا عن صناعة المعرفة منذ زمن بعيد، واضمحلّ إنتاجهم الثقافي والفكري مقارنة مع غزارة الإنتاج العالمي، وانعدم لديهم الإبداع والاختراع، فاكتفوا باستيراد حاجاتهم من المنتجات الغربية مع مسمّياتها، ولكثرة هذه المنتجات وتشعّباتها عجزوا عن مواكبة مسمّياتها ترجمة وتعريبًا.

وإذا كان تراجع اللغة الفصحى ناجمًا عن هذا التردي في الواقع العربي، فإنّ إعادة أمور اللغة الفصحى إلى سابق عهدها مرهون بعودة العرب إلى سابق عهدهم، فلو كان العرب على سابق عهدهم من الاستقرار والإبداع لما كانت لغتهم موضع إشكال، لكنهم أمّة مشتّتةٌ وضعيفة، غير قادرة على حماية مصالحها، أصابها التخلّف على كل المستويات حتى غدت غير قادرة على الإسهام في إنتاج المعرفة ولو باليسير، فانعكس ذلك عجزا عن صيانة لغتها.

إن صون اللغة وتطويرها يستدعي التعاون وتظافر الجهود بعزيمة وإقدام وصدق، وذلك من خلال قيام المؤسسات المعنيّة من تربويّة وثقافيّة بمهمة تسهيل تعليم اللّغة، ومواكبتها، وتزويدها بكل جديد من المصطلحات بعد تعريبها، وحمايتها من

الخطأ والعجمة. وعندها تقوم وسائل الإعلام بدورها في تطبيق ذلك وتعميمه، وتثبيته كواقع لغوي يؤدّي إلى سد الفجوة بين الفصحى والعامية، ما يجعل المواطن العربي في حلٍّ من الازدواجية اللغوية، وينتشله من الضياع الحاصل عنده بين لغته القومية ولهجته المحلية، فيقرّب إليه الفصحى ويحبّبها إليه، ويعيد الأسس الفصيحة التي بُنيت عليها العامية إلى أصولها. فاللّغة مخلوق اجتماعي تتطور حياتها بمقدار تطور المجتمع، وتغتني بغناه، فيصبح بمقدورها أن تتابع حركيّة المجتمع وتبدّلاته الثقافيّة بطرق شتّى، كالنّحت، والتّعريب، والتعامل مع الدخيل من الألفاظ، وارتقاء التّرجمة، والتوليف الدائم بين إمكانيات اللغة ومتطلبات الناطقين بها. فثوابت اللغة لا تتعارض مع المتغير، ولا تمنع التداول به في أي مرحلة من مراحل حياة الأمة.

خاتمة:

لا يعد الإعلام العربي في عداد الإعلام المتطور عالميًا، ولا يمكننا أن نصنّفه من الإعلام المتمكن في مواده التي يبثها، رغم أنّه أنهى عقودًا من الزمن على انطلاقته وعمله، فمن ناحية اللغة لا يوجد في الإعلام العربي منهجيّة واضحة ومعتمدة تشير إلى كيفيّة التعاطي مع موضوع اللغة، لجهة استثمارها بالشكل السليم، والحفاظ عليها وتطويرها بما يتناسب مع متغيرات العصر وأدواته الحضاريّة. ويمكننا القول إن الإعلام العربي ما زال في مرحلة الضياع التجريبي مع اللغة، نظرًا لغياب الرؤية الواضحة، والخطّة المعتمدة، والمنهجيّة المدروسة.

إلا أن وسائل الإعلام المكتوبة باللغة العربية استطاعت أن تحافظ على نسبة عالية من أصول العربية الفصحى، وبإمكان هذه الوسائل التّخلص – بجهد قليل وميسّر – من العيوب التي دخلت على لغتها خلال عقود من الزمن، فلغة الصحافة المكتوبة هي اللغة التي أطلق عليها اسم «اللغة الثالثة» أو العربية المعاصرة التي تعتبر استمرارًا للفصحى مع استجابتها لمتطلبات العمل الصحفي ومستجدات التطور الفكري والمعرفي.

أما حال اللغة مع الوسائل الأكثر انتشارًا في الإعلام، الوسائل المسموعة، والمسموعة المرئية، فيمكننا القول إن معظم هذه الوسائل حافظت على الفصحى الميسرة في كثير من المواد التي تقدمها، ولكنّ اللهجة العاميّة استقرّت ولازمت البرامج الفنيّة والحوارية التي تبث مباشرة مع الجمهور.

وعليه نرى، أنّ اللغة العربية لا تزال تعيش حالة من الغربة بين أبنائها، وأنّ حالها مع الإعلام كحالها في سائر أمور الحياة، فقد تخلى أهلها عن الكثير من

خدماتها لصالح لغات أخرى يمسك أصحابها بزمام الحضارة والمعرفة والإنتاج. ويمكننا القول أيضًا، إن الإعلام يؤدي مهمتين متناقضتين في لغة الأداء العربية: الأولى إيجابية، يؤدي فيها خدمة بالغة للغة العربية من خلال نشرها وتعميمها على شرائح المجتمع المتلقّية باختلاف مستوياتها اللغوية والفكرية.

والثانية سلبية، يكرّس فيها اللهجات المحكية واللغات المحلية، وبذلك يساعد على انتشار الأخطاء اللغويّة وتثبتها في الأذهان وعلى الألسن، ويفكك الروابط الثقافية والإرث التاريخي بين الأقطار العربية، ويعزّز حالات الانفصال بينها.

وبمقدور الإعلام أن يسهم بشكل فعّال في إعادة تنقية اللغة من شوائبها، وإلباسها ثوبها الثقافي الأبهى، من خلال توجيه سلطته المهنيّة والرسالية، كونه الضّيف الوحيد الذي يدخل بيوتنا دون استئذان وعلى مدار السّاعة، وأننا على اختلاف أعمارنا نُذعن لمأدبته اليوميّة بكل أشكالها وألوانها، ونربّي عليها أجيالنا.

المصادر والمراجع

١. الأجناس الإعلامية وتطور الحضارات الاتصالية، د. عبد العزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م.
٢. أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتّاب والإذاعيين، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
٣. الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، د. نسيم الخوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٥م.
٤. الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٦٩م.
٥. الإعلام واللغة، محمد سيد محمد، عام الكتب، القاهرة ١٩٨٤م.
٦. إنتاج اللغة الإعلامية في النصوص الإعلامية، د. محمود خليل ومحمد منصور وهبة، جامعة القاهرة، مركز التعليم المفتوح ٢٠٠٢م.
٧. التذوق الفني والفن الصحفي الحديث (١٩٥٢- ١٩٢٤) أحمد المغازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.
٨. سامي شريف وأيمن منصور ندا، اللغة الإعلامية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤م.
٩. السعيد محمد بدوي، مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر، دار المعارف، مصر، لا ط. لا ت.
١٠. الصحافة والأدب في مصر، د. عبد اللطيف حمزة، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٤م.
١١. عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧م.
١٢. العربية في الإعلام، محي الدين عبد الحليم وحسن الفقي، دار الشعب، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٣. عودة إلى الصحة اللغوية، عبد الله التطاوي، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م.
١٤. في التطور اللغوي، عبد الصبور شاهين، مكتبة دار العلوم ١٩٧٥م.
١٥. في التطور اللغوي، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
١٦. في التفسير الإعلامي للأدب، د. عبد العزيز شرف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢م.
١٧. في مدار اللغة واللسان، أحمد حاطوم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٩٦م.
١٨. لغة الصحافة المعاصرة، محمد حسن عبد العزيز، دار المعارف، القاهرة، لا ت.
١٩. مستقبل اللغة العربية المشتركة، إبراهيم أنيس، معهد الدراسات العربية القاهرة، ١٩٧٦م.
٢٠. مستويات العربية المعاصرة في مصر، سعيد محمد البدوي، دار المعارف، ١٩٧٣م.
٢١. الموسوعة الشّاملة في الصّرف والنّحو، أيمن أمين عبد الغني، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٩٧١م.

احكي ياشهرزاد للكاتبة دريّة فرحات
مجموعة قصص قصيرة تحكي الحياة

عماد نبيه خليل (كاتب وإعلامي)

كان اللّيل الحالك في مرآة النّساء يحبس الأنفاس، ينتظر الموت الآتي على سرير الآلام، وكان الفجر في عيون شهريار إعلان انتظار لغد آخر، غير أنّ «شهرزاد» كانت تخطّ دروب الحياة لكلّ نساء الأرض، تنقذ الخصوبة من يباس الدّيار، والأحلام، وتحكي قصص «ألف ليلة وليلة»، لتكون شهرزاد ابنة الوزير الّتي حوّلت الكلام إلى مباح لايخنقه صياح ديك، ولاسيف حاكم، ولايغفو مع الصّباح، لتنتصر الحكايا في الأبعاد والدّلالات، وفي المضامين الّتي أيقظت الخيال على صهوة الواقع، لتنتصر القيم في سجلّ الحياة.

بعيدًا عن «ألف ليلة وليلة»، عن هذا الفنّ القصصي الغني الّذي بات علامة فارقة في تاريخ الأدب، تطلّ الدّكتورة دريّة فرحات على الفنّ القصصي برؤية «شهرزاديّة» جديدة، مبتكرة، وبصياغة رؤى تكسر المألوف في شخصيّة أسطوريّة نسجت من خيالها حياة، ومن ذكائها حبل نجاة، لتقدّم نمطًا مختلفًا، حيث الكاتبة «دريّة» في كتابها «احكي ياشهرزاد»، والصّادر عن دار الأمير للثّقافة والعلوم، لاتجعل شهرزاد في مقابلة مع شهريار، ولا تسعى الكاتبة إلى محاكاة في دراما قصصيّة تشكّل ملحمة أدبيّة في تتالي الحكايات، إنّما، أرادت الكاتبة من شهرزاد أن تشرّع مجموعة قصصيّة مفتوحة على الأمنيات، والرّحيل، والغضب، هي مجموعة قصص مزروعة في وعي الحياة، ونبض البشر، قصص تحكي الهزائم، والحضور اللاّوعي، كما تفرد قلقها على قيم شعب، وحضارته، إذ، يبدو شهريار في هذه المجموعة القصصيّة قابعًا في حدس السّؤال، يقرأ بين السّطور فلسفة الوجود.

شهرزاد مع القاصّة «دريّة فرحات» تعبّر عن كوامن النّساء وهنّ يقلن الغباء في رجولة بائسة، وتسرد باقتضاب محطّات الوجع في التّاريخ العربي، لا تبحث عن وهم في متن القصّة الصّغيرة، ولاتصنع عقدة تتطلّب الانتظار ليوم آخر على غرار

«شهرزاد – شهريار»، بل، كانت شهرزاد الجديدة تترك النّهايات مفتوحة على كلّ تأويل، ولم تذهب لإنقاذ بنات جنسها فحسب، بل، تركتها الكاتبة، تحلم، ترصد، تتنبّأ، وتمنحها حرّيّة الكلام والسّرد في ليال تتخطّى الحساب الزّمني، ولاتجعل المكان الأحادي سطوة الحدث، ليكون الفضاء الأوسع هو محور القصص، في الحبّ، والمعاناة.

ما جاء في الشّكل العام، يجعل القارئ قبالة قصص تريد أن تبدأ، لا أن تنتهي عند توقيت محدّد، أو عند انتفاء الحاجة، فالحياة تحتاج دائمًا إلى الحكي الّذي ينظر وجع الإنسانيّة في رحلة الأدب، وهل هناك في التّراث الأدبي ما هو أغنى من عالم «ألف ليلة وليلة» ولكن، هناك شهرزاد جديدة، ستقصّ بالإيجاز وعلى عجل سطوة الكلمات على مفترق الدّروب، لهذا، كان الفنّ الأدبيّ الأصعب: القصّة القصيرة.

القصّة القصيرة عبّر عنها الرّوائي «إلياس الدّيري»، هي «الحياة... القصّة القصيرة رواية مكثّفة باختصار»، ومع القاصّ الشّهير في عالم الكتابة القصصيّة «يوسف إدريس» هي: «أكثر الأشكال الأدبيّة إيجازًا، تشبه القنبلة الذّريّة في صغرها وفعاليّتها»، ويرى إدريس أنّ تصنيع القصّة القصيرة يكون على أيدي أناس ذوي موهبة خاصّة. هذا يسجّل للقاصّة الدّكتورة دريّة فرحات.

لكي نبرز مشوار النّقد في رحلة شهرزاد الجديدة، ينبغي أن نلتفت إلى معايير فنّيّة في بنية القصّة القصيرة، وهي كما باقي الفنون الأدبيّة تعدّدت الشّروحات في التّعريف، والتّوصيف، والنّشأة، لكن، مع «احكي ياشهرزاد» شهرزاد «دريّة فرحات» يكون الموضوع هو الوحدة، حيث الفكرة – الرّمز في معظم قصصها شكّلت محور الانتباه، لم تلجأ إلى تزيين لفظي، أو إبراز جماليّات إنشائيّة على حساب الفكرة، وهذا، من سمات القصّة القصيرة، تأخذ جانبًا من الحياة، وقد يصلح على وصف هذه الحكايات «الأقصوصة» إن لم نقل هي كذلك، انسجامًا مع تعريف الكاتب «فتحي الأبياري»، إذ يقول: «أمّا الأقصوصة، فهي قصّة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبًا من حياة، لا بشخصيّاته ومقوّماته على أنّ الموضوع، مع قصره، يجب أن يكون تامًّا ناضجًا من وجهة التّحليل والمعالجة، ولايتهيّأ إلاّ ببراعة يمتاز به الكاتب القصصي».

نحن قبالة هذا النّوع من القصص، القصص الّتي تمرّ بلمحة بصر، لكنّها تحمل دلالات تتطلّب السّبر في التّحليل، والرّؤية، وبمعزل عن الحجم، نقف مع الشّاعر اللّبناني «إلياس أبوشبكة» في ما قاله: «لسنا بحاجة إلى معرفة كيف تفهمون، بل، نحن بحاجة إلى ماتبدعون، فأكثروا من الإنتاج

وخلّوا الدّعوى» طبعًا، هذا الكلام، جاء في معرض حديث له في مقالة حملت عنوان: «كيف أفهم القصّة؟».

«احكي ياشهرزاد» عبارة عن مجموعة قصص، تتعدّد فيها الموضوعات، لكن، لكلّ موضوع الحيّز الخاص في فضاءات عوالمه: الشّخصيّات، الزّمان، المكان، وهنا، أشير إلى استنتاج ذاتي، هذه العوامل في الفنّ القصصي عند شهرزاد الجديدة وظّفت لتخدم الحياة في تشعّبات إرهاصاتها، بمعنى، استطاعت الكاتبة دريّة أن تستخدم الشّخصيّة الواحدة ضمن قالب شمولي، فلم تعد على سبيل المثال، وهذا جاء في صفحات الكتاب عن «زواتلي» المرأة كالغصن الرّطب... تميل إلى كلّ جانب مع الرّياح، ولكنّها لاتنكسر في العاصفة».

هنا، المرأة في هذا المحور باتت محور الأزمنة، ومحور التّطوّرات، أخرجتها الكاتبة من الزّمن المغلق إلى العالم المفتوح، لتصبح الأنثى والوطن: تقول القصّة عن شهرزاد: «فماذا تنتظر تعويضًا عن شريك حياة أخلّ بعقد الشّراكة، تيمنًّا بأحوال الوطن وفسخ عقد الشّراكة بين أبنائه» ص٢٠، وتردف بسلّة من الأسئلة، وتكمل: «سؤال برسم الوطن» ص٢٠.

طبعًا، جاءت القصص على لسان النّساء، والرّجال، وحمّلتها معاني غنيّة لم تخل من القلق عند قصّة «في الأربعين» حيث تصل إلى خاتمة تفيد إلى ثورة داخليّة، تقول في حادثة كادت أن تتوّج إلى سعادة بين حبيب وحبيبة، لتسقط في فخّ العمر، «أجل أنا في الأربعين... وفي الأربعين تبدأ الحياة» ص٢٥، صرخة تطلقها الأنثى في العقليّة الذّكوريّة اللاّهثة وراء سراب الجسد، والاعتبارات الضّيقة في النّظرة الّتي يعاينها الرّجل إلى المرأة، مع شهرزاد الجديدة، تصبح المرأة غير مختصرة في توقيت زمنيّ محدّد، لتضيف أبعادًا فكريّة في ثنائيّة العلاقة بين المرأة والرّجل.

في المحور الثّاني، العنوان «وطنيّات شهرزاديّة»، تستهلّه الكاتبة بكلام جريء وانطلاقًا من كاتبة جريئة:نوال السّعداوي: «أنا لا أفصل بين تحرير المرأة وتحرير الوطن»، محور يرصد الحال العربي، وتعب الأوطان، والنّكسات، وأحلام الطّفولة، حتّى الصّورة تصبح في مكان ما محطّة لاسترجاع الحلم المنكسر، صورة الزّعيم العربي الرّاحل «جمال عبد النّاصر» في أقصوصة تحمل عنوان: «صاحب الصّورة»، هذه الصّورة الّتي استمرّت ذاكرة، وحزنًا، تقول: «رحل عن هذه الدّنيا، إنّما بكوا فيه آمالهم الّتي ضاعت» ص٨٦، وتقول أيضًا في الصّورة: «لمحت نظرات الغضب من عيني صاحب الصّورة...ربّما على ما آل إليه مصيرنا... ولأنّنا نسينا الدّرس، وما علّمنا من قيم النّضال والتّمسّك بحريّتنا، فما أخذ

بالقوّة لايستردّ إلاّ بالقوّة» ص٨٦.

لكن، «شهرزاد لم تقطع الأمل في المستقبل» فكان عنوان «أمل الأرض» ص٩٣، قالت: «وكان مع كلّ خطوة يخطوها... تخطو معه السّنوات، ومع هذا فهو لم يشعر بالكلل ولا التّعب، لأنّ عينيه كانتا لاتحيدان عن نبتة خضراء يانعة تحاول أن تنبت على وجه الأرض في تلك البقعة البعيدة من الأرض الشّاسعة» ص٩٥.

في محاور القصص تقف شهرزاد «الكاتبة» المتخفيّة في الشّخصيّة الأدبيّة العالميّة، لتنقل معاناة المرأة، يكفي لولوج محور من هذه المحاور لنقرأ البداية مع «سيمون دي بوفوار» لندرك مضامين الأقصوصات، وأحيانًا الخواطر «إنّنا نحبس المرأة في المطبخ أو في المخدع، وبعد ذلك ندهش إذ نرى أفقها محدودًا، ونقصّ جناحيها ثمّ نشكو من أنّها لاتعرف النّمطيّة المجتمعيّة الّتي تجعل المرأة في تقاليد وأعراف تحوّلها إلى غائب في لغة الحضور الإنساني، والذّكوريّة لاتلحظ خيبتها، وإن أدركت بلاوعيها عن ضعف حقيقي، تستطيع المرأة أن تقفز فوق رغباتها لتقرأ خدوش الحياة في أعراف تتهالك، وإن كانت المرأة هي الضّحيّة، تقول في «قمّة»:

وصلت القمّة، وقفت في أعلى نقطة...

نظرت إلى الوراء، فرأت نجاحاتها جميعها...

من حدائق حبٍّ وأنهار علم ومجد وثقافة...

نجاحات لامثيل لها...

لكنّها عادت إلى أوّل السّفح،

فرأت أنّ آمالها وآمانيها مازالت هناك... ص١٠٥

وأيضًا، في الميول والرّغبات، يخبّئ الشّرقيّ ضعفه في صورة القوّة، لايعترف بهزيمته، يحوّلها إلى مهرجان انتصار، في الحبّ كما في السّياسة، ففي «وهم»:

يتهاديان فوق لوح وردي..

إنّها ليلة الغرام

يحاول أن يصل إلى مبتغاه

يحاول... ويحاول...

يشعرها بلذّة الانتصار..

يوهمها أنّه حقّق مايريد... أثبت هويّته

ويقف مزهوًّا

لكنّه يخبّئ عينيه...

ينظر إلى مكان آخر خوفًا من انفضاح الأمر.

تدير وجهها إلى الجانب الآخر

تضحك ضحكة يملؤها الأسى...

ولا تعلم هل هي تضحك عليه أم هي على حالها... ص١٠٦

في هذا السّياق، برز نقد جارح، وأسلوب استنكاري من سلّم التّكنولوجيا

الّتي تحوّلت إلى سلطة فعليّة، ففي أقصوصة «تكنولوجيا» ص١٢ تسلّط الكاتبة شهرزاد غضبها على المثقّف، ولاسيّما في لغة الذّكوريّة: «هي تبحث عن عقله لا ذكوريّته... ابتعد عنها واقترب من حسناء أخرى قبلت تودّده» ص١١٩، وفي مقلب ثان، هي إشارة ذكيّة ورمزيّة لحال المثقّف المتلهّف للأدوار في سوق النّخاسة، حيث الأقلام تشترى وتباع، والشّواهد لاتحصى.

شهرزاد الجديدة في تراثنا العربي، تؤكّد أنّ شقيقتها شهرزاد – شهريار، أنقذت الحياة في عيون نساء عصرها، وهي تريد أن تنقذ الحياة في تكامل الأدوار، وتفاعلها، تحت باب حمل التّالي: شهرزاد والحياة، انطلقت من قول للكاتب المصري: توفيق الحكيم: «إنّ عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمّة كلّها ومات»، فالمرأة هي فلسفة الوجود:

هل تسأل المرأة عن عمرها؟

عمرها بعمر الورد والشّباب... عشرون

عمرها بعمر النّضج والخبرة... ثمانون

عمرها بحساب السّنين... أربعون

عمر يختصر الحياة. ص١٢٣

تطلب الكاتبة من نفسها، من شهرزاد أن تحكي في الصّباح والمساء، في الخفاء والعلن.. في ريعان شبابك وفي أرذل العمر.. لأنّ حياتك ملك يديك وهكذا، تغلق شهرزاد في «احكي ياشهرزاد» مسلسل الأقصوصة بمشهديّة تؤسّس لأبواب جديدة في فصول لا تنتهي مع عنوان: «منتدون:

أضواء تلألأت..

طبول قرعت..

أفواه تحدّثت..

خوان امتد..

تحلّق المنتدون في قاعة الملوك..

تناقشوا في قضايا الفقر والفقراء... ص١٢٨

هل هذا المقام في تلك الرؤية سوى قتل للفقراء في بلاط الكذب والرّياء.

وفي سياق هذا النّتاج، لابدّ من ملحوظة، أشير إليها وهي: الخاطرة القصصيّة، لأنّها تملك مائزة تجعلها مصدر غنى، خاصّة في هذه المجموعة القصصيّة، حيث جاءت الخواطر في باب الدّهشة، واللّمعة الفنّيّة الخاطفة، وهذا دأب الخاطرة القصصيّة، تشدّك بلمحة إلى المبتغى المنشود، لكن بإيجاز الإيجاز، وهذا، يسجّل للكاتبة دريّة فرحات.

لكن، الخاطرة حين تذهب للوعظ تقلّل من الإبداع الفنّي، حيث تبدو الفكرة مباشرة، واضحة، لكن، مع شهرزاد، جاءت الخاطرة القصصيّة وهّاجة خاطفة للأنفاس، ففي «لذّة» تقول:

لذّة

بين اللّذة والعقل...

خطوة خطّتها لتحقيق شهوتها...

أيقظها صوت الواقع

فعادت إلى عالم الحرمان

لكنّها شعرت أنّها فقدت شيئًا من ذاتها» ص١١٥

ومع «عرس»

صدحات الصّوتيّات

عريسنا... يازين

تتهنّى ياعريس الزّين بالعروس البهيّة

علت الزّغاريد

دارت الرّقصات

زغرد الرّصاص

لكنّ العريس لم يحضر» ص١١٦

تمثّل هذه اللّمحة إشارات لفصل من فصول الحياة البشريّة في لغة مرويّاتها، وقصصها الشّعبيّة، وتخبّىء في مضمونها تقاليد، وعادات، تمثّل قيمة إنسانيّة في تبادل الفرح، وفي استنطاق الغياب الّذي يبدو وهمًا في مسار الصّراع بين الحضور الباهت، والغياب الذي يزلزل، وينشىء مملكة قويّة في الزّغردة الّتي تضفي صورة الحياة.

● السّرد وتقنيّاته في المجموعة القصصيّة عند الدّكتورة دريّة فرحات.

الأقصوصة في «احكي ياشهرزاد» تمسك بالنّمط السّردي، فالقصص جاءت بموضوعات مستقلّة عن بعضها البعض، وإن كان مايجمعها هو الحكي الّذي تقصّه شهرزاد بلبوس شخصيّات تجسّدت في ضمائر الغائب، النّصوص تعدّدت في مضامين قصصيّة، وإن جاءت مقتضبة، غير أنّها حرصت على وحدة الموضوع «الفكرة» الّتي تحاول أن تبثّها قصص تنبش الحياة حتّى تنتجها على شكل قضايا تنطق بها الآراء، غالبًا، ماكانت القاصّة دريّة تقدّم أفكارها بطلايقة تكشف رؤيتها، وتفصح عن عن موقفها من الحياة، والعادات، والحروب، والعلاقات الشّرقيّة بين الرّجل والمرأة.

يجسّد فضاء السّرد في الأقصوصة عند الكاتبة دريّة فرحات محطات موجزة، لم تلجأ إلى السّرد الطّويل، ذلك، يتنافي مع فنّ الأقصوصة، والخاطرة القصصيّة الهادفة، لكنّه سرد مكثّف بالتّأويلات، سرد يتناول حكايات تمضي في حوار ذاتي، ومساءلة محوريّة حول عالم يتبدّل، وأفكار تنساق إلى تحوّلات جذريّة.

الواقعيّة غلبت على القصص، لم تجنح إلى خيالات «أمرك مولاي» عند صياح الدّيك، بل، جعلت شهرزاد – دريّة تملأ الخيال برؤية مستحيلة، تبدو كخيط رفيع بين فاصلتين في الحركة البشريّة، ليس هناك من ترابط بين القصص، كلّ أقصوصة تحمل سرديّتها النّثريّة الخالية من المبالغة في الصّور، والجماليّات، لكنّها تمضي إلى معالجة الموضوع في العنوان والهدف.

الأسلوب بدا كطيف حلم، راكمته «شهرزاد» في العديد من المسائل الإنسانيّة: الحبّ – الخيانة – التّكنولوجيا – المثال الّذي تجسّد في صورة وانكسر، ليكون الأسلوب منسجمًا مع طبيعة الأدب القصصي، لاسيّما، أنّ الكاتبة هي أكاديميّة متخصّصة في المجال الأدبي.

لقد استخدمت تقنيّة السّرد بيراع المواجع، بعيدًا عن الإنشائيّة، فالموضوعيّة تمظهرت بشكل واضح، لاذت هربًا من النّرجسيّة الّتي أحيانًا يغلّفها الكاتب في شخصيّات قصصه.

الزّمان: إنّ عامل الزّمان في القصص القصيرة لايغلّب الفترات الزّمنيّة الطّويلة، فالتّكثيف الزّمني يختصر عوالم في قالب زمني حاشد، لكنّه، يؤدّي الفائدة المرجوّة خدمة للقصّة وموضوعاتها، مع «احكي ياشهرزاد» تحوّل الزّمن إلى امتداد فعلي، يؤكّده عنصر المكان، إذ، تعدّدت الأمكنة في المجموعة القصصيّة عند دريّة فرحات: البيت – المكتبة – المقهى – رواق المبنى – القفص – الوطن – الحقل –...، ولكلّ مكان ما يشير إلى فضاءات رمزيّة، على سبيل المثال: «موت عصفور» ص٣٩ «ومع كلّ نفضة، وكلّ رعشة يتطاير الرّيش في أرجاء المكان، اشتدّ ارتطام العصافير بأسلاك القفص بضربات تودي بحياة أيّ منها، لكنّها لم تأبه لهذا بل ازداد صراخها» ص٣٩.

حملت إيحاءات، فالمجموعة القصصيّة في «احكي ياشهرزاد» هي حمّالة إيحاءات تشير إلى واقع حال الأمّة العربيّةعلى المستويين: الفردي والجمعي.

الشّخصيّات: شهرزاد هي المحور، يعني، الموضوعات هي المحّرك، لتكون الشّخصيّة في خدمة الأهداف، انطلقت الشّخصيّة بلغة الغائب – الحاضر، على الرّغم من كلّ تناقضات الشّخصيّات في شخصيّة «شهرزاد» كلّ قصّة تحمل شخصيّاتها، والأدوار، والأحداث، لكن، حرصت شهرزاد – دريّة على إضفاء روح النّقد عند كلّ أقصوصة، ومع كلّ شخصيّة، والشّخصيّات منها الّذي يطغى عليها الإيجاب، ومنها السّلبي، وهذا دأب الحياة.

الخلاصة: أمسكت الكاتبة دريّة فرحات بخيوط الزّمن، لتجعل شهرزاد مرويّة للحياة، ولكن، قرّرت أن تمنح الحياة المفتوحة على كلّ الكلام المباح، علّها توقظ الحكّام من كبوة شهريار، وتمدّ السّلال المملوءة بالقيم، لتقهر الغباء في الفكر العائم على الخرافة، ولتحرّر الطّيور من الجلّاد، ولتمنح الحبّ عباءة الحريّة، والأوطان هويّة الانتماء، ولتجعل الخواطر طريق الجلجلة في صناعة الإيمان، وقرّرت أن تكسر الصّمت، لتكون بطلتها «الذّات» الّتي هي «شهرزاد» صوتها الهادر في الصّباح والمساء، في الخفاء والعلن.

فن الرّسم عند هيغل

د.ديمه بو ملحم[1]

التّطوّر التّاريخيّ:

لرّسم فن يعبّر عن الّذاتيّة الدّاخليّة ويشير إلى خصوصية شخصية الفنان، وما يحتضنه الرّسّام من مشاعر وانفعالات، من غير أن يكون بمنأى عن أثر البيئة والعصر، فيمثل بالتّالي التّطوّر التّاريخيّ للرّسم. ومن أجل إماطة اللّثام عن التّطوّر التّاريخيّ للرّسم، ارتأى «هيغل» أن يتحدّث عن عينّات فنية حقيقية، فأكدّ أنّ «هذا التّطوّر بدأ مع موضوعات دينيّة كانت لا تزال تصمم بكيفية نمطيّة وتنسّق بطريقة معمارية بسيطة، وتلوّن على نحو بدائي. وفي زمن لاحق تسرّب شيئًا فشيئًا إلى الأوضاع الدّينيّة الحاضرة والفرديّة وجمال الشّخوص الحية، والدّاخليّة والعمق، وسحر الألوان وفتنتها، إلى أن آل الأمر بالفن إلى التّوجّه نحو الدّنيويّ، نحو الطّبيعة، نحو الحياة اليومية، نحو الأحداث المهمة في التّاريخ القوميّ الماضي والحاضر، نحو الصّورة الشخصيّة، نحو الأصغر والأتفه دلالة، ولكن مع معالجتهما بحبّ مماثل لذاك الذي تعالج به الموضوعات الدّينيّة، وبسلوكه هذا المسلك لم يحقّق كمال الرّسم الخارجي فحسب بل اكتسب أيضًا المقدرة على التّصميم الحي والتّنفيذ الأكثر فرديّة. هذا ما كانه بصورة رئيسية تطور الفنّ البيزنطي والإيطالي والهولندي والألماني...»[2].

الرّسم البيزنطي

اقتبس الرّسم البيزنطي عن الإغريق التقنيّة الفنيّة، مضيفًا الوضعيات واللّباس من الأقدمين. ولم يمثّل الطّبيعة والحياة، إذ ظلّ تقليديًّا ساكنًا تغلب عليه سمة الجمود، فلم يتجل في الرّسم البيزنطي المحيط والمنظر الطبيعيّ كخلفية، أو التّجسيم

(١) أستاذة في الجامعة اللبنانية.

(٢) هيغل، فن الرسم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص١١٥.

بواسطة النّور والظّل، والمنير والمعتم وانصهارهما، فلم يتسن للرّسم البيزنطي أن يرتقي إلى إنتاج خلاّق حرّ فكان كحرفة خالية من الحياة والروح، «وهذا النّوع عينه من الرّسم غطّى الغرب الذي عصفت به يد الخراب بفن بائس، وانتشر بصورة رئيسية في إيطاليا. لكن ظهر في هذا القطر، منذ زمن مبكر ميل – وجل في بادئ الأمر – إلى عدم الالتزام حصرًا وإلى ما لا نهاية بنموذج مسبق التّشكيل للشّخص وبأنماط تعبيرية متوارثة، وإلى التوجّه نحو فنّ أرقى وأكثر استقلالاً، وهذا بينما لبثت اللوحات البيزنطية، كما يشير إلى ذلك السيد فون روموهر في معرض كلامه عن المادونات وصور المسيح الإغريقية، أشبه، حتى في أحسن الأحوال، بمواضيع محنطة، محظور عليها كلّ تطوّر لاحق وكلّ تجويد. وقد سعى الطليان من جهتهم، حتى قبل طور التّطوّر المستقلّ لرسمهم، إلى التّمايز عن البيزنطيين بإضفائهم على موضوعاتهم الدينية روحية أكثر بروزًا... كان الرّوم الذين ألفوا مرأى العقوبات الجسمانيّة الوحشية، يتمثّلون المخلّص وهو يلقى على الطّيب بكل ثقل جسمه المعلق، فكانوا يصورون الجزء السفلي من الجسم متورمًا، والركبتين مسترخيتين وملويتين إلى اليسار، والرأس مطأطئة ترزح تحت وطأة عذابات ميتة فظيعة. كان موضوعهم إذًا الألم الجسماني بما هو كذلك. أمّا الطّليان، بآثارهم الأقدم عهدًا التي لا تمثّل إلا فيما ندر، كما يسهل تبيّن ذلك، المسيح المصلوب أو مريم العذراء مع طفلها، فقد درجوا على تصوير جسم المسيح على الصليب في وضعية مستقيمة، معلنين بذلك ضمنًا انتصار الروح، وليس انهيار الجسم كما في اللوحات البيزنطية»[1].

الرّسم الايطالي

تميز الفنّ الإيطالي باحتضانه لموضوعات الميثولوجية الإغريقية بالإضافة إلى الدّيانة المنوطة بالعهدين القديم والجديد. لقد سهل على من تأمل في الفن الايطالي أن يستشف في التّصميم والإعداد الفني الواقع الحي للحياة الروحيّة والجسميّة، وذلك من خلال صفاء الطّبيعة وجمال المناظر للشّكل الحسّي، فتمثّل البراءة والجمال والفرح والعذريّة ولطف المشاعر والعواطف الطّبيعية ونبل النّفس المنفتحة على الدين، «وعندما يُضاف إلى هذا الجمال الطّبيعي التّسامي والدّاخليّة المضطرمة بالدّين وروحية الورع العميق، يقوم تساوق بين الشخص الممثّل وتعبيره، وبفضل هذا التساوق، وإذا ما أدرك درجة

(١) المصدر عينه، ص١١٦ - ١١٧

الكمال، يتحقق في مضمار الرومانسيّ والمسيحي هذا المثال الخالص والصّافي للفن... إنّ الإنتقال يبقى هنا مثاليًا، والألم يحمل على التّفكير أكثر مما يؤذي ويجرح، ألم مجرد يطال أغوار النفس، من دون أن يتظاهر بأي تشويه جسدي ومظهري كمثل التّشويه الذي يحدثه الألم والعذاب في الطبائع العادية والمبتذلة التي لا سبيل إلى استخدامها في التعبير عن التديّن والورع إلا بعد معارك قاسية»[1].

تجلّى النغم الأساسي للرّسم الايطالي أي نغم النّفس المحبة المستمتعة بذاتها وبحبها، وحضرت الدّاخليّة والحرية في ذلك الرّسم، «وحتى في تمثيلات الواقع، والأشخاص التي تقيدوا بها بأكبر قدر من الدقة التي كانوا فيها مشدودين إلى الأرض، وكل هدفهم، في الظّاهر على الأقل، أن يرسموا صورًا شخصية، جاءت إبداعاتهم كما لو من شمس أخرى وربيع آخر، فهي أشبه بورود تزهر وتتفتح بدورها في السماء. وعليه، فإن ما يعنيهم في الجمال ليس جمال الهيئة فحسب، ليس الاتحاد الحسيّ للنّفس وللجسم، هذا الاتحاد المنتشر في كل أجزاء الجسم، وإنما سمة الحبّ والتصالح الملازمة لكلّ وجه، لكلّ شكل، لكلّ فرديّة، إنّها الفراشة، النّفس التي تحوم، في ألق سمائها الشمسي، حول الأزهار الذّابلة، وإنّما بفضل هذا الجمال الحرّ، المليء والتام، أمكن لهم أن يحيوا المثل القديمة في المثل الجديد»[2].

لم يتحقّق المستوى المرموق الذي توصل إليه الرّسامون الطّليان إلاّ عبر مراحل متتالية، فمن الخطأ الاعتقاد أنّه قد تمّ إدراك هذا المستوى الرفيع للرّسم دفعة واحدة، ولا يمكن الحديث عن التّطوّر التّاريخيّ للرّسم الإيطالي إلا من خلال مظاهره الأساسية ونمطه في التعبير، و«بعد حقبة من الجلافة والهمجية تخلّى الطّليان عن الطّراز الحرفي في الرّسم، وهو الطّراز الذي أشاعه البيزنطيون، وطفقوا يحلّقون بأجنحتهم الخاصة. لكنّ حقل المواضيع الممثّلة لم يكن واسعًا جدًا، وكانت السّمات الرّئيسة التي يطلب لهم إبرازها هي سمات الوقار والحفاوة والعظمة الدينية. لكن منذ ذلك العصر، وبحسب شهادة دارس كفؤ من دارسيه، وهو السيد فون روموهر، سعى دوشيو من سيينا، وسيمابو من فلورنسا، إلى تمثل بعض بقايا الرّسم القديم، القائم على أساس المنظور والتشريح، وهي بقايا قيض لها أن تستمر في الوجود بفضل التقليد الميكانيكي في الأعمال الفنية المسيحية القديمة، وعلى الأخص في الرّسم

(١) المصدر عينه، ص١١٨ - ١١٩.

(٢) المصدر عينه، ص١٢١.

الروحي وإلى تجديدها ببثّ روح جديد فيها. وتلك كانت أولى الجهود التي حققها الفن ليتحرر من النمطي وليرقى إلى الحي والفردي والمعبّر. وكانت الخطوة التالية عندما استقلّ الرّسم نهائيًا عن تلك النّماذج الإغريقية ليطرق مباشرة، من حيث التّصميم والتنفيذ، مضمار الإنساني والفردي، وليحقّق تكيّفًا أعمق بين الأشخاص والأشكال الإنسانية وبين المضمون الديني الذي يفترض بأنّها تعبّر عنه»[1].

من الرّسّامين الذين تركوا الأثر الكبير في فنّ الرّسم، نذكر «جيوتو» الذي قام بتحضير الألوان بطريقة مميزة، كما اشتهر كذلك بتعديل نمط التّصميم والتّنفيذ، فاستبدل استخدام الشّمع الذي يعطي الألق الأصفر الكامد الضارب إلى الخضرة بطريقة جديدة «تتمثّل في فرك الألوان الأقل تشبعًا بالزّيت، علمًا بأنّه ليس من المستبعد أن يكون الرّسّامون الطّليان في مستهل العصر الوسيط قد استخدموها قبل أن ينصرفوا انصرافًا تامًا إلى تقليد البيزنطيين.. وكما قال «بوكاشيو» في معرض كلامه عن «جيوتو»، أنّه ليس في الطّبيعة شيء لا يتمكن «جيوتو» من نقله وتصويره إلى حد الإيهام بالطبيعي. أما في اللوحات البيزنطية فلا نلفي أثرًا للطّبيعي: «فجيوتو» هو الذي وجه الرّسم نحو الحاضر والواقعي، فما كان يصوّر الشخوص ولا يعبّر عن العواطف إلا بعد مقابلتها بالحياة التي تختلج فيما حوله. وهذا التّوجّه لم يكن إلا بعد مقابلتها بواقع أنّ الأعراف والأخلاق كانت قد أضحت في عصره، بصفة عامة، أكثر تحذيرًا، والحياة أكثر مرحًا... فالتّمثيل النمطيّ للمسيح وللحواريين ولأهم الأحداث المروية في الأناجيل راح يتراجع ويتقهقر أكثر فأكثر، بينما تعددت بالمقابل وكثرت موضوعات أخرى، وباتت «جميع الأيدي مشغولة بتصوير مراحل حياة القديسين العصريين: حياتهم الدنيوية، اليقظة المباغتة لوعي القداسة، دلوفهم إلى حياة الورع والعفة... وغير ذلك من الموضوعات التي ترجع في تمثيلها كفة التعبير عن مشاعر الحي وعواطفه، وهذا يتفق كلّ الاتفاق مع شروط الفنّ الخارجيّة على تعليمات صناعة المعجزات اللامنظورة»[2].

في أواسط القرن الخامس عشر ظهر رسّامان تميّزا بالتّركيز عل جانبين: أوّلاً إظهار تكوّر واستدارة متعاظمين لجميع الأشكال، ثانيًا التبحّر لمختلف الفروق الدقيقة في سحر ومدلول أشكال الوجه الإنساني وتحولاتها من بعضها إلى بعضها

(١) المصدر عينه، ص١٢١ - ١٢٣.

(٢) المصدر عينه، ص١٢٤ - ١٢٦.

الآخر، والعلاقات التي تربط بعضها بالبعض الآخر، فتولى «ماساشيو» الجانب الأوّل وتعهد «انجيليكو» بانجاح الجانب الآخر، ومن شدة طهارة الفكر النسكي وتسامي النفس وقداستها، روي عن بعض الرّسّامين أن الصلاة بورع كانت تسبق الإقدام على الرّسم، أمّا دموع الرّسام فكانت تنهمر مع قيامه بتصوير عذابات المسيح.

مع رغد العيش والرّفاهية وتفاخر البورجوازيين بحياتهم الكادحة ونجاحهم في التجارة والصناعة وشغفهم للحرية، وتباهيهم بشجاعتهم الرجولية وطينتهم، كان لا بدّ من أن يضاف إلى الرّسم الإيطالي رصيد جديد في مجرى التّطوّر، فحضرت بشكل جميل المناظر الطّبيعية كخلفية للوحات، وكذلك المناظر للمدن وحواشي الكنائس والقصور «وطفقت الصور الشّخصية لمشاهير العلماء والأصدقاء ورجال الدّولة والرّسامين وغيرهم من الأشخاص الذين حظوا بمحاباة معاصريهم بروحهم أو مرحهم الصافي تحتل مكانها في اللوحات التي تمثّل أوضاعًا ومواقف دينية، وصار الرّسامون يستخدمون بمزيد من الحرية معالم وسمات مقتبسة من الحياة العائلية أو المدينة، وفيما بقي الجانب الروحي للمضمون هو الذي يشكل الأساس، لم يعد تعبير الورع معزولاً،ولم يعد موجودًا لذاته، بل أمسى مرتبطًا بالحياة الواقعية، الأوسع نطاقًا، أي بالحياة الدنيوية»[1].

ارتأى كبار رسّامي القرن السّادس عشر أن يجمعوا باعتدال بين الواقع الحي الأوسع والأكمل وبين تدين النّفس الداخلي، أو بمعنى آخر بين الدّاخليّة العميقة ووقار النفس المفعمة بالتدين وبين حس الحياة الحاضرة، الروحية والجسمية، للأشخاص والأشكال، ومن الذين نجحوا في هذه المهمة نذكر «ليوناردو دافنشي» الذي قدّم أروع ما يكون من رسم يجمع الجلال في تصميم الموضوعات الدّينية، بحيث جاءت شخوصه، على اتسامها بواقع أكمل وبتعبير من الصفو الهادئ والباسم في الإيماء ورشاقة الحركات، غير متجددة من العظمة التي يقتضيها احترام رفعة الدين وحقيقته.. بيد أن رافائيل هو الذي حقّق أكمل ما نعرفه في هذا المضمار. ويكتشف السيد «فون رومهر» بالفعل في مدارس الرّسم الأومبرية، بدءًا من منتصف القرن الخامس عشر، سحرًا خفيًا وحنو العاطفة، وكذلك بالفن الآخاذ الذي قرن به هؤلاء الرّسامون الغائمة التي احتفظوا بها في الفنّ المسيحي الأقدم عهدًا بأفكار عصرهم الأقل تزمتًا،

(١) المصدر عينه، ص١٢٩.

فتفوقوا بذلك على معاصريهم التوسكانيين والبندقيين»[١].

أما النّجاح الباهر في فن الرّسم فكان لـ «بيترو البيروجي» معلّم رافائيل الذي جسّد في رسوماته الموضوعية الحية هيئة الشخوص الخارجية والتعمق في الواقعي والفردي، أمّا «كوريجيو» فقد اشتهر بالسحر في المنبر – المعتم، من دون أن يكون رسمه بمنأى عن اللّطافة في التّعبير عن المشاعر والعواطف وعن رهافة الأشكال والحركات والتجميع[٢].

الرّسم الهولندي والألماني

في حين تميّز الرّسّامون الطّليان في رقيهم في مستوى الأشكال والتعابير الحرة والمثاليّة وبالتالي تجسيدهم الجمال الروحي في أروع اللوحات، نرى أن الهولنديين والألمان قد افتقروا إلى هذا الرّقي، إلا أنهم قد تميّزوا بالتّعبير بصورة مطابقة أكثر من عمق مشاعر النّفس واستقلالها الذّاتي، كما أنّهم لم يكتفوا بإضفاء حميمية الإيمان على رسمهم بل أرادوا أن يبرزوا من خلال فنهم خصوصية الشّخصية الفرديّة وتبيان «كيفية تصرف الأفراد الممثلين في الحياة الدنيوية، وفي كيفية مواجهتهم هموم الحياة واكتسابهم في هذا العمل الشاق والمضني، فضائل دنيوية، الوفاء، الدأب، الاستقامة، رباطة الجأش، الفروسية، والصّلابة المدنية، وفي هذا النّزوع إلى الوقائع المحدودة تواجهنا، لدى الألمان بوجه خاص، وبالتّعارض مع أشكال الرّسّامين الطّليان بشخوصهم التي كانت من البداية أنقى وأطهر، تعابير هي تعابير الأشخاص من ذوي الطّباع العنيدة والمتمرّذة الذين يتحدّون تارة المشيئة الالهية بقوة وشراسة، ويضطرون طورًا إلى غصب أنفسهم وتحميلها ما لا تطيق حتى يتحرروا، بواسطة العمل الشاق، من إسار حياتهم المحدودة والفجة، ويتمكنوا من بلوغ التصالح الديني، وهذا من شأنه أن يترك ندوب الجراح البليغة التي اضطروا إلى إنزالها بداخليتهم بادية في تعبير ورعهم وتقواهم»[٣].

ونحن نلفي أروع اللوحات عند الهولنديين القدامى، فقد عد «فان آيك هوبرت» و«يان» من مبتكري الرّسم الزيتي، واستطاع هذان الأخوان استبعاد النمطي وتجاوزه، وتفوقا في «رسم الخطوط، وفي تمثيل الوضعيات، وتجميع الأشخاص، والتّمييز الدّاخلي والخارجي، وفي إشراق الألوان وحرارتها ونعومتها وتساوقها، وفي عظمة التّركيب وطابعه الناجز، بل إنّ

(١) المصدر عينه، ص١٣٠.
(٢) المصدر عينه، ص١٣١.
(٣) المصدر عينه، ص١٣٢ – ١٣٣.

المحيط الطّبيعي، والوسائل المساعدة المعمارية، والآفاق، وفخفخة الأقمشة، وتنوعها، والملابس والأسلحة، وأدوات الزينة، الخ كل ذلك مصور بأمانة مثلى، بحسّ رسميّ عظيم، بمهارة كبرى، حتى أنّ العصور التّالية عجزت عن إنتاج ما يضاهيه كمالاً، وعلى الأقل من حيث الحقيقة والعمق... غير أن الهولنديين ما استطاعوا أن يرقوا إلى المستوى نفسه من جمال الشكل وحرية النفس، وتمثيلاتهم ليسوع الطفل بوجه خاص تشكو من خلل التكوين كما أن شخصياتهم الأخرى، سواء أكانت لرجال ام لنساء، إن كان تعبيرها الدينيّ ينمّ عن تعلّق، مؤيّد بعمق الإيمان، بشؤون هذه الدنيا، فإنّها تبدو بالمقابل، إذا ما تمثلناها فوق مستوى هذا الورع أو بالأحرى تحته، عديمة الدّلالة وعاجزة عن توكيد ذاتها ككائنات حرّة، غنيّة بالخيال والروح»[1].

أما إذا تأملنا جليًا لوحات الألمان، فإننا نلمس من دون أي شك الفساد الدّفين في القلب من خلال إظهار فظاظة العسكر، وخباثة الهازئين، والهمجية في تعذيب السيّد المسيح، وأبرز ما يتمثّل في لوحات الرّسّامين الألمان آنذاك كان تكشيرات الوجوه المسيخة والحركات الوحشية كتعبير عن الأهواء المسعورة، وبالنّظر إلى كثرة عدد الشخوص التي يزحم بعضها بعضًا ووحشية الطّبائع، فلا غرو أن تفتقر هذه اللوحات إلى التّساوق الدّاخلي، سواء أفي التّكوين أم في التّلوين بالذّات... على أنّه لا مفرّ لنا من القول إنّ معلّمي ألمانيا الشّمالية لم يقتصروا على رسم هذا النّوع من اللوحات حصرًا، بل عالجوا أيضًا موضوعات دينيّة بالغة التّنوع، واستطاعوا، نظير ما فعل «البرشت دورد» مثلاً، أن يشيحوا، حتى في تمثيلات درب الآلام، عن المشاهد المفرطة في وحشيتها وهمجيّتها، أو عرفوا، عندما كان يسعهم تحاشيها، كيف يضيفون عليها قدرًا من النبل الداخلي وحرية واستقلالاً خارجيين»[2].

علّل هيغل ولادة الطّور الأخير للفنّ الهولنديّ والألماني بالشّروط القوميّة، إذ كان لتيار الإصلاح الدينيّ في هولندا الدّور المهم والأثر الكبير على الفنّ، فقد كان لأهل المدن وللبورجوازيين الحاذقين موقف جريء، إذ أنّهم لم يتردّدوا في الدّفاع عن حقوقهم التي كسبوها بشرف وعن مدنهم وروابطهم المهنية، فألفيناهم «نهضوا نهوض الواثق بربّه وبشجاعة نفسه ورجاحة عقله، ومن دون أن تخيفهم الخطوة الهائلة للسيطرة الأسبانيّة التي كانت تشمل نصف الكرة الأرضية خاضوا غمار الأخطار كافة، وأهرقوا دماءهم

(١) المصدر عينه، ص١٣٣ - ١٣٤.

(٢) المصدر عينه، ص١٣٥.

ببسالة، وبفضل هذه الجرأة وهذه المصابرة اللتين كانوا يستمدّونهما من وعيهم حقوقَهم انتهى بهم الأمر إلى الفوز باستقلالهم الديني والمدني. وإن يكن ثمة من حالة نفسيّة يمكن وصفها بأنّها ألمانية، فهي حالة هؤلاء البورجوازيين... هؤلاء القوم الأذكياء، الموهوبون فنيًا، يريدون أيضًا أن يظهروا في الرّسم طبعهم الصلب، المستقيم، القانع والسهل، يريدون أن يلتقوا في لوحاتهم من جديد، وفي جميع الأوضاع الممكنة، نظافة مدنهم وبيوتهم وعدتهم المنزلية، وأن يستمتعوا بطمأنينتهم البيتية، وبزينة نسائهم وأولادهم المحتشمة، وببهجة أعيادهم البلدية... وحتّى عندما ينتقل من الموضوعات العديمة الأهمية واللزوم إلى مشاهد الحياة الفلاحيّة إلى الطبيعة الفجّة والسوقية، نجد هذه المشاهد مشبعة بالمرح البريء وبالفرح العفوي بحيث يبدو وهذا المرح، وهذا الفرح وكأنّهما هما اللذان يشكلان المضمون الحقيقي، وليس فجاجة المشاهد وسوقيتها»[1].

تنوّعت الفنون وتباينت، وكان للنّحت والرّسم والموسيقى والعمارة والمسرح والسّينما والفنون الأخرى محطات في حياة الإنسان الذي يسعى من دون كلل أو ملل إلى الاستمتاع في هذه الدّنيا وإلى التّعبير عمّا ينتابه من مشاعر تتصارع في شخصيته، ولم يحقق النحت القديم ما سعى إليه الإنسان من تثبيت مبدأ الّذاتيّة المتناهية واللامتناهية، مبدأ حياة الإنسان الخاصة. في الرّسم يتم الجمع بين الدّاخليّة وبين الجسمانية والمحيط الخارجي، «وبفعل تخصيص الإنسان هذا وتوكيد استقلاله عن الطبيعة وعن الله وعن الوجود الداخلي والخارجي لغيره من الأفراد، وبنتيجة العلاقات الحميمة التي تنعقد، من جهة ثانية، بين الله والجماعة، بين الإنسان المفرد من جهة وبين الله والمحيط الطبيعي والحاجات والغايات والأهواء والأعمال، التي تملأ بتنوعها اللامتناهي الوجود الإنساني، من جهة ثانية، يغدو الرّسم قادرًا على التعبير عن الحياة والحركة التي كان النحت، بحكم مضمونه ونمط تمثيله على حدّ سواء، مكرهًا على إهمالها وإغفالها، ويجد في متناوله موضوعات لا تقع تحت حصر وتنوعًا في أنماط التعبير ما كان متوافرًا للنّحت. وهكذا يكون مبدأ التّوسط والتّجمع، مما يتيح للرّسم أن يجمع في عمل واحد ما كان، حتى الآن، من اختصاص فنّين اثنين: المحيط الخارجي الذي كان من اختصاص العمارة والشكل الروحي الذي كان من اختصاص فنيين اثنين: المحيط الخارجي

(١) المصدر عينه، ص١٣٧ - ١٣٨.

الذي كان من اختصاص العمارة والشكل الروحي الذي كان من اختصاص النّحت، فالرّسم يضع شخوصه على بث الحياة والحركة في هذا الخارجي إلى حدّ تحويله إلى انعكاس للذّاتية وإلى حدّ خلق توافق وتناغم بينه وبين روح الشّخوص التي تتحرك في إطاره»[1].

لا بد من الإقرار حسب رأي هيغل بأستاذية الرّسم من خلال التّعبير عن الحياة العميقة الروحيّة، وتقويم اللوحات مرتبط ضرورة بالّذاتيّة، فحياة العواطف هي النّواة للفن الرومانسي، والرّسم – خلافًا للنحت والشعر والموسيقى– مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالداخل والخارج معًا فهو يعبّر خارجيًا عن الدّاخليّة الكاملة، إذ «لا يجوز للرسم أن يدخل في مضماره إلا ما هو قادر، خلافًا للنحت والشعر والموسيقى على تمثيله بواسطة الأشكال الخارجية ومن خلالها، أعني تركيز الروح الذي يبقى تعبيره عصيًا على النحت، بينما تعجز الموسيقى عن إعطاء الدّاخليّة تعبيرًا خارجيًا عينيًا، ولا يتمخّض الشعر نفسه إلا عن تعابير خارجية ناقصة[2].

عندما ركّز هيغل على حياة النفس، جاعلاً منها مضمون الرّسم، فإنه لم يكن إلا قاصدًا مرور النفس بجميع ضروب العواطف، وبذلك تكون قد صارعت وكافحت دون انكفاء إلى داخل ذاتها، حتى وصلت إلى شعور الصفو والسعادة، ويجب أن يكون ذلك الشعور ذاتيًا وشخصيًا فالطوبى لا تكون إلا للنفس التي مرّت بتجارب مريرة وكابدت وحظيت في نهاية المطاف بالانتصار على آلامها. ويبدو أن هيغل لم يجد في أسطورة هرقل كما قصده هنا في مفهومه للسعادة، إذ أنّ المهام التي قام بتنفيذها هرقل كانت الأعمال الخارجية، بالإضافة إلى أن السّعادة لم تنجم عن المكابدة والمعاناة، ولم يستطع «هرقل» أن يوقف «زفس» عند حدّه[3]، إنّ ما يشكّل في هذا المضمون الجانب المثالي بحصر المعنى هو تصالح النفس الّذاتيّة مع الله الذي اجتاز بنفسه، في تجسّده البشري، درب الآلام هذا.

فالدّاخليّة الجوهرية هي داخلية الدّين، إنها شعور الطّمأنينة الذي يخالج الذات التي لا تكون راضية بملء معنى الكلمة الا بقدر ما تفرغ إلى ذاتها، الذات التي حطمت قلبها الأرضي وسمت بنفسها فوق طبيعة الوجود وتناهيه وفازت عن طريق هذا التّسامي بالدّاخليّة العامة، الدّاخليّة في الله والاتحاد

(١) المصدر عينه، ص١٢ - ١٣.
(٢) المصدر عينه، ص٣٧ - ٣٨.
(٣) المصدر عينه، ص٣٩.

معه. صحيح أنّ النّفس تريد ذاتها، لكنّها تريد ذاتها في آخر مغاير لذاتها، مثلما هي كائنة في خصوصيتها، ولهذا تعزف عن ذاتها لتلتقيها من جديد في الله ولتحظى بالغبطة، وهذا ما يميز الحب، الدّاخليّة في كل حقيقتها، الحبّ الديني، المترفّع على الشهوات، الذي يحمل إلى الروح الوفاق والطمأنينة والسعادة. والفرح الذي يعتري الذات ليس هو الفرح الذي يتأتى عن الحبّ الواقعي الحي، وإنما هو فرح براء من الأهواء، براء من الميول والنوازع، محض توجّه للنفس، حب يرى في الموت، من منظوره الطبيعي، زوالاً يضع حدًا للعلاقات الأرضية القائمة بين بشر وبشر، والكاشفة عن عرضيتهم وبطلانهم، والمظهرة للعيان أنّهم غير مختومين بخاتم الكمال، بل هم موسومون بعيوب الزمنية والتناهي، ممّا يولد صبوًا إلى عالم آخر يكون هو الوعد الأوحد بحبّ بريء من الشهوات والأهواء وبفرح لا يعكّر صفوه أي وهم وأيّ شاغل ذي صفة شخصية، ذلك هو ما يؤلف الحالة النفسيّة المثلى، العليا، العميقة، التي تحلّ من الآن فصاعدًا محلّ عزّة النفس الهادئة واستقلالها لدى القدامى»[1].

تبوّأ الحبّ المتصالح مع نفسه، الحبّ الراضي المرتبة الأسمى في الفنّ الرومنسي، في فلسفة هيغل، وبناء على ذلك ينبغي أن يحتضن الرّسم مضمونًا روحيًا ذا شكل بشري واقعي، وجساني حي وحاضر. ففي الأسرة المقدّسة نجد المضامين الأكثر روحية، بدءًا من حبّ مريم العذراء لطفلها إلى المسيح الذي يجمع بين الطبيعيتين الالهية والبشرية، من دون أن نستثني القديس يوسف، والقديس يوحنا، والرسل، وأخيرًا الشّعب الذي اقتدى بالسّيد المسيح وعن اللوحات التي مثلّت وجه المسيح، فقد قال هيغل: «صحيح أن لوحة «فان آيك» جديرة بالإعجاب بشكلها، بجبهتها، بلونها، لكنّ الفم والعينين [لا يعبّران] عن شيء فوق بشري. بل توحي بالأحرى بوقار متصلّب، يزيد من حدّته أيضًا نمطية الشكل والمفرق الذي يشطر الشعر شطرين، الخ. أما لو أعطيت هذه الوجوه على العكس شكلاً وتعبيرًا قريبين مما هو إنساني، أي مصبوغين بالطّيبة والدماثة، لفقدت بسهولة قدرًا من عمقها، ولكان وقعها أقل قوّة وأضعف تأثيرًا، بيد أن أكثر ما لا يناسبها هو، كما سبق إلى القول، جمال الشكل الاغريقي.... وإنّما في نير هذه المواقف التي يفترض أن تتجلى فيها الألوهية من خلال الّذاتيّة البشرية، يصطدم الرّسم بعقبات جديدة... وفي

(١) المصدر عينه، ص٤٠ - ٤١.

مستطاع الرّسم أن يجد مخرجًا من هذا المأزق بتمثيله ألوهية المسيح بالتعارض مع محيطه، مع فساد البشر وحطتهم وخبث طويتهم، أو على العكس بواسطة أولئك الذين ينتشلونه، بصفتهم بشرًا ومعادلين له، بما يخصونه من عبارة هو الذي يتجلى والذي هو حاضر – من الوجود المباشر، بحيث نراه يرقى إلى سماء الروح»[١]، غير أنّ مشاهد البعث والتجلي والصعود للمسيح توجب أن تظهر المسيح متحليًا بصفات الألوهية، الا أن الرّسم يعجز عن ذلك، أمّا رسم طفولة المسيح فهو الموقف الأقرب إلى أهداف الفنّ ويقصد هيغل الرّسم الذي يظهر الألوهية معاقة مخفوضة الشأن، في طور النّفي»[٢]، وفي الصّور التي رسمها «فان آيك» لمريم العذراء، نجده أصاب أمثل قدر من النجاح في تصوير الأطفال فهو يمثلهم في أكثر الأحيان متصلبين، ناقصي الشكل، وكأنّهم من المواليد الجدد. وقد أراد بعضهم أن يرى في طريقة تصوير الأطفال هذه قصدًا ما، ترميزًا ما، فقال: لئن افتقر هؤلاء الأطفال إلى الجمال، فلأنّ المسيح الطفل لا يعبد لجماله، وإنّما لأنّ الطّفل هو المسيح. بيد أن هذا الاعتبار لا يجوز أن يتدخّل في الفنّ، ولا جدال في أن أطفال رافائيل متفوقون كثيرًا، من وجهة نظر العمل الفني، على أطفال «فان آيك»، ولا تقلّ صراحة للتمثيل قصة درب الآلام: المسيح الذي يهزأ به الجمع، المتوج بالشك، الـ ECCE HOMO، حمل الصليب، الصلب، الإنزال عن الصليب، الدفن، الخ. اذ أنّ الألوهية، غير المظفرة هذه المرة، بل المذلة في قوتها وحكمتها اللامتناهيّتين، هي التي تقدم هذا المضمون. وهذه الموضوعات ليست في متناول الفنّ بصفة عامّة فحسب، بل يمكن أيضًا لأصالة في التصميم أن تتظاهر بحرية في هذا المضمون، من دون أن تسقط في الشطط والغرائبية»[٣].

ذهب هيغل إلى القول إنّ الحبّ المكتفي بذاته، الماثل في الشيء، المبصر من قبلنا هو الجدير أن يُرسم، لذلك فحبّ مريم هو الأقوى للمسيح هو الذي يمثل أجمل مضامين الفن المسيحي، إذ أنّه يختلف عن حبّ الزوجة للزوج والأخت للأخ، فنفس مريم المفعمة بالحبّ لطفلها وبالتبجيل والعبادة والحبّ لله ونفسها ذاتها التي تشعر بشكل لا متناهٍ بأنّها الوحيدة بين النساء العذراء المباركة التي لم توجد إلا من أجل هذا الطفل الكامل في الله وهي الرّاضية

(١) المصدر عينه، ص٤٦ – ٤٨.
(٢) المصدر عينه، ص٤٨.
(٣) المصدر عينه، ص٤٩ – ٥٠.

والفرحة بذلك، جعل حبّ مريم هو المضمون الموائم جدًا للرّسم الديني، وعليه يمكن أن يضاف إلى هذا المضمون البشارة والزيارة والميلاد والهرب إلى مصر، إلخ... ومريم «ما كانت تشعر بالحبّ فقط، بل كانت كلّها حبّ أيضًا، فهي تحفظ وتصون المضمون المطلق لما فقدته، ورغم فقدان الحبيب تتابع حياتها في السّلام الذي يتأتى عن الحبّ. صحيح أن قلبها ينفطر، لكن جوهر قلبها، ومضمون نفسها، التي تتظاهر حياتها اللافانية عبر آلامها، يمثّلان شيئًا أسمى بما لا يقاس: جمال النفس الحيّ، بالتعارض مع الجوهر المجرد الذي يمكن لوجوده المثالي، وأن الوثيق الارتباط بالجسم، أن يبقى قائمًا بلا مساس إذا ما افتقدت أسباب الحياة، ولكن بعد أن يتحوّل إلى حجر.

موضوع أخير يقتبس من سيرة مريم، هو موضوع موتها وصعودها. و«سكوريل» بوجه خاص هو الذي أبدع في رسم موت مريم وأرجع إليها كل سحر الشباب. فمع أنّه مثّل العذراء، وكأنّها في حال من السرنمة، من الموت، من التخشّب، من العمى عن الخارج، أضفى عليها تعبيرًا يشف عن روحها خلل القسمات الخارجية، بحيث يساورنا انطباع بأنّ روحها لا يمت بصلة إلى حالة جسدها، وبأنّه في مكان آخر، بعيدًا عن الجسم»[1].

أشار هيغل بالرّسّام الذي تغتني لوحته بالتّناغم بين الشّعور الذي ينتاب النّاس وبين الأشكال الحسيّة، وقد تفوّق الطّليان في خلق هذا التّناغم في لوحاتهم، بينما عجز الألمان والهولنديون في ذلك، إذ أن الفنّ الألماني والهولندي كان قد برع في رسم الصور الشّخصية. كما رأى هيغل أنّه من الخطأ الاعتقاد أنّه لا بدّ لورع النّفس أن يعبّر عن استغاثة إنسان مرّ في شدة خارجيّة أو داخليّة، فالورع عند هيغل «يعبّر عن استغراق – قد لا يكون بمثل وداعة استغراق الراهبات عن استسلام للنفس، بكل الفرح وبكل الرّضى الذي يتأتّى عن هذا الاستسلام من جانب نفس هي دومًا على أهبة الاستعداد، ودومًا متهيئة وحاضرة... إن استسلامًا كهذا لا تستغرق فيه الذات بجماعها – ودليلنا على ذلك شعور القلق الذي يعتمل فيها – لا يمتّ بصلة إلى جمال المثال الرومنسي... نقطة أخرى يجدر التّنويه بها بهذا الصّدد وهي تدخل السّلبية في حميا الحبّ الروحية. فالحواريون والقديسون والشّهداء لا بدّ لهم أن يجتازوا، إن خارجيًا وداخليًا، الجلجلة نفسها التي سبقهم المسيح إلى اجتيازها

(١) المصدر عينه، ص٥٣.

على درب آلامه. يحتلّ الألم مكانه بصفة جزئية عند حدود الفنّ، هذه الحدود التي قد يستهوي الفنّ بسهولة تخطيّها، وذلك بقدر ما يتحدّد مضمون هذا الألم بفظاعة العذاب الجسماني، والأجسام المعذبة والمحروقة على نار هادئة، وعذاب الصليب.... إنّ الرّسم لا ضلع له ولا علاقة له بهذا الجانب الحسّي»[١].

لم يعدّ هيغل الرّسم فن محاكاة، إذ أنه أوجب على الرّسّام أن يبرز في لوحاته حياة الطبيعة بالذات، فالتّعاطف حاضر بقوة بين أحوال خاصة من هذه الحياة وبين بعض ميول النّفس البشريّة ومنازعها، فبالإضافة إلى الدّائرة الدينية التي ينهل منها الرّسم موضوعاته، ذكر هيغل أيضًا دائرة الطّبيعة التي يستخدمها الرّسم في شكل منظر طبيعي[٢]، ليس مضمون الرّسم الدّاخليّة الباطنية فحسب، بل كذلك الدّاخليّة المتخصصة. وهذه الدّاخليّة، بحكم تخصصها، لا تبقى مربوطة بموضوع الدّين المطلق، كما لا تقتبس من الطبيعة الخارجيّة منتجاتها الحية ومناظرها. لذا فعلى الرّسم أن يجدّ في أثر كلّ ما هو قيمي بإثارة اهتمام الإنسان، بوصفه ذاتًا فردية وكل ما هو قمين بانتزاع رضاه... ذلك أنّ مهمّة الفنّ، هنا أيضًا، تمثيل المثال على أنّه واقع، ووضع ما تطاله الحواسّ في متناول الادراك، ونقل المواضيع التي تعود في أصلها إلى ماضٍ بعيد إلى الحاضر من خلال أنسنتها[٣].

مع انبثاق الفرح الحي من كلّ وجود مستقل، ومع التّنوّع وتعدّد الغايات والاهتمامات، وجد هيغل أنّ الإنسان يتماهى مع خصوصية ما يفعله في الحاضر المباشر، «ويولد هذا التّماهي، بين الذّات وبين الخصوصيات التي تمارس عليها نشاطها تناغمًا يمثل هو الآخر داخلية تضفي على هذا الوجود الشامل، المغلق، المكتمل جاذبية الاستقلال. وهكذا فإنّ الإهتمام الذي تثيره فينا هذه التمثلات يكمن في مصدره ليس في الموضوع من حيث هو موضوع، بل في الموضوع الذي صار حيًا إن جاز القول والذي لا بد أن يلقى صدى فرحًا في نفس كل إنسان لم تفسد حواسه، في نفس كلّ إنسان حرّ حقًا وصحيح الفكر. إذًا فلنحاذر أن يعكر علينا متعتنا أولئك الذين يزعمون أنّ هذا النّوع من الأعمال الفنية ينبغي أن ينال إعجابنا بسبب نزعته الطّبيعية المزعومة أو محاكاته الدقيقة للطبيعة»[٤].

(١) المصدر عينه، ص٥٨ - ٥٩.
(٢) المصدر عينه، ص٦١ - ٦٢.
(٣) المصدر عينه، ص٦٣.
(٤) المصدر عينه، ص٦٤.

ظاهرة الموالي في العصر الراشدي
(خلافة عمر بن الخطاب إنموذجًا)

باسم سليمان العشعوش

أولاً: بدايات تبلور فكرة الموالي

ظهرالمجتمع الإسلامي بوحي من الرسالة الجديدة، حيث أخذت الاعتبارات الإنسانية والمفاهيم السامية الحيَز الأكبر في طرق تعاطي المكونات الاجتماعية بعضها مع بعض. فأصبحت العدالة، القاعدة الأساسية في بناء مداميك الانسجام بين أبناء الجماعة الإسلامية ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[1]، متجاوزة الإطار القبلي الجاهلي، فكانت اللهفة وتقديم المساعدة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[2] دافعًا قويًا للشعوب الضعيفة والمقهورة للالتجاء نحو الدين الجديد، بما وجدوا فيه من ملاذ آمن يحميهم من الظلم والقهر الاجتماعيين. فالجماعة الإسلامية لم تتبلور إلا بعد تجاوز المرحلة الأولى من الدعوة في مكة المكرّمة، حيث لم تتح للرسول محمد(ص) إمكانية التعامل بانسيابية مع المكونات الأساسية فيها، فقد واجهته كمية كبيرة من العوائق والموانع، بدءًا من وقوف قبيلته قريش في وجهه، وكذلك حين نقل إطار الدعوة إلى يثرب «المدينة المنورة» وتمرد القبائل اليهودية بوجه دولته الفتية. فهل أخذ مسار السلطة السياسية والذي تشكل عقب وفاة المؤسس والأنموذج الرسول الكريم(ص) بما يتناسب مع هذه المبادئ السامية؟ وهل استطاع العرب الخروج من دائرة عصبيتهم القبلية والقومية وتجاوزها إلى إطار أوسع وأشمل لتشكيل سلطة سياسية تجمع الفئات الاجتماعية كافة على قاعدة المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات وبالتالي تحقيق مفهوم المواطنة الكاملة بين هذه الفئات؟ وهل شكّلت القيم الإنسانية، قاعدة العلاقة بين الناس والسلطة السياسية؟.

(١) سورة الرحمن، الآية: ٧.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٥.

١- اجتماع السقيفة

توفى النبي الكريم(ص) في العام ١١ للهجرة، مخلفًا تراثًا إنسانيًا شاملا من الرؤية المساواتية الكاملة بين جميع الناس «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلّكم لادم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى»(١) ما شكّل بداية عهد جديد بالنسبة إلى الكثير من الفقراء والمعذّبين في مجتمع تميّز بعصبية قبلية ونظام تفاوتي اجتماعي واضح.لكن مسار السلطة السياسية أخذ منحى مخالف لهذه التعاليم الإنسانية، حيث التجربة الوليدة ما لبثت ان واجهت تحدّيين كبيرين، كل واحدة منهما كاف لإحداث ارتجاج في الجسم الاجتماعي الغض، الأول تمثّل بظهور حركة ارتداد مقلقة في اليمن واليمامة، فيما تمثّل الثاني بالصراع السياسي، غير المسبوق، على خلافة النبي، حاولت كل من قريش والأنصار، في اجتماعالسقيفة، اقتناص الفرصة لاستلام زمام الحكم رافعين شعارات لا تخلو من نظرة قبلية واستئثارية للحكم والسلطة.

فالشعارات التي أخذ بها كل من المجتمعين في السقيفة، سواء من قريش أو من الأنصار لم تخل من رؤية قبلية وجاهلية صرفة، والتي تجسدت بمحاولة المهاجرين استعادة الإمساك بالزعامة منفردين دون الأنصار باعتبارهم «أقرب الناس نسبًا برسول الله (ص)، وأقربهم بيتًا من بيت الله»(٢). وهي من الشعارات التي عرفت قريش كيف تستغلّها وتصقلها خدمة لأحلامها السياسية، الا وهي سيادة قريش على الجماعة الناشئة، وقد تفتّق العقل «البرغماتي» لدى ائتلاف بعض قادة المهاجرين عن أفكار ومسوّغات لامست العصب القبليالذي كان ما يزال حيًا، بل قويًا عشية السقيفة، فيما لم يوفّق الأنصار في تقديم منطق موحد وحاسم في المداولات الطويلة.

ولعل قريش استشعرت خطورة المرحلة ودقتها قبل وفاة الرسول الكريم(ص) نفسه، بما يتركه فقدان المؤسس من فراغ سياسي، قد لا يكون من مصلحتها، أمام تكتّل الأنصار ذي العدد والمنعة في مدينتهم، دافعةً بهم الي التكتل حول ابي بكرقبل اجتماع السقيفة(٣)، توجسًا لأي وقع مفاجئ

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، البيان والتبيّن، م٢، قدّم لها وبوبها وشرحها الدكتور علي أبو ملحم، منشورات دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص: ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٤.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، م٢، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية بيروت، لبنان، ٢٠٠٣، ص: ٢٣٥.

قد يجابههم من قبل الأنصار أو غيرهم.

فالمسألة السياسية تصدرت اهتمام قريش في أواخر العهد النبوي، وذلك لمعرفتها بإنّ المركز السياسي الأول أي الخلافة، قد أصبح محط أنظار الكثير من الطامحين السياسيين ولاسيما الأنصار المنافس الأكبر لقريش لاقتناص فرصة الغياب المذكور. فكانت سرعة الحركة سيدة الموقف من قبل البعض من رموز قريش، وهو ما يعكس دليلاً على أهمية المرحلة ودقتها للاحتفاظ على الأقل بالسلطة السياسية ومركز الخلافة حيث «كرهوا ان يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»[١]، آخذين بعين الاعتبار ان قوتهم العصبية وإرثهم الجاهلي المكتسب قد ينقذهم من منافسة الأنصار لهم، مستندين بذلك إلى مجموعة من الشعارات، ربما كان بعضها اكثر تأثيرًا في الوجدان العربي آنذاك وهو «الخوف على الجماعة من انحلال عقدها غبّ وفاة رسولها»[٢] ولتصبح هذه الجماعة حكراً على قريش فقط دون الأنصار وكافة المكونات الإسلامية الأخرى خارج المنظومة القرشية وعصبيتها القبلية.

هذا ولم يكن الأنصار بعيدين عن هذا التوجس السياسي الذي بدأت تلتمس أطيافه قبيل فتح مكة وبعد الانتهاء من غزوة حنين، وهو ما استشعره مرشح الأنصار في السقيفة سعد بن عبادة الخزرجي، الذي سارع إلى شد العصب الأنصاري «ساق اليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة»[٣] محاولاً تثبيت أحقية مطالبهم، وذلك لإدراكه بإنّ جبهة الخصم كانت تتسلح بقوة عصبية شرسة قلّما امتلكتها أي من القبائل العربية الأخرى. ولذلك سارع سعد إلى مخاطبة الأنصار بالمنطق القبلي وباللغة الأقرب إلى العقلية العربية آنذاك، في محاولة منه لشد أزرهم أمام المهاجرين «فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم»[٤] مسوغًا مطالب الأنصار بالاتكاء على إرث إسلامي نضالي، أدّى دورًا مهمًا في تثبيت الشرعية الإسلامية ومفاهيمها أمام شراسة قريش وعصبيتها.

وإذا كان للأنصار مسوّغات إيمانية أو جهاديّة، يمكن ان تستند إليها في مطالبها السياسية في السقيفة، فإن تكتّل المهاجرين كان يمتلك الكثير من هذه المسوّغات

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٣٦.

(٢) بلقزيز، الدكتور عبد الإله، الفتنة والإنقسام، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م، ص: ٣٣.

(٣) الطبري، ، م٢،لمصدر سابق، ص: ٢٤٢.

(٤) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله مسلم، الإمامة والسياسية، الجزء الأول، تحقيق الأستاذ علي شيري، منشورات الشريف الرضى، الطبعة الأولى، قم، إيران، ١٣٧١هـ - ١٤١٣هـ، ص: ٢٢.

السياسية والقبلية، مدركًا في الوقت ذاته بأنه السلاح الأقوى والأجدر في معركة السلطة السياسية التي دارت رحاها في السقيفة، ولذلك لم تتوان قريش عن استخدام أشرس الوسائل القبلية أمام تكتّل الأنصار غير الثابت نتيجة مخلّفات قبلية، يعود بأكثريتها إلى الفترة السابقة للإسلام، والتي لعبت دورًا مهمًا في استسلام الأنصار وانحلال عقدهم أمام الأُطروحات القبلية التي صاغتها قريش امامهم «أولياؤه وعشيرته، وأحق بهذا الأمر من بعده» في محاولة[١] منها لإصابة مسوّغات الأنصار في العمق، حتى تمكنوا من سحب البساط أمام مطالبهم السياسية، ومدركين في الوقت نفسه بإنّ مسألة الخلافة لا يمكن ان تعالج إلاّ ضمن إطار سياسي محض، فالعقلية القرشية ادركت بإن «سلطان محمد وميراثه»[٢] قد أصبح جزءًا مهمًا في التركيبة السياسية القادمة، وهو ميراث لم يكن بمستطاع العقلية السابقة ان تدافع عنه خارج الاطار السياسي وذلك لمعرفتها الدقيقة بأهمية «موازين القوى الفاعلة في الساحة العربية القبلية»[٣] آنذاك. وهو ما استطاعت قريش برهنته في المناقشات المذكورة، وذلك من خلال استخدام الكثير من المصطلحات القبلية الصرفة التي كانت أقرب إلى الوجدان والعقلية العربية، فأصابت تكتّل الأنصار في العمق، دافعة بهم إلى التراجع للوراء، ربما انتظارًا لمسوغات سياسية وقبلية مؤاتية قد تعيد لهم المركز السياسي الذي سلب منهم، في حين أخذت الأُطروحات القرشية أهمية سياسية استندت بالدرجة الأولى إلى النصوص الفقهية والشرعية[٤] خصوصًا بعد تيقّنها بأنّ الجماعة الإسلامية لم تعد جماعة دينية محضة، وإنّما تعدتها إلى جماعات سياسية[٥] تحاول اكتساب موقع معين داخل التركيبة السياسية الآخذة بالتبلور.

هذا وقد بيّنت الكثير من الروايات التاريخية، الدور الكبير الذي أدّاه عمر اثناء اجتماع السقيفة، ومسارعته إلى تبليغ أبي بكر فقط حول تكتّل الأنصار[٦]، على الرغم من وجود الكثير من الصحابة في منزل

(١) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٢٤٢. (٢) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٢٤٣.

(٣) ياسين، عبد الجواد، السلطة في الإسلام العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، الجزء الأول، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م، ص: ٣٢٤.

(٤) وردت إشارة في الأحكام السلطانية أن أبو بكر إحتجّ في اجتماع السقيفة على الأنصار في حديث شريف وهو «الأئمة من قريش». الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية(د/ت) بيروت، لبنان، ص: ٧.

(٥) بلقزيز، مرجع سابق، ص: ٣٤. (٦) الطبري،، م٢، مصدر سابق ص: ٢٤٢.

الرسول(ص). وهو ما يقودنا إلى طرح بعض الأسئلة حول الفرصة السياسية التي حاول عمر اقتناصها، فهل كانت مسارعة عمر إلى أبي بكر دون غيره من الصحابة، يخفي نوعًا من صراع سياسي، لم يكن قد تبلور بعد؟ وهل كان يحصر قرابة الرسول ببني هاشم فقط، أو بني عبد مناف؟ ولماذا تمّ استبعاد هذه المجموعة من الصفوة الإسلامية، وهي من عرف عنها بأسبقيتها الدينية والجهادية؟

ولعل الأنصار قد أدركت ولو متاخرة، استحالة الوصول إلى مبتغاها السياسي، فحاولت المناورة عبر طرح فكرة المداورة بالمنصب الأول في نظام الخلافة «منكم أمير ومنا أمير»[١]، ولكن صلابة قريش ومنعتها العصبية حالت دون تحقيق حلم الأنصار بتجديد «الشراكة»[٢] الإسلامية التي كانت قد شهدت بعضاً من الاهتزاز قبيل فقدان المؤسس النبي(ص). حيث كان لعمر الدور الأبرز في إحباط هذه المحاولة، مسجّلة في الوقت نفسه أول سلوك تمييزي إسلامي بعد ان كان التمايز الاجتماعي السابق يأخذ طابعاً مغايرًا ومنحى مختلفًا تمامًا، كنتيجة حتمية لطبيعة المجتمع المكي التجاري آنذاك، اذ تورد بعض الروايات التاريخية، إشارة إلى كيفية تعامل قريش مع فئات العبيد، حتى في أواخر العهد النبوي، حيث كانوا آخرمن سمح لهم بالدخول لرؤية الرسول(ص) بعد وفاته[٣]، وهو تمايز ما لبث ان توسّع وتمدد ليشمل ليس فقط من هم داخل الجماعة الإسلامية الممثّلة آنذاك بمجتمعي السقيفة، وإنما الكثير من المكونات الاجتماعية الإسلامية ممن يفتقد لأية خلفية قبلية قرشية واضحة. هذا بالإضافة إلى ان اجتماع السقيفة قد سوّغ مفهومًا فقهيًا سياسيًا[٤] تمثّل باستحواذ قريش وحلفائها فيما بعد على مقاليد الحكم، ما لبث أن أصبح إرثًا سياسيًا طبع سلوكيات السلطة والعقلية العربية طوال فترة الخلافة الإسلامية، قلّما خرجت منه حتى أكثر «الإيديولوجيات» الثورية المنادية بالتغيير، باستثناء الفكر الثوري للخوارج. ولعل خطورة اجتماع السقيفة وأثره الواضح على وحدة الجماعة الإسلامية إذا ما انفضّ الاجتماع من دون التوصل إلى معادلة سياسية تتمتع بقبول معين من قبل كل من الأنصار والمهاجرين، قد تكون له نتائج كارثية على البنية

(١) الدينوري، الإمامة والسياسية،م١، مصدر سابق، ص: ٢٤. محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، أبي يعلى، الأحكام السلطانية، صححه وعلّق غليه المرحوم محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م، ص: ١٩
(٢) بلقزيزمرجع سابق، ص: ٤٢.
(٣) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٢٣٩.
(٤) ياسين، السلطة في الإسلام، م١، مرجع سابق، ص: ٣٣٩.

الإسلامية في المدينة، هو ما دفع بالأنصار إلى التراجع السريع بعد خطبة أبي بكر، مسوغةً انسحابها من ميدان المنافسة السياسة بالحفاظ على هذا البنيان الإسلامي الجديد، والاحتفاظ بهامش واسع من المكانة والسمعة التي استطاع الأنصار الحصول عليها في المرحلة السابقة، محذرة في الوقت نفسه من «ان يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم»[١]. دون ان ننسى ارتباط تردد الأنصار السريع بعد الخطبة المذكورة ومجادلة عمر مع ابن الحباب، بانتماء ممثلي المهاجرين الثلاثة في السقيفة إلى «أقل حي من قريش»[٢] بما يعنيه ذلك من تبدد مخاوف الأنصار بسيطرة إحدى القبائل القرشية النافذة على منصب الخلافة وديمومتها الزمنية، وإنما حصرها ضمن المفهوم السياسي للأنصار في إطار الطابع الوسطي الذي روّج له صاحب الخطبة المذكورة سابقًا.

هذا وينظر إلى اجتماع السقيفة على انه تكريس سياسي لمفهوم الجماعة الإسلامية[٣] لتصبح حكرًا على المهاجرين والأنصار فقط، دون غيرهم من عامة المسلمين، ولكنه أفرز في الوقت نفسه واقعًا سياسيًا ملموسًا أدى إلى تشكيل نواة سياسية- اجتماعية ما لبثت ان أخذت بالتبلور، وهي فئات الموالي(*) كفئة اجتماعية لها حيثيّاتها الإسلامية. فسياسة التمايز السياسي التي بذرته قريش في السقيفة، ما لبثت ان أينعت سياسة تفاوت اجتماعي عبر نظام العطاء العمري، عانت منه أكثرية البنى الاجتماعية الإسلامية، دافعة بهم إلى مزيد من النبذ والتهميش.

٢ – شورى الستة

وجد المشروع السياسي القرشي والذي تشكل في اجتماع السقيفة من يكمله في أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب. فالاصطفاء السياسي الذي تكرّس عمليًا طوال الفترة السابقة من الخلافة الإسلامية، قد أصبح أمرًا واقعًا وحقيقة ملموسة، لم يستطع الخليفة عمر وهو ما عرف عنه بالدور الريادي الكبير في الاجتماع المذكور، إلا بالسير ضمن نطاقه ومفهومه القبلي، وهو ما شكل ضربة قوية للمشروع الإسلامي العام الداعي إلى ضرورة الأخذ بالأطر المساواتية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٤]

---

(١) الدينوري، الإمامة، م١، مصدر سابق، ص: ٢٣.
(٢) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٢٣٧.
(٣) بيضون، د – إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلاميّة، دراسة في إشكاليّة العلاقة مع السلطة المركزيّة في القرن الأول للهجري، دار النهضة العربية، بيوت، لبنان، ١٩٩٥، ص: ١٣٥.
(*) حتى هذه الفترة التاريخيّة، كان المصطلح ما يزال يدل تاريخيّا على معنى العبيد.
(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

بين جميع مكونات البنى الاجتماعية الإسلامية دون أية تفرقة وتمييز.

وكان من تداعيات اجتماع السقيفة الذي عُدَّ «أول خلاف في الإسلام»[١]، تشكيل حكومة ومعارضين[٢] منذرةً ببداية أول شرخ سياسي، ما لبث ان توسع آفاقه ليشمل ليس فقط الأنصار وبني هاشم، وإنما الكثير من المكونات الاجتماعية والفكرية المنادية بتطبيق حد أدنى من الشراكة والمساواة الاجتماعيين، خصوصًا بعد ترسّخ مفاهيم التمايز والتفاوت الاجتماعي داخل الإدارة الإسلامية والنظام السياسي المتبع. وإذا كان الخليفة عمر قد استطاع بالحد ولو قليلاً من النهم القرشي تجاه السلطة ومراكز القوة، ولكنه سرعان ما استنبط استحالة المضي بعيدًا، بعد إدراكه ما تمثله العقلية القرشية من جذور عميقة تمتد الي الفترة السابقة للإسلام، من الصعب جدًا اقتلاعها. فسارع بعد طعنه بست طعنات قاتلة إلى تأسيس هيئة مصغّرة من الصحابة لاختيار خليفة له، مخالفًا بالتالي سياسة سلفه أبي بكر في الاعتماد على مبدأ التعيين. فالخليفة عمر قد أخذ بالمفهوم الشوري قاعدة لاختيار خلف له، ولكنها كانت شورى منتقاة. فعمر لم يستطع من خلال هذه الهيئة الخروج من الدائرة السياسية التي رُسمت في السقيفة، ما انعكس على الخلفية القرشية لأصحاب الشورى الستة. مكرسةً مفهومًا واضحًا وهو «سيطرة نخبوية»[٣] قرشية ضمن الصيغة الإسلامية العامة، بالإضافة إلى ان هذه النخبة من قريش المنوطة باختيار خليفة للمسلمين وباعتمادها على قاعدة الشورى قد كرست واقعًا فقهيًا، وشرعية دينية، أثرث سلبًا على عامة الفئات الأخرى. كان لاختيار أعضاء الشورى من قبيلة قريش، ما يسوغه لدى الخليفة عمر «لا أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذي توفي رسول الله(ص) وهو عنهم راض»[٤]، ولكنها فرضية حملت في طياتها الكثيرمن مظاهر التطرف لقبيلة استطاعت القفز إلى الواجهة بعد غياب الرسول(ص) فالمعاييرالتي استند اليها الخليفة المغدور

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، التنبيه والإشراف، دار وكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص: ٢٦٣. المسعودي،مروج الذهب ومعادن الجوهر، المجلّد الثاني، دار الفكر،الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ص: ٣٠٢.أنظر أيضًا أبن العبري، العلّامة أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي، تاريخ مختصر الدول، وضع حاشيته خليل منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ص: ٨٨.

(٢) ياسين، السلطة في الإسلام، م٢، مرجع سابق، ص: ١١٣.

(٣) بلقزيز، الفتنة، مرجع سابق، ص: ٩٨.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف،م٥، مصدر سابق، ص: ٥٠٣.

في اختيار أعضاء الشورى لم تراع التنوع، وإنما استندت إلى حسابات سياسية دقيقة.

ولعل الخليفة عمر بعد تيّقنه من نهاية أجله سارع إلى جمع الصحابة من قريش[١] دون سواهم، للتأكيد على استمراريتها داخل السيرورة السياسية وديمومتها ضمن الروحية والعقلية العربية ذاتها. فقريش لم يكن بمقدورها تشكيل بنية الدولة خارج إطار «الغلبة»[٢]، مدركة ان التخلي عن هذا الأرث بمثابة إفلاس وجودي وعصبوي أمام عامة القبائل العربية، ما شكّل نوعًا من تحالف ضمني بين بنية الدولة ومؤسساتها من جهة وعصبية قريش ومنعتها من جهة أخرى، ليصبح قيام الدولة بمثابة «دولة قريش وقد أسلمت»[٣].

وإذا كانت هيئة الشورى – العمرية –، قد كرست التمايز والإقصاء للفئات الأخرى فإنّ المهمشين عادوا ليمارسوا حضورًا مؤثرًا، لكن هذه المرة من الأمصار المستحدثة. هذا وقد كان لجماعة شورى الستة والمنتمية إلى قريش، ما يوضح ان الخليفة عمر قد شرّع لجماعة معينة ان تكون «أهل الحل والعقد»[٤]، وهذا ما عكس السلوكية الاستفرادية في الحكم، وكان له أبعد الأثر بعد فترة زمنية قصيرة من تقويضها نتيجة لغياب الشروط السياسية لتحقيق الاندماج الاجتماعي لدى عامة الفئات وخصوصًا المتمركزة في الأطراف.

وإذا كان الخليفة عمر قد سارع إلى تشكيل هيئة الشورى لاحتواء الموقف السياسي المتأزم في المدينة، فإنّ صبغه بالطابع القرشي العام دون عامة الفئات الإسلامية المؤمنة، قد يطرح بعضًا من الأسئلة، علّها تكشف غموض المصادر لهذا الجانب من حادث الاغتيال، وهي، أين كانت مكانة الأنصار في الشورى العمرية؟ ولماذا تمّ استبعاد هذه الفئات عن إمكانية المشاركة السياسية في اختيار خليفة المسلمين؟ وهم من تمّ وعدهم في اجتماع السقيفة بعدم إصدار أي قرار بشأن مصير الجماعة الإسلامية، دون مشاورتهم «لا نقضي دونكم الأمور»[٥]. وإذا كان الخليفة عمر قد برر تصرفه في اختياره لأعضاء الشورى، برضى الرسول، فأين هي مكانة الأنصار من هذا الاختيار؟ غير الفاقدة للرضى نفسه «فأكرموا كريمهم»[٦]. ولعل المثير في الرواية التاريخية وتضاربها، أن

(١) ابن الأثير، ، م٢، مصدر سابق، ص: ٤٦٠ (٢) الطبري،م٢، مصدر سابق، ص: ٣٣١.
(٣) الجابري، العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص: ١٥٠.
(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، مصدر سابق، ص: ٧. أبي يعلى، الأحكام السلطانية، مصدر سابق،ص: ٢٣.
(٥) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٢٤٣. (٦) المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.

يكون أعضاء الشورى، وهم من وصفهم عمر بالأسبقية الجهادية والمكانة الدينية المميزة، ان يصبحوا في مكان خطر، تمثّل بإمكانية ضرب أعناق بعضهم، إذ لم يتوصلوا إلى نتيجة ضمن المهلة القانونية المعطاة لهم[١].

هذا وقد أدرك الخليفة المغدور ما يمثله إدخال الأنصار في جماعة الشورى من مخاطر سياسية كبيرة، بإمكانية إيقاظ حلم سياسي كان قد تمّ تجاوزه منذ السقيفة، وما يعكسه من إمكانية بروز منافس سياسي لقريش على كرسي الخلافة، قد يكون له نتائج معاكسة لمحتوى استفراد قريش بالسلطة والنفوذ، وهو ما أثّر على المشاركة الخجولة للأنصار في «لجنة» عمر لاختيار خليفة له، بينما اقتصرت فقط على تشكيل قوة عسكريّة قوامها ٥٠ رجلاً للضغط على أعضاء الشورى للوصول إلى نتيجة[٢] في حين ينفرد كتاب الإمامة في إبراز روايته، التي تتحدث عن طلب عمر من أعضاء الشورى، السماح لشيوخ الأنصار حضور اجتماعاتهم رمزيًا فقط، دون ان يكون لهم أي دور في القرار المرتقب «وليس لهم في أمركم شيء»[٣]

وإذا كنا لا نستطيع التحدث عن مفهوم الشورى العمرية دون المرور ولو جزئيًا بحادثة الاغتيال، التي عكست العلاقة المتأزّمة بين طبيعة النظام السياسي المتمثل آنذاك بشخصية الخليفة القرشي وبين البعض من فئات الموالي، خصوصًا وأن الأداة المنفذة لحادثة الاغتيال كانت على يد مولى لأحد الصحابة المغيرة بن شعبة (أبو لؤلؤة المجوسي)، الذي توسط له لدى الخليفة المذكور للدخول إلى المدينة[٤]. وهي حادثة تتجاوز الإمكانيات الاجتماعية والاقتصادية آنذاك لفئات الموالي في الإقدام على القيام بهذا الأمر، مع بروز إمكانية مؤامرة مدبرة لم تكن القوى القبلية العربية الطامحة بعيدة عنها، بسبب تعارض المصالح بينها وبين الخليفة المغدور، والظهور المفاجئ لأبرز أغنياء قريش عبد الرحمن بن عوف وجعله «مفوضًا فوق العادة»[٥] وصاحب القرار الفاصل في الاختيار، يدفع إلى الشك

(١) المصدر نفسه، ص: ٥٨١.
(٢) ابن الطقطقي، محمد بن علي ان طباطبا، الافخري في الآداب السلطانية، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د/ت) ص: ١٠٠.
(٣) الدينوري، الإمامة،م١، مصدر سابق، ص: ٤٢.
(٤) المسعودي، مروج، م٢، مصدر سابق، ص: ٣٢٠.
(٥) ياسين، السلطة في الإسلام، مرجع سابق، ص: ٦٧.

والريبة بأنّ القوى المشار إليها سابقًا أدركت لعبة التوازنات القبلية في المدينة بما يخدم مصالحها المستقبلية، خصوصًا وأنّ عبد الرحمن بن عوف لم يكن يعبر عن نظرته الخاصة والفردية في الحكم بقدر ما كان يمثّل تيارًا هامًا تشكّل منذ السقيفة، بوحي من عقلية عربية قرشية مستفردة بالحكم والسلطة[١]. لكن الحادثة قد ألقت بثقلها الاجتماعي والسياسي على عامة فئات الموالي بعد توثب قريش على الأمصار واستحواذها على أراضي السواد في عهد عثمان بن عفان. دون أن نعدم وجود علاقة متشنّجة بين الخليفة عمر وعامة فئات الموالي الذين وجدوا في شخصيته ونظرته العربية معيقًا أساسيًا لأية إمكانية أو فرصة لتطبيق مفهوم الرفاه الاجتماعي التام داخل البنية الاجتماعية الجديدة «يسع الناس كلهم عدله غيري»[٢] حسب القول المنسوب لمرتكب الجريمة أبي لؤلؤة نفسه، وهذا ما يظهر الانعكاسات السلبية للإدارة العمرية القائمة على مظاهر التفرقة الاجتماعية لنظام الخلافة، ولكنه شعورداخلي لم يتجاوز عند بعض الفئات من الموالي القيام بمغامرة وبدوافع وصفت عند بعض المؤرخين بالشخصية[٣] على اغتيال أقوى شخصيات المدينة آنذاك. في حين رأى البعض، بأن قُرشية الخلافة والتي تبلورت منذ اجتماع السقيفة، كانت بمثابة إغلاق الباب أمام أية محاولة «لتولي أمور المسلمين أعجمي باسم الخلافة»[٤] وهو ما يتعارض مع النسق السياسي والاجتماعي للداخلين الجدد في الإسلام أي الموالي، ذلك أنّ هذه الفئات كانت خارج منظور اللعبة السياسية لقريش وتطلعاتهم المستقبلية. فالمبالغة في تضخيم الدور الأول للموالي ولاسيما في المرحلة الراشدية، لم يكن ليتوافق مع التوازنات القبلية الكبرى ولاسيما القرشية منها الممسكة بزمام السلطة والقرار السياسي الأوحد منذ تأسيس نظام الخلافة.

وما هو جدير بالملاحظة أنّ الخليفة عمر أظهر وهو على فراش الموت رغبته في تولي أبي سالم مولى أبي حذيفة خليفة

(١) المرجع انفسه، ص: ٦٧.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة وسعيد بن أحمد العيدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١١٢م، ص: ١٠٥.

(٣) كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، نقله إلى العربية الدكتور بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص:٢٣.

(٤) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الأول، راجعه وعلّق عليها الدكتور حسين مؤنس، دار الهلال(د/ت)، ص: ١٢٨.

للمسلمين لو كان حيًا، وهو (أي سالم) الذي تصوره الروايات التاريخية بالدور الديني والفقهي البارز مع بداية العهد الإسلامي[١]، لكن ذلك لم يتعدّ أكثر من مناورة سياسية، برع فيها الخليفة المذكور منذ بداية العهد السابق لإعطاء شوريته طابعًا إسلاميًا عاماً، لاسيما وأنّ عمر كان قد بدأ باستدراك ما تخفيه الفئات الأخرى في المجتمع الإسلامي من تساؤلات حول تفرّد قريش وحدها في إدارة الجماعة الإسلامية. فالسؤال المطروح هنا هو: هل كان رضى الرسول(ص) والتبشير بالجنة حكرًا على قبيلة قريش فقط؟. لكن عمر سرعان ما أدرك المخاطر الكبيرة التي تعكسها هذه المحاولة، فقريش لم تكن لترضى بما تحمله من جذور قبلية ثابتة وارث سياسي كبير منذ الجاهلية، باعتلاء أحدهم سدة الحكم والسلطة من خارج المنظومة السياسية لقبيلتها، (وهي نظرة ظهرت جليّة وواضحة في الخلافة الأموية في عدم وصول أموي إلى سدة الخلافة إذا كانت والدته من الإماء). فقوة قريش واستفرادها بمقدرات السلطة السياسية والاقتصادية حال دون رسم إطار جديد لمسألة الخلافة خارج المفهوم القرشي العام. وهو ما دفع بعمر وضمن هذه المسوغات القبلية إلى تغيير موقفه في آخر لحظة مستعيدًا مشاعر الخوف السابقة على وحدة الجماعة الإسلامية من الافتراق والانقسام.

وإذا كان الإسلام بحسب المفهوم العمري قد «أذل»[٢] العجم والفرس، وهو ما يبيّن واقع النظرة الاجتماعية لسلطة الخلافة بشكل عام وقبيلة قريش بشكل خاص تجاه الفئات الجديدة في المجتمع الإسلامي التي سارعت إلى الدخول في الدين الإسلامي هربًا من واقعها المأزوم، فإنّ نظرة القبائل العربية تجاه هذه الفئات لم تتغير طوال مسار السلطة السياسيّة حتى بعد وصول العباسيين إلى الخلافة. فالتعاليم السامية للدين الجديد لم تستطع ان تصقل هذه النظرة التي تحمل الكثير من معاني التعالي والتفاخر (بالأنساب) تجاه هذه الفئات، فالعرب استمروا في إطلاق صفة «الغلام»[٣] أو «العبد المعتق»[٤] على

(١) أبن سعد: الطبقات الكبرى، الجزء الثالث، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨، ص: ٨٧.

(٢) إبن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، الجزء السابع وثّق مخطوطاته الشيخ محمد معوّض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، ٢٠٠١، ص: ٨٥.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، مصدر سابق، ص: ٩٩.

(٤) ج. فان فلوتن: أبحاث في السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدوية في ظل خلافة بني أمية، ترجمة د - إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ص: ٩٤.

العجم حتى بعد إسلامهم، أي تحولهم إلى موالي مسلمين لهم كامل حقوقهم الشرعية والفقهية، وهو ما ألقى بظلاله على طبيعة العلاقة بين الطرفين الموالي من جهة وسلطة القبائل العربية من جهة أخرى، ما لبثت أن ترجمت آثاره بعد حادثة الاغتيال ووصول عثمان بن عفان إلى سدة الخلافة دافعةً بهذه الفئات المستضعفة (الموالي) إلى الالتفاف حول شخصية إسلامية استطاع بعد اعتلائه منصب الخلافة التجرد من قُرشيته وارثه القبلي وتأكيده على الإطار الإسلامي العام.

ثانيًا: الموالي وحركة الفتوح

١ – السلطة المركزية والموالي:

أضحت المدينة بعد ان اتخذها الرسول الكريم(ص) مركزًا لدولته الفتية، وتمركز أكثرية الصحابة من المهاجرين والأنصار، قاعدة الإسلام السياسي والمرجع الأول للمسلمين في الأمور الشرعية والفقهية. ولكنها ما لبثت أن ازدادت وترسّخت بعد القضاء على تمرد القبائل، وامتداد نفوذها السياسي على كامل الجزيرة العربية.

وبعد انطلاق العرب في الأقاليم المجاورة، أصبحت مركزية السلطة في المدينة تأخذ طابعًا عالميًا، فمنها كانت توّجه امور الفتح وتصدر القرارات والتشريعات المختلفة، وحتى قادة الفتح الكبار كانوا عاجزين عن اتخاذ أي من القرارات المصيرية دون العودة إلى سلطة المدينة، دون إغفال ما توفر لهذه المركزية من شخصية سياسية عرفت بالحزم والصلابة، كشخصية الخليفة عمر بن الخطاب المعارض لبروز أي من مراكز القوى، يمكن أن تتحول إلى مصدر قلق للسلطة الحاكمة على كافة الأصعدة، ما انعكس سلبًا على علاقة الخليفة المتوترة مع الكثير من الصحابة الكبار وأبنائهم من قريش، وخاصة بعد اجتهاده بمنع الصحابة المهاجرين من مغادرة المدينة والتوجه إلى الأمصار(١).

وإذا كان الخليفة عمر قد عمد إلى حجز الصحابة وأبنائهم من قريش في المدينة حتى يبقوا تحت ناظريه، إلا انه سمح بالوقت نفسه للكثير من الصحابة من خارج المنظومة القرشية بالتوجه إلى الأمصار، إمّا قادة للفتوح، أو ولاة. فنسبهم غير القُرشي هو من وضعهم خارج نطاق قلق الخليفة.

أخذت خمس المغانم والتي كان يحصل عليها المقاتلون العرب من الأموال والمجوهرات والسبي تتدفق إلى المدينة عاصمة الخلافة، ليتم توزيعها في ما بعد على الصحابة وأبنائهم وفق معياري القبيلة

(١) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٣٦٢.

والـنـسـب، حـيـث أخـذت نـواة حـركـة «أرستقراطية» قبلية[١] بالتبلور في المدينة قبل ان يحررها الخليفة عثمان وبسبب لينه وضعفه من القيود السابقة وإنطلاقها بأكثر حدةً وشراهة نحو الأمصار.

ويبدو أن المـوالـي[*] كـانـوا مـن أكـثـر الفـئـات المـتـضـررة من اتـجـاهـات السـلـطـة المركزية وسياستها العربية الرامية إلى زيادة الضغط الاقتصادي والتهميش على القادمين الجدد، كجزء من مخطط لإبقاء هذه الفئات تحت المظلة السياسية لقريش، ولعل حركة اكتناز الأموال وتشكيل خلايا مالية صغيرة داخل الإطار السياسي لمركزية السلطة وعلى حساب الفئات الأخرى (الموالي أو عامة القبائل)، كان يثير «العداوة والبغضاء»[٢] بين الأطراف المذكورة، مرسخة مشاعرالظلم والتمايز الاجتماعيين عند هؤلاء،خصوصًا وان أكثريتهم كانوا يعيشون ضمن نطاق الهبات والحسنات الصغيرة، في حين ان أكثرية الصحابة القرشيين كانوا يعيشون حياة رغيدة بعيدة كل البعد عن مفاهيم التصوف والبساطة الإسلامية.

لقد كان لتوقّف حركة الفتوح ومعه مسوغ المغانم بالإضافة إلى النقص في الواردات المالية للقبائل دورًا مهما في إفراز واقع اجتماعي (ديموغرافي) واقتصادي ضاغط في عاصمة الخلافة، فقد ازداد أعداد الموالي في المدينة ولاسيّما بعد تزايد حركة إعتاق العبيد والسبايا «إني ارى هذه الأعاجم قد كثرت ببلدك»[٣] شكّل دورًا اساسيًا بتوسّع هامش التذمرالاجتماعي تجاه مركزية الخلافة، حيث أخذت الأعباء المالية تزداد على فئات الموالي، سرّع من التفافهم حول بعضهم البعض،واجدين نوعًا من خلايا بشرية، لها رؤيتها الخاصة «وكانت عجم المدينة يستروح بعضها إلى بعض»[٤] تجاه قرشية السلطة، ترجمت في ما بعد بمواقف هؤلاء تجاه عصبية قريش في موقعة الحرّة مع بداية الخلافة الأمويّة.

---

(١) Goldziher, Introduction to Islamic theology and law, translated by Andras and Ruth Hamourim Princeton, (2) university Princetonm new jersey 1981, Page: 117-118.

(*) في هذه الفترة التاريخية، وبعد توسع حركة الفتوح، أخذ مصطلح الموالي يأخذ بعدًا اجتماعيًا وفقهيًا كفئات اجتماعية غير عربية دخلت في الدين الإسلامي.

(٢) أبن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، الزهد، وضع حواشيه محمدد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت،لبنان، ٢٠٠٦م، ص: ٩٥.

(٣) أبن شبه، أبو زيد عمر بن شبه النميري البصر، تاريخ المدينة المنورة، الجزء الثالث، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة – مصر، ١٩٧٩م، ص: ٨٩٠.

(٤) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٥٩٠.

كما كان للتنظيمات العمرية والتي عمل الخليفة على إدخالها وتطبيقها بالقوة داخل الأجهزة الإدارية للدولة الإسلامية،مستغلاً القوة المركزية لسلطة الخلافة، بمثابة ضرورة مستجدّة «للإنتشار الواسع لدائرة النفوذ الخلافي»[١]. فقد أخذت السيادة والنفوذ العربيين يحتكان بالشعوب والأمم التي عرفت بتاريخ عريق بالتجربة السياسية والإدارية، والتي ما لبثت ان أصيبت بخيبة أمل واضحة من شره السلطة الحاكمة للاحتكار المالي والسلطوي.

والجدير بالذكر ان مفهوم السلطة المركزية للخلافة ما لبث أن تلاشى وتضاءل وهجه في خلافة عثمان بن عفان، حيث لم يستطع هذا الأخير ان يكبح جشع الأغنياء الذين انبثوا إلى الأمصار لتشكيل قواعد لسلطات مركزية صغيرة مستغلة أصحاب الأراضي من الموالي، الذين سيلعبون دورًا بارزًا في تقويض سلطة المدينة[٢] في ما عرف بالفتنة بعد ذلك.

٢- بناء الأمصار: عملية المثاقفة والتثاقف بين العرب والموالي.

بعد الانسياح العربي في الأقاليم المجاورة، والقضاء نهائيًا على الإمبراطورية الفارسية وتراجع نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في سوريا وشمالي أفريقيا. أصبح العرب أمام واقع جديد ولكنه خطير في الوقت نفسه، فالسيطرة السياسية للعرب، أصبحت هي السائدة، والصراع العسكري المباشر قد تحوّل إلى محاولات محدودة مع من تبقّى من السلطة الساسانية المتشرذمة، ولكنها لم تؤثر بقلب موازين القوة والنفوذ. فالمواجهة الجديدة لم يألفها العرب في السابق بسبب محدودية احتكاكاتهم السابقة مع المحيط. فالعرب بالرغم من قوتهم العسكرية الضخمة، وجدوا أنفسهم وسط شعوب ضاربة، حاملةً الكثير من القيم والأعراف والتقاليد التي تعودوا على ممارستها اجتماعيًا وثقافيًا.

ولمّا كان الخليفة عمر شديد القلق من الجبهة الفارسية ومحور اهتمامه الأكبر، مدركًا المأزق الخطير الذي تمثله هذه الجبهة بالنسبة للعرب، نراه يسارع إلى اتخاذ مجموعة من القرارات السياسية المصيرية وذلك للحفاظ على العصب العربي ومنعته أمام الشعوب المغلوبة، وهو من عبّر عنه مراراً عند تخوفه من التوغل العميق في البلاد الفارسية «لوددت أنّ بين السواد وبين الجبل سدًا لا يخلصون الينا

(١) بيضون، الدكتور إبراهيم، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩١، ص: ٨٤.

(٢) Hodgson, G.S Marchall: the venture of Islam conscience and history in a world civilization, the classical age of Islam, university of Chicago press, LTD, Londonk 1974, v 1, Ibid, p: 212.

ولا نخلص اليهم»[١]. فالهاجس الأكبر عند سلطة الخلافة كان الخوف الدائم من عملية استلاب ثقافي للعرب نتيجة هذا الاختلاط الذي فرضته حركة الفتوح، وما يستتبع ذلك من ضعف العصب العربي وفقدان الهيمنة الثقافية العربية أمام الثقافات الأخرى.

أمام هذا الواقع المستجد بالنسبة لمركز الخلافة، كان لا بدّ من الأخذ بعين الإعتبار ضرورة الحفاظ على مكتسبات الفتوح وعدم العودة إلى الوراء، خصوصًا وأنّ الفرس وحتى عام ١٧هـ كانت شوكتهم ما زالت قوية وعددهم كبيرًا[٢]. وهو ما يعني أن هذه الشعوب ستشكل مستقبلاً عنصرًا خطيرًا على كيان الخلافة العربية ومستقبلها السياسي، فكان القرار الأهم التي سارعت الخلافة إلى اتخاذه رغمًا عنها هو ضرورة إقامة أماكن ثابتة للمقاتلين العرب، تشكل مركز انطلاق لفتوحاتهم المستقبلية من جهة ومركزًا سياسيًا للثقافة العربية من جهة أخرى.

وإذا كانت هذه الأمصار المستحدثة سواء في الكوفة، البصرة أو في القيروان قد شكّلت مركزًا للجند، ولكنها أدّت دورًا بارزًا لوقف أو على الأقل تأخير الذوبان العصبوي للعرب وشد إزره أمام العصبيات الأخرى. حيث التعليمات الصارمة والواضحة من سلطة الخلافة بعدم القبول باي شكل من اشكال المثاقفة أو التثاقف بين العرب والفئات الجديدة الداخلة في الإسلام «إياي وأخلاق الأعاجم»[٣]وذلك في سبيل المحافظة على مكانتهم السياسية أمام الخطر الثقافي الذي تمثّله هذه الشعوب الجديدة. فأصبحت الأمصار التي تأسست ضمن المعيار القبلي للعرب[٤] هي الملجأ والملاذ الوحيد امام السلطة السياسية

(١) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٤٧٠. ومما قاله عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بعد طلب هذا الأخير من الخليفة التوغل والتقدم بإتجاه خراسان «**وما لخراسان ولنا، لوودت ان بيننا وبين خراسان جبالًا**» ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد، كتاب الفتوح، ٨ مجلدات طبع بإعانت وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية تحت مراقبة الدكتور محمد عبد المعيد خان أستاذ الآداب اللغة العربية بالجامعة العثمانية ومدير دائرة المعارف العثمانية، دار الندوة الجديدة، الطبعة الأولى (د/ت) المجلد الثاني ص٢٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، مصدر سابق، ص: ٢٢٨. خليفة ابن خياط، أبو عمرو بن ابي هبيرة الليثي العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ص: ٨٣. ابن كثير، البداية والنهاية، (م،س)، م٧، ص: ٨٦.

(٣) ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة الأزدي الخراساني: كتاب الأموال، ضبط نصه وخرّج أحاديثه أبو محمد الأسيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م، ص: ١١٠. أنظر أيضًا:
Donner F.M: Mohammad and the believers, combridge, Massachusetts, London, England, 2010, P:109

(٤) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٤٧٩ - ٤٨٠.

للتخلص من هذا المأزق، مع الأخذ بعين الاعتبارأهمية المحافظة على مكتسبات الفتوح آنذاك. خصوصًا وأنّ التوازن العددي والأغلبية «الديموغرافية» لم تكن لصالح العرب، فهم أقلية عددية حاكمة مقارنة مع الفئات الاخرى الذين يمثلون المجتمع الجديد، وأكثرية شعبية محكومة ومحرومة من ممارسة أي دور سياسي، ولكنها تمثّل خطرًا ثقافيًا واجتماعيًا على الفاتحين، ولاسيما بعد اعتناق القسم الأكبر من أبناء فارس الدين الإسلامي وابتداء التمازج الاجتماعي- اللغوي، لاسيما وان التنظيم القبلي الجديد كان يفرض نفسه على الموالي للتحدث بلغة الفاتحين وممارسة أدبياتهم الدينية.

ويبدو من الإحصاء السكاني والجغرافي سنة ٢١هـ الذي سارع الخليفة عمر إلى القيام به لأراضي السواد، مستعينًا بأبرز معاونيه عثمان بن حنيف[١]، وبضغط من القبائل المستقرّة في الأمصار المطالبة بضرورة تقسيم اراضي السواد كما قسمت اراضي خيبر من قبل، لم تكن لتتناسب وتنسجم مع السياسة الاستعلائية لسلطة الخلافة تجاه فئات الموالي، خاصة وأنّ النتيجة التي توصل اليها الإحصاء المذكور، يعكس الاختلال الكبير «فوجد الرجل يصيب الاثنين والثلاثة من الفلاحين»[٢]. فالمعادلة الحسابية التي تضع الفرد العربي المسلم الواحد أمام اثنين أو ثلاثة من الموالي الفلاحين، لم تكن لتنسجم مع سلوكيات الخلافة بإبقاء العنصر العربي هو الغالب والمسيطر على العناصر الأخرى لما فيه من اهمية دينية ووجودية للكيان العربي برمته.

وإذا كان الخليفة عمر قد برر تصرفه بعدم تقسيمه لأراضي السواد، حفاظًا على المكتسبات المالية – الاقتصادية التي أفرزها واقع الفتوح، إضافةً إلى تأخير واقع التمازج السكاني الذي وصل إلى مرحلة متقدمة أقلق السلطة السياسية والعقلية القرشية المتحكّمة بها، معبرًا عنها عثمان بن عفان بقوله «بلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن»[٣]. تمازجٌ كانت القبائل العربية من أكثر المستفيدين منه، بما يعنيه ذلك من زيادة منعتها العصبية ونفوذها الوجودي وسط هذا المحيط المختلف عنها، بالإضافة إلى ان التركيبة القبلية والتي استوطنت في العراق، تعود بأكثريتها إلى قبائل يمنية مع ما

(١) يعقوب بن إبراهيم، أبو يوسف، كتاب الخراج، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص: ٤٥.

(٢) قدامة،ابن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي،دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م، ص: ٣٦٣. ،أبو يوسف، مصدر سابق، ص: ٤٥.

(٣) الطبري، م٢، مصدر سابق، ص: ٥٩١.

يحمله ذلك من إرث عريق في الخبرة بالأعمال الزراعية[1]، ما شكّل مزيدًا من الخوف لمركزية الخلافة، دافعة بها إلى التشدد بموقفها المتصلب بعدم تقسيم الأراضي وابقائها ملكًا عامًا لجميع أفراد الجماعة الإسلامية، مدركةً ان نفوذها السياسي ومنعتها العصبية، يفرض عليها إبقاء هذه الأراضي فيئًا عامًا للمسلمين للحفاظ على الروحية القتالية والنزعة التسلطية للعقلية العربية تجاه الأقوام الأخرى التي أصبحت جزءًا من التركيبة الاجتماعية للدولة الإسلامية.

ولمّا كانت جماعة العرب تُعدّ نفسها أمّة مقاتلة، أو أُريد لها من قبل السلطة السياسية ان تكون أمّة مقاتلة، تأنف من الأعمال الصناعية والزراعية، أصبحت الحاجة ملحة بضرورية الاستعانة بالمسلمين الجدد من الموالي ممن اكتسبوا خبرة كافية في كافة الصعد الاقتصادية منذ الفترة التي سبقت الإسلام، وذلك لتأمين المتطلبات الحياتية المتزايدة والمستجدة للعرب[2]، فأخذت الكثير من الفئات الفارسية وممن أعلنوا إسلامهم في ما بعد بالعودة إلى أراضيهم الزراعية في السواد وأعمالهم الحرفية اللازمة لأبناء الأمصار من العرب. فالانهيار السريع «للنظام الإقطاعي الساساني»[3] شكّل عنصرًا ضاغطًا لدى الأفراد المقاتلين من القبائل العربية. والضرورات الحياتية والمعيشية للعرب في هذه الأمصار الجديدة لم تعد كعهدها السابق من حيث بساطتها وقساوتها، في حين ان حياة الاستقرار والترف بدأت تأخذ حيّزًا هامًا في حياة المقاتلين.

وعندما كان الكثير من الموالي الذين استقروا في أراضيهم، يعملون ضمن مهن متعددة من زراعة وحرف ويتعاملون بنفس الوقت مع السكان العرب داخل الأمصار باعتبارهم فئات المجتمع المستهلكة آنذاك. فإنّ التطور الحضاري والاجتماعي للأمصار والذي تمثّل في توسع نطاقات المدن إلى خارج حدودها الطبيعية كنتيجة حتمية للازدياد المطّرد لسكان هذه الأقاليم، جعل من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية

(١) بيضون، الدكتور إبراهيم، إتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص: ١٠٤.

(٢) أبو الفرج، الأصفهاني: كتاب الأغاني، م٤، الدار التونسية للنشر، من عمل عبد الستار أحمد فراج، جميع الحقوق محفوظة لدار الثقافة، طبعة ١٩٨٣، بيروت، لبنان، ص: ٤٠٩.

(٣) العلي، الدكتور صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجري، دار الطليعة،طبعة ثانية، بيروت، لبنان، ١٩٦٩،ص: ٨٩.

بين سكان الريف من الموالي وسكان المدن من العرب تأخذ حيزًا مهمًا. وما ساعد على ذلك إقبال الكثير من الموالي على تعلّم اللغة العربية والتكلم باللسان العربي شعرًا ونثرًا جاعلاً هامش التمازج والتثاقف بين الطرفين واسعًا جدًا، حيث ترجمت آثاره الثقافية والأدبية في ما بعد في اواخر الخلافة الأموية وبداية الخلافة العباسية.

هذا وقد ساعد موقع البصرة الجغرافي والتي وصفت بأنها «مدخل بلاد فارس»[١] بالإضافة إلى موقعها البحري على الخليج الفارسي، أن تكون مكان جذب للكثير من الموالي ممن امتهن مهنة التجارة سابقًا، منافسين بالتالي الكثير من التجار العرب المرافقين للجيوش العربية الفاتحة[٢] لتأمين حاجيات هذه الجيوش ومتطلباتها، سواء عبر شراء ما استطاعت هذه الجيوش اغتنامه، أو بيع المقاتلين ما يحتاجون إليه من مؤن وألبسة، محققين بالتالي نجاحات تجارية باهرة ومراكز اجتماعية مرموقة تجاوزت الحدود الاجتماعية المسموح بها.

إنّ هذا التطور الحاصل للموالي على الصعد الاجتماعية والاقتصادية كافة قد أثار قلق الخلافة التي كانت تعمل جاهدة على تأكيد منعة العرب وشوكتهم في الوسط الاجتماعي المتواجدين فيه، حيث شكّل المركز السياسي المحورالأساسي الذي تدور حوله كل القرارات الاقتصادية لسلطة الخلافة، مستفيدة من رأس نظام الخلافة عمر ورؤيته الشاملة في تثبيت الشأن العربي وغلبته أمام كافة الفئات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، فنراه يؤنب العرب ويحذرهم من تفوق الموالي في الشؤون الاقتصادية «يا معشر قريش، لا يغلبنّكم الموالي على التجار، فيحتاج رجالكم إلى رجالهم، ونسائكم إلى نسائهم»[٣] وما يستتبع ذلك من تبعية اقتصادية وربط المصير العربي اقتصاديًا واجتماعيًا بالموالي. فعصبية العرب التي حملوها معهم على ظهور جيادهم إلى البلاد المفتوحة بالإضافة إلى أنفتهم من ممارسة الأعمال الزراعية والصناعية، جعلت كل محاولات السلطة ومخططاتها تبوء بالفشل. فإذا كانت الأمصار المستحدثة قد لعبت دورًا في تأخير عملية المثاقفة بين الطرفين، ولكنها لم تستطع ان تحجب العرب عن

(١) جودة، الدكتور جمال: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام،دار البشير، عمان - الأردن،١٩٨٩م، ص: ١٦٤.

(٢) عمر شاهين، د - محمد، تاريخ الموالي ودورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صدر الإسلام والدولة الأمويّة، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، بيروت، لبنان، ص: ٥٠

(٣) ابن شبّة، تاريخ المدينة المنوّرة، م٢، مصدر سابق، ص: ٧٤٧.

الجوار، نتيجة الضروريات الحياتيّة والحاجات الملحّة لهم، فسرعان ما أضحت هذه الأمصار مركزًا للتثاقف والاندماج بين الطرفين ولاسيما التمازج الثقافي والعلمي الذي عكس براعة الموالي في كافة العلوم الفقهية والعلمية المعروفة آنذاك.

المصادر

القرآن الكريم

١. ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي أبن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني. (ت٦٣٠هـ).

◆ الكامل في التاريخ. (١١ جزء)، راجعه وصححه د- محمد يوسف الدقاق، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية الطبعة الرابعة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.

٢. ابن أعثم الكوفي: أبن محمد أحمد.(٣١٤هـ)

◆ الفتوح. (٨ أجزاء)، تبع بإعانة وزارة المعارفللحكومة العالية الهندية تحت راية الدكتور محمد عبد المعين خان استاذ الآداب للغة العربية بالجامعة العثمانية ومدير دائرة المعارف العثمانية، دار الندوة الجديدة الطبعة الأولى، بيروت – لبنان (د-ت).

٣. ابن جعفر.قدامة. (ت٣٢٨هـ)

◆ الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر بغداد – العراق (د-ت).

٤. ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد ابن محمد.

◆ الزهد، وضع حواشيه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٦م.

٥. ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة الأسدي الخراساني.

◆ كتاب الأموال، ضبط نصه وخرج أحاديثه أبو محمد الأسيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، بيروت – لبنان ٢٠٠٦م.

٦. ابن سعد:أبو عبد الله محمد ابن سعد البصري الزهري. (ت٢٣٠هـ)

◆ الطبقات الكبرى.(٨ أجزاء)، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٦٨م.

٧. ابن شبه: ابو زيد عمر بن شبه النميري البصري. (ت ٢٦٢هـ)

◆ تاريخ المدينة المنورة. (٤ أجزاء)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة – مصر، ١٩٧٩م.

٨. ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا. (ت ٧,٩هـ)

◆ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة – مصر (د-ت).

٩. ابن قتيبة: أبو محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري. (ت ٢٧٦هـ)

◆ الإمامة والسياسية.(ينسب له)، تحقيق: الأستاذ علي شيري، منشورات الشريف الرضى، الطبعة الاولى، طهران – ايران، ١٤١٣هـ.

١٠. ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي.(ت ٧٧٤هـ)

◆ البداية النهاية. وثقه وقابل مخطوطاته الشيخ محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وضع حواشيه الدكتور أحمد أبو ملحم، الدكتور علي نجيب عطوي، الأستاذ فؤاد السيد والاستاذ مهدي نصر الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م.

١١. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس ابن أهرون الملطي.

◆ تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه خليل

المنصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، ١٩٩٧م.
١٢. ابو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٣هـ)
◆ كتاب الخراج، منشورات الجمل، بيروت – لبنان، ٢٠٠٩م.
١٣. ابي يعلي، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي.
◆ الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه المرحوم محمد حامد الفقي، من حملة الأزهر الشريف ورئيس جماعة أنصار السنة المحمدية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠م.
١٤. البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر بن داود البغدادي البلاذري. (ت٢٧٩هـ)
◆ انساب الأشراف، الجزء الأول تحقيق الدكتور محمد حميد الله، يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالإشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.
◆ الجزء الثاني، حققه وعلق عليه الشيخ محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الإعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، ١٩٧٤م.
◆ الجزء الثالث، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن المطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان، ١٩٧٨م.
◆ الجزء الرابع، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار النشر فرانتس شتاينر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت لبنان، ١٩٧٩.
◆ الجزء الخامس، يطلب من مكتبة المثنى في بغداد (د–ت).
◆ فتوح البلدان.وضع حواشيه عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (بيروت/ ٢٠٠٠م)
١٥. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. (ت ٢٥٥هـ)
◆ البيان والتبين.(٣ أجزاء) قدم لها وبوبها وشرحها الدكتور علي أبو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، ١٩٩٢م.
١٦. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر.(ت٩١١هـ)
◆ تاريخ الخلفاء، تحقيق أحمد ابراهيم زهدة، سعيد ابن أحمد العيدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ٢٠١٢م.
١٧. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. (ت ٣١٠هـ)
◆ تاريخ الأمم والملوك. (٧ أجزاء)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.
١٨. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت٤٥٠هـ)
◆ الأحكام السلطانية والولايات الدينية. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت/د.ت)
١٩. المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي. (ت ٣٤٥هـ)
◆ مروج الذهب ومعادن الجوهر. (٤ أجزاء)، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠م.
◆ التنبيه والإشراف. دار ومكتبة الهلال، طبعة بإشراف لجنة تحقيق التراث، بيروت – لبنان، ١٩٩٣م.

المراجع:

٢٠. بلقزيز، الدكتور عبد الإله.
◆ الفتنة والإنقسام، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، ٢٠١٢م.
٢١. بيضون: د– إبراهيم

◆ إتجاهات المعارضة في الكوفة. دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي. معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م.
◆ من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٩٩١م..
◆ الحجاز الدولة الإسلامية (دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري)، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م.
٢٢. الجابري: د– محمد عابد
◆ العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته. مركز دراسات الوحدة العربي،الطبعة السابعة، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.
٢٣. جودة: جمال.
◆ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ١٩٨٩م.
٢٤. العلي، الدكتور صالح أحمد.
◆ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجري، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، ١٩٦٩م.
٢٥. ياسين، عبد الجواد.
◆ السلطة في الإسلام، (جزءان) المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، بيروت لبنان، ٢٠٠٨م.

المراجع المترجمة:

٢٦. فلوتن: فان.
◆ السيادة العربية الشيعة والإسرائيليات في عهد بين أمية. ترجمة حسن إبراهيم حسن الطبعة الأولى، جمهورية مصر العربية، (القاهرة/ ١٩٣٤)
٢٧. كاهن: كلود.
◆ تاريخ العرب العوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى بداية الإمبراطورية العثمانية. نقله إلى العربية الدكتور بدر الدين القاسم استاذ في جامعة دمشق، دار الحقيقة، الطبعة الثالثة، (بيروت/١٩٨٣)

المراجع الأجنبية:

74 - Donner.f; Mohammad of the believers, at the origins of Islam, combridge, Massachusetts, London, England 2010.
76 - Goldziher, Ignas, introduction to Islamic theology and law, translated by Andras and Ruth Hamori, Princeton university press, Princeton, new Jersy. 1981.
78 - Hodgson Marchel, the ventures of Islam conscience and history in a world civilization, the classical age of Islam, university of Chicago press, LTD, London, 1974.

فقدان هويّة الانتماء في ظلّ الحرب الأهليّة اللبنانيّة من خلال رواية «حجر الضّحك» لهدى بركات

د. هيبة عبد الصّمد[1]

تشكل حياتنا جسر عبور ما بين لحظات الولادة ولحظات الاحتضار. وعبر اجتياز هذه المرحلة الزمنية يمر الإنسان بتجارب عدة منها الإيجابي ومنها السلبي، وفي كلتا الحالتين تتأثر حياتنا وينعكس هذا التأثر على ظروفنا البيئية والاجتماعية والنفسية. وأصعب ما يخترق مسارنا الحياتي هو العنف الناتج عن الحروب التي تدمر كل ما حولنا لتصل إلى أعماقنا فتدمر ما تبقى فينا من نبض ينبض ويصارع البقاء. هذا الكم الباقي في الداخل يتعلق بأي شيء يشبه حكاية الخلاص وكأنه غريق تمسك بجذع شجرة وانتمى إليه بكل أحاسيسه وجوارحه بعد صراع مرير لينجو ويصل ميناء السلام.

والصراع هنا يكمن في ضياع الذات وعدم تمكنها من الانتماء إلى هوية ما ووطن ما وزمان ما. هكذا، يبدأ البحث عن مخرج لهذا المأزق وعن طريق لتغطية عقدة فقدان الانتماء التي ما هي إلا مركّب نقص يولد أزمة نفسية عصيبة قد تكون نتائجها غير إيجابية بحيث أن فاقد هوية الانتماء قد يشعر بانتماء مؤقت إلى أمكنة أو أزمنة أو حتى أشخاص يتبعه الشعور بالوحدة والغربة والإحباط. وعند انتهاء هذه الفترة الزمنية المحدودة، يبدأ البحث من جديد عن خشبة خلاص جديدة وهوية انتماء جديدة. تتتابع الحالات فيها وتبقى حالة فقدان هوية الانتماء مأزقًا يصعب الخروج من دوامته.

هذه المقدمة ما هي إلا وصف واقعي لحالة خليل، بطل رواية «حجر الضحك» لهدى بركات. فمشكلة خليل هي أنه إنسان رفض الحرب والظلم والعنف ووجد في الحيادية والسلام والوحدة ملجأ آمنا لا يعكر صفاءه سوى هذا الشرخ العميق ما

(١) أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية.

بين مشاعر الرجولة التواقة إلى الانخراط في لعبة الحرب وعنفها، وبين مشاعر الأنوثة التواقة إلى بث السلام والطمأنينة في كل مكان. فالرواية تحكي قصة هذا البطل الشاب خليل، الذي يخاف الانغماس في الحرب الأهلية وما تأتى ونتج عنها من عنف وأذى. فيأوي إلى بيته ويحاول أن يضيع الوقت في الأعمال المنزلية كالتنظيف، تحضير المأكولات، وسماع محطات الـ «ألإف أم» على الراديو. وأخيرًا انتظار أصحابه الشباب والفرح للقياهم وكأنه حبيب افتقد حبيبه لطول غيابه.

لكن حال خليل تغيرت بعد موت أترابه، لقد استدرك حالته غير الطبيعية وميوله الأنثوية الشاذة التي حالت بينه وبين حقيقته كرجل بمفهوم القيمة الاجتماعية لهذا الجنس البشري. صحّح خليل وضعه بأن تغلب على نقطة ضعفه، وغير ذاته التي تفتقد الاستقرار ولكن النهاية لم تختلف كثيرًا عن البداية. فهوية خليل الضائعة في متاهات دنيا الحرب بقيت ضائعة، إذ أنّه بقي عاجزًا عن إيجاد هوية انتماء إلى أي ممن افتقدهم رغم تغييره لبنيته الجسدية أو حتى لأسلوب معيشته. ومرد هذا كله يعود طبعًا إلى الحرب.

وهكذا أطل علينا خليل مع بداية الرواية بصورة «الرجل الصغير» الذي يشبه أي شيء إلا الرجال إن من حيث ينيته الجسدية أو من حيث اهتمامه بالأمور البيتية الصغيرة التي تهم «سيدة» البيت وليس «سيد» البيت. فنجده غارقًا في وحدته يبحث عن ذاته التي بعثرتها الحرب وحطمت أوصالها عبثية الكراهية وزجرتها شذرات القسوة والعنف. تصف الدكتورة سميرة أغاسي شخصية خليل في مقالها:

Hoda Barakat's The Stone of Laughter: Androgyny or Polarization,

بأنه شخصية اهتزت فيها هوية الرجولة وارتعبت تحت تأثير عوامل الحرب السلبية على شخصيته. فتقول:

Barakat's fiction focuses on male characters whose sense of male identity is threatened. These are men who naturally uphold the values of the patriarchal society, but whose sense of masculine identity is shaken in civil war atmosphere, the general confusion and violence that prevails, and the sudden changes that occur at all levels. (Aghacy, 185)

أما أصحابه الشباب فهم يشكلون مجموعتين، واحدة: «تدير حياة الناس العامة والخاصة...» وأخرى «أمسكت بناصية الأمور الكبرى أي بأدوات العقل والفهم والإدراك والتنظير، ووضع الخطط لضبط طابق الحياة العلوي... في السياسة والقيادة والصحافة والـ...» (بركات ص:١٧). وهو لا يجيد كلتا الوظيفتين لذلك، وجد نفسه بلا هوية يبحث عن ذاته: «في

معبر ضيق، وعلى تماس بين منطقتين شديدتي الجذب مقيما في ما يشبه الأنوثة الراكدة المستسلمة لحياة نباتية محض والرجولات الفاعلة المفجرة لبركان الحياة على قاب قوسين أو أدنى...» (بركات ص:١٧)؛ فهذه الرواية تعالج تأثير الحرب الأهلية اللبنانية على الإنسان وعلى واقعة وطبيعة تصرفاته.

أما هروبه إلى عالم الأنوثة فهو ضرب من ضروب الخلاص للوصول إلى قارب النجاة من كل مشاعر الكره والضغينة وأعمال العنف والفجور التي تولدها الحرب. ولكن هذا العالم لم يشكل عنده حالة استقرار نفسي لأنه كان يعي تمامًا أن «الخوف من الدم حتى الإعياء، وأن قصر الساقين وضمور القامة والشعر الكستنائي المسبل والعينين الكبيرتين، كل هذه الأشياء لا تجعل من الرجل «خنثي»، أو ذكرًا ضعيف الذكورة أو شأنا... وأن ما يعانيه من أعطال مؤقتة ما هو إلا أزمة نفسية فرضها الخارج المجنون... إنه بالتأكيد يفضل هرمونات الأنثى التي فيه بنسبتها الطبيعية إذ هي تقيه إجرام الفعل ولذا فهي عابرة وستزول. وهو حتما يشتهي النساء، وبقوة وقابلية عظيمتين،.. (بركات ص: ٨٩، ٩٠). وفي قوله هذا نجده يؤكد ما قاله جورج طرابيشي في كتابه شرق وغرب رجولة وأنوثة: «فالحرب رجولة، والسلام أنوثة. والقوة رجولة والضعف أنوثة. والسجن للرجال والبيت للنساء وحتى ألعاب الأطفال».

فالرجولة اتسمت بالعنف والقوة، والأنوثة اتسمت بالرقة والاستسلام والسلام. وتعتبر إيفلين عقاد في كتابها الحرب والجنس أن الرجولة تتضمن معنى العدائية والعنف واضطهاد الآخرين والسيطرة عليهم:

''Masculinity involves aggressiveness and violence, which are directly linked with political and personal exploitation of nature and woman. Exploitation takes on various forms, from exhausting and misusing the world's resources, to expressing other races, sexes or ages to invading and/or dominating other countries and continents, to running the arms race. The consequences of such values are death, destruction, and more violence and death (Accad, p: 161)

فنجد خليلا «في لطفه المسالم ما يوحي بأنثى وفي رقته ما ينفي الذكر. مخلوق هجين، أضاع الذكر الذي لم يكنه وأخطأ الأنثى التي لم تستقر فيه. (دراج ص: ٢٩٧). وحين وجد أن عالم الأنوثة لم يحقق له هوية الانتماء للحصول على سلام داخلي، تحول إلى عالم الرجولة عله يجد فيه ما ينقصه. في ذلك تقول أغاسي:

The realization that the feminine world is no more than a temporary refuge pushes Khalil back to the masculine world in an attempt to seed alternatives to the predominant and frustrating constructions of masculinity. (Aghacy, 190).

نستنتج من ذلك أن الرجولة والأنوثة هما هويتان مختلفتان تشكلتا من خلال أداء اجتماعي معين. فقد يكون الرجل ذا أداء أنثوي والعكس هو الصحيح حيث نجد أنثى تؤدي الدور الذكوري. ومشكلة خليل هي أنه ممثل فاشل بحيث أنه لم يُجد تمثيل دور الرجولة فبقيت رجولته مختبئة خلف جدران غرفته مقلدة ثوب الأنوثة وعاجزة عن مواجهة الواقع والأوضاع السائدة فيه.. إلى أن حصلت له الانتفاضة على حالته هذه بعد موت أترابه. فانتهت مرحلة الأنوثة واختلفت بولادة عالم جديد في عالم مصبوغ بالعنف والكراهية. وفي كتابه الرواية وتأويل التاريخ، يصف فيصل دراج خليل «بالولد الهجين» ويقول: «بعد أن تحرر «الولد الهجين» من زمن البراءة، وانفتح على زمن الحرب والكراهية. بتر ذاته من ذاته، وانقلب «أخًا» عريض المنكبين، يمتعه القصف ولا يزجر الجرذان المستأنسة». (دراج، ص: ٢٩٦). فخليل الذي اختتمت به الرواية غير خليل الذي تدرجت صفاته على الصفحات الأولى من الرواية. فكأن الحرب أثرت إيجابا على شخصيته ذات الميول الأنثوية. وردته ذكرا ذات ميول ذكرية ببنية متناسقة مع التجديد في الشخصية: «عريض المنكبين في جاكيته الجلدية البنية» (بركات، ص: ٢٥٠).

هكذا، ولد خليل من جديد بعد انتهاء المرحلة المتأرجحة بين الرجولة واللارجولة، والانتقال من حالة حيادية إلى حالة انخراط بأسياد الحرب، ومن حالة عجز واستسلام إلى حالة كراهية «نقية» تشكل صورة «الوطن» التي تتساوى مع مفهوم الرجولة وتخلصه من عقدة فقدان الانتماء والشعور بالوحدة والغربة في بلد فقد هويته، وحوّل الحرب «إلى انتحار، وإلى تدمير ذاتي حيث تغوص معاني التحرر والتقدم في إعصار رملي يذروها، ويعمي» (العيد، ص: ٣٤).

ولكن هل وفق خليل؟ وهل انتهت مأساته؟ هل وجد ذاته؟ هل حقق هوية انتماء لشيء ما، لمكان ما، لشخص ما؟ أو حتى لزمان ما؟. بقيت هوية خليل غامضة وبقيت هوية الانتماء مفقودة بين صخب الرجولة وصمت الأنوثة في ظل حرب أهلية شردت الإنسان من ذاته حتى صار غريبًا يبحث عن نفسه وعن وطن ينتمي إليه.

وبعد صراع طويل في ذات خليل التائهة وجد في موت صديقيه المقربين منه يوسف وناجي انتصارًا على الشعور بعدم الانتماء، وانخراطه في أوزار الحب حوله من موقع اللابطل إلى موقع البطل القادر

على تطبيق أعمال العنف حتى على من كان لهم مصدر أمان وحماية.

تمامًا مثل جارته إيزابيل التي وكلته ببيتها بعد مغدرتها فكان أن أجر المكان بعد أن تغير؛ ومن ثم حماية من سكن فيه، أم أرملة وطفل يتيم. وحين تغيرت حالة خليل، تلونت اتجاهاته بألوان العنف والغدر فاستغل وضع الأم واغتصبها بلا رحمة ومقلدًا فرسان الحرب المخادعين والظالمين. فصار خليل بطل حرب شرس يغتصب ويتصرف بأملاك غيره، فكأن الحرب مصدر لتفجير طاقات الشر عند الإنسان: «كأن الحرب نزلت عليهم من السماء، كل تفلتهم الآن من الضوابط الأخلاقية التي كانت ترزح بشدة على ذاكرتهم، يردّونه بتبرؤ خبيث إلى الموت الذي على درجة من الاقتراب... إنهم ببساطة وجدوا سببًا وجيهًا يشرع لهم ما هو في ذاكرتهم وتربيتهم السحيقة غير مشروع بالمرة... حرب شعواء وهيهات أن تعيش إلى الغد...» (بركات ص: ٢٢٢).

فموت أصدقائه أوقعه في إحباط عارم وجعل الشك في حقيقة ناجي، صديق عمره، والكشف عن أسباب قتله لسوء تعامله مع الآخرين. وفي مسألة الشرور الإنسانية، تعلق رفيق صيداوي في كتابها النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية، فتقول: «من مسالمين أو منخرطين في الحرب على حد سواء، الأمر الذي يشير إلى مقدار الشر الذي حملته الحرب. الشر القادر على اكتساح النفوس الخيرة أو المسالمة واحتلاله» (صيداوي، ص: ٢٩٠).

والاغتصاب حالة هستيرية تمثل قمة العنف والقسوة. وكما يصفه عيسى مخلوف في كتابه:

Beyrouth on la fascination de la mort:

''In rape all forms of violence are combined. All possibilities of death and pleasure are present. All dreams of domination are fulfilled. The victim of rape is the toy of all phantasms and ambitions. Rape is the place of all experimentations'' (Translated by Accad p:34).

فلقد انتقل خليل على حد تعبير فيصل دراج: «من الخنوثة العاطلة إلى «الاغتصاب المخنث» كاسفًا عن معنى الحرب وطبيعة المادة البشرية التي أنتجت الحرب وأعادت الحرب إنتاجها». (دراج، ص: ٢٩٨)

ولكن في الرواية كلها لا يجد القارئ ما يدين خليل ويثبت أنه مثليٌّ بالفعل. بل إن خليل يعبر عن ميوله الأنثوية من حيث إنزوائه في بيته وانهماكه في تنظيف البيت والطبخ والترتيب وفي انتظار أترابه بداية مع ناجي ثم مع يوسف وختامًا مع طبيبه في المستشفى. ثم إن علاقته معهم لا تتعدى مرحلة الانتظار التي من خلالها تتوق شخصية خليل الممزقة والمنهارة إلى الانتماء إلى أحد منهم بحيث يتخلص من

شعوره بالوحدة والاكتئاب والإحباط. فقد كان «دجاجة عجوزا» «وعانسا» و«أرملة مهجورة» و«جسدًا متوترًا يكتفي بأحلام رطبة يكون فيها ذكرًا وأنثى في آنٍ». (دراج، ص٢٩٧).

كل هذه الأمور جعلت من خليل ضحية لما افتقده من حنان وعطف عليه إنسانًا قبل أن يكون رجلاً أو امرأة، أما عدم ميوله للمرأة فلم يكن واضحًا تمامًا حيث أن الرواية تحكي قصة إعجاب خجولة بينه وبين زهرة، أخت يوسف، والتي لم تتطور بأمر من بطلها خليل.

ورغم أن خليلاً كان يكره ذاته الضعيفة التي لا تفعل شيئًا سوى الانتظار: «حين يتأخر ناجي يعود كل ما فكر به خليل، قبل أن يتأخر، مجرد كلام فارغ وتسلية تملأ الانتظار...» (بركات، ص: ٢٩)، «إنه يكبر، قال خليل. وهو يستغرق في زمنه الخارجي فيما أنا انتظر من الناحية الثانية من النفق، حاضنا بيض أحلامي كدجاجة عجوز... أنتظر حتى يعرق ويمل ويعود لنكون أكثر اقترابًا ولنجلس كأرملتين تتبادلان حزنًا بائتا كعلك قديم وتصطلك أسناننا الاصطناعية على ذكريات صغيرة مضت وسجلنا عليها بؤس اعتراضاتنا». (بركات ص: ١٢٦) وفي مكان آخر: «حين يتأخر يوسف، يروح خليل ينتظر» (بركات ص: ١٣٥).

إلا أنه لم يتحرر من هذا الانتظار حتى حين توفي الصديقين بحيث أنه حين دخل المستشفى صار ينتظر طبيبه كي يزوره ويؤنس وحدته وينسيه وجعه. والسبب هو نفسه أي وحدة خليل وحالة القلق النفسي الدائم وخوفه من المجهول الآتي وشعوره بعدم الانتماء إلى أي هوية شخصية... ولكن خليل خرج من المستشفى بجسد جديد رغم أنه كان يعلم أنه بحاجة إلى «إعادة تأهيل لنتعلم أبجدية جديدة يحب فيها نفسه التي كرهها طويلاً واضطهدها. بحاجة إلى أدوات متنوعة حتى يستطيع أن يتغير وأن يرى نفسه مختلفًا تمامًا، على نحو ما يشتهي، وعلى قدر ما يريد أن ينسى» (بركات ص: ٢٠٦)، فتكون نهاية القصة مقدمة جديدة لحكاية جديدة تقصها تجارب خليل والمراحل التي سوف يعيشها بجلده الجديد.

فهذا القلق النفسي الدائم جعل من التناقضات في شخصية خليل ما يكفي لأن يضيع هويته كإنسان فعال في مجتمعه. ولقد قال عدنان فحص في كتابه الحرب اللبنانية: أسباب ونتائج: «إنّ الاضطرابات والصعوبات المعيشية. اليومية والشهرية والسنوية أدت إلى قلق نفسي وتناقض داخل الشخصية الفردية والاجتماعية. هذا التصارع الداخلي في أحاسيس نفسية الإنسان وهذه المعاناة الحية مع الزمن

جعلت مشاعر غالبية السكان في حالة إحباط مريرة». (فحص ص: ٧١)

هذا الإحباط الذي فرض على خليل وحدة قاتمة يذكرها كل حين: «تمنى لو أن أحدًا يطرق الباب، الآن... ثم، راح فيما يشبه السبات العميق». (بركات ص:١٥)، «أنا وحدي... وحدي كثيرًا» (بركات ص: ١٩٥)، «لا أحد زار خليل. لا، لا أحد كان يعرف أن ما من أحد». (بركات ص: ٢٠٤)

ولقد كان خليل يدفن خوفه من الحرب وشعوره بالإحباط والوحدة في خلق عالم منزو حدوده جدران الغرفة وأبعادها وما تسمح له النافذة بأن يرى مكانًا ينسى فيه ذاته الهارب منها. أما إكثاره من الترتيب والتنظيف في البيت فهي حالة هروب من ضعفه الذي سحق شخصيته كرجل: «كل مرة تضع فيها حرب ما أوزارها، تكبر حاجة خليل إلى الترتيب والنظافة تكبر وتتشعب حتى تصير إلى ما يشبه الهاجس». (بركات ص: ١٣). ولقد ازداد شعوره بالنقص وعدم الانتماء حين فقد أصحابه الذين «اشتهاهم وأحبهم وقبع برغباته الدفينة حيالهم». (صيداوي ص: ٢٨٧) فأكثر ما كان يلفته في صديقه ناجي هو أنه كان «يعرف أشياء لا يبدو لخليل أنها موجودة في الكتب والجرائد وهي قطعًا غير موجودة في البيت...» (بركات ص:٩). أما ما قد استهواه في يوسف فهو أنه «قليل المكوث في البيت، شديد الشغف بالمدينة... طويل القامة على نحول خصوصي. نحول يوحي يوحي بالصلابة والقوة الكافية لا بالضعف أو الوهن». (بركات ص: ٩٦) «فخليل» يعشق فيهما (يوسف وناجي) ما يتوق إليه، ويكره فيهما ما يشعره بنقصه:

فخليل يعشق فيهما (يوسف وناجي) وما يتوق إليه، ويكره فيهما ما يشعره بنقصه: فيخلف موتهما عزلة باردة وتحررا غريبا: عزلة تغزوه بعد غياب من أحب، وتحرر من صور عشقها وقصر عنها، قوامها الجمال والقوة والأناقة. إنه جدل الحب والكراهية الذي ينتهي إلى كراهية خالصة، بعد موت المرجع الجميل. ذلك أن الجميل الذي مات أمات في خليل نزوعه المحتمل إلى الحب والجمال. (دراج ص: ٢٩٣)

وهكذا ينتفض خليل بعد موت أصحابه فيخلع عنه ثوب الوداعة ليرتدي ثوب الكراهية والقوة والعنف الذي ينتمي إليه كل من فيه سمات الرجولة. وبذلك يكون قد ودع حياته القديمة بصراعاتها وتضادها ليستقبل حياة جديدة خلقت فيه إنسانًا مختلفًا بصفات مختلفة حتى أن الرواية التي قد خلقته لم تعد تعرفه لكثرة ما تغير: «كم تغيرت منذ وصفتك في الصفحات الأولى! صرت تعرف أكثر في الكيمياء. حجر الضحك» (بركات، ص: ٢٥٠)

إذا، ميول خليل الأنثوي إلى أترابه الرجال لم يكن ضربًا من ضروب الشذوذ، بل كان شيئًا فقده هو في شخصه وشكل عنده عقدة فقدان الانتماء. لذلك فميوله نحوهم ليس سوى بحث عن هوية لذاته التائهة. فهو يجد نفسه رجلاً على درجة عالية من الثقافة ولكنه غير مهتم بأمور السياسة ولا يستطيع الدخول في متاهات الحرب وما يتأتى منها. لكن هذا «البطل الحيادي» (صيداوي، ص ٢٨) انقلب فجأة من رجل مسالم حيادي يتنعم بلذة كونه «لا بطل» إلى رجل ثائر وقاسٍ، مختلف لا بالنفسية فقط بل بالشكل الجسدي. فكأن ثورته قد ساعدته على خلع ثوب الأنوثة واسترداد وجه الرجولة وأن كان هذا القناع الجديد عاجزا عن تحقيق رغبة الانتماء وتحديد الهوية والوصول إلى الوعي التام للذات الإنسانية.

وإذا كان ضياع الذات في غياهب ازدواجية هوية الجنس، هذا الجنس الحائر الذي يخلق أزمة لا يستهان بها في إطار بلورة هوية الذات، فإن ضياع خليل في القناع الذي ركن خلفه قد أوقعه في مأزق كبير كاد أن يصل مرحلة الشذوذ الجنسي. ولكن بما أن خليلاً ليس شاذًا، بل وكما قال إنها فترة زمنية قصيرة مؤقتة وتمضي، فإنه قد انتهى منها وإن كانت نهايتها لم تخلق فيه سلامًا بل ثورة لا يخمدها الاغتصاب ولا الاضطهاد ولا حتى انقلابه على وضعه بحيث أصبح «زعيما» أسوة برجال الحرب في ساحة القتال.

فتقول عاقد في عقدة الزعيم في المجتمع العربي:

Arab society in general, and Lebanese society in particular, has always had pride in the ''za'im''. The ''za'im'' is the macho man par excellence. He embodies not only all the usual masculine values of conquest, domination, competition, fighting, and boasting, but also that of shatara.'' (Accad, P: 30)

فالحرب التي يخلقها الإنسان لكي تحرره نجدها تقيده وتقيد ماضيه.

في كتابها الحرب والجنس، تذكر إيفلين عقاد ما يقوله حليم بركات في كتابه غبار الأيام، أو Days of Dust حول الموضوع نفسه:

''Man creates war, but it becomes independent of his will and re-creates him in a form that it wishes, a form that has absolute control over his old self'' (Accad p: 111)

وتعقب على الموضوع بقولها:

''War is expected to bring a rebirth, liberation from feeling powerless, a liberation from oneself and from one's ago. When this liberation does not take place, it is war that is accused of not fulfilling one's expectations. The desire and need for liberation are in capable of investing themselves in reality: (Accad p: 121)

فخليل شجع رفيقه يوسف على الانخراط في التنظيمات السياسية رغم كرهه لهم وإيمانه الشديد بمدى استغلالهم لطيبة شبان المنطقة «لشدة حزنه على أصحابه راح خليل يشجع يوسف للانخراط في أحد تنظيمات المنطقة. أم لشدة النقص في المواد التموينية التي لم تكن تتوفر إلا لذوي البدلات المرقطة؟» (بركات، ص: ١٢٣)

ويعقب صيداوي على هذا أن موقف خليل «بدا ناتجا عن شعوره بالدونية حيال الآخرين خاصة حيال أبناء جنسه. جذبته وأغرته». (صيداوي، ص: ١٢٣)

وهذا الموقف فيه الكثير من الجبن والخوف ويفتقد إلى مفاهيم الرجولة ليحل مكانها أنانية وفردية ذاتية محتمة. وحين مات يوسف كان حزن خليل عميق جدًا ولا يخلو من لوم الذات لأنه هو الذي شجعه على اعتناق مثل هذه المنظمات وكانت رؤيته للحرب محددة لأن «انطلاق الشرور الإنسانية اكتسحت كيانه هو أيضًا على الرغم من كل المظاهر الخلقية التي تميز بها، وعلى الرغم من موقفه الحيادي المزعوم» (صيداوي، ص: ١٩١)

فالحرب خلقت خليلاً جديدا، حررته من ضعفه لتوقعه في مأزق أخطر وهو ضياع ذاته «كليا» وفقدانه الشعور بالانتماء حتى وهو في أوج قوته وعنفوانه. هرب خليل من أجواء الحرب وفشل وبعد ذلك عاد إليها غريبا عن نفسه وعن الرواية نفسها التي صنعته فغاب للأبد إذ «صار ذكرا يضحك» (بركات، ص ٢٥) ولكن دون أي اكتفاء أن إنتماء أو حتى ارتواء.

المصادر والمراجع

١ – بركات هدى حجر الضحك – السلسلة الروائية الطبعة الأولى آب ١٩٩٠
Published in the United Kingdom. Riad El-Rayyes Books Ltd.

٢ – دراج د. فيصل الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية المركز الثقافي العربي – بيروت لبنان

٣ – صيداوي رفيق رضا، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية، ١٩٧٥ – ١٩٩٥، دار الفارابي – ANEP – بيروت لبنان
Accad, Evelyne Sexuality and War. Literary Masks of the Middle East. New York University Press-1990

٤– العيد د. يمنى، الكتابة: تحول في التحول دار الآداب – الطبعة الأولى، ١٩٩٣
5 - Koninklijke Brill N V, Leiden, 1998 Journal of the Arabic Literature, XXIX. Dr. Aghacy, Samira. Hoda Barakat's The Stone of Laughter: Androgyny or Polarization?

تعلّميّة التّعبير الشّفهيّ بالتّكنولوجيا
من فهم المسموع إلى التّعبير الشّفهيّ

د. مايا بطرس قزعور[1]

مقدّمة عامّة

الإنسان كائن بشريّ طامح دومًا إلى المزيد، عاش مدى الزّمن باحثًا عن وسائل وسبل للتّواصل مع الآخرين، لأنّه مدرك تمامًا أنّ التّواصل يحافظ على استمراريّته ووجوده، وبه يحارب الفناء والزّوال.

جهودٌ كبيرة بُذلت في سبيل الارتقاء نحو الأفضل، تواصليًّا وعلميًّا وثقافيًّا، حتّى وصلنا إلى نهضةٍ تكنولوجيّة ورقميّة حقيقيّة، قلبت المقاييس، فتحوّلت الوضعيّات التّقليديّة إلى وضعيّات متطوّرة تتخطّى الزّمان والمكان، وبات تقدّم الشّعوب يقاس بمدى توافر الوسائل التّكنولوجيّة فيها، وبمدى اعتمادها الفعّال لها.

ويُعدّ التّعليم ثمرة تطوّر الحضارات، وهو على علاقة وثيقة بالتّكنولوجيا، لأنّ الطّرفين يعنيان بطرائق التّفكير وبحلّ المشكلات. ومع تطوّر طرائق التّعليم، باتت التّكنولوجيا جزءًا أساسيًّا من منظومة التعلّم والتّعليم، إلى أن تمّ تعميم مصطلح «تكنولوجيا التّعليم» «TICE». (Vincent, 2002,p.9)

وتكنولوجيا التّعليم لا تعني مجرّد استخدام الوسائل الحديثة والمتطوّرة إنّما هي أكثر من أداة أو وسيلة تعليميّة، إنّها طريقة نظاميّة في تصميم، وتنفيذ، وتقويم العمليّة التّعليميّة التّعلّميّة في ضوء أهداف محدّدة لتحقيق تعليم أكثر فاعليّة. (التوردي، ٢٠٠٩)

ومن المُتّفق عليه أنّ الاستماع هو الفنّ الأوّل من فنون اللّغة، وهو فنّ يعتمد على استقبال الرّسالة اللّغويّة عن طريق حاسّة السّمع، وعمليّة الاستقبال هذه، عمليّة ناشطة وواعية لهذه الرّسالة، هدفها تحقيق التّواصل اللّغويّ بين الأفراد (عبد الباري،

(١) أستاذ مساعد في الجامعة اللّبنانيّة، كليّة التّربية.

٢٠١١)، لذا يُعدّ فهم المسموع من أهمّ الكفايات اللّغويّة في تعليم اللّغة العربيّة، وهو الممهّد للانتقال إلى كفاية التّعبير الشّفهيّ والكتابيّ.

ونظرًا لارتباط موضوع الدّراسة الحاليّة بتكنولوجيا التّعليم وبالتّعبير الشّفهيّ، ارتقينا اعتماد استراتيجيّات ناشطة لنقل المتعلّم من مستمع إلى متحدّث من خلال اعتماد تقنيّة «البثّ الصّوتيّ» أو «Podcast» في الانكليزيّة و«La Balado» في الفرنسيّة، وتقويم مدى تأثير هذه التّقنيّة الإيجابيّ في مهارة التّعبير الشّفهيّ لدى متعلّمي الصّفّ الخامس الابتدائيّ في مدرسة خاصّة مختلطة.

الإشكاليّة

اتّفق التّربويّون والباحثون على ضرورة توظيف تكنولوجيا التّعليم بعد أن أثبتت فعاليّتها في تحسين إنتاجيّة التّعليم من ناحية (De Ketel, 2002, p.7)، وفي حلّ المشكلات التّربويّة والتّعليميّة الّتي قد تعسّر تحقيق الأهداف التعليميّة التّعلّمية من ناحية ثانية (الحيلة، ٢٠٠١). وعلى الرّغم من أهميّة تكنولوجيا التّعليم، نجد أنها لم تدخل ميدان التّعليم بعد في معظم المؤسّسات التّعليميّة اللّبنانيّة، أو أنّها دخلته أحيانًا ولكن بصورة خجولة وجزئيّة إمّا بسبب نقص الخبرة، أو بسبب قلّة الموارد الماليّة. وقد أشارت الدّراسات إلى أنّ عدم استخدام تكنولوجيا التّعليم في عصر باتت فيه التكنولوجيا أنيسة ورفيقة، يؤدّي إلى تدنّي مستوى تحصيل المتعلّمين (زيدان، ٢٠١٥).

من ناحية ثانية، تجدر الإشارة إلى أنّ التّعبير الشّفهيّ، يُعدّ الوسيلة الأولى للتّواصل البشريّ (Baril, 2008)، كما أنّه منطلق للتّعبير الكتابيّ، إذ يشكّل المعين اللّغويّ الواسع الّذي ينتقي منه التّعبير المكتوب مادّته، وبناء على ذلك، فالتعبير الشفهيّ هو من أهمّ فروع اللّغة نظرًا لفائدته التّربويّة والتّعليميّة «فباللّغة الشّفهيّة نشرح الدّروس ونقوّمها، وبها نوجّه الملاحظات، ونكتشف الصّعوبات الّتي يعاني منها المتعلّمون عندما يتكلّمون» (صيّاح، ٢٠١٤، ص٣٤). وتصطدم أهميّة التّعبير الشّفهي بشكوى المعلّمين – الّتي باتت شبه مزمنة –، من ضعف متعلّمي المرحلة الابتدائيّة في التّعبير الشّفهيّ، وفي قدرتهم على التّحدّث وممارسة مهارات اللّغة الشّفهيّة، علمًا أنّ هؤلاء المتعلّمين، يمضون ستّ سنوات في المرحلة الابتدائيّة يتعلّمون اللّغة العربيّة. أمّا نحن، فنجد أنّ مشكلة التّواصل الشّفهيّ لا تنحصر في المرحلة الابتدائيّة، إنّما تطال مراحل التّعليم كلّها، وامتحانات الدّخول إلى الجامعات خير دليل على ذلك. ونظرًا لما تعانيه هذه اللّغة

من مشاكل في تعليمها وتقويمها، أكّد التّربويّون على ضرورة تعليمها وفق طرائق ناشطة، تضفي الحركة والحيويّة وتزيد الوعي بالمسؤوليّة (Dumais, 2008).

هذا الواقع المتقلّب يولّد إشكاليّة الدّراسة، ويطرح التّساؤل الآتي: هل تحقّق مدارسنا بعضًا من أهدافنا، وتساعدنا في العبور إلى الحداثة والالتحاق بالعصر من خلال اتّباع إيقاع حضاريّ ننتمي من خلاله إلى بيئتنا الطّبيعيّة والاجتماعيّة؟

أسئلة الدّراسة

انطلاقًا من أهميّة تكنولوجيا التّعليم والتّعبير الشّفهيّ والمشاكل الّتي تواجه كلاّ منهما، نخرج بالأسئلة الآتية:

- هل ستساعد الاستراتيجيّات المعتمدة للانتقال من الفهم إلى التّعبير الشّفهيّ بالتكنولوجيا؟
- هل ستحسّن تقنيّة البث الصوتيّ مهارة التّعبير الشفهيّ لدى متعلّمي الصّفّ الأساسيّ الخامس؟
- هل سيُساهم البرنامج الجديد المكوّن من استراتيجيّات وتقنيّة بثّ صوتيّ في تحسين المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ، وفي توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة؟
- هل سيُساهم البرنامج الجديد في تفعيل العمل الفريقيّ بين المتعلّمين وفي بثّ الاستقلاليّة والتّحفيز في نفوسهم؟

أهميّة الدّراسة

تتجلّى أهميّة الدّراسة من خلال ثلاثة جوانب، الأوّل كونها تتناول تكنولوجيا التّعليم، فبعد أن أصبحت معظم قاعات العمل الحكوميّة والخاصّة تتطلّب خبرة ومهارة في استخدام الوسائل التكنولوجيّة، بات ارتباط التّكنولوجيا بالتّعليم أمرًا لا بدّ منه ولا يمكن تجاهله، إذ يجب أن يُهيّأ المتعلّم لمواجهة العالم الخارجيّ المليء بالتّقلّبات التكنولوجيّة الحديثة بعد تخرّجه من المدرسة. وينعكس دور تكنولوجيا التّعليم الإيجابيّ على المعلّم أيضًا، فتؤدّي دور المرشد الّذي يساعد المعلّم في تقديم المادّة العلميّة للمتعلّم، واستبدال طريقته التّقليديّة في التّعليم بطريقة جديدة تعطي المتعلّم فرصة أكبر وأسهل لتلقّي المعلومات وفهمها. وبالتّالي سيصبح المتعلّم قادرًا على تنمية قدراته الذّهنيّة والفكريّة في التّعلّم، وصقل مواهبه وإمكاناته الإبداعيّة في أثناء تعلّمه.

ولا تقتصر أهميّة التكنولوجيا على خدمة الإنسان، وممارسته الوظيفيّة، بل لها دور أساسيّ في زيادة معلوماته، ومعارفه، ورفع مستوى قدراته، وكفاياته، ومهاراته، ومشاركته آخر تطوّرات العلم والتّكنولوجيا.

وتظهر أهميّة الدّراسة من خلال جانب ثانٍ وهو تعلّميّة التّعبير الشّفهيّ، إذ يتكامل

التّعبير الشّفهيّ مع التّكنولوجيا، كونه وسيلة اتّصال بين المعلّم والمتعلّمين، كذلك بين المتعلّمين أنفسهم، فبواسطته يفهم المتعلّم ما يُراد منه، ويستطيع إفهام الآخرين ما يريد. وهذا الاتّصال لن يكون ذا فائدة إلاّ إذا كان صحيحًا ودقيقًا، إذ يتوقّف على جودة التّعبير وصحّته ووضوح الاستقبال اللّغويّ البعيد عن الغموض والتّشويش. (عاشور، ٢٠١٠، ص١٩٨)

أمّا الجانب الثّالث فيتجلّى في كون الدّراسة إجرائيّة تطبيقيّة، تنطلق من مقاربات نظريّة وتطبّقها وفق المنهج التّجريبيّ على أرض الواقع لتقويم مدى فعاليّتها.

وهكذا تكمن أهميّة الدّراسة في ما تقدّمه من جديد، كونها توظّف تكنولوجيا التّعليم في خدمة مهارة أساسيّة هي التّعبير الشّفهيّ من خلال تقنيّة البث الصّوتيّ، وهي تقنيّة رقميّة تكلفتها الماديّة منخفضة نسبة للتقنيات التكنولوجية الأخرى.

عيّنة الدّراسة

تضمّ عيّنة الدّراسة متعلّمي الصّفّ الخامس الأساسيّ من المرحلة الابتدائيّة، في مدرسة خاصّة في مدينة البترون. بلغ عدد المتعلّمين أربعين متعلّمًا ومتعلّمة، وانقسمت العيّنة إلى مجموعتين، مجموعة تجريبيّة ومجموعة ضابطة، وضمّت كلّ مجموعة عشرين متعلّمًا ومتعلّمًا.

اخترت مدرسة خاصّة في منطقة البترون درّست فيها مدّة سبع سنوات، ما سهّل التّواصل مع الإدارة والتّعاون مع المعلّمين، بغية تنفيذ النّشاط المحضّر كاملاً.

أمّا عيّنة المتعلّمين فاخترتها بطريقة التّحديد القصديّ العمديّ purposive sampling، نظرًا لخصائص هذه المرحلة العمريّة (مرحلة الطّفولة المتأخرة) المنفتحة على التّكنولوجيا والمهتمّة بها.

ففي هذه المرحلة ينمو **الذكاء**، وتتكوّن عند الطّفل مفاهيم الاحتفاظ بالكميّة والوزن والحجم، ويصبح قادرًا على الفهم والمناقشة والحوار. إنّها مرحلة العمليّات المحسوسة، فالطّفل يعتمد على الواقع أكثر من الخيال في اكتشاف خصائص الأشياء، كما يزداد اهتمامه بالأنشطة الخارجة عن المنهج، راغبًا دومًا في التّعرّف إلى جديد.

وفي هذه المرحلة أيضًا، تعتمد الذّاكرة على الفهم والإدراك لا على الحفظ الآلي، كما يزداد مدى الانتباه ومدّته، وتزداد القدرة على التّركيز بانتظام. (سليم، ٢٠٠٢)

وفي الطّفولة المتأخّرة، يتدرّج **التّفكير** من التّفكير المحسوس إلى التّفكير المجرّد المتّجه نحو غاية أو هدف يريد الطّفل تحقيقهما. والطّفل هنا يستخدم الاستدلال كي يكتشف العلاقة بين الأشياء الّتي يعرفها. أمّا **خياله**، فيتّضح في هذه

المرحلة، ويكون متّجهًا نحو الإبداع والابتكار creativity.

في المنحى اللّغويّ، يصبح الطّفل في هذه المرحلة قادرًا على معالجة المعلومات طبقًا لما توفّر لديه من قدرات معرفيّة. وفي العام الحادي عشر (متعلّم الصّفّ الخامس الأساسيّ)، يجيد الطّفل قراءة الجرائد، والاستماع إلى الرّاديو، ومشاهدة التلفاز، كما يفيد من المعلومات الّتي تقدّم إليه، فيحادث بها معلّمته، ويناقش رفاقه، ويحاورهم بلغة فصيحة تكاد تخلو من الأخطاء اللّغويّة، ويدمج ما تعلّمه في التّعبير الكتابيّ. (سليم، ٢٠٠٣)

وفي هذه المرحلة أيضًا، يصبح الطّفل قادرًا على إنتاج الجمل وتفهّمها في عمليّة تكلّم اللّغة، ويتمتّع *«بالكفاية اللّغويّة» la compétence linguistique*، وهي المعرفة الضّمنيّة باللّغة، أي قدرة الطّفل على إنتاج التّراكيب اللّغويّة واستعمال الأساليب اللّغويّة المختلفة. فكلّما سيطر الطّفل على اللّغة، كلّما تعلّم التّفكير بمنطقيّة أكثر (زكريا، ٢٠٠٢).

أدوات الدّراسة

إنّ السّمع هو أبو الملكات اللّغويّة على حدّ قول ابن خلدون (ابن خلدون،٢٠٠٤)، واكتساب اللّغة يعتمد عليه إذ لا يمكن للإنسان أن يُنتج إن لم يستقبل (Nonnon, 2004)، من هنا أولينا اهتمامنا بمهارة الإصغاء أو الاستماع، منطلقين من نصيّن مسموعين، تمّ تحضيرهما وفق استراتيجيّات التّعليم الحديثة (IFADEM, 2016) و(Guichon et Tellier, 2017)، بحيث يراعيان خصائص النّموّ لدى متعلّمي الصّفّ الأساسيّ الخامس، على أن يكون هذان النّشاطان منطلقًا لنشاطي التّعبير الشّفهيّ.

أيضًا، شكّلت شبكة التّقويم أداة أساسيّة في الدّراسة، وواكبت العمليّة التّعليميّة التّعلّميّة، بحيث تمّ تحضير شبكة تقويم تضمنت مكوّنات كفاية التّعبير الشّفهيّ، ومبيّنات أدائها، وهدفت إلى الكشف عن مدى تحسّن كفاية التّعبير الشّفهيّ لدى المتعلّمين، ومدى فعاليّة تقنيّة البثّ الصوتي في تحفيزهم.

ومن ثمّ، تمّ اعتماد برنامج الـ SPSS 20 بصيغته الحديثة، بهدف تفريغ النّتائج واستخراج النّسب المئويّة للتّمكّن من مقارنتها وتحليلها.

إجراءات الدّراسة وخطواتها

سنعرض في ما يأتي إجراءات تطبيق الدّراسة بالتّسلسل العمليّ والمنهجيّ لها، والّتي قمتُ شخصيًّا بالإشراف عليها من خلال حضوري المتكرّر إلى المدرسة المضيفة، وتتبّعي مراحل العمل وخطواته بالتّنسيق مع معلّمة الصّفّ:

المرحلة الأولى: بعد تحديد عيّنة

الدّراسة، والأنشطة المرافقة وفق خصائصها الذّهنيّة واللّغويّة، تمّ توزيع كلّ من المجموعتين التّجريبيّة والضّابطة إلى خمس مجموعات بحيث تكوّنت كلّ مجموعة من أربعة متعلّمين.

المرحلة الثّانية: تمّ تحضير نصّين سمعيّين، مرفقين بأنشطة وفق الطرائق والاستراتيجيّات الحديثة (IFADEM, 2016)، الّتي نادرًا ما نجدها في الكتب المدرسيّة، بغية الانتقال بالتّدرج من الفهم الشّفهيّ (فهم المسموع) إلى التّعبير الشّفهيّ. وتطلّب تنفيذ كلّ نشاط مسموع حصّة واحدة أسبوعيّة (٥٠ دقيقة مدّة الحصّة)

المرحلة الثّالثة: هي مرحلة الانتقال إلى التّعبير الشّفهيّ، بحيث قامت كلّ مجموعة بتحضير نشاطين شفهيّين وعرضتهما من خلال تقنيّة البثّ الصوتيّ Podcast:

– النّشاط الأوّل: الإذاعة المدرسيّة

تطلّب تحضير هذا النّشاط أربع حصص توزّعت على أسبوعين (٥٠ دقيقة للحصّة الواحدة).

الفريق الأوّل: قدّم نشرة إذاعيّة حول النّشاطات المدرسيّة اللاّصفيّة، فأعلن عن الرّحلات الّتي قام بها، وعن الإفادة الّتي حصّلها منها.

الفريق الثّاني: قدّم نشرة إذاعيّة حول أبرز النّشاطات الصّفيّة الّتي طُبّقت في حصص اللّغة العربيّة.

الفريق الثّالث: قدّم نشرة إذاعيّة حول التعلّم بالمشروع، عارضًا أبرز أحداث اليوم الفرانكوفونيّ الذّي جرى في المدرسة، وما رافقه من نشاطات متنوّعة.

الفريق الرّابع: قدّم نشرة إذاعيّة حول حفلة نهاية السّنة وما تتضمّنه من رقصات وأغاني ونشاطات.

الفريق الخامس: قدّم نشرة الطّقس في البترون للأسبوع القادم، فحدّد درجة الحرارة، ونسبة الرّطوبة، ونسبة ارتفاع أمواج البحر، كما قدّم النّصائح الوقائيّة.

– النّشاط الثّاني: تحضير وجبة طعام صحيّة

تطلّب تحضير هذا النّشاط أربع حصص توزّعت على أسبوعين (٥٠ دقيقة للحصّة الواحدة).

الفريق الأوّل: قدّم طريقة تحضير وجبة «المهلّبيّة اللّبنانيّة» لأربعة أشخاص، بحيث حدّد المكوّنات والمقادير ومراحل التّحضير، وذكر بإيجاز بعض فوائد هذه الوجبة.

الفريق الثّاني: قدّم طريقة تحضير «التّبولة اللّبنانيّة» لخمسة أشخاص، بحيث حدّد المكوّنات والمقادير ومراحل التّحضير، وذكر بإيجاز بعض فوائد هذه الوجبة.

الفريق الثّالث: قدّم طريقة تحضير

سلطة الفواكه لأربعة أشخاص، بحيث حدّد المكوّنات والمقادير ومراحل التّحضير، وذكر بإيجاز بعض فوائد هذه السّلطة.

الفريق الرّابع: قدّم طريقة تحضير وجبة «مجدّرة العدس اللّبنانيّة» لستّة أشخاص، بحيث حدّد أيضًا المكوّنات والمقادير ومراحل التّحضير، وذكر بإيجاز بعض فوائد هذه الوجبة.

الفريق الخامس: قدّم طريقة تحضير «شوربة الخضار» لأربعة أشخاص، بحيث حدّد أيضًا المكوّنات والمقادير ومراحل التّحضير، وذكر بإيجاز بعض فوائد هذه الوجبة.

المرحلة الرّابعة: هي مرحلة عرض البثّ الصّوتيّ، وقد تمّ استخدام الهاتف الخليويّ لتسجيل النّشاطات الشّفهيّة للمتعلّمين، وبالتّحديد برنامج voice recorder.

المرحلة الخامسة: هي مرحلة تقويم التّعبير الشّفهيّ. ولإنجاز هذه المرحلة تمّ وضع شبكة تقويم بالاستعانة بمراجع مختصّة في مجال التّقويم (صيّاح، ٢٠٠٩) و(IFADEM, 2016)، و(FFSEC, 2011). كما تمّت تعبئة الشّكبة مرّتين، لأنّ كلّ متعلّم قدّم نشاطين: نشاط الإذاعة المدرسيّة، ونشاط وجبة الطّعام.

المرحلة السّادسة: هي مرحلة نشر البثّ الصّوتي، وقد تمّ إنشاء موقع خاصّ على شبكة الإنترنت لتنشر فيه نشاطات المتعلّمين، وأتيح المجال للمتعلّمين وذويهم ولكلّ مهتمّ بزيارة الموقع مجّانًا للإصغاء إلى البثّ الصّوتيّ المحضّر. أمّا الموقع فهو:

https://soundcloud.com/students_podcasts/sets

المرحلة السّابعة: هي مرحلة عرض نتائج الدّراسة باعتماد نظام SPSS 20، والتّحقّق منها، وتحليلها بناء على الفرضيّة المطروحة وعلى الأطر النّظريّة.

فرضيّات الدّراسة

نظرًا لما أظهرته الدّراسة من إشكاليّة في تعليم وتعلّم التّعبير الشّفهيّ، ومن شبه انعدام استعمال تكنولوجيا التّعليم، وبعد اقتراحنا دمج تكنولوجيا التّعليم في خدمة كفاية التّعبير الشّفهيّ عبر تقنيّة البثّ الصوتيّ، نفترض الآتي:

الفرضيّة الأولى: سيتحسّن المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ لدى المتعلّمين إذا تمّ اعتماد استراتيجيّة الانتقال من فهم المسموع إلى التّعبير الشّفهيّ بالبثّ الصّوتيّ.

الفرضيّة الثّانية: ستتحسّن مهارة توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة لدى المتعلّمين إذا تمّ اعتماد الاستراتيجيّة المذكورة.

الفرضيّة الثّالثة: ستتحسّن المساهمة في العمل الفريقيّ لدى المتعلّمين إذا تمّ اعماد الاستراتيجيّة المذكورة.

الفرضيّة الرّابعة: ستتحسّن مهارة الاستقلاليّة والتّحفيز لدى المتعلّمين من حيث الثّقة بالنّفس والمثابرة في الجهد والمبادرة الذّاتيّة وتعديل الأفكار إذا تمّ اعتماد الاستراتيجيّة المذكورة.

منهج الدّراسة

تعدّ الدّراسة الحاليّة بحثًا إجرائيًّا، كونها تنطلق من مشكلة تربويّة تعليميّة، تحاول معالجتها بالوسائل والأدوات التّطبيقيّة، بهدف تحسين الممارسة التّعليميّة، وتطوير أداء كلّ من المعلّم والمتعلّم. وفي هذه الحال، تمّ اعتماد المنهج التّجريبيّ (Méthode Empirique-Explorable)، الّذي يقوم على اختبار الفرضيّات بعد إدخال متغيّر تجريبيّ (البثّ الصّوتيّ) إلى ظاهرة معيّنة (التّعبير الشّفهيّ)، ضمن عينة محدّدة مكوّنة من مجموعة ضابطة لن تخضع للتّجربة الجديدة ومجموعة تجريبيّة ستخضع لها، وتشمل العينة متعلّمي الصّفّ الأساسيّ الخامس. وللمنهج التّجريبيّ أهميّة كبيرة في الأبحاث التّربويّة، لأنّه يتيح الفرصة لمعرفة النّتائج الصّحيحة والحقائق وتعميمها، وعليه يتمّ تعديل المناهج، وتقويمها، وتعميم طرائق التّعليم النّاشطة (Debret,2018).

مصطلحات الدّراسة

- تكنولوجيا التّعليم TICE: هي التّقنيّات العلميّة–العمليّة المستخدمة في العمليّة التّربويّة التّعليميّة (آلات، أجهزة، معدّات، مستلزمات...)، بهدف تحسين التعلّم وتطويره. (Vincent,2002)
- البثّ الصّوتيّ Podcast: هو وسيلة صوتيّة أو مرئيّة تتشكّل من خلالها ملفّات (Files)، من نوع لغة التّرميز القابلة للامتداد (MP3/MP4)، تُسجَّل الملفّات على الانترنت، وتُبثُّ عبر قناة ثابتة (Website)، بحيث يمكن لأي شخص الاطّلاع عليها وتنزيلها (Download). (B.H.Tan 2013)
- الفهم الشّفهيّ (C.O): هو كفاية استقباليّة، تشترط وجود مرسِل ومتلقٍّ للرّسالة الصّوتيّة، وغايته اكتشاف المعنى من خلال مهارة الاستماع. (Dolz et Schneuwly, 1998)
- التّعبير الشّفهيّ (P.O): هو كفاية تواصليّة تهدف إلى إنتاج رسالةٍ شفهيّة معيّنة، باستخدام الأصوات والعناصر اللّغويّة المناسبة. (Dolz et Schneuwly, 1998)
- التّحفيز la Motivation: هو مجموعة من العوامل الديناميكيّة الّتي تؤثّر في المتعلّم، وتشجّعه على اختيار نشاط معيّن، والانخراط فيه، والمثابرة لانجازه بنجاح. (Viau,1997).

عرض نتائج الدّراسة

Independent Samples Test

الجدول الأوّل: مقارنة بين المجموعتين الضّابطة والتّجريبيّة في الاختبار القبلي.		Levene's Test for Equality of Variances		t-test for Equality of Means						
		F	Sig.	t	Df	Sig. (2-tailed)	Mean Difference	Std. Error Difference	95% Confidence Interval of the Difference	
									Lower	Upper
المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ	Equal variances assumed	.028	.869	.514	18	.614	.01500	.02918	-.04631	.07631
	Equal variances not assumed			.514	17.468	.614	.01500	.02918	-.04645	.07645
توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة	Equal variances assumed	.079	.784	-.239	10	.816	-.02500	.10465	-.25817	.20817
	Equal variances not assumed			-.239	9.888	.816	-.02500	.10465	-.25853	.20853
المساهمة في العمل الفريقي	Equal variances assumed	.119	.739	-.209	8	.840	-.02000	.09566	-.24058	.20058
	Equal variances not assumed			-.209	7.943	.840	-.02000	.09566	-.24086	.20086
الاستقلاليّة والتّحفيز	Equal variances assumed	1.491	.268	-.287	6	.784	-.03750	.13050	-.35683	.28183
	Equal variances not assumed			-.287	5.510	.784	-.03750	.13050	-.36384	.28884

Independent Samples Test

الجدول الثاني: مقارنة بين المجموعتين الضّابطة والتّجريبيّة في الاختبار البعدي الأوّل		Levene's Test for Equality of Variances		t-test for Equality of Means						
		F	Sig.	t	Df	Sig. (2-tailed)	Mean Difference	Std. Error Difference	95% Confidence Interval of the Difference	
									Lower	Upper
المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ	Equal variances assumed	4.852	.041	-9.017	18	.000	-.20375	.02260	-.25122	-.15628
	Equal variances not assumed			-9.017	15.759	.000	-.20375	.02260	-.25171	-.15579
توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة	Equal variances assumed	5.178	.046	-5.927	10	.000	-.42917	.07241	-.59050	-.26783
	Equal variances not assumed			-5.927	5.713	.001	-.42917	.07241	-.60852	-.24981
المساهمة في العمل الفريقي	Equal variances assumed	8.655	.019	-2.847	8	.022	-.45250	.15896	-.81907	-.08593
	Equal variances not assumed			-2.847	5.845	.030	-.45250	.15896	-.84398	-.06102
الاستقلاليّة والتّحفيز	Equal variances assumed	6.250	.047	-5.741	6	.001	-.45625	.07947	-.65070	-.26180
	Equal variances not assumed			-5.741	3.339	.008	-.45625	.07947	-.69524	-.21726

الجدول الثالث: مقارنة بين المجموعتين الضابطة والتجريبية في الاختبار البعدي الثاني. Group Statistics

		Levene's Test for Equality of Variances		t-test for Equality of Means						
									95% Confidence Interval of the Difference	
		F	Sig.	T	df	Sig. (2-tailed)	Mean Difference	Std. Error Difference	Lower	Upper
يعبّر باللّغة العربيّة الفصيحة.	Equal variances assumed	15.218	.000	-5.286	38	.000	-.37500	.07094	-.51862	-.23138
	Equal variances not assumed			-5.286	34.975	.000	-.37500	.07094	-.51903	-.23097
يعبّر بصوت مسموع وواضح.	Equal variances assumed	7.755	.008	-5.508	38	.000	-.42500	.07716	-.58121	-.26879
	Equal variances not assumed			-5.508	37.586	.000	-.42500	.07716	-.58126	-.26874
يراعي النّطق الصّحيح للكلام.	Equal variances assumed	460.798	.000	-6.263	38	.000	-.40000	.06387	-.52929	-.27071
	Equal variances not assumed			-6.263	28.021	.000	-.40000	.06387	-.53082	-.26918
يراعي التّنغيم في أثناء التّعبير.	Equal variances assumed	221.799	.000	-7.933	38	.000	-.47500	.05988	-.59622	-.35378
	Equal variances not assumed			-7.933	22.393	.000	-.47500	.05988	-.59906	-.35094
يراعي قواعد الرّبط والتّدرّج بين الأفكار.	Equal variances assumed	111.304	.000	-5.769	38	.000	-.42500	.07367	-.57414	-.27586
	Equal variances not assumed			-5.769	21.185	.000	-.42500	.07367	-.57813	-.27187
يلتزم بالتّعليمة المطروحة.	Equal variances assumed	91.200	.000	-6.367	38	.000	-.40000	.06283	-.52719	-.27281
	Equal variances not assumed			-6.367	27.941	.000	-.40000	.06283	-.52871	-.27129
يستخدم أدوات الرّبط المناسبة.	Equal variances assumed	10.781	.002	-6.030	38	.000	-.42500	.07048	-.56767	-.28233
	Equal variances not assumed			-6.030	35.391	.000	-.42500	.07048	-.56802	-.28198
يستخدم معجمًا ماثلًا.	Equal variances assumed	14.457	.001	-5.620	38	.000	-.40000	.07117	-.54408	-.25592
	Equal variances not assumed			-5.620	35.132	.000	-.40000	.07117	-.54447	-.25553
يستخدم أسلوبًا واضحًا (جمل بسيطة وواضحة وسهلة الفهم...)	Equal variances assumed	96.637	.000	-5.014	38	.000	-.33750	.06731	-.47377	-.20123
	Equal variances not assumed			-5.014	27.031	.000	-.33750	.06731	-.47561	-.19939
يجيد القواعد النّحويّة و الصّرفيّة.	Equal variances assumed	171.000	.000	-6.892	38	.000	-.50000	.07255	-.64686	-.35314
	Equal variances not assumed			-6.892	19.000	.000	-.50000	.07255	-.65184	-.34816
يحدّد بدقّة مقصده من التّحدّث. (إخبار- استعلام- توجيه...)	Equal variances assumed	376.200	.000	-6.073	38	.000	-.77500	.12760	-1.03332	-.51668
	Equal variances not assumed			-6.073	27.941	.000	-.77500	.12760	-1.03641	-.51359
ينتقي الألفاظ والعبارات المناسبة للمقام التّواصليّ.	Equal variances assumed	30.783	.000	-5.468	38	.000	-.56250	.10288	-.77077	-.35423
	Equal variances not assumed			-5.468	21.875	.000	-.56250	.10288	-.77593	-.34907
يستثمر معارفه السّابقة.	Equal variances assumed	65.828	.000	-6.246	38	.000	-.67500	.10806	-.89376	-.45624
	Equal variances not assumed			-6.246	21.741	.000	-.67500	.10806	-.89926	-.45074
	Equal variances assumed	1069605e10	.000	-5.848	38	.000	-.75000	.12825	-1.00962	-.49038
يختار أفكاره وينظمها لتتلاءم ومقاصده من التّحدّث.	Equal variances not assumed			-5.848	27.941	.000	-.75000	.12825	-1.01273	-.48727
يغني موضوعه بالمعارف المناسبة.	Equal variances assumed	69.283	.000	-6.596	38	.000	-.87500	.13266	-1.14356	-.60644
	Equal variances not assumed			-6.596	30.514	.000	-.87500	.13266	-1.14574	-.60426
يعبّر بسهولة.	Equal variances assumed	15.070	.000	-8.969	38	.000	-.77500	.08641	-.94993	-.60007
	Equal variances not assumed			-8.969	29.158	.000	-.77500	.08641	-.95169	-.59831
يتقبّل آراء رفاقه وأفكارهم بمرونة.	Equal variances assumed	4.656	.037	-8.309	38	.000	-1.25000	.15044	-1.55455	-.94545
	Equal variances not assumed			-8.309	28.400	.000	-1.25000	.15044	-1.55796	-.94204
يرغب في مشاركة رفاقه المهمّة.	Equal variances assumed	57.000	.000	-7.550	38	.000	-.75000	.09934	-.95110	-.54890
	Equal variances not assumed			-7.550	19.000	.000	-.75000	.09934	-.95792	-.54208
يلتزم بالنّظام في مداخلاته. (الدّور- الزّمن المحدّد له)	Equal variances assumed	2.983	.092	-7.607	38	.000	-.88750	.11666	-1.12367	-.65133
	Equal variances not assumed			-7.607	35.732	.000	-.88750	.11666	-1.12416	-.65084
يقدّم المساعدة لرفاقه في المجموعة.	Equal variances assumed	5.691	.022	-4.389	38	.000	-.52500	.11962	-.76716	-.28284
	Equal variances not assumed			-4.389	33.620	.000	-.52500	.11962	-.76820	-.28180
يتقبّل مساعدة رفاقه له.	Equal variances assumed	48.998	.000	-7.988	38	.000	-.95000	.11893	-1.19076	-.70924
	Equal variances not assumed			-7.988	25.671	.000	-.95000	.11893	-1.19462	-.70538
يثق بنفسه في أثناء التّعبير.	Equal variances assumed	10.012	.003	-7.177	38	.000	-.75000	.10450	-.96156	-.53844
	Equal variances not assumed			-7.177	29.368	.000	-.75000	.10450	-.96362	-.53638
يثابر في الجهد. (من حيث الموقف والسّلوك)	Equal variances assumed	5.608	.023	-4.421	38	.000	-.60000	.13572	-.87476	-.32524
	Equal variances not assumed			-4.421	36.113	.000	-.60000	.13572	-.87523	-.32477
يبادر ذاتيًا في المشاركة في التّعبير.	Equal variances assumed	4.457	.041	-19.000	38	.000	-.95000	.05000	-1.05122	-.84878
	Equal variances not assumed			-19.000	19.000	.000	-.95000	.05000	-1.05465	-.84535
يحلّل الفكرة (يستدرك- يتراجع عن رأي ما- يدقّق في موقف اتّخذه...)	Equal variances assumed	39.397	.000	-9.278	38	.000	-1.12500	.12126	-1.37048	-.87952
	Equal variances not assumed			-9.278	22.303	.000	-1.12500	.12126	-1.37628	-.87372

Paired Samples Test

الجدول الرّابع: مقارنة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الأوّل في المجموعة التّجريبيّة.		Paired Differences					t	Df	Sig. (2-tailed)
		Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean	95% Confidence Interval of the Difference				
					Lower	Upper			
المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ		-.21400	.08221	.02600	-.27281	-.15519	-8.232	9	.000
توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة		-.40417	.16783	.06852	-.58029	-.22804	-5.899	5	.002
المساهمة في العمل الفريقي		-.43250	.21389	.09566	-.69808	-.16692	-4.521	4	.011
الاستقلاليّة والتّحفيز		-.41875	.18722	.09361	-.71666	-.12084	-4.473	3	.021

Paired Samples Test

الجدول الخامس: مقارنة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثاني في المجموعة التجريبيّة		Paired Differences					t	Df	Sig. (2-tailed)
		Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean	95% Confidence Interval of the Difference				
					Lower	Upper			
يعبّر باللّغة العربيّة الفصيحة.		-.45000	.33047	.07390	-.60466	-.29534	-6.090	19	.000
يعبّر بصوت مسموع وواضح.		-.34000	.29046	.06495	-.47594	-.20406	-5.235	19	.000
يراعي النّطق الصّحيح للكلام.		-.45000	.20838	.04659	-.54752	-.35248	-9.658	19	.000
يراعي التّنغيم في أثناء التّعبير.		-.45000	.25131	.05620	-.56762	-.33238	-8.008	19	.000
يراعي قواعد الرّبط والتّدرّج بين الأفكار.		-.50000	.25649	.05735	-.62004	-.37996	-8.718	19	.000
يلتزم بالتّعليمة المطروحة.		-.47500	.37081	.08292	-.64854	-.30146	-5.729	19	.000
يستخدم أدوات الرّبط المناسبة.		-.47500	.24198	.05411	-.58825	-.36175	-8.779	19	.000
يستخدم معجمًا ماثلًا.		-.35000	.18848	.04215	-.43821	-.26179	-8.304	19	.000
يستخدم أسلوبًا واضحًا. (جمل بسيطة وواضحة وسهلة الفهم...)		-.33750	.23333	.05217	-.44670	-.22830	-6.469	19	.000
يجيد القواعد النّحويّة و الصّرفيّة.		-.55000	.34981	.07822	-.71372	-.38628	-7.031	19	.000
يحدّد بدقّة مقصده من التّحدّث. (إخبار- استعلام- توجيه...)		-.80000	.29912	.06689	-.93999	-.66001	-11.961	19	.000
ينتقي الألفاظ والعبارات المناسبة للمقام التّواصليّ.		-.60000	.39236	.08773	-.78363	-.41637	-6.839	19	.000
يستثمر معارفه السّابقة.		-.70000	.34981	.07822	-.86372	-.53628	-8.949	19	.000
يختار أفكاره وينظمها لتتلاءم ومقاصده من التّحدّث.		-.75000	.25649	.05735	-.87004	-.62996	-13.077	19	.000
يغني موضوعه بالمعارف المناسبة.		-.90000	.48936	.10942	-1.12903	-.67097	-8.225	19	.000
يعبّر بسهولة.		-.82500	.45955	.10276	-1.04008	-.60992	-8.029	19	.000
يتقبّل آراء رفاقه وأفكارهم بمرونة.		-1.22500	.54952	.12288	-1.48218	-.96782	-9.969	19	.000
يرغب في مشاركة رفاقه المهمّة.		-.75000	.44426	.09934	-.95792	-.54208	-7.550	19	.000
يلتزم بالنّظام في مداخلاته. (الدّور- الزّمن المحدّد له)		-.90000	.42457	.09494	-1.09871	-.70129	-9.480	19	.000
يقدّم المساعدة لرفاقه في المجموعة.		-.50000	.53803	.12031	-.75180	-.24820	-4.156	19	.001
يتقبّل مساعدة رفاقه له.		-1.00000	.57925	.12952	-1.27110	-.72890	-7.721	19	.000
يثق بنفسه في أثناء التّعبير.		-.80000	.41039	.09177	-.99207	-.60793	-8.718	19	.000
يثابر في الجهد. (من حيث الموقف والسّلوك)		-.65000	.28562	.06387	-.78367	-.51633	-10.177	19	.000
يبادر ذاتيًا في المشاركة في التّعبير.		-.91250	.18629	.04166	-.99969	-.82531	-21.906	19	.000
يحلّل أفكاره (يستدركه- يتراجع عن رأي ما- يدقّق في موقف اتّخذه...)		-1.03750	.53971	.12068	-1.29009	-.78491	-8.597	19	.000

Paired Samples Test

الجدول المناداس: مقارنة بين الاختبار البعدي الأوّل والاختبار البعدي الثاني في المجموعة التّجريبيّة	Paired Differences					t	df	Sig. (2-tailed)
	Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean	95% Confidence Interval of the Difference Lower	Upper			
المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ	-.22375	.03794	.01200	-.25089	-.19661	-18.651	9	.000
توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة	-.35833	.13409	.05474	-.49905	-.21762	-6.546	5	.001
المساهمة في العمل الفريقي	-.44250	.34022	.15215	-.86494	-.02006	-2.908	4	.044
الاستقلاليّة والتّحفيز	-.43125	.21469	.10735	-.77288	-.08962	-4.017	3	.028

الجدول السّابع: تطوّر معدّلات المجموعة التّجريبيّة بعد الاختبارات الثّلاثة.	الاختبار القبلي	الاختبار البعدي 1	الاختبار البعدي2
أوّلاً: المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ. 10 ع			
يعبّر باللّغة العربيّة الفصيحة.	0.325	0.5	0.775
يعبّر بصوت مسموع وواضح.	0.41	0.5125	0.75
يراعي النّطق الصحيح للكلام.	0.325	0.5375	0.775
يراعي التّنغيم في أثناء التّعبير.	0.3	0.475	0.75
يراعي قواعد الرّبط والتّدرّج بين الأفكار.	0.2	0.5125	0.7
يلتزم بالتّعليمة المطروحة.	0.325	0.6125	0.8
يستخدم أدوات الرّبط المناسبة.	0.325	0.5375	0.8
يستخدم معجمًا ملائمًا.	0.425	0.575	0.775
يستخدم أسلوبًا واضحًا. (جمل بسيطة وواضحة وسهلة الفهم...)	0.375	0.525	0.7125
يجيد القواعد النحويّة و الصّرفيّة.	0.2	0.5625	0.75
ثانيًا: توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة (10ع)			
يحدّد بدقّة مقصده من التّحدّث. (إخبار- استعلام- توجيه...)	0.75	1.1	1.55
ينتقي الألفاظ والعبارات المناسبة للمقام التّواصليّ.	0.875	1.1375	1.475
يستثمر معارفه السّابقة.	0.875	1.175	1.575
يختار أفكاره وينظّمها لتتلاءم ومقاصده من التّحدّث.	0.75	1.1	1.5
يغني موضوعه بالمعارف المناسبة.	0.6	1.0375	1.5
يعبّر بسهولة.	0.375	1.1	1.2
ثالثًا: المساهمة في العمل الفريقيّ (10 ع)			
يتقبّل آراء رفاقه وأفكارهم بمرونة.	0.675	0.9625	1.9
يرغب في مشاركة رفاقه المهمّة.	1	1.5	1.75
يلتزم بالنّظام في مداخلاته. (الدّور- الزّمن المحدّد له)	0.875	1.65	1.775
يقدّم المساعدة لرفاقه في المجموعة.	0.8	1.05	1.3
يتقبّل مساعدة رفاقه له.	0.65	1	1.65
رابعًا: الاستقلاليّة والتّحفيز (10 ع)			
يثق بنفسه في أثناء التّعبير.	1	1.3	1.8
يثابر في الجهد. (من حيث الموقف والسلوك)	0.75	1.2375	1.4
يبادر ذاتيًّا في المشاركة في التّعبير.	1.0875	1.325	2
يعدّل أفكاره (يستدرك- يتراجع عن رأي ما- يدقّق في موقف اتّخذه...)	0.6375	1.2875	1.675

تحليل نتائج الدّراسة

ننطلق في تحليلنا من المستوى اللّغويّ، الّذي يُظهر تحسّنًا في مؤشّر التعبير باللّغة العربيّة الفصيحة بحسب الجدول السّابع، بحيث بلغ المعدّل في الاختبار البعدي الأوّل ٠,٥ ثمّ ارتفع إلى ٠,٧٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني، بعد أن كان ٠,٣٢٥ في الاختبار القبلي. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠ في الاختبار البعدي الثّاني.

ومن أبرز أسباب هذا الارتفاع، التّركيز على اللّغة الفصيحة في نشاط فهم المسموع، فلا شكّ أنّ المتحدّث الجيّد مستمع جيّد، ومن لا يُحسن الاصغاء لا يُحسن الحديث (Guichon et Tellier, 2017).

من ناحية ثانية، إنّ المعدّل المنخفض للتّعبير باللّغة الفصيحة في الاختبار القبلي لدى المجموعة التّجريبيّة، يعود إلى منافسة العاميّة للفصحى، فالتّعبير الشّفهيّ بالفصحى يكاد يكون معدومًا، إذ كثيرًا ما يُدرج المتعلّم مصطلحات عاميّة في تعبيره الشّفهيّ والكتابيّ وذلك لتعثّر اكتشاف الكلمة الفصحى. والمؤسف أنّ اللّغة الفصحى آخذة بدورها في التفكّك، حتّى باتت بعض مفرداتها وتراكيبها تختلف بين دولة عربيّة وأخرى، وهذا ما لمحناه عند اطّلاعنا على مراجع أردنيّة ومصريّة وغيرها. ويشير إلى ذلك الدكتور صيّاح في قوله (مكرزل، ٢٠٠٥) «أنّنا نشهد انخفاضًا في مستوى إتقان اللّغة الفصحى كتابةً ومشافهةً، فأولادنا يميلون إلى استعمال اللّغة العاميّة في كتاباتهم ممّا يجعل تعليمنا اللّغة العربيّة في مأزق، وينعكس ذلك سلبًا على مختلف نواحي حياتنا الثّقافيّة والعلميّة بصورةٍ عامّة».

وتُظهر بعض الدّراسات أنّ نسبة كبيرة من المعلّمين لا يتحدّثون بالفصحى أثناء التّعليم. ويعود ذلك إلى عدم رغبة المتعلّمين في التّواصل بالفصحى، ومن المعلّمين من يعتبر أنّ اللّغة العاميّة أقرب إلى الفهم من اللّغة الفصحى، وهي برأيهم اللّغة المستخدمة في الحياة. (عاشور،٢٠١٠، ص.٤٨)

تحسّنت مؤشرات أخرى ضمن المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ لدى المتعلّمين، إذ ارتفع معدّل العلامة على مؤشّر التّعبير بصوت مسموع وواضح من ٠,٤١ في الاختبار القبلي إلى ٠,٥١٢٥ في الاختبار البعدي الأوّل وإلى ٠,٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كذلك ارتفع معدّل العلامة على مؤشّر مراعاة النّطق الصّحيح من ٠,٣٢٥ في الاختبار القبلي، إلى ٠,٥٣٧٥ في الاختبار البعدي الأوّل، فإلى

٠,٧٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. أيضًا ارتفع معدّل العلامة على مؤشّر مراعاة التّنغيم في أثناء التّعبير من ٠,٣ في الاختبار القبلي، إلى ٠,٤٧٥ في الاختبار البعدي الأوّل فإلى ٠,٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة أقلّ من ٠,٠٥ على المؤشّرات الثلاثة في الاختبار البعدي الثّاني.

وبعد الإصغاء إلى المتعلّمين، نجدهم في الاختبار البعدي يعبّرون بصوت واضح، ويراعون النّطق الصّحيح للكلام، فيتنبّهون إلى مخارج الحروف، ويلفظون الأصوات صحيحة بحسب أنواعها، مجهورة كانت أم مهموسة، مفخّمة أم مرقّقة؛ كما يراعون التّنغيم أو ما يُسمّى بموسيقى الكلام، فتميّزت أنماط الكلام عن بعضها عند التّحدّث، وتوضّحت الأفكار، وكان من السّهل على المُستمع أن يفسّر المعاني بعد تمييزه أنواع الجُمل، خبريّة كانت أم إنشائيّة، كالاستفهاميّة، والطّلبيّة، والتّفسيريّة، والشّرطيّة (ملحق ٢).

ولا بدّ من أن نشير إلى أنّ المكوّن الصّوتيّ في كفاية التّعبير الشّفهي يقوم على تجسّد الكلام في أصوات لغة معيّنة، تنتظم في مقاطع، وتلتئم في كلمات تتجمّع في تراكيب وعبارات. (صيّاح، ٢٠١٤، ص٣٧). فالنّصّ المسموع بما تبعه من أنشطة واستراتيجيّات تضمّنت المكونّات الصّوتيّة، عوّد المتعلّمين على سلامة النّطق وتلوين الصّوت حسب المواقف التّواصليّة الاجتماعيّة المتنوّعة الّتي يواجهها الإنسان في حياته بما يتناسب مع ضرورات المقام والموضوع.

وتشير النّتائج الإحصائيّة الواردة في الجدول السّابع إلى تقدّم كلّ من مؤشّر مراعاة قواعد الرّبط والتدرّج بين الأفكار، ومؤشّر الالتزام بالتّعليمة المطروحة، أيضًا مؤشّر استخدام أدوات الرّبط المناسبة.

ونعيد هذه النّتائج إلى الاستراتيجيّة المعتمدة في النّصّ المسموع، والّتي ركّزت على إكساب المتعلّم مهارة فهم مفردات النّصّ، والّتي بدورها ساعدت المتعلّم على الرّبط بين شكل الكلمة، وقراءتها، وربطها بمعجمه الذّهنيّ ليتوصّل إلى فهم المعنى (Thompson, 2000)، وهذا الرّبط تمّ عبر مراعاة قواعد الرّبط والتدرّج بين الأفكار. وكان من المفيد اعتماد استراتيجيّة فهم بُنى الجمل إلى جانب اعتماد القواعد النّصيّة الهادفة إلى إدراك خصائص النّصّ من صيغ وضمائر وأفعال وجمل وتراكيب. وممّا لا شكّ فيه أنّ تحسّن معدّل استخدام أدوات الرّبط يعود إلى اعتماد استراتيجيّة استخدام هذه الرّوابط في الفهم المسموع، وفهمها، بهدف تحقيق تماسك النّصّ الدّاخليّ، ولفهم

الجُمل، ولتحديد نوع النّصّ ونمطه لإنتاج نصّ مماثل شفهيًّا أم كتابيًّا. (Conseil des ministers de l'Education, 2008).

وبالنّظر إلى مؤشّر استخدام المعجم الملائم، نجد ارتفاعًا في معدّل العلامة من ٠,٤٢٥ في الاختبار القبلي، إلى ٠,٥٧٥ في الاختبار البعدي الأوّل ثمّ إلى ٠,٧٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠٢ لمصلحة المجموعة التّجريبيّة.

إنّ سبب تحسّن هذا المؤشّر هو خلق وضعيّات تواصليّة عبر تقنيّة البثّ تُشعر المتعلّم بالحاجة إلى اكتساب أشكال لغويّة جديدة يعبّر بواسطتها عن أفكاره، وهذه الوضعيّات استلزمت مفردات وعبارات وتراكيب جديدة لا يمكن الاستغناء عنها، لأنّها أساس للإنتاج الشّفهيّ، وضرورة لتحقيق الأهداف المنشودة. ومن هذا المنطلق وجدنا أنّ المتعلّم بحث عليها بشغف من دون أن تشكّل عبئًا عليه، فهي الوسيلة الأسرع والأجدى في تحقيق الكفاية الشّفهيّة.

وتشير النّتائج أنّ في الاختبار القبليّ لم يكن المتعلّم يستخدم أسلوبًا واضحًا، إنّما كانت جمله مركّبة، ومعقّدة، وغير مترابطة، وقد بلغ معدّل العلامة ٠,٣٧٥، أمّا الاختبار البعديّ الأوّل فيظهر تحسّنًا في هذا المؤشّر بحيث بلغ المعدّل ٠,٥٢٥ وفي الاختبار البعدي الثّاني ازداد التحسّن وارتفع المعدّل إلى ٠,٧١٢٥ (الجدول ٧)، بحيث غدت جُمل المتعلّمين واضحةً وسهلة الفهم. وتعود أسباب هذا التقدّم إلى تفعيل التّركيز على الاستماع الفعّال والاستجابة له، واعتماد استراتيجيّات التّفكير أثناء الاصغاء (الملحق ١)، كذلك أثناء المحادثة، ممّا جعل المتعلّم ينتقل من مفكّر مبتدئ إلى مفكّر ممارس، أي الّذي أدرك المشكلات الّتي يُعاني منها، كما أدرك ضرورة معالجتها، فأخذ يحسّن تفكيره للوصول إلى المزيد من الوضوح والصحّة والدقّة والملاءمة المنطقيّة في تفكيره (Elder and Paul 2010).

ويؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠، كما نلحظ في الجدول الخامس أنّ الفرق في معدّل علامة المجموعة التّجريبيّة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثّاني دالّ إحصائيًّا وقد بلغت قيمة الدّلالة ٠,٠٠.

أيضًا، يشير الجدول السّابع، أنّ المتعلّم وبعد الاختبار الأوّل أصبح يُتقن القواعد النّحويّة أثناء التّعبير الشّفهيّ، إذ تحسّن المعدّل بحيث بلغ ٠,٢ في الاختبار القبلي، و٠,٥٦٢٥ في الاختبار البعديّ الأوّل، و٠,٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما

يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠، كما نلحظ في الجدول الخامس أنّ الفرق في معدّل علامة المجموعة التّجريبيّة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثّاني دالّ إحصائيًّا وقد بلغت قيمة الدّلالة ٠,٠٠. هذه النّتائج تدلّ على أنّ المتعلّم وبعد تطبيقه استراتيجيّة فهم المسموع، وممارسته نشاط البثّ الإذاعيّ، أصبح قادرًا على استخدام الأفعال المناسبة بصيغها وأزمنتها، وتنويع المصادر والمشتقّات والصّفات والضّمائر. (ملحق ٢)

وممّا لا شكّ فيه، أنّ المستوى الصّرفيّ تحسّن لدى المتعلّم، من حيث تَشَكُّل الكلمات وصرفها وخصوصًا في الاختبار الثّاني. ويرتبط هذا التقدّم بما اكتسبه المتعلّم من قواعد صرفيّة ونحويّة في الاستماع الأوّل والثّاني. (ملحق ١ وملحق ٢).

وفي هذا السّياق نشير إلى أنّ الغاية من تدريس النّحو للمتعلّمين، هي تكوين الملكة اللّسانيّة الصّحيحة، لا حفظ القواعد المجرّدة (مدكور، ٢٠١٠)، ويكمن جوهر مشكلة تعليم القواعد، ليس في القواعد ذاتها، وإنّما في كون المتعلمين يتعلّمون القواعد الجافّة، ضمن إجراءات تلقينيّة، وقوالب صمّاء، فيتجرّعونها تجرّعًا عقيمًا بكلّ ما فيها من شوائب (صيّاح، ٢٠٠٨).

وحتمًا لا يقع اللّوم في ذلك على المعلّم وحده، أو على الإدارة التّربويّة وحدها، لأنّ المناهج الرسميّة (مناهج التّعليم العامّ وأهدافها، ١٩٩٧)، اكتفت بتحديد الموضوعات المطلوب معالجتها في خانة الأهداف عوضًا من تحديد المستوى المطلوب أن يتوصّل المتعلّم إلى إتقانه في كلّ درس من الدروس.

وبالنّسبة للمحادثة، يساعد النحو المتعلّم على إتقان حديثه، فيصبح قادرًا على التّعبير شفهيًّا بشكلٍ لغويّ سليم مبنيّ على القواعد النحويّة المكتسبة، كما ينمّي النّحو مخزون المتعلّمين اللّغويّ، ويُكسب المتعلّم القدرة على استعمال القاعدة بشكل صحيح.

إضافةً إلى أنّ النحو يحسّن أسلوب المحادثة من حيث التقديم والتّأخير، واستخدام الأساليب الخبريّة والإنشائيّة بصورةٍ صحيحة، فينوّع المتعلّم حديثه ويُغنيه، ويعتمد مثلاً في النّصّ نفسه المضارع الدالّ على الحاضر وعلى الماضي وعلى المستقبل. (Gardes Tamine, 2005)

ويجنّب النّحو المتعلّم الوقوع في الأخطاء النحويّة فلا يعود ينسى حالة النّصب وتنوين الألف في آخر الأسماء حيث يجب، ولا يعود يمزج بين نصب وجزم المثّنى ورفعه. (Gardes Tamine, 2005)

وممّا لا شكّ فيه أنّ الطّريقة الّتي تمّ

اعتمادها في فهم المسموع ساهمت وبشكل كبير في تحسين المستويين النحويّ والصّرفيّ لدى المتعلّم، بحيث تمّ التّركيز في تعليم القواعد على القواعد النصيّة المنطلقة من النّصّ، فلا يكون نشاط القواعد نشاطًا محصورًا بذاته قائمًا على مجرّد جمل بسيطة، بل يغدو نشاطًا متكاملاً يبدأ بنصّ مكتوب وينتهي بكتابة نصّ (IFADEM, 2016).

كما تمّ اعتماد المقارنة والتمييز في تعليم القواعد، أي جعل المتعلّم يفكّر ويقارن، ويجيب عن سؤال «لماذا»؟ وتمّ ذلك من خلال النّصّ المسموع. والأهمّ في التّطبيق هو الابتعاد قدر المستطاع عن شوائذات النّحو وتعقيداته التّي تجعل المتعلّم ينفر منه، وتبسيط القواعد وعدم إرباك المتعلّم بالإعراب المملّ (ملحق ١).

بعد تحليلنا المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ، نجد أنّ دراسة دوجان وساريه (Dejean & Sarré, 2017) توافقت مع نتائج الدّراسة الحاليّة، وقد تناولت دراستهما تعليم التّواصل الشّفهيّ عبر شبكة الانترنت، وهدفت إلى تعزيز المشاركة التفاعليّة للمتعلّمين من خلال تبادلات حواريّة متزامنة، عبر تقنيّة الفيديو (videoconference) وجرت التّبادلات في ثلاثيّة حواريّة (trilogue)، ضمّت في كلّ مرّة معلّمًا طرح مواضيع ثقافيّة واجتماعيّة، ومتعلّمين مناقشين. وتوصّلت الدّراسة إلى أنّ المحادثة الرّقميّة مهارة تربويّة ضروريّة في عصرنا الحاليّ، وهي العنصر الأساسيّ في تحسين المستوى اللّغويّ بكلّ مؤشّراته لما تحمله من خبرات ووضعيّات متنوّعة. كما توافقت دراسة القاضي (القاضي، ٢٠١١) مع نتائج الدّراسة الحاليّة، في أنّ التّعليم المتمازج يحوّل المتعلّم من متلقّ سلبيّ للمعلومات إلى مشارك مُبدع ومُنتج، قادر على استثمار أدوات التّكنولوجيا في عمليّة التعلّم.

وفي السّياق نفسه، نجد أنّ النّتائج التّحليليّة التّي توصّلنا إليها تُجيب عن السّؤال الثّالث بحيث ساهم البرنامج الجديد المكوّن من استراتيجيّة فهم المسموع ومن تقنيّة البثّ الصوتيّ في تحسين المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ، وهذا ما يؤكّد صحّة الفرضيّة الأولى حول إمكانيّة تحسّن المستوى اللّغويّ في التّعبير الشّفهيّ لدى المتعلّمين إذا تمّ اعتماد استراتيجيّة الانتقال من فهم المسموع إلى التّعبير الشّفهيّ بالبثّ الصّوتيّ.

وبالانتقال إلى المستوى الثّاني في تقويم المتعلّم (مستوى توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة)، نجد أنّ الجدول السّابع يُظهر تحسّنًا في المعدّل مؤشّر «يحدّد بدقّة مقصده من التحدّث»، بحيث بلغ ٠,٧٥ في الاختبار القبلي، و١,١ في الاختبار البعديّ

الأوّل، و١,٥٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠، كما نلحظ في الجدول الخامس أنّ الفرق في معدّل علامة المجموعة التّجريبيّة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثّاني دالّ إحصائيًّا وقد بلغت قيمة الدّلالة ٠,٠٠.

إنّ تحسّن المستوى اللّغويّ ساهم وبشكل كبير في توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة أثناء التّعبير الشّفهيّ. بحيث أصبح المتعلّم متمكّنًا من تحديد مقصده من التحدّث. ففي الاختبار الأوّل نجح المتعلّمون في استخدام أسلوب الإخبار في نشرتهم الإذاعيّة، كذلك نجحوا في الاختبار الثّاني بعرض طريقة تحضير الأطباق مستخدمين الإيعاز، والطّلب، كذلك التّوجيه بهدف توعية المسمتع إلى أهميّة الأطباق الصحيّة. ونعيد أسباب هذا التحسّن إلى اعتماد مراحل فهم المسموع المتدرّجة من الفهم إلى الإبداع وفق التسلسل الآتي: ما قبل المسموع، فهم مجمل للمسموع، فهم مفصّل للمسموع، تعميق المعرفة اللّغويّة، وصولاً إلى ما بعد المسموع. هذا التّسلسل ساعد المتعلّم في تنظيم أفكاره بحيث أصبح ماهرًا في تحديد مقصده من التّحدّث أثناء التّعبير الشّفهيّ.

أيضًا حسّنت الطّريقة المُعتمدة نتيجة مؤشّر آخر، بحيث أصبح المتعلّم قادرًا على انتقاء الألفاظ والعبارات المناسبة للمقام التّواصليّ، وقد تمّ ذلك في إطار من العفويّة والسّرعة الآليّة الّتي تتطلّبها كفاية التّعبير الشّفهيّ. ويُظهر الجدول السّابع تحسّنًا في معدل هذا المؤشّر بحيث بلغ ٠,٨٧٥ في الاختبار القبلي، و١,١٣٧٥ في الاختبار البعديّ الأوّل، و١,٤٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠، كما نلحظ في الجدول الخامس أنّ الفرق في معدّل علامة المجموعة التّجريبيّة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثّاني دالّ إحصائيًّا وقد بلغت قيمة الدّلالة ٠,٠٠.

كذلك بالنّسبة إلى استثمار المعارف السّابقة، يُظهر الجدول السّابع تحسّنًا في معدّل هذا المؤشّر بحيث بلغ ٠,٨٧٥ في الاختبار القبلي، و١,١٧٥ في الاختبار البعديّ الأوّل، و١,٥٧٥ في الاختبار البعدي الثّاني. كما يؤكّد الجدول الثّالث أنّ الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة بحيث بلغت قيمة الدلالة ٠,٠٠، كما نلحظ في الجدول الخامس أنّ الفرق في معدّل علامة المجموعة التّجريبيّة بين الاختبار القبلي والاختبار البعدي الثّاني دالّ إحصائيًّا وقد بلغت قيمة الدّلالة ٠,٠٠.

تدلّ النّتائج الإحصائيّة على أنّ المتعلّم تمكّن بعد التّجربة من دمج المعلومات الّتي اكتسبها في نصوص الاستماع وضمّها إلى المعارف السّابقة، فازدادت معارفه ومداركه وتوسّعت ثقافته. ويعود ذلك إلى تفعيل الذاكرة القصيرة المدى من خلال أسئلة طُرحت على المتعلّم تبحث عن معلومات قريبة متعلّقة بالنّصّ، أمّا الذاكرة الطويلة المدى ففُعّلت بالأسئلة التّي تحتاج إلى استرجاعاتٍ زمنيّة بهدف ربط المعارف السابقة بالحاضرة. كلّ ذلك أدّى إلى جعل المتعلّم قادرًا على التّعبير بسهولة، وعلى اختيار أفكاره وتنظيمها لتتلاءم ومقاصده في التّحدّث (الجدولان الخامس والسادس)، إذ بعد توثيق الأفكار، تمكّن من إعادة ترتيبها وتنظيمها بحسب العلاقات المنطقيّة بينها: أفكار رئيسيّة وثانويّة، زمنيّة، سببيّة، من الكلّ إلى الجزء، أو من الجزء إلى الكلّ (الملحق الثّاني)، وهذا أغنى موضوع التّعبير الشّفهيّ بالمعارف المناسبة.

إنّ تعذّر ربط المعارف السّابقة بالموضوع المعالج في الاختبار القبلي (الجدول الثالث) ولدى المجموعة الضّابطة، يعود إمّا إلى سوء الاحتفاظ بالمعارف السّابقة، أو إلى عدم تفكير وتركيز المتعلّم في أثناء الكتابة، وكلّ ذلك مرتبط بالاستراتيجيّات الّتي ينبغي على المعلّم اعتمادها مع متعلّميه. وللإفادة من المعارف السّابقة لا بدّ للمعلّم من اعتماد استراتيجيّات التّفكير المناسبة في الأنشطة كلّها، فيطرح المتعلّم على نفسه «لماذا»؟، كما ينبغي إعطاء مرحلة الانفتاح في القراءة حقّها، إذ هي مرحلة الانطلاق من النّصّ المكتوب إلى الحياة، وربط المكتسبات بالمجتمع وبالظّروف الحياتيّة المُعاشة.

أمّا أسباب ضعف متعلّمي المجموعة الضّابطة في توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة (الجدول الثّاني والجدول السّادس) فنعيدها إلى:

- التّركيز في فهم المسموع على الفهم المباشر، وإهمال المهارات الما وراء معرفيّة. وهذه المهارات يمكن اعتبارها التفكير في التفكير، فالقرّاء الجيّدون يستخدمون استراتيجيات ما وراء المعرفة للتفكير والسيطرة على ما سمعوا في أثناء الاستماع وبعده. (الجبوري ٢٠١٢)
- عدم إعطاء التّفكير النّقدي حقّه في التعبير الشّفهيّ الموجّه، فالمتحدّث غالبًا ما ينطق بما يُرضي المستمع، معتمدًا الإخبار الببغائيّ، من دون أن يحلّل أفكاره، فيبتعد عن النقد وعن إبداء الرّأي.
- سوء تنظيم النّصّ المسموع من حيث ترتيب الأفكار وتسلسلها والإخفاق في وضع التّصميم المناسب له.

- أحيانًا قد لا يراعي النّصّ متطلّبات المتعلّم وميوله، فيسمعه بلامبالاة كأنّه مفروض عليه. وقد يكون النّصّ صعبًا معقّدًا ويتضمّن كلمات ومصطلحات مبهمة وصعبة، فيتعذّر على المتعلّم فهمها.
- عدم اعتماد مراحل شرح النّصّ المسموع، (مرحلة ما قبل المسموع، مرحلة الفهم المجمل للمسموع، مرحلة الفهم المفصّل للمسموع، مرحلة تعميق المعرفة اللّغويّة، مرحلة ما بعد المسموع) أو اختصارها باعتبار أنّ النّصّ المسموع يُعتبر ممهّدًا لأنشطة أخرى وليس نشاطًا مستقلاً، ممّا يعيق اكتساب أهداف النّصّ المسموع ويسبّب تعذّرًا في فهم بعض أساليب الجمل، كما تنشأ عن ذلك صعوبة تحديد وظائف أدوات الرّبط على الرّغم من دورها في مساعدة المتعلّم على فهم النّصّ وفهم بنيته. وبالتّالي يصبح فهم المتعلّم مقتصرًا على المعنى العامّ للنّصّ المسموع من دون الدّخول في التّفاصيل الّتي غالبًا ما تعمّق الخبرات اللّغويّة والاجتماعيّة والتّواصليّة للنّصّ المسموع.
- عدم اعتماد تقنيّة اختصار أو تلخيص النّصّ المسموع الّتي تساعد المتعلّم في تحديد الأفكار الأساسيّة والتّركيز عليها من دون مزجها بالأفكار الثّانويّة. كما تساعد هذه التّقنية في تذكّر ما ورد.

بعد تحليلنا مستوى توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة، نجد أنّ دراسة كارسانتي (Karsenti,2015) توافقت مع نتائج الدّراسة الحاليّة وقد تركّزت دراستها حول دور تكنولوجيا التّعليم في تحفيز متعلّمي المرحلة الابتدائيّة لتطوير كفاياتهم وفي دمج مجموعة عمليّات ووظائف على مستوى المرونة والتفاعليّة والتخطيط والكتابة والتحرير والتّصحيح. ممّا يسهّل على المتعلّم إعادة صياغة النّصوص وتقويمها. ولا تنحصر هذه العمليّة بالمستوى اللّغويّ فقط، وإنّما تشمل إعادة تخطيط الأفكار وتنظيمها وتطويرها. كما تتوافق دراسة مدكور (مدكور،٢٠١٠) مع نتائج الدّراسة الحاليّة في أنّ مهارة الاستماع مرتبطة بمهارات الفهم العليا القائمة على التّحليل والتّفسير ومعالجة الأفكار، أي مهارة التّفكير الاستنتاجي، الّتي تعلّم المستمع كيف يستخلص الأفكار والنّتائج المذكورة، وكيف يقرأ بين السّطور، ويكتشف المعاني الضّمنيّة. وتتوافق دراسة الجبوري (الجبوري، ٢٠١٢) مع النّتائج الواردة خصوصًا في ما يتعلّق بصعوبات تدريس التّعبير الشّفهيّ.

ما توصّلنا إليه من نتائج وتحليل يُجيب بشكل مباشر على السّؤال الثّالث المطروح

في بداية الدّراسة، كما تأكّدت صحّة الفرضيّة الثّانية بحيث تحسّنت مهارة توظيف الخبرات اللّغويّة التّواصليّة بكلّ مؤشّراتها لدى المتعلّمين بعد اعتماد استراتيجيّة فهم المسموع وتقنيّة البثّ الصّوتي.

وبالانتقال إلى المستوى الثّالث (مستوى المساهمة في العمل الفريقيّ)، يُظهر الجدولان الثّاني والرّابع تحسّنًا في معدّل مستوى المساهمة في العمل الفريقيّ بحيث جاء الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة وقد بلغت قيمة الدّلالة أقلّ من ٠,٠٥. أمّا الجدول الخامس فيؤكّد هذا التحسّن بالتّفصيل مشيرًا إلى كلّ مؤشّر من مؤشّرات العمل الفريقيّ. كما يظهر التحسّن بالمعدّلات في الجدول السّابع. تدلّ هذه النّتائج أنّ المتعلّم أصبح بعد التّجربة الجديدة يتقبّل آراء رفاقه وأفكارهم بمرونة، ويرغب في مشاركة رفاقه المهمّة، إضافةً إلى أنّه التزم بالنّظام في مداخلاته، خصوصًا بعد الاختبار الثّاني بحيث ازدادت خبرته وكفاءته. أيضًا اكتسب المتعلّم بعد تجربته مهارة المرونة، فتقبّل مساعدة رفاقه له وقدّم بدوره المساعدة لرفاقه في المجموعة.

وفي هذا السّياق نشير إلى أهميّة اعتماد وضعيّة العمل الفريقيّ الّتي تتميّز بالتّواصل بين الأعضاء، وتقبّل الاختلاف، وتبادل الآراء والخبرات، والتّفاعل النّفسيّ والفكريّ، والتّوافق على إنجاز أهداف مشتركة، واتّخاذ القرارات الجماعيّة بروح ديمقراطيّة، وتحمّل المسؤوليّة الشّخصيّة ضمن الجماعة.

ومن أهمّ عناصر نجاح العمل الفريقيّ، أن يفهم المتعلّمون أنّ نجاح كلّ فرد من الفريق يعتمد على نجاح المجموعة ككلّ (جونسون، ١٩٩٥)، فإمّا أن يغرقوا معًا أو ينجحوا معًا. ويمكن بناء الاعتماد المتبادَل الإيجابيّ بشكل ناجح عندما يدرك أعضاء المجموعة بأنّهم مرتبطون ببعضهم، وبطريقة لا يستطيع فيها أن ينجح أيّ واحد منهم إلاّ إذا نجحوا جميعًا. وهذا ما سعينا لزرعه في نفوس المتعلّمين أثناء العمل الميدانيّ.

بعد متابعتنا ميدانيًّا مراحل تطبيق الدّراسة، من خلال الدّخول إلى الصّف ومشاهدة المتعلّمين أثناء أدائهم وعملهم، وجدنا أنّ العمل الفريقيّ جعل المتعلّمين ينخرطون في العمليّة التعلّميّة، فتبادلوا الأدوار والمعارف، وأفادوا بعضهم، ولم تعد المشاركة تقتصر على المتفوّقين فقط.

إنّ العمل الفريقيّ حفّز المتعلّمين، ونمّى روح الإقدام والمثابرة عندهم، كما ساهم في إلغاء الفروقات الفرديّة فتساوى جميع أعضاء الفريق وعملوا ضمن مجموعة واحدة ومتماسكة. فالتّحفيز النّاتج عن الأعمال الفريقيّة والجماعيّة كفيل بأن يزيد

من دافعيّة المتعلّم، فيرغب بالتعلّم ضمن الوضعيّات التعلّميّة المخصّصة. وهذه الوضعيّات لا بدّ منها لنجاح الخطّة التّعليميّة لأنّها تعتمد على الأعمال الفريقيّة المشجّعة، وعلى تنشيط الخيال والتّفكير الإبداعيّ لدى المتعلّم، فلا يعود التّعلّم مجرّد استنساخ أفكار الغير، بل ابتكار لأفكار وتصوّرات جديدة، أو التّعبير عن الأفكار والمعتقدات الخاصّة.

والعمل الفريقيّ ساهم في تفعيل الحصص وإبعادها عن الروتين والتّلقين، كما ساعد المتعلّمين الّذين يعانون من تأخّر علميّ على التخلّص من خجلهم، فشاركوا رفاقهم بكلّ محبّة وتشويق ضمن فريق متماسك.

ولا شكّ في أنّ استخدام تكنولوجيا التّعليم ساهم في نجاح العمل الفريقيّ من خلال تنويع الخبرات، فازداد التفاعل بين المتعلّمين، وأصبح التعلّم أكثر مُتعة، وازدادت الدافعيّة للتعلّم، فتوفّرت للمتعلّمين القدرة على الإبداع بعد كسر الحواجز التلقينيّة والتّقليديّة، كما أُتيحت للمتعلّم الفرصة الأكبر للفهم والتلقّي، ممّا انعكس على قدراته الذّهنيّة والفكريّة، فتحسّن إنتاجه. (العودة إلى الجداول الإحصائيّة).

والتّعبير الشّفهيّ ليس كفاية منفصلة عن العمل الفريقيّ، إنّما هو عمل فريقيّ بامتياز، يفترض فرقاء متعدّدين، يتشاركون في اجتذاب أطراف الحديث، ممّا يستدعي من كلّ منهم قابليّة للمشاركة، وقبولاً للآخر في حركيّة فكره وانفعاله، وفي تعبيره عنهما، وهذا يتطلّب من المتعلّمين تدرّبًا على الحوار والتزامًا بأصوله، واقتناعًا بالمساهمة الّتي يمكن لكلّ مشارك أن يقدّمها في التّعبير الشّفهيّ كعملٍ فريقيّ (صيّاح، ٢٠٠٩، ص٣٨,).

وربطًا بما سبق من تحليل ونتائج، نجد أنّ العمل الفريقيّ زاد من التّفاعلات اللّفظيّة بين المتعلّمين، ممّا أعطى فائدة نوعيّة لكلّ متعلّم من خلال التّفكير بصوت عالٍ، وتبادل الأفكار، تعديلها وإثرائها، إضافة إلى إقناع الآخر وإقناع النّفس (الملحق الثّاني).

كما ساهم العمل الفريقيّ في تنمية القدرات العقليّة المتنوّعة لدى المتعلّمين في الوقت نفسه، فنجدهم يفهمون، يحلّلون، يوضحون، يُقابلون الأفكار، ويطبّقون المفاهيم والمبادئ والمعلومات في وضعيّات جديدة، وإذ بهم ينتقلون من فهم المسموع إلى التّعبير الشّفهيّ بنجاح وإبداع.

وبالعودة إلى أسئلة الدّراسة، نجد أنّ النتّائج أثبتت الفرضيّة الثّالثة، وأجابت عن السّؤال الرّابع بعد أن ساهم البرنامج الجديد في تفعيل العمل الفريقيّ بين المتعلّمين.

واتّفقت دراسة El Soufi, (El Soufi, 2011)، مع نتائج الدّراسة الحاليّة، وقد ركّزت دراستها على تطبيق الوسائل

التّكنولوجيّة في التّعليم، وأظهرت أثر التكنولوجيا في تطوير مهارات المتعلّمين، وفي تحسين أدائهم، كما زادت من دافعيّتهم للتعلّم بعد أن غدت الأعمال الفريقيّة أكثر تنظيمًا.

وبالنّظر إلى المستوى الرّابع والأخير وهو تحت عنوان الاستقلاليّة والتّحفيز، يُظهر الجدولان الثّاني والرّابع تحسّنًا في معدّل هذا المستوى، بحيث جاء الفرق في معدّل العلامة دالّ إحصائيًّا لمصلحة المجموعة التّجريبيّة وقد بلغت قيمة الدّلالة أقلّ من ٠,٠٥. أمّا الجدول الخامس فيؤكّد هذا التحسّن بالتّفصيل مشيرًا إلى كلّ مؤشّر بالتّفصيل. ويظهر التحسّن بالمعدّلات في الجدول السّابع، فمعدّل مؤشّر الثّقة بالنّفس ارتفع من ١ في الاختبار القبلي إلى ١,٣ في الاختبار البعدي الأوّل، وإلى ١,٨ في الاختبار البعدي الثّاني. أيضًا ارتفع معدّل مؤشّر المثابرة في الجهد من ٠,٧٥ في الاختبار القبلي إلى ١,٢٣ في الاختبار البعدي الأوّل إلى ١,٤ في الاختبار البعدي الثّاني. كذلك ارتفع مؤشّر المبادرة الذّاتيّة في المشاركة في التّعبير من ١,٠٨ في الاختبار القبلي إلى ١,٣٢ في الاختبار البعدي الأوّل وإلى ٢ في الاختبار البعدي الثّاني.

وأخيرًا ارتفع مؤشّر تعديل الأفكار من ٠,٦٣ في الاختبار القبلي إلى ١,٢٨ في الاختبار البعدي الأوّل إلى ١,٦٧ في الاختبار البعدي الثّاني.

وفي هذا السّياق نشير إلى أنّ القدرة على المثابرة في التّعبير ظهرت في المدى الزّمنيّ للالتزام الّذي يستطيعه المشارك في التّعبير الشّفهيّ، فالمحادثة الشّفهيّة في النّشاطين استمرّت لفترةٍ زمنيّة لا تقلّ عن الدّقيقة والنّصف في الاختبار الأوّل، ودقيقتين في الاختبار الثّاني. والمتعلّم مدعوّ لاستدامة مشاركته طيلة هذه الفترة، فإذا كانت له هذه القدرة نجح في المشاركة، وإذا لم تكن له هذه القدرة ضعف في المشاركة ولم يحقّق منها الأهداف المرجوّة.

أمّا القدرة على المبادرة الذاتيّة في المشاركة في التّعبير، فظهرت في أخذ المتعلّم المبادرة في المشاركة في نشاط التّعبير الشّفهيّ من دون أن يُدفع إلى هذا النّشاط، فهو من ذاته أَقبَل على المشاركة مساهمًا في تشجيع الآخرين على المشاركة بدورهم.

كما ساهمت التّجربة الجديدة في تحسين مؤشّر «يعدّل أفكاره»، بحيث تبيّن لنا من خلال النّتائج ومن خلال البثّ الصّوتيّ أنّ المتعلّم أصبح قادرًا على استدراك الوضعيّة التّي هو فيها، والتّراجع أحيانًا عن رأي اتّضح له أنّه غير صحيح، كما أخذ يدقّق أكثر في موقف اتّخذه قبل أن يصدر حكمه عليه، كأن يبحث عن فوائد

وجبة مجدرة العدس قبل أن يحكم عليها بأنّها غير شهيّة أو غير لذيذة. أيضًا عند تحدّثه عن النّشاطات الصّفيّة وغير الصّفيّة نجده يتعمّق في فوائدها ويدقّق في تفاصيلها قبل أن يصدر حكمه عليها.

وأخيرًا تشير الجداول أعلاه إلى تحسّن مؤشّر الثّقة بالنّفس، وهو مبيّن أساسيّ من مبيّنات أداء التّعبير الشّفهيّ (صيّاح، ٢٠٠٩، ص. ٤٢)، فالمتعلّم وبعد التّجربة الجديدة أصبح واثقًا بنفسه أكثر، يعبّر عن رأيه من دون تردّد، يعتمد التّنغيم والنبّر المناسبين للوضعيّة التّواصليّة، يُبطئ ويُسرع حيث يجب، لا يحذف أفكارًا رئيسة، ولا يُتأتئ خوفًا، أيضًا يتجنّب التّكرار والتوقّف الطّويل أثناء التّحدّث (الملحق الثّاني). إنّ مؤشّرات الاستقلاليّة والتّحفيز مُجتمعة تخطّت المستويات اللّغويّة لتطال المستوى التداوليّ البراغماتيّ الّذي يُعنى بمقاصد المتكلّم في أبعادها المختلفة.

لقد توافقت نتائج دراسة داري (Dary, 2013) حول التكنولوجيا وتعلميّة اللّغات الحيّة، وقد أظهر داري فعاليّة الويبكاست webquest (تقنيّة الفيديو) في صفوف الحلقة الثّالثة، فهو وسيلة نشّطت المتعلّمين وزادت من تحفيزهم ودفعتهم للعمل باستقلاليّة ذاتيّة،كما راعت حاجاتهم وخصوصيّاتهم.

توافقت نتائج دراسة البغداي (البغدادي، ٢٠١٥)، مع نتائج الدّارسة الحاليّة، في أنّ الرّغبة في التعلّم تزداد حينما تُضاف المؤثّرات البصريّة والسّمعيّة إلى نظام التعلّم، وأنّ تكنولوجيا الوسائط المتعدّدة تتيح لكلّ متعلّم أن يتعلّم بطريقة فرديّة وفق الوقت المخصّص له. كما أنّها تساعد المتعلّمين على الابتكار والاكتشاف وتقدّم التّغذية الرّاجعة لهم، إضافةً إلى أنّها تُكسبهم المهارات العقليّة كالتّفكير الإبداعيّ وطرق حلّ المشكلات.

بعد تحليل النّتائج الإحصائيّة المتعلّقة بمستوى الاستقلاليّة والتّحفيز، نجد أنّ الدّراسة أجابت عن السّؤال الخامس إذ ساهم البرنامج الجديد في تفعيل العمل الفريقيّ بين المتعلّمين وفي بثّ الاستقلاليّة والتّحفيز في نفوسهم، كما أُثبتت الفرضيّة الرّابعة بحيث تحسّنت مهارة الاستقلاليّة والتّحفيز لدى المتعلّمين من حيث الثّقة بالنّفس والمثابرة في الجهد والمبادرة الذّاتيّة وتعديل الأفكار بعد اعتماد استراتيجيّة فهم المسموع وتقنيّة البثّ الصوتيّ.

الخاتمة

بعد النّتائج الّتي توصّلنا إليها في هذه الدّراسة، نجد أنّه من الملحّ دمج التّكنولوجيا في التّعليم، فهي الوسيلة المتطوّرة الّتي تساهم في تفعيل حصص اللّغة العربيّة، وفي التّحفيز على التّعبير، وبثّ الرّوح الإيجابيّة بين المتعلّمين.

التّكنولوجيا هذه، شرط وأساس للعبور إلى الحداثة والالتحاق بالعصر، بشروطنا نحن، أي بما يتلاءم ومجتمعنا وثقافتنا، وإلاّ بقيت حالتنا كما نحن عليه، وبقينا مُستهلِكين/ مُستَهلَكين!

ختامًا، نحن مطالبون بإحياء روح التّكنولوجيا الّتي أنتجت بفضل احتكاك حضاريّ صَهرَ رياضيّات الهند وفارس، وفلسفة ومنطق اليونان، وهندسة وفنون بيزنطيّة، ما أصبح اليوم تراثًا، نقاربه بمفاهيم متعدّدة.

الملحق الأوّل

النّصّان المسموعان

النّصّ الأوّل

والآن إلى صفحة المتفرّقات

«قُل لي ماذا تأكل أقل لك ما بك»، هو عنوان استفتاء أجرته منظّمة الأغذية في لبنان، وتبيّن لها أنّ الغالبيّة السّاحقة من الأشخاص لا فكرة لديهم عن الهرم الغذائيّ، وبالتّالي فإنّهم لا يعرفون كيف يختارون الأطعمة المغذّية لهم.

فالتّغذية السّلمية احتلّت في الفترة الأخيرة حيّزًا كبيرًا من اهتمامات منظّمة الصّحّة العالميّة. والهرم الغذائيّ كان في الصّدارة لأنّه بمنزلة المرشد الّذي يدلّنا على الكميّات الصحيّة الّتي يجب تناولها من الأغذية. كما يحتوي المجموعات الغذائيّة الخمس الرّئيسة الّتي على كلّ شخص الالتزام بها يوميًّا. وهذه المجموعات هي الّتي تمدّ الجسم بالمواد الغذائيّة اللاّزمة لبنائه ونموّه ولا تحلّ أيّة مجموعة منها محلّ الأخرى. فلكلّ واحدة منها فائدة وقيمة غذائيّة مختلفة.

في العام ١٩٩٢، أُصدر الهرم الإرشاديّ الغذائيّ، وتمّ استخدامه كمرشد لكميّة الأغذية الّتي يجب تناولها من كلّ صنف من الغذاء يوميًّا.

بعد ذلك وفي العام ٢٠٠٥، عدّل هذا الهرم الإرشاديّ للغذاء وأصبح يعرف اليوم بـ «هرمي»، لأنّه تمّ ملاحظة مشاكل السّمنة ومرض السّكّر النّوع الثّاني ليس فقط عند البالغين، ولكن أيضًا عند أطفال المدارس. ثمّ تمّ تصميم موقع إلكتروني يسمّى هرمي وهو عبارة عن برنامج على الإنترنت يسمح للأفراد احتساب الاحتياجات والبدائل الغذائيّة، ويعطي إرشادات غذائيّة ومعلومات إضافيّة خاصّة باختيار الغذاء وتحضيره، معتمدًا في ذلك على عوامل عديدة مثل النّوع (ذكر أم أنثى)، الوزن، الطّول، مستوى النّشاط اليوميّ.

بتصرّف

هرمي الغذائيّ

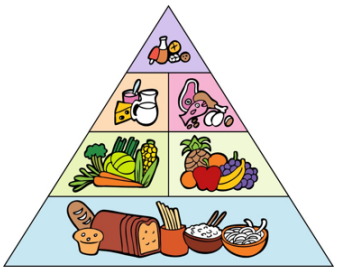

أوّلاً: ما قبل المسموع

١ – أَنظرُ جيّدًا إلى الصّورة أعلاه وأجيب عن الأسئلة:

أ – ماذا تمثّل الصّورة؟

ب – من كم مجموعة يتكوّن الهرم الغذائيّ؟ ما هي؟

ج – ماذا تتضمّن كلّ مجموعة من المجموعات؟ وبمَ تمدّ الجسم؟

د – أرقّم بالتّسلسل المجموعات بحسب أهميّتها:

	مجموعة اللّحوم
	مجموعة الحبوب والنّشويّات
	مجموعة الألبان ومنتجاتها
	مجموعة الخضراوات
	مجموعة الفواكه

هـ – أَنصحُ رفيقي بعدد الحصص الأسبوعيّة الّتي يجب أن يتناولها من كلّ مجموعة.

و – أملأ الجدول الآتي:

من يتحدّث؟	أين؟	متى؟	ماذا؟

ثانيًا: فهم مجمل للمسموع

١ – أُصغي جيّدًا إلى التّسجيل لأتأكّد من صحّة فرضيّاتي:

من يتحدّث؟	أين؟	متى؟	ماذا؟

ثالثًا: فهم مفصّل للمسموع

١ – أُصغي جيّدًا إلى التّسجيل لأُملي على المعلّم/ة الجُمل الّتي سَمِعْتُها:

من؟ ماذا يقول؟

٢ – أتذكّر ما ورد في النّصّ المسموع وأضع إشارة صح √ أمام المعلومة الصّحيحة وإشارة خطأ X أمام المعلومة الخطأ.

☐ يحتوي الهرم الغذائيّ المجموعات الغذائيّة الأربع الرّئيسة الّتي على كلّ شخص الالتزام بها يوميًّا.

☐ تمدّ المجموعات الغذائيّة الجسم بالمواد الغذائيّة اللّازمة لبنائه ونموّه، ويمكن لمجموعة منها أن تحلّ محلّ الأخرى.

☐ تمّ ملاحظة مشاكل السّمنة ومرض السّكّر النّوع الثّاني ليس فقط عند البالغين، ولكن أيضًا عند أطفال المدارس.

☐ يمكنني احتساب الاحتياجات والبدائل الغذائيّة عبر برنامج غذائيّ على الانترنت.

رابعًا: أعمّق معرفتي اللّغويّة

١ – أختار من الجمل الموجودة على اللّوح ما يُناسبُ الخانات في الجدول الآتي:

ألتزم بتناول المجموعات الغذائيّة بانتظام.

جسمي سليم البناء والنّمو

لا أتناول سوى الفواكه

جسمي نحيف ومعرّض لنقص في الفيتامينات

أتناول كميّة كبيرة من الحلويات والسّكاكر يوميًّا.

أنا سمين، أصبح جسمي مشّوهًا وبشعًا.

السّبب	النّتيجة

أستنتج:

السّبب هو: .....

النّتيجة هي: .....

خامسًا: أُطبّق

١ – أَصِلُ السّببَ بالنّتيجةِ المُناسبة:

- أشرقتِ الشّمسُ ● لأنّي كنتُ مسافرًا.
- لم أَزُرْكَ في بيتِكَ ● فيذهَبُ النّاسُ إلى البَحرِ.
- ترتفِعُ الحرارةُ في الصّيفِ ● فبدأَتِ الثّلوجُ بالذّوبانِ.
- حضَّرتُ طعامًا كثيرًا ● كي يكفيَ جميعَ المدعوّين.

٢ – أؤلّف جملتين في كلٍّ منهما سببٌ ونتيجة:

الجملة الأولى: .....

الجملة الثّانية: .....

سادسًا: ما بعد المسموع: ضمن عملٍ فريقيّ، أسمّي المأكولات الّتي أتناولها بكثرة، وأعرضُ حسناتها وأضرارها على صحّتي.

النّصّ الثّاني

- صباح الخير
- أهلاً. هل لي أن أعرف من أنتم؟
- صباح الخير
- نحنُ نقومُ بتغطية إذاعيّة لمهرجانات لبنان الصّيفيّة. أحبّ أن أسألكَ لمَ اخترتَ المجيء إلى هنا، ولم تذهب إلى مكانٍ آخر؟ فهناك العديد من المهرجانات في المناطق اللّبنانيّة وجميعها مميّزة.
- صحيح ما تقولينه، لكن مع ذلك لا أوافقك الرّأي لأنّ زحلة أكثر من مميّزة، فهي مدينة لبنانيّة ممزوجة بالتّاريخ والجمال والأصالة. إنّها جارة الوادي وعروس البقاع، وهي عريقة في حسن الضّيافة بفضل مناخها المميّز صيفًا، ومنها انطلقت المازة اللّبنانيّة إلى كلّ دول العالم. وفي زحلة فنّ البناء والهندسة المعماريّة يعود إلى مئات من السّنين، لذا رغبنا في أن نكتشفها أكثر ونستمتع بأجوائها الرّائعة.
- يمكننا أن نلحظ انشغال الكلّ بالتّحضيرات. ما المناسبة؟
- عنوان زحلة الكرمة، فزحلة مشهورة بالعنب اللّذيذ المذاق. كما أنّ مدخل المدينة

يستقبل زوّاره بنصب للكرمة. والشّعرُ شعار لها. وقد خصّصت مدينة زحلة أسبوعًا كاملاً من شهر أيلول للاحتفال بـ «مهرجانات الكرمة».

- هل لديك فكرة عن فعاليّات هذا الأسبوع؟
- منذ عام ١٩٢٠، تستقطب زحلة خلال «مهرجانات الكرمة»، أبرز الفرق الفنيّة والموسيقيّة. تتخلّل هذه المهرجانات أنشطة ثقافيّة (مهرجان الشّعر السّنويّ...)، وفنيّة (حفل عنائيّ- استعراض فنيّ راقص...)، ورياضيّة (دورة تنس، دورة Ping Pong, Ralley Paper)، وسباق على الدرّاجات الهوائيّة...)، وأنشطة أدبيّة ومعارض مختلفة (معرض الكتاب، معرض الحرفيّين، معارض تراثيّة...)، إضافةً إلى حفل انتخاب فتاة الكرمة. أُحبُّ أن أدعوَ الجميع عبر أثير إذاعتكم للمجيء والتمتّع بأجمل الأجواء في عروس المصايف زحلة.

بتصرّف http:// www. Zahle. Gov.lb

أوّلاً: ما قبل المسموع

١ – أنظر جيّدًا إلى الصّورة أعلاه ثمّ أُجيبُ عن الأسئلة:

أ – ما المدينة اللّبنانيّة الّتي تمثّلها الصّورة الأولى؟ أين تقع هذه المدينة؟

ب – ما سبب هذا الحشد الكبير في الصّورة الثّانية؟ ماذا نسمّي هذا النّوع من التجمّع؟

ج – أين يجتمع الأولاد في الصّورة الثّالثة؟ ماذا يفعلون؟ ماذا نوع هذا المهرجان؟

د – ما الّذي يلفتنا في الصّورة الرّابعة؟ لِمَ استُخدمت الأزهار؟ وماذا نسمّي هذا المهرجان؟

٢ – أَنظُرُ جيّدًا إلى الصّورة أعلاه، وأملأُ الجدول بما يُناسب:

من يتكلّم؟	أين؟	متى؟	ماذا يقول؟

ثانيًا: الفهم المجمل للمسموع:

١ – أُصغي جيّدًا إلى التّسجيل لأتأكّد من صحّة فرضيّاتي:

من يتكلّم؟	أين؟	متى؟	ماذا يقول؟

ثالثًا: الفهم المفصّل للمسموع:

١ – أُصغي جيّدًا إلى التّسجيل لأُملِيَ على المعلّم/ة الجُمل الّتي سَمِعْتُها:

من؟ ماذا يقول؟

....

٢ – أُعرّفُ الحوار:

رابعًا: أُعمّق معرفتي اللُّغويّة

١ – أَستَخرجُ منَ الجدول السّابق ما يُناسبُ المطلوب:

جملةٌ عن زحلة	
سؤالٌ	
إجابَةٌ	

٢ – أُجيبُ عنِ الأسئلَةِ الآتية:

● في السّؤالِ وردَ فِعلٌ مُضارِعٌ. ما هو الحرفُ الّذي سبقه؟ .....

● ما تأثير هذا الحَرفِ في الفِعل؟ .....

.....

● في بدايةِ الإجابةِ تأكيدٌ على شيءٍ ما وعدمُ تأكيدٍ على شيءٍ آخر. ما الكلمات الّتي تمّ استخدامها لتحقيق هذه الغاية؟ .....

.....

● ما الّذي يُميّز جُملَةَ «زَحْلَة» من السّؤالِ والإجابة؟ .....

أستنتجُ: أسلوب الإثبات يعني .....

..... والنّفي يعني .....

خامسًا: أُطبّق

١ – أُحوِّل جُمَل هذه الفقرة من مُثبتةٍ إلى منفِيَّةٍ:

يُقامُ في خِتامِ هذه المهرجاناتِ «مهرجانُ الزّهورِ»، ويَنطَلِقُ خلالَهُ مَوكِبُ العَرباتِ المُزيّنةِ بالرّياحينِ والورود. وأُحبُّ أن أدعوَ الجميعَ عبرَ أثيرِ إذاعتِكُم للمجيء والتّمتّعِ بأجملِ الأجواءِ في عروسِ المصايفِ «زَحْلَةَ».

.....

.....

٢ – أُؤلِّفُ جُملتَينِ الأولى مُثبتةٌ والثّانية مَنفيّةٌ:

● مثبتة: .....

● مَنفيّة: .....

٣ – أُشكِّلُ الفِقرَةَ الآتيةَ بالحركاتِ المُناسبةِ:

● يمكننا أن نلحظ انشغال الكلّ بالتّحضيرات. ما المناسبة؟

● عنوان زحلة الكرمة؛ فزحلة مشهورة بالعنب اللّذيذ المذاق. كما أنّ مدخل المدينة يستقبل زوّاره بنصب للكرمة، والشّعر شعار لها. وقد خصّصت مدينة زحلة أسبوعًا كاملاً في شهر أيلول للاحتفال بـ «مهرجانات الكرمة».

سادسًا: ما بعد المسموع: أحضّر مع رفاقي في المجموعة برنامجًا لمهرجان في قريتي/ مدينتي، يتضمّن نشاطات ثقافيّة وترفيهيّة ورياضيّة وفنيّة... تهمّ المراهقين من عمري.

الملحق الثّاني

الموقع الإلكترونيّ للبثّ الصوّتيّ

يتضمّن هذا الموقع الإكتروني نشاطي البثّ الصّوتيّ:

https://soundcloud.com/students_podcasts/sets

لائحة المراجع العربيّة

- البغدادي، زكي أبو النّصر (٢٠١٥). توظيف تكنولوجيا الوسائط المتعدّدة في تعليم اللّغة العربيّة عن بُعد. الجزائر: جامعة قسنطينة ١، مجلّة العلوم الإنسانيّة، عدد ٤٣، مجلد ب، ص. ٦٣-٩٤.
- ابن خلدون. (٢٠٠٤). مقدّمة ابن خلدون. ترجمة وتحقيق أحمد الزّغبي. المملكة العربية السعودية: دار الأرقم.
- أبو فضيل، دليو. (٢٠١٠). التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتّصال، المفهوم، الاستعمالات، الآفاق. عمان: دار الثّقافة، المملكة العربيّة الهاشميّة.
- التودري، عوض حسين. (٢٠٠٩). تكنولوجيا التّعليم: مستحدثاتها وتطبيقاتها. القاهرة: دار الكتب.
- الجبوري، خالد (٢٠١٢). صعوبات تدريس التّعبير الشّفهيّ في المرحلتين المتوسّطة والإعداديّة من وجهة نظر المدرّسين. جامعة ديالى. العراق: مجلّة الفتح. العدد الواحد والخمسين. ص. ٣٩٦- ٤٤٨.
- جونسون، ديفيد. (١٩٩٥)، التعلّم التّعاونيّ، ترجمة مدارس الظّهران الأهليّة. المملكة العربيّة السّعوديّة: مؤسّسة تركي للنّشر والتّوزيع.
- زكريا، ميشال. (٢٠٠٢). المدخل إلى علم اللّغة الحديث. بيروت: مؤسّسة نعمة للطّباعة.
- سليم، مريم. (٢٠٠٢). علم نفس النّمو. بيروت: دار النّهضة العربيّة.
- سليم، مريم. (٢٠٠٣). علم نفس التعلّم. بيرون: دار النّهضة العربيّة.
- صيّاح، أنطوان. (٢٠٠٨). تعلميّة اللّغة العربيّة، الجزء الثّاني. بيروت: دار النّهضة العربيّة.
- صيّاح، أنطوان. (٢٠٠٩). تقويم تعلّم اللّغة العربيّة. دليل علميّ. بيروت: دار النّهضة العربيّة.
- صيّاح، أنطوان. (٢٠١٤). تعلّميّة اللّغة العربيّة في المرحلة الابتدائيّة. لبنان: دار النّهضة العربيّة.
- عاشور، راتب قاسم. (٢٠١٠). أساليب تدريس اللّغة العربيّة بين النّظريّة والتّطبيق. الطّبعة الثّالثة. الأردن: دار المسيرة.
- عبد الباري، ماهر شعبان. (٢٠١١). تعليم القراءة والكتابة، أسسه وإجراءاته التّربويّة. عمّان: دار المسيرة.
- القاضي، هيثم (٢٠١١). أثر تدريس اللّغة العربيّة باستخدام استراتيجيّة التعلّم المتمازج في تنمية مهارات التّواصل اللّفظيّ لدى طلبة الصّفّ الأساسيّ السّابع في الأردن. الأردن: الأكاديميّة للدّراسات الاجتماعيّة والإنسانيّة، العدد السّابع، ص. ٣ - ١٤.
- الكلوب، عبد الحليم بشير. (١٩٩٩). التكنولوجيا في عمليّة التّعلّم والتّعليم. الأردن: دار الشّروق للتّوزيع والنّشر.
- مدكور، علي أحمد. (٢٠١٠). طرق تدريس اللّغة العربيّة. الأردن: دار المسيرة للنّشر.
- مكرزل، إيلي. (٢٠٠٥). تعلّم اللّغة العربيّة في الحلقة الثّالثة من التّعليم الأساسيّ وفي

المرحلة الثّانويّة، مشاكل وحلول، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمّقة في اللّغة العربيّة وآدابها، بإشراف الدكتور جورج كرباج. لبنان: جامعة الرّوح القدس.

- مناهج التّعليم العامّ وأهدافها. (١٩٩٧). المركز التّربويّ للبحوث والإنماء. بيروت: مطبعة صادر.

المراجع العربيّة الإلكترونية

- زيدان، نصرت جياد. (٢٠١٥). مشكلات استخدام التّكنولوجيا في التّعليم الّتي تواجه مدرّسي اللّغة العربيّة في المرحلة الإعداديّة بمدينة الرّمادي العراقيّة من وجهة نظرهم. العراق: جامعة الشّرق الأوسط. منقول عن الموقع: https://meu.edu.jo/librarytheses/58a7ea66c45c7_1.pdf

لائحة المراجع الأجنبيّة

- Baril, Denis. (2008). Techniques de l'expression écrite et orale, 11ème édition. Paris: Dalloz.
- Dejean & Sarré, (2017). Favoriser l'engagement interactionnel des apprenants dans les échanges synchrones. enseigner l'oral en ligne, une approche multimodale, sous la direction de Nicolas Guichon et Marion Tellier. Paris. Didier
- Dolz, J. et Schneuwly, B. (1998). Pour un enseignement de l'oral. Intitiation aux genres formels à l'école. Collection Didactique de Français, dirigée par Yves Reuter. Paris: ESF éditeur.
- Elder,L. & Paul. R.W.(2010). The Thinker's guide to analytical thinking. Tomales, CA: Foundation for critical thinking.
- Gardes Tamine, J. (2005). De la phrase au texte, Enseigner la grammaire du collège au lycée. Paris: Delagrave pédagogie et formation.
- Guichon, N. et Tellier, M. (2017). Enseigner L'oral en ligne. Une approche multimodale. Paris: Didier.
- Ifadem. (2016). La Compréhension. Livert 3. Liban
- Ifadem. (2016). La Production Orale et Ecrite. Livret 4. Liban
- Thompson, S. (2000). Effective content reading comprehension and retention strategies. Educational Resource Information Center, ED 440372.
- Viau, R. (1997). La motivation en contexte scolaire. Col. Pédagogies en développement. Paris /Bruxelles: De Boeck Université.
- Vincent, J. (2002). Les TICE à l'école. Paris: BORDAS Pédagogie.

لائحة المراجع الأجنبيّة الالكترونية

- B.H.Tan. (2013). Podcast Applications in Language Learning: A Review of Recent Studies. Dodument is accessible in: https://www.researchgate.net/publication/287149938_Podcast_Applications_in_Language_Learning_A_Review_of_Recent_Studies.
- Debret, J. (2018). La Recherche- action: définition et étapes. Document accessible à l'adresse suivante: https://www.scribbr.fr/astuces/la-recherche-action-definition-et-etapes/
- Dary Harmony (2013). Les TICE au service de l'apprentissage d'une langue vivante étrangère en cycle 3, pourquoi et comment? l'exemple de la Webquest. (Mémoire de Master, école interne IUFM Midi-Pyrénées). Document accessible à l'adresse suivante:

ble à l'adresse suivante:
https://www.cairn.info/revue-le-francais-aujourd-hui-2004-3-page-75.htm?try_download=1

- Karsenti Thierry (2015). Usages didactiques des technologies de l'information et de la communication (TIC) pour soutenir le développement de la competence à écrire des élèves du primaire en milieu défavorisé, document téléchargeable . l'adresse suivante:
http://www.frqsc.gouv.qc.ca/documents/11326/518700/PT KarsentiT rapport TIC/2015.pdf/4af7d39f-91ef-4598-b37c-c2514d4b25de

https://dumas.ccsd.cnrs.fr/dumas-00906829/document

- Dumais, C. (2008). Effets de l'évaluation par les pairs sur les pratiques d'expression orale d'élèves de troisième secondaire: une description. Mémoire de maitrise inédit. Montréal: U. De Québec. Document accessible à l'adresse suivante:
https://archipel.uqam.ca/1570/1/M10567.pdf
- EL- Soufi, A. (2011). Usages et effets des TIC dans l'enseignement-apprentissage du français langue seconde: Un exemple au Liban.. Document accessible à l'adresse suivante:
https:/tel.archives-ouvertes.fr/tel-00625218/document
- FESEC. (2011). Cellule de Conseil et de Soutien Pédagogiques. Equipe Langues Modernes. Expression Orale sans Interaction: Grille d'évaluation. Document accessible à l'adresse suivante:
http://enseignement.catholique.be/segec/fileadmin/DocsFede/FESeC/langues_modernes?GRILLE_D_EVALUATION_EXPRESSION_ORALE_SANS_INTERACTION_3e_DEGRE.pdf
- Grégoire, R., Bracewell R., et Laferrière T., (1996). L'apport des nouvelles technologies de l'information et de la communication (NTIC) à l'appentissage des élèves du primaire et du secondaire. Revue documentaire: Rescol/SchoolNet. Document accessible à l'adresse suivante:
http://www.tact.fse.ulaval.ca/fr/html/apport/apport96.html
- Nonnon, E. (2004). Ecouter peut-il être un objectif d'apprentissage? Le Franúais Aujourd'huit, n. 146. Document accessi-

الأثر التّراثي والدّيني في شعر «عمر شبلي»

د. منال شرف الدين

مقدّمة:

«الشّعر وحده كان ديوان العرب، وكان تاريخ العرب الحقيقي، كان تعبيرًا عن توق النّفس العربيّة لنقل ذاتها في ذات الآخر، لذا أقبلت الرّوح العربيّة على الشّعر بنَهم وشوق يغريان بسفر الرّوح إلى جغرافية المكان. كان تعبيرًا عن اتساع الذّات للتغني بالقيم العليا الّتي تركتها جغرافية المكان في الذّات»[١] لم يحبّ العرب شيئًا كما أحبوا الشّعر، وكانوا يتوافدون لتهنئة القبيلة التي يظهر فيها شاعر كبير، وكانت القصيدة أوسع انتشارًا في حياة العرب من إعلامنا المعاصر، وكان سوق عكاظ مهرجانًا ثقافيًّا مادته الشّعر وقضاته شعراء، والحاضرون غاوون إلى درجة عبادة الشّعر.

في الجاهلية كان الشّعر مرآة للحياة السياسيّة والفكريّة في المجتمع، وما انطوت عليه من مواقف، ونزاعات، واختلافات بين التيارات والفرق المختلفة من هنا جاء وصف الشّعر منذ القدم بأنّه «ديوان العرب»، وأنّه خزانة الحكم، ومستودع العلوم. ففي هذا القول «ما يؤكّد المفهوم الذي بقي سائدًا حول ماهية الشّعر، والذي يمكن تلخيصه في أنّ الشّعر مرآة للطبيعة والحياة، وأنّ العالم الخارجيّ ومايدور فيه من أحداث هو مصدر القصيدة، ومادتها الأسياسيّة، وأنّ الشّاعر هو من ينقل الواقع إلى القارئ في إطار ممتع ومشوّق»[٢].

والشّاعر يجب أن يكون ملتزمًا بقضايا مجتمعه، والتزامه يعني ارتباطه بقضايا الإنسان العليا، الحبّ، الحرية، الحلم، والدّفاع عن حقّ المصير الذي تتطلع إليها الأمم والأفراد، وهذا المعنى يحوّل الكلمة إلى موقف، لأنّ الالتزام موجود وشامل كلّ

(١) عمر شبلي، **تجليات القيم في الشعر العربي**، المنافذ الثقافيّة، العدد الرابع عشر/ ربيع ٢٠١٦، ص٥.

(٢) عبد الصاحب مهدي علي، **في مفهوم الشعر ولغته: خصائص النّصّ الشّعري**، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ٨، العدد الثالث، ٢٠٠١، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

قضايا الإنتاج الإنسانيّ الفكريّ والأدبيّ، فنحن حين نكتب مافي داخلنا لا نكتب للأحجار، ولا لما هو مجرّد قضية، أو موقف، أو تطلّع لما هو أعلى، فالنتاج التزام من الأدنى إلى الأعلى في الإنسان وقضاياه وتطلعاته، وهواجسه وآماله والآمه. وكلّ عصر من العصور عانى من قضايا اجتماعيّة تركت آثارها في الشّعراء، فعبّروا عنها في شعرهم، وهذا يجسّد مقولة أنّ الشّاعر ابن بيئته ومجتمعه.

والالتزام هو تعبير عن انحياز الأديب لقضايا الإنسان المحقّة؛ وهو في حقيقته موقف فكري، قد يتحول إلى سلوك، وأعلى أنواع الالتزام هو انخراط الكلمة في ممارسة أثرها قضايا الإنسان العليا في الحرية، والحلم، والثورة على الظّلم، وحقّ الإنسان في أن يكون إنسانًا كامل الحضور في الانتماء والتّصرّف والانحياز.

من هنا يصبح الالتزام موقفًا حرًّا في سلوك الإنسان، وحرية الاختيار تصبح في النهاية موقفًا أخلاقيًا، وهذا يعني أن الالتزام يمارس الصّراع ضدّ الظّلم، والفقر، والاستعمار بكلّ أشكاله التّاريخيّة.

إنّ «تراثنا في نقد الشّعر تراثٌ ثريٌّ، لم نكتشف كلّ جوانب ثرائه بعد، وذلك بسبب ما ضاع من هذا التراث وعدم دراسة كلّ جوانبه المتبقية حتّى الآن، ويُدهش المرء عندما يطالع كتب التراجم القديمة، أو في الفهارس أسماء الكتب التي فُقدت من هذا التراث، إلى الدرجة التي تجعله يتشكك في دقة تصوّراتنا عن تراثنا النقدي بعامة»[1] مع ذلك فما وصلنا من هذا التراث غير هيّن، أو قليل إذا قيس بتراث الأمم الأخرى، أو قيس بكلّ ماقمنا به حتّى الآن من دراسات عنه، ويبدو ذلك واضحًا عندما نلاحظ تنوّع هذا التراث، وتباين آفاقه، وتوزّع جوانب منه داخل مجالات متعددة، تتصل بما سمي بعلوم الأوائل والأعاجم، كما تتصل بالعلوم النقليّة اللّغوية والدّينيّة.

لذلك سيعالج هذا البحث الأثر التّراثي والدّيني في شعر «عمر شبلي»، واخترت هذا الموضوع لجدّته، حيث لم يكتب أحدٌ فيه من قبل، وعلى الرّغم من أنّه غير مشهور بما يناسب عبقريته الشعرية المذهلة، فهناك ظروف كثيرة تحيط بالإنسان وتؤثر على شهرة نتاجه، ونرى أنّ أدباء كبارًا في التاريخ الإنساني لم يتبوّؤا الشهرة التي تليق بهم إلاّ بعد موتهم «كبودلير». والسّبب الثاني الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو قوّة الصياغة التي تدلّ على ثقافة موسوعية، ووجدان متحفز للانفعالفي نتاج «عمر شبلي».

(١) جابر عصفور، **مفهوم الشّعر، دراسة في التراث النقدي**، الهيئة المصرية للكتاب، ط٥، ١٩٩٥، ص٥.

يثير نتاج «عمر شبلي» عدة إشكاليات مرتبطة بمجموعة من الأسئلة هي:

- كيف تجلى الأثر التراثي والديني في نتاج «عمر شبلي»؟.
- هل استطاع عمر شبلي أن يعبّر عن تجربته في الحياة تعبيرًا شعريًّا أصيلاً؟.
- هل استطاع أن ينقل تجربته العميقة إلى المتلقي بنجاح أم لا؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة يحتاج البحث إلى منهج، لذلك اعتمدت المنهج السيميائي.

يرى «رولان بارت» أنّ «البحث السيميائي هو دراسة الأنظمة الدلالية من خلال الظواهر الاجتماعيّة والثقافيّة الملامسة للنصّ من منظور أنّه جزء من اللّسانيات»(١).

فالمنهج السيميائي هو «المنهج الذي يساعد على فهم النصوص والأنساق العلامية وتأويلها، ويهدف إلى اكتشاف البنيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات والأنشطة البشرية بنيةً ودلالةً مقصدية»(٢).

أولًا: الأثر التراثي في شعر «عمر شبلي» ودلالاته:

لا تعود تجربة «عمر شبلي» إلى أصالة ثقافته التراثية فحسب، وإنّما إلى تجربته العميقة مع الحياة وأحداثها، ونحن نعرف «أنّ الأدب هو صياغة فنيّة لتجربة بشرية»(٣). وإذا لم يكن هناك تجربة عميقة يتحول الشّعر تحديدًا إلى نظم، كما قال الشّاعر «أحمد شوقي»:

«والشّعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان»(٤)

فالشعر تجربة حياة وعطاء من الأفكار، والعواطف لاينضب أبدًا، والشّاعر هو إنسان يترجم ما عاشه، وما عاينه في محيطه ومجتمعه، فلنا أن نفخر بشعرائنا الذين رسموا لنا أجمل الصّور في قصائد مخالدة كالمعلقات وغيرها، وستظل القصائد الجيدة موجودة في الروح والعقل ما دام هناك إنسان يكبر ويقرأ الشعر.

هناك الكثير من النّتاج الشعري الحديث الذي يكاد ألاّ يحصى نراه مقطوع الصّلة بالتراث، وبقدرته على الاستمرارية، وهو الشعر الذي لا يتعامل بفنية مع قضايا

(١) بو عزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، محاضرات الملتقى الدلالي الرابع، السيمياء والنصّ الأدبيّ، ص٢١٣.
(٢) جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، مكتبة المثقف، ط١، ٢٠١٥، ص٢١٣.
(٣) محمد مندور، الأدب وفنونه، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، ط ٨، ٢٠١٨، ص٢٧.
(٤) أحمد شوقي، ديوان شوقيات، المجلد الأول، المكتبة التجارية الكبرى، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٠٣.

الشاعر وقضايا مجتمعه الإنساني الأوسع.والشعر لا يتسم بالحداثة إلا إذا تناول مشكلة الوجود الإنساني بعمق وفنية صياغية. ولا حداثة بالمعنى الحقيقي إلاّ إذا ارتبطت بالتراث، وخرجت منه خروجًا طبيعيًا، «فبدر شاكر السيّاب» كتب القصائد الكلاسيكيّة العظيمة، ثمّ انتقل إلى الشّعر الحديث انتقالاً طبيعيًا، وصار حديثًا بالمعنى الدّقيق للكلمة. وكانت حداثته مرتبطة بالتراث، وانتقاله من التراث إلى الحداثة كان عن أصالة وعن استيعاب، فكلّ نتاج أدبي لا يرتبط بالتراث هو فوضى وابتعاد عن المسيرة الشعرية للإنسان خارج الزمن المحدد والمكان المحدد، لا يمكن أن تكون الحداثة صحيحة دون المرو بالتراث.

وهذا أنموذج من شعر السيّاب الكلاسيكي:

«تلك الرواسي كم انحطَّ النّهارُ على
أقصى ذراها، وكم مرّت بها الظلمُ»[1]

وكتب شعرًا حديثًا مرتبطًا بالتراث، كما جاء في قصيدة «مدينة السّندباد»:

«جوعان في القبر بلا غذاء
عريان في الثلج بلا رداء
صرختُ في الشّتاء
أفض يا مطر»[2].

ونرى «عمر شبلي» في شعره يجمع بين التراث الكلاسيكي الشّعري القائم على الأوزان الكلاسيكيّة الّتي استخرجها «الخليل بن أحمد الفراهيدي» وبين شعر التفعيلة الذي لايخضع لضوابط الشّطر الأول والشّطر الثاني، وهذا الشعر أشارت إليه الشّاعرة العراقية «نازك الملائكة» في كتابها «الشّعر الحديث».

ومن نماذج شعر «عمر شبلي» الكلاسيكي نشير إلى هذه الأبيات من قصيدة «في ديوانه» على أيّ جرحٍ توكأتَ حتى وصلت!، وعنوان القصيدة «الفتى جينين» وفيها يخاطب المقاوم الفلسطيني:

«يا شاهرَ الجرح في وجه الشظيّةِ يا
جيلاً بأشلائهِ استعصى على العطبِ
يا صرخةَ المتنبي في قصيدته
وعندما حدَّثتْه النفسُ بالهربِ
بلادنا يا قسيمَ النار ما خلعتْ
في البرد صاحبها والحرِّ والسغبِ»[3]

يتحدث «عمر شبلي» في هذه القصيدة عن واقعنا التراثي ويربطه بواقعنا المعاصر، يذكر الفتى الفلسطيني بالمتنبي

(١) بدر شاكر السياب، أنشودة المطر، دار مجلة شعر، تشرين الثاني، بيروت - لبنان، ١٩٦٠، ص٤٩.
(٢) بدر شاكر السيّاب، أنشودة المطر، ص١٥٠.
(٣) عمر شبلي،علىّ أي جرح توكأت حتى وصلت!، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٧، ص١١٣.

التي أرجعته قصيدته ليموت كبيرًا، ثم يشير إلى خطبة الجهاد للإمام علي بن أبي طالب، وهو يخاطب أتباعه المتعللين بالبرد والحر لينكصوا عن المعركة.

ومن شعر «عمر شبلي» الحديث المرتبط بالتراث نذكر ماجاء في قصيدة «إلى أبي العلاء»:

«ولطول ما احتدم الظّلامُ بوجهه
خجل النّهار
من كان يجرؤ أن يقول بموته
لولا حجارة قبره
صعق الدّمار
«هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد»»[1].

يريد «عمر شبلي» في هذه القصيدة أن يوصل عِبرة بصيرة الأعمى العبقري. إنّ أبا العلاء كان أعمى، لكنه كان يرى ببصيرته لا ببصره أكثر من الآخرين.

ويتحدث «عمر شبلي» في قصيدة «أولاد عم» عن غدر الإنسان العربي الذي شهده العصر القديم وبقي إلى الآن:

«وكانوا على ضفة النّهر في أدبٍ يقتلون أخي،
وكان يقول لي القاتلون تعال عليك الأمان...
وكانت تلوح على جسدي قرطبة
وكانت تلوح دمشق...»[2].

فالدمار الذي حلّ بمدينة دمشق، كان بعض أسبابه بعض العرب الذين يتآمر بعضهم على بعض، ويدعون أنّهم أبناء أمّة واحدة، لكنهم في كثير منهم عبيد الأجانب والقوى الكبرى. وعنوان القصيدة «أولاد عم» إيماءة واضحة إلى الانتماء القبلي، وما ينطوي عليه هذا الانتماء من تخلّف يحمل الإرهاب سيفًا ملوّثًا بالدّم، فمتن القصيدة مشبّع بصراعية مخاتلة يديرها التخلّف القبلي. فالكناية الّتي تجمع بين السّطر الأول والسّطر الثاني تومئ إلى هول حضور القبيلة في الثقافة العربية حضورًا يتوخى الإجهاز على نقيضها. ولكن الشاعر يستعم هذا العنوان استهزاء بالرابط القبلي.

فالحلم المنشود في هذه القصيدة هو العبور إلى قرطبة، ولكن عبور الفرات (درب الوطن) كان عسيرًا، وكناية العبارة (يقتلون أخي) إشارة إلى صقر قريش، وكناية عن الإجهاز على كلّ من يحمل حلم الشّاعر «عمر شبلي» (العبور)، أو يهجس به، ولكن استخدام اسم (القبيلة) تقتل ذلك الحلم، وتشكل العامل المناوئ على تحقيق حلم الشّاعر. أمّا الكناية الثانية (تعال عليك الأمان) فمحملة بدلالة تحاول جرّ الشّاعر إلى التخلّي عن حلمه بعد أن شاهد الشّاعر

(١) عمر شبلي، وعورة الماء، ص١١٣.

(٢) عمر شبلي، وعورة الماء، ص٥٧ - ٥٨.

ماحدث لأخيه الحامل الحلم نفسه.

مدينة «قرطبة» في القصيدة تحمل رمزية (نجاح العبور)، ورمزية دمشق علامة العروبة العنيدة الواضحة، والشاعر «عمر شبلي» يمثّل رمزًا للصقر على شط الفرات. وإذا كان الصّقر رمزًا للعبور إلى زمن تحقيق الحلم (قرطبة)، ما يعني أنّ الصقر أصبح علامة على الولادة الجديدة المتجدّدة، وهذا ما يعطيه بعدًا وجوديًا تقدميًا

بامتياز، فإنّ الولادة المنتظرة بالنسبة إلى الشّاعر هي العبور إلى حالة عروبية. لكن هل ستتحقق هذه الولادة؟

«وليس الفرات عريضًا على جسد الصقرِ

غرناطةٌ قاب عوم وأدنى

وقرطبةٌ قاب نخلٍ تركتُ لديه أخي

دون باكيةٍ ووداع.

ويا صقرُ ثوبك من سعف النخل حتّى تصل

وفي أرض قرطبةٍ إزرعِ النخل تصبح دمشقَ...

فتلك قريش على جدث في دمشق تبيع ثيابك

للقاتلين»[1].

أشار هذا النّصّ إلى أنّ الولادة اتخذت بعدًا تفاؤليًا فيه. فالأسطر الثلاثة الأولى وبرموزها (الصّقر،غرناطة، قرطبة)، وبعمقها الدّلالي: «ليس الفرات عريضًا»، «وغرناطة قاب عوم وأدنى»، «وقرطبة قاب نخل» لم ترتفع بالحلم إلى دائرة القداسة فحسب من خلال مناظرة قوله: «قاب نخل وأدنى» للآية القرآنيّة: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[2]. التي تتكفل باستحضار سدرة المنتهى، ولكنها شفعت تلك القداسة المتفائلة بأسطر شعره،وأشارت الكناية فيها إلى إمكانية تحقق (حصول) الحلم: «ويا صقر ثوبك من سعف نخل (حتّى تصل)»، «وفي أرض قرطبة إزرع النخل تصبح دمشق» فهل حملت هذه الإيحائية شيئًا من اليقينية؟ وهل ستكون الولادة الصّقرية العمرية ولادة حقيقية أم أنّها ولادة إشكالية. فقرطبة وإن مثلت مستوى من مستويات الولادة، وبخاصة أنّ (الفرات/السّجن) ليس عريضًا على جسد الصّقر (عمر)، وهو قابل لكي يُقطع، إلاّ أنّها ليست الولادة الواقعية الحقيقية لكنها مثّلت بعدًا تعويضًا مرضيًا، والتعويض المرضيّ لا طائل منه هو مجرد خواء. بالنخلة تصبح قرطبة دمشق. وإذا مثلت دمشق الولادة المثلى، فإنّها ولادة متعذّرة الآن. «فتلك قريش على جدث في دمشق تبيع ثيابك/للقاتلين» فهل صار

(١) عمر شبلي، وعورة الماء، ص١٢١ - ١٢٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٩.

عبور الشّاعر «عمر شبلي» (الفرات/ السجن) إلى الولادة عبورًا حلميًا مرضيًا؟ فقرطبة ليست دمشق وإنّ زرعنا فيها النخيل.

و«في قصيدة» رؤيا من تراب يخاطب «عمر شبلي» المتنبي قائلاً:

«تلوم يا متنبي عصر كافور
وكيف أجدادنا اعتادوا على النير
قد كان يُسرقُ كرم وهي نائمة
واليومُ يُسرق قدّام النّواطير»[1]

في عصر كافور كانوا يسرقون الكرم والحكام نائمون، أما اليوم فالأغراب يسرقون خيرات بلادنا أمام أعين حكامنا، والدّلالة، فهم أسوأ من كافور، ومن الذين كانوا يسرقون وهم نائمون في عصره، فالكناية هنا أنّ الحكام العرب بعيدون من قضايا شعوبهم، ومن خيرات بلادهم، ومن حماية فلسطين، ومن قضايا الأمة العربيّة، فهم اليوم يعيشون حالاً من التّراخي، وعدم المبالاة تجاه مايمرُّ به الوطن العربي من مآسٍ.

ويأتي «عمر شبلي» على ذكر الحلاج في قصيدة «في مدن الحلاج»:

«أعرف ما الحكمة من ثورة
هذا العارف القتيل
كان يريد الموت دون رأيهِ
أخبرَهُ السيّاف أنّ دمهُ
ينتظر النُّطع الذي يقتل كلُّ كافرٍ عليه
والأمر قد أصدره التّجار
حتّى إذا ما دمه طاف على القرى
وطاف في المدن
أعلن أنّ الله
وأنّه سجادة صلى عليها الأنبياء كلُّهم،
وكلّ ثائر نظيف»[2].

الحلاج في هذه القصيدة هو رمزٌ للثورة (الثائر النظيف) على الحكام الذين قاموا بتجويع الناس الضّعفاء، ونهب حقوقهم، وكان يرفض غلاء الأسعار ويحرّض على التجار، ويدعو إلى الثورة على الحكام الظالمين، لذلك اتهم بالزندقة فقاموا بقتله.

يتحدث «عمر شبلي» في قصيدة أخرى عن شخصية «سُطيح»، وعمّا يعتمل في داخله من هموم وطنيّة وقوميّة فيقول:

«وأضاف «سُطيح»
أبصرت الواقع حتّى الآن
لكن، سترى مقبرة يسكنها الأحياء
وبلادًا تلبس موتاها الفقراء
وتقرأ في كتب من غيم

(١) عمر شبلي، العناد في زمن مكسور، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠١، ص٢٦٤.
(٢) عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، دار العودة، بيروت، ٢٠١٨، ص١٢٣ - ١٣٣.

ما لايتفهّمُه إلاّ الفقراء.

– ما أشهى رائحة الطّين اللّيلي بقريتنا، كيف انطفأ المصباح، وجفَّ الزّيت!!.

– ستمرُّ على مدنٍ لا تلبسُ غير اللّيل، وتعبرُها من غير ضياء»[1].

يتكلّم «سُطيح» في هذه القصيدة عن الأوضاع التي يمرّ بها العرب، وعن أوضاع الشّاعر، ويرى أنّ الأمة العربيّة مترعة بالفساد والظّلم، ويحاول القيام بثورة، لأنّ الأمر لايمكن أنّ يستقيم إلاّ بثورة ضد الطغاة.

نستنتج من ذلك كله أنّ «عمر شبلي» كتب شعر حديثًا مرتبطًا بالتراث بتركيزه على شخصيّة المتنبي، وأبي علاء المعري،والحلاج...، وأنّه شاعر يحمل بعدًا قوميًا ووطنيًا، وهو في نتاجه الشّعري يعمل على إيصال رسالة للأمة العربية كي تستيقظ من سباتها العميق، وتقوم بثورة ضد الظلم الذي يلحق بها.

لم يقف عمر شبلي في التراث ليغرق فيه، وإنما ارتكز عليه ليستنطق التاريخ، ولينبه قومه ليعوا، لأن حكمة التاريخ تدخل في قضايا عصرنا المعرض للنكبات والحروب. التراث في شعر عمر شبلي كان متصلاً بحداثته، ومحرضًا للأمة لاستقراء تجربة التاريخ في حاضرها، وبهذا يغدو التراث جزءًا من الحداثة بما يرمي إليه «عمر شبلي».

ثانيًا: الأثر الدّيني في شعر «عمر شبلي» ودلالاته:

إنّ الشّعر هو ميزان الكلم، ونبض الأمة، ولسانها النّاطق، وقد كان الشّعر قديمًا من الأسلحة التي تسنُّ للحرب، فتكون على الأعداء أوقع من السّيوف، وأنفذ من السّهام، وأقوى من الرّماح، والحروب التي كانت تنشب بين العرب في معظمها قبلية أو عرقية، ولما ظهر الإسلام لم يرضَ كثير من عرب مكة بالرسالة المحمدية، فحاربوا النبي محمد(ص) بالسلاح، كما حاربوه بالقول، لذلك وظّف بعض الشعراء المسلمين شعرهم للدفاع عن رسالة الإسلام، ونقد الذين حاربوا النبي محمدًا(ص) بدعوة الدفاع عن معتقداتهم الدينية.

فالشعر لم يكن عارضًا في حياة الإنسان العربيّ، بل كان مكونًا أساسيًّا في نسيج مجتمعه، ولم يكن مقتصرًا على ممارسة فنيّة بل تخطى هذا الإطار المحدود نحو مفاهيم أخرى منها: أنّ الشّاعر لم يكن لينظم قصيدة تعبيرًا عن خوالج نفسه فقط، بل كان كذلك لسان حال مجتمعه، وعشيرته، والحافظ شرف أصله، والمدافع عن دينه.

(١) عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، ص١٠٣ - ١٠٤.

يحضر الأثر الدّيني في شعر «عمر شبلي»، فلا تمرّ على قصيدة إلاّ وترى فيها أثرًا دينيًا، ويعود ذلك إلى ثقافته الموسوعية التي تذهل القارئ فيرى أبعادها، ومراميها النّهائيّة. وثقافة «عمر شبلي» ليست ثقافة مجردة عن التّجربة الإنسانيّة، إنّ ثقافته نابعة من احتكاكه مع الحياة وتجاربها، فكلّ ما يكتبه مرتبط بالتجربة الشّعورية التي يعانيها، والّتي تمنح قصائده مغزى خاصًا، فالشعر عند «عمر شبلي» هو «الشّعر الحقّ فاعل لايخاف المواجهة»[1].

يحتلّ الأثر الديني بكل أنواعه حيزًا واسعًا في نتاج «عمر شبلي»، فيشمل كل تفاصيل حياته الداخلية والخارجية. فيفصح عن كوامنه الداخلية، ومنطلقاته الفكرية والروحية، وهو يحاول باستمرار نقلها إلى الخارج اقتناعًا بها، بمعنى أنّه لا ينقل الأثر الديني نقلاً دينيًا أو تاريخيًا، بل يتفاعل معه تفاعلاً إيجابيًا يجعله قادرًا على إسباغ ذاته على ما يتأثر به من التراث.

وفي التاريخ آثار حية دينيّة في الشّعر، لايمكن أن يمحوها تعاقب الأيام والسّنين، بل ربّما ازدادت حضورًاكلّما تعاقب الزمان عليها، وكلّما مرّت الإنسانيّة بمراحل صعبة، وذلك يدعو إلى الالتفات إلى الشّعر الذي ترك آثارًا دينيّة. هنا لابدّ من إعادة ذكر النبي العربي محمد بن عبد الله، وقد تطرق الشّاعر «عمر شبلي» إليه في قصيدة «لاتبدّيًا بعد هجرة». فالإسلام في حقيقته كان هجرة من الجاهلية والبداوة إلى الإسلام الحضاري الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فلا عودة إلى الوراء. كما كان الإسلام هو السّير إلى الأمام،الدلالة هناأن لاعودة إلى البادية بعد هجرة الرّسول العربي إلى عاصمة بناء الإنسان. إنّ الذي يدرك جوهر الثورة المحمدية يعي أنّ الإسلام ألغى عقود الجاهلية وعهودها، وألغى ركود الزمن بحركته الدائمة، فالهجرة النبوية هي رمزية الانتقال من البادية إلى المدنية.وكم نحن بحاجة إلى الهجرة من جاهليتنا؛ الهجرة الّتي تخرجنا من الانغلاق والتمذهب والجاهلية، وهذا ما أراد الشاعر «عمر شبلي» إيصاله في قصيدته:

«قد كانت هجرته أن يخرج هذا الكون

من العتمة...بدويٌّ هاجرَ، يرعى الغيم بمنسأةٍ

وأطاع الغيم أوامره

وتجلّبَ رملٌ في الصحراء

ليصنع خضرة هذا الكون»[2].

(١) ميشال سليمان، السّمو في الشعر، مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد العاشر، بيروت، ١٩٨١، ص٢٥.

(٢) عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠١٨، ص١٤٠ - ١٤٢.

خضرة الكون دلالة على إلغاء البادية. والنبي محمد(ص) لم يكتمل إلاّ بأذان الفجر الصاعد من غار حراء، وكان لابدّ من الفجر، ولابدّ من الصّوت:

«بدويٌّ سوّى الكون بدعوته

سجادته لصلاة الفجر

ركب الصّحراء فأضحى يصهل فيها الماء»(١).

كان الماء من رعد الصّهيل، وكان الصهيل أخضر لايحمل من الجاهلية جفافها، وظلام غار حراء لم يمنعه من الصّلاة في قلب الله، وبعباءته التف الكون، واتصلت الأرض بالسماء، فصهيل الماء مختلف عن صهيل الفجر، قد تصهل الخيل للجفاف، أو للقتل، أو الثأر، أو لركوب رياح الجاهلية، لكن صهيل الماء في القصيدة هو توق الصحراء لتحتضنإنسانًا لا يوجد فيه لعنة الجاهلية،ولتثمر وعيًا وثورة على مادية الفكر، ولتُفجّر نبعًا من الإنسانيّة لريّ الإنسان نفسه.

«وترعرع في الصّحراء أذانٌ

لم يترك قلبًا لم يخصلُّ

ما أخصبه برقٌ يومضُ من جوف الغار

وبرق يحتاج الدنيا»(٢).

محمدٌ كان رمز القضية التي كانت تعدّه ليصبح إنسانًا قبل أن يكون نبيًا، وكانت الحياة تؤذيه وتؤلمه؛تؤذيه ليكون إنسانًا ونبيًا في آن، وكان ينمو في وجدانه مكان يدرك أنّ النماء يحتاج إلى صهيل خيول الماء، وليس صهيل العدوان (الجاهلية). فالثورة لا يمكن أن تنتصر بلا تضخيات، والتضحيات تغدو معالم الطريق.

إنّ الأثر الإسلامي في شعر «عمر شبلي» يعطي النّصّ بعده الحضاري، ويجعله نصًّا حداثيًا من حيث الرؤية، ينمو خارج ذاته منتجًا قراءة متميزة، محققًا متعة في خلق شخصيته، لقد أعطى «عمر شبلي» الشّعر معنى حياتيًا متداخلاً بما تعاني الأمة من قمع لحريتها الإنسانيّة، فثورة الإسلام كانت ثورة كبرى ممتدة من السّماء إلى الأرض، وأهم مافي شعر «عمر شبلي» أنّ شخصياته تهتم بالأرض وحيًا داخليًا يسهم في محاربة الظّلم والظّلام والفساد، وذلك لايمكن أن يتمّ إلى بالاستعانة بالسماء.

كذلك شخصية الإمام الحسين بن علي هي من الشخصيات الإنسانية الكبرى التي تناولتها الأقلام من مختلف البلاد، ومن مختلف العقائد، والمشارب الروحية والفكرية، وذلك بسبب إنسانية ثورة هذا الثائر العظيم.

(١) عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، ص١٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٣.

مخطئ، بل مسيء إلى شخصية «**الحسين**» كل من يحصره في مذهب أو طائفة، فالحسين رمز إنساني واسع المدى، والعطاء حاضر في كل جرح عادل ثائر على ظالم راجع مع صوت كل قذيفة تصيب صدر الإحتلال الغاصب دون تفريق بين أرض وأرض، ومذهب ومذهب، ودين ودين.

بهذا المعنى يكون «**الحسين**» حاضرًا،وليس غائبًا، ولعلَّ المأساة التي واجهت هذه الشخصية التاريخية، جعلت من حضوره في الوجدان أكثر كثافة، وأكثر إشعاعًا، وربما كان للتكرار التاريخي تأثير لاستحضار صورته في مواكب عاشوراء، أو ربما كان لكل ذلك أثر كبير في إضاءة هذه الشخصيّة، وانتشار تأثيرها.

ويأتي تأثيرها الأهم من القضية التي حملها «**الحسين**» إذ رفض أن يبايع إنسانًا يرى أنّه قد خرج على الدين، وكان «الحسين» واعيًا معنى ثورته، وعبّر عن ذلك بقوله: «مثلي لا يبايع مثله»[١] وبقوله أيضًا: «المنية ولا الدنيّة»[٢]

قضيّة «**الحسين**» أبعد من عمر الجسد الذي احتوى روحه حقبة من الزمن، فها هو «**الحسين**»، طائف على كلِّ روح، ومحرّض على أنَّ الإنسان يستطيع بقوة إيمانه، أن ينتزع النّصر من مخالب الهزيمة. فإنَّ للهزيمة انتصاراتها أيضًا، وبخاصّة حين تحمل قضايا كبرى. إنَّ أهمية «**الحسين**»، تكمن في أنَّه يعرف نتيجة ثورته سلفًا، ويعرف أنّه سينهزم عسكريًا، ولكن كان عليه، أن يصنع بدمه نصرًا، و«**عمر شبلي**» يدرك أنّ أثره سيبقى خالدًا على مر العصور فيقول:

«رأيتك مطعونًا على الفجر تتكي تصلّي
صلاة الجرح فينا وتصهل

ومن يومها ما زلت يا طاهر الثرى
تعلمنا كيف العقيدة تُحمل»[٣].

تعود رمزية «الحسين» إلى ارتباط الأرض بالسماء، إذًا كان لا بدَّ من «حسين» لكي نكون حيث الإخلاص للقيم. والحسين هو المسعى الموصل إلى الإنسانية. وربّما هو الذي يجعل شخصية «**الحسين**» حاضرة في كلِّ وجدان، وسبب حضورها هو التناغم والانسجام بين ما كان عليه «**الحسين**»، وما تهواه أنفسنا. وهذا يعني أنَّ «**الحسين بن علي**» تحوّل إلى فكرة تعيش خارج الموت باستمرار. وهذا ما عبّر عنه الشّاعر «عمر شبلي» بقوله:

«علّمتنا بموتك الجميل

(١) www.alshirazi.net/news/news/moharram-1432/03.htm
(٢) www.hmsmsry.com/vb/t32502/
(٣) عمر شبلي، الحسين شاهدًا وشهيدًا، لا.م، لان، لا.ط، ٢٠١٢، ص٣.

كيف يعيشُ المرءُ مرَّتين»[1].

فالموت الكبير يكون من نصيب أولئك الذين يحملون قضايا كبرى. أمّا الخالدون من الرجال، فهم الذين يحملون قضايا خالدة، وبهذا يتحوّل الجسد إلى فكرة. وأصحاب القضايا الكبرى ينهزمون كباقي البشر ويقتلون، ولكنَّ الأفكار التي يحملونها هي التي تعيش. ثمَّ إنَّ الظلم المنتصر يخاف من العدالة المنهزمة، لأنَّ الظلم مؤقّت والعدالة خالدة، فكيف يستويان؟ فالسيف يخاف من الدماء. حين يكون السيف معتديًا، وحين تكون الدماء مسفوحة في سبيل القضايا الإنسانيّة الخالدة، والسيف الذي يستلّه الظالم يكسره عنق صاحب القضيّة الكبيرة.

«عمر شبلي»، لم يعالج قضية الإمام الحسين معالجةً تاريخية، وإنّما عالج الفكرة التي استشهد «**الحسين**» من أجلها، وما أحوجنا إلى ذلك في زمن يعتدى فيه علينا، وتسلب كرامتنا، ونقتل ولكن غير شهداء.

وتعالج القصيدة فكرة التفاؤل النابعة من ذات التراث الزاخر في تاريخنا العربي، فالأمّة التي يتسابق أبناؤها على الموت من أجل استرداد كرامتها، هي أمّة ولود وأرحامها غير قاحلة. ولذا تعبر هذه القصيدة الطويلة عن «**الحسين**» عن الطموح لقيامة هذه الأمّة، وهذه القيامة حتميّة، لأنَّ القضيّة لا تموت حتى ولو تخاذل المدافعون عنها.

فالحسين موجود في المستقبل دائمًا، إنّه سيأتي من المستقبل لأنّه فكرة، وليس جسدًا سقط بسيوف الذين اعتدوا عليه.

إنَّ الربط بين قيامة فكرة «الحسين»، وقيامة الأمّة هو ما يعطي لهذه القصيدة قيمتها الحقيقيّة، لأنَّ الشّعر الذي لا يكون ملتزمًا بقضايا الإنسان، سيسقط مهما كانت صياغته بارعة. وعلى الرغم من أنّ القصيدة عالجت أثرًا دينيًا، إلا أنّها في حقيقتها رمز إنسانيّ متشعب المرامي والأهداف.

وفي قصيدة «أقرع بابك يا الله» يعمد «عمر شبلي» إلى الرّبط بين ابتلاع الحوت للنبي «يونس»، ورمزية الزنزانة في شعره، وهو الذي شبهها بالحوت، وهو في جوف هذا الحوت:

«وأنا في جوف الحوت وقاع البحر
وأنا أسمع تسبيح حصاه
هل في ظلموت الحوت أراك؟
هل في ظلموت البحر أراك؟
قد كنت معي
وأنا أقرع بابك يا الله
أتدثّر بالأسماء الحسنى تحت الليل،
وأبحث عن مأوى في قلب الله،
وأعلن أنَّ الشاطئ ليس البحر

(١) عمر شبلي، الحسين شاهدًا وشهيدًا، ص٤.

وأني لست من الأحياء،

ولست من الموتى!

فأنا حجر ملقى في الصحراء

عشرون سنة

وأنا أقرع بابك يا الله»[١].

وفي قصيدة «إلهي» يغدو الأثر الديني وسيلة للخلاص، ويبدو أنَّ أزمات الإنسان كلّما تصاعدت كان أكثر احتياجًا لقوى تنقذه. وبما أنَّ القوى المحيطة به، كالأهل والأقارب والأصدقاء والمال لم تنقذه. فهو مضطرّ إلى تعلّق بما هو أنأى وأبعد، لأنّ القوة المنسوبة إلى هذا الغيب يربطها صنع المعجزات، وتلاقي مدى في النفس الإنسانية التي تزداد لهفتها إلى الخلاص بازدياد سواد محنتها والتفافها حول عنق مصيرها. و«عمر شبلي» ينحو منحى إيمانيًا واضحًا، ويصبح إيمانه أكثر حضورًا حين يستخدم لغة المخاطب في مخلِّصه الذي هو الدين، وخالق هذا الدين هو رب العالمين. لذلك يستخدم معه أسلوب الخطاب فيقول:

«أما قلتَ أدعوني فإني مجيبُكم

وأقربُ من حبل الوريد لمن دعا

ألست الذي نجّى من الجبِّ يوسفًا

وذا النون قد أنقذتَ لما تضرّعا

وأيوبُ لمّا مسّه الضرُّ صنتَه

ولولاك لم يبرأ، ولولاك ما وعى»[٢].

من هنا يغدو الاعتماد على الدين أكثر ضرورة، وأكثر حضورًا عند المؤمن، لذلك يستخدم الشاعر نفس الأسلوب القرآني على اعتبار أنّه الوسيلة الأرقى لخطابمن أنزل القرآن، ففي البيت الأوّل ينطلق من الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣].

واستخدم حبل الوريد بأسلوب قرآني وذلك عائد لقربى الحال، ونوال المراد. والدّلالة هنا كما نرى تعتمد على اللفظ القرآني نفسه، وهو يحمل خصوصية الوجع الذي يعانيه «عمر شبلي» ففي قوله: «وأقرب من حبل الوريد لمن دعا»[٤] نستذكر الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٥]. وهذا الإيحاء النابع من الآية يتخطى التأثر البلاغي إلى الإيمان الذي يعتمد عليه الشاعر للخلاص من محنته التي عصفت بحياته، والتي كانت دلالة من أبرز تجلياتها. وتغدو الدّلالة أكثر حضورًا وتحديدًا في الرّمز الديني، عندما تكون الآثار الأخرى غير مجدية في تجربة إنسان معذّب، فصورة

(١) عمر شبلي، أيُّ خبز فيك يا هذا المطر؟!، دار العودة، بيروت، ط١، ١٤٣٥/ ٢٠١٤، ص٢١٨ - ٢١٩.
(٢) عمر شبلي، أيَّ خبزٍ فيك يا هذا المطرُ؟!، ص٢١١.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠، ص٤٧٤.
(٤) عمر شبلي، أيَّ خبزٍ فيك يا هذا المطرُ؟!، ص٢١١.
(٥) سورة ق، الآية: ١٦، ص٥١٩.

النبي «يونس» وهو في بطن الحوت تفسّر معنى الزنزانة التي عاش فيها شاعرنا فترة طويلة. ورمزية النبي «**يونس**» هنا عميقة الدلالة، بعيدة التأثير. فالذي تغلّف بظلمة الموت وظلمة البحر في آنٍ، تكون دلالته أكثر تأثيرًا، و«عمر شبلي» في جوف زنزانته شبه نفسه بالنبي «يونس» وهو في جوف الحوت،لأنّه في جوف غربة فرضتها عليه ظروف حياته القاسية.

والملاحظ أنَّ شاعرنا في معالجته الدّلالات الدّينية، يستعير كنايات لا تتخطّى إحساسه. ولذا كانت دلالاته الدينية معبّـــِرة تعبيـرًا حقيقيًا عن وضعه، وعن ألمه، وعن أهله.

احتلت الدّلالات المسيحية مساحة واسعة كبيرة في النص الشعري الحديث، فاقت استعمال الرّموز والدّلالات الأسطورية والثقافيّة الأخرى، ولم تحظَ هذه الدّلالات المسيحيّة بنصيبها الكافي من الدّراسة والنقد، ولتصنيف الدلالات المستخدمة في القصيدة العربيّة لا بدّ من الأنموذج. ومن يقرأ نتاج «عمر شبلي» يرى أنّه ركّز على الدلالات المسيحيّة، ومن نماذج دلالاته قصيدة «نريد مسيحًا جديدًا»:

«نريد مسيحًا
يجوع ويشبع مثل البشر
ويجلسُ كالفقراء على مقعد من حجر
ويلبس كوفيةً وعقالاً،
ويعرفه في فلسطين حتّى الشّجر
يجوعُ مع الفقراء ويشبع إذ يشبعون.
نريد مسيحًا يعيش فقرنا معنا،
ويسكنُ مايبننا،
ويحسُّ بأوجاعنا»[1].

المسيح في تاريخ الإنسانيّة هدفه تخليص البشر من الظّلم، ونشر رسالة المحبة بين النّاس. وعندما يقول الشاعر «عمر شبلي» (نريد مسيحًا يجوع... يشبع مثل البشر، ويلبس كوفية وعقالاً) دلالة على الإنسان الفلسطيني الذي يجلس مع شعبه يجوع ويشبع مع الناس المظلومين، ومعنى ذلك نريد مسيحًا مقاومًا لليهود الذين يعبثون بأرض فلسطين. هنا ندرك أن المسيح التراثي جاء لتخليص البشرية لكن «عمر شبلي» في هذه القصيدة وظّفه توظيفًا حديثًا في شعره.

وفي قصيدة ثانية يخاطب «عمر شبلي» المسيح مزيلاً المسافة الزمنية التي تفصلنا عن الثائر المصلوب بقوله:

«ترجّل عن صليبك كي ترى الأطفال في «لبنان»، والصومال
على كل الموانئ يعرضون صغارهم للبحر

(١) عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، ص١٨٨ - ١٨٩.

ويحتفلون بالأعياد حول مقابر الموتى

ويبقى الشرقُ مُهتّمًا

بمأدبةٍ، عليها رأس «يوحنّا»

وخمرٌ من دم الأطفالْ

ترجَّل عن صليبكَ إنّنا في الشّرق محتاجون للزلزال»[1].

هذه القصيدة، التي كُتبها الشّاعر وهو في المنفى سنة ألف وتسعمئة واثنتين وتسعين، يوم كان العدوان الإسرائيلي يعيث دمارًا بلبنان، ويوم كانت الأساطيل الغربية تقتل أطفال الصومال بحجة ملاحقة المعتدين والقاتلين.

إنَّ تحديد الزمن لا يلغي استمرارية دلالة الفكرة التي يعالجها الشاعر، ويريد أن تتحقق في مجتمعاتنا؛ أي «إنّنا في الشّرق محتاجون للزلزال»، والزلزال هنا هو نتيجة حتمية،كي تهدم فكر المتخلّفين والمعتدين وأساطيلهم، وسماسرة الحروب، وقاتلي أطفال «قانا الجليل»، وغيرها.

القصيدة في ضوئها الأوّل هادفة لإحداث الزلزال، لذلك يجب أن يترجَّل المسيح عن صليبه، ويقوم بثورة على كل ما هو سيّء. ولذكر «رأس يوحنا» دلالة واضحة استعاره الشاعر ليشير إلى إحدى عواهر بني اسرائيل، وهي تطوف به مستعرضة رأس نبي في حفلة رقص دنيئة، وقائمة على الشّر أساسًا.

إنَّ استعمال «رأس يوحنا» هنا ذو دلالة مسيحيّة إنسانية، تتجاوز محدوديتها لتدخل في صلب القضايا الإنسانيّة العميقة، وكم كان «محمد مهدي الجواهري» رائعًا حين قال في قصيدة ألقاها في «معرّة النعمان»، يخاطب بها ضريح القائد الفكري «أبي العلاء المعرّي»:

«لثورة الفكر تاريخ يحدِّثنا
بأنَّ ألف مسيح دونها صُلبا»[2]

فالصلب هنا هو أحد أسلحة الثورات الفكرية، حيث غدا «المسيح» عبر صلبه التاريخي «صاحب الفؤاد»، وغدا رغيف الثوار، وهو دائم الحضور في إنسان كلِّ زمان:

«نذوقك قائمًا فينا

ومصلوبًا ومحتجبًا

وما كنت أبرَّ عليكَ منّا أمُّكَ العذراء»[3].

فالمسيح المصلوب ليس مسيحيًّا، بل هو إنسان يجتمع حوله كل أصحاب القضايا العادلة في التاريخ. والقصيدة بمجملها تلجأ إلى أسلوب الخطاب، فكأنَّ المسيح قائم فينا، يكلِّمنا من على جبل الزيتون، وصيغة الخطاب هنا هي صيغة الحضور التاريخي

(١) عمر شبلي، إنَّ الخلود متاع سعره الجسد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط١، ١٤١٩/ ٢٠٠١، ص٢١٤.
(٢) محمد مهدي الجواهري. الديوان، المكتبة العصرية، بيروت، لاط، ج١، ١٣٨٦/ ١٩٦٧، ص٢٠١.
(٣) محمد مهدي الجواهري، الديوان، ص٢١٤.

الدّال على الإنسان العظيم الذي تحوّل من جسد إلى عبرة، على الرّغم من آلام الجسد التي نزفت دمًا من أجل نشر القيم والمبادئ والمحبّة والتّسامح، وهي سمات هذه الشّخصيّة الخالدة العظيمة، ومن يحبّه الناس يصبح خارج الموت داخلاً في الحياة ما يشير إلى قداسة هذا الجسد، وقداسة هذا الرّمز التّراثي التّاريخي.

في القصيدة تتجلى قيم قوة الإيمان التي لا يمكن أن تُهزم حتى ولو كانت مصلوبة، وأجمل مافيها أنّها ثورة إنسان، والمسيح بعظمته كان ابن الإنسان، وليس ابن الله، وكونه ابن الإنسان يشعرنا أنّه منا وفينا، وبعظمته هذه ينتصر بضعفه وقوة إيمانه.

الخاتمة:

يعدّ نتاج «عمر شبلي» من خوالد الشعر الإنساني بسعة محتواه وعمق دلالاته، وانتصاره للقيم العليا في كل زمان ومكان خارج العرق واللون والدّين. لقد استوعب التّراث حتى غدا حاضرًا بدلالاته العميقة، ونزع صفة القدم التاريخي عن روائع التراث، حتى غدا حديثًا، والحداثة ليست مفهومًا تأريخيًا وإنّما هي استحضار قيم النفس ونتاجها، وحداثتها تنبع من صدقها وأصالتها، وتناولها قضايا الحق الإنساني خارج محدودية الزمن. إنّه أسطورة من أساطيرنا التّراثية في العصر الحديث، إذ يمثل قراءة معمقة لواقعنا الحالي، ما يفتح أمامنا الأبواب المغلقة، وهو في هذا كلّه ينطلق من الثقافة التي هي عقيدته في الحياة، وكذلك من اهتماماته التي تعبّر عن همومه الوطنيّة والقوميّة. فقارئ نتاجه يغوص إلى أعماق الذات الإنسانيّة في أبهى تجلياتها، ويجد وعيًا متقدّمًا في التراث العربي، وكذلك الإنسانيّ، كما يدرك محاولة جادة لتجاوز مافيه من منحدرات، وإزالة القشور التي خنقت هذا التراث. فالينابيع التي تفجرت في عالمنا العربي حاولت المزج بين التراث الرّوحي والتّراث العقلي.

ونستنتج مما تقدم أنّ شعره قائم على إلغاء الكراهية والطائفية، وكان ذلك واضحًا عندما قال: إنّ الحسين هو لجميع الطوائف، فهو يؤمن أنّ الإنسان ينطوي فيه العالم الأكبر، وفيه انفتاح على الضوء الآتي من جميع الجهات.

تجاوز «عمر شبلي» الدنيوي المتشبث بالأماكن المحاصرة في الداخل والخارج، واستخف بحفنة الطّين التي لم تستطع استدراجه إلى الانحدار، فهو من تجاوز فسحة الزمان والمكان خلف الموت، عندما تخطى السجن، فاستطاع أن يعبّر عن تجربته في الحياة تعبيرًا شعريًا أصيلاً، وأن يوصلها إلى القارئ بنجاح. فلم يتردد عن التضحية حتّى بحياته من أجل معتقداته الهادفة إلى إحياء الثقة بمستقبل الأمة

العربيّة كأفق لا يمكن الاستغناء عنه، يحتقر الطائفية، ويؤمن بقيمة لبنان النوعية كقوة دافعة في العالم العربي. ولم يتخلَ ولو للحظة واحدة عن إيمانه بقوة المحبة بين الناس بمفهومها الإسلامي ومفهومها الإنجيلي الحقيقي.

في سياق نتاجه يدهش «عمر شبلي» القارئ بثقافته الموسوعية والأدلة والآراء الموثقة بأسماء أصحابهاعربيًاوعالميًا، ولاننسى روعة البيان والبلاغة، فكأنما بلاغته لؤلؤ مكنون، أو إعجاز بيان!. وكل ذلك يعودإلى أصالته التراثية وحداثة رؤاه وصياغته العالية.

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم

٢ – أحمد شوقي، ديوان شوقيات، المجلد الأوّل، الجزء الثاني، المكتبة التجارية الكبرى، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣ – بدر شاكر السياب، أنشودة المطر، دار مجلة شعر، بيروت– لبنان، تشرين الثاني، ١٩٦٠.

٤ – بو عزة رابح، الاتجاهات السيميائية المعاصرة، محاضرات الملتقى الدلالي الرابع، السيمياء والنصّ الأدبيّ.

٥ – جابر عصفور، مفهوم الشّعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية للكتاب، ط٥، ١٩٩٥.

٦ – جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، مكتبة المثقف، ط١، ٢٠١٥.

٧ – عبد الصاحب مهدي علي، في مفهوم الشعر ولغته: خصائص النّصّ الشّعري، مجلة الشارقة للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ٨، العدد الثالث، ٢٠٠١.

٨ – عمر شبلي، تجليات القيم في الشعر العربي، المنافذ الثقافيّة، العدد الرابع عشر/ ربيع ٢٠١٦.

٩ – عمر شبلي، وعورة الماء، دار العودة، بيروت، ٢٠١٦.

١٠ – عمر شبلي، العناد في زمن مكسور، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠١.

١١ – عمر شبلي، إنَّ الخلود متاع سعره الجسد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط١، ١٤١٩/ ٢٠٠١.

١٢ – عمر شبلي، الضوء الأسود يسرقني، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠١٨.

١٣ – عمر شبلي، الحسين بن علي شاهدًا وشهيدًا، لا.م، لان، لا.ط، ٢٠١٢.

١٤ – عمر شبلي، أيُّ خبز فيك يا هذا المطر؟!، دار العودة، بيروت، ط١، ١٤٣٥/ ٢٠١٤.

١٥ – عمر شبلي، إنَّ الخلود متاع سعره الجسد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط١، ١٤١٩/ ٢٠٠١.

١٦ – عمر شبلي، على أّي جرح توكأت حتّى وصلت!، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٧.

١٧ – محمد مهدي الجواهري. الديوان، المكتبة العصرية، بيروت، لاط، ج١، ١٣٨٦/ ١٩٦٧.

١٨ – محمد مندور، الأدب وفنونه، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، ط ٨، ٢٠١٨.

١٩ – ميشال سليمان، السّمو في الشعر، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت،العدد العاشر، ١٩٨١.

المواقع الإلكترونيّة:

1 - www.alshirazi.net/news/news/mohar-ram-1432/03.htm

2 - www.hmsmsry.com/vb/t32502/

التّعليم التّكامليّ في مادّتي الرّياضيّات والاقتصاد في المرحلة الثانويّة (دراسة مقارنة بين البكالوريا اللبنانيّة والفرنسيّة)

فيصل زيود

ملخّص الدّراسة

تنتمي هذه الدّراسة إلى البحوث البينيّة، حيث هدفت إلى تحليل مدى اتّباع التّعليم التّكامليّ بين الموادّ التعليميّة في لبنان؛ وخاصّة في مادّتي الاقتصاد والرياضيّات في الصفّ الثانويّ الثالث فرع الاقتصاد والاجتماع، ومقارنة بين البكالوريا اللبنانيّة والفرنسيّة في هذا المجال. استخدمت في هذا البحث تقنيّة المقارنة للبحوث المتعدّدة الاختصاصات التي تتضمّن محاور متشابهة. أظهرت النتائج أنّ هناك تشابهًا بين المنهجين اللبنانيّ والفرنسيّ من ناحية المضمون، إلاّ أنّهما يختلفان من ناحية التطبيق الّذي يقتصر على المنهج الفرنسيّ فقط.

الكلمات المفاتيح: الدّراسات البينيّة – التعليم التكاملي – الاقتصاد – الرياضيّات – البكالوريا اللبنانيّة– البكالوريا الفرنسيّة.

Abstract in English

This study is aimed at analyzing the extent of integration between subjects taught in high school in Lebanon, especially in the fields of economics and mathematics, It is applied in the third secondary grade branch of economics and sociology through a comparison between the Lebanese and French baccalaureate in this field. In this research, comparative research was used for multidisciplinary research with similar axes. The results showed that there is a similarity between the Lebanese and French approaches in terms of content, while they differ in terms of application, which is limited to the French approach only.

Keywords: Interdisciplinary studies- Economics- Mathem + - atics - Lebanese Baccalaureate- French Baccalaureate

مقدّمة

الدّراسات البينيّة (Interdisciplinary) هي بحوث علميّة معمّقة، لا تكتفي باختصاص واحد بل تتجاوزه إلى علوم أخرى تتلاقى، تتقاطع، أو تتشابك مع هذا الاختصاص؛ لتجمع بين النّظرة التخصّصيّة الدّقيقة والنّظرة الموسوعيّة الشاملةِ، وتؤمن بالتّكامل المعرفيّ بين العلوم كافّة، وترى أنّ هذا التكامل بات ضرورةً مِنْ ضرورات المناهج في هذا العصر (البصلة، ٢٠١٧). لا تقتصر الدراسات البينيّة على صِنف من العلوم دون آخر، بل هي تجمع بين العلوم النظريّة والتطبيقيّة كافّة. أصبحت البينيّة، أيضًا، المبدأ الذي تقوم عليه البحوث المعرفيّة التي نرى آثارها اليوم في تحوّل العلوم والمناهج المختلفة، أي أنّ كلّ المناهج والعلوم تتّجه نحو البينيّة رافضة كلّ التخصّصات المنغلقة؛ فاستُخدم علمُ النّفس في اكتشافِ علاجاتٍ لبعضٍ مِنْ أسبابِ الجريمةِ، وباتت علومُ الحاسوبِ تخدمُ علوم اللسانيّاتِ (اللغاتِ واللهجاتِ)، وأصبح علمُ الهندسةِ الوراثيّة جزءًا لا يتجزّأُ مِنَ العلومِ الطبّيّةِ بكافّةِ فروعِها، في حين أصبحَ علمُ الرياضيّات مُكَوِّنًا أساسيًّا في كافّةِ التطبيقاتِ الفيزيائيّةِ، والصناعيّةِ، والتقنيّةِ (بلعلى، ٢٠١٧).

إنّ مجال الدراساتِ البينيّة واسع، لا يَحدّه حدٌّ، بل يمتدُّ أفقيًّا باتّساع العلوم كافّة، ويتعمَّقُ رأسيًّا بقدر رسوخ التخصّصات الدقيقة منفردةً، ويتعملقُ تطبيقيًّا؛ حتى يصلَ الفجواتِ بين المادّة والرّوح، بين الشّهادة والغيب، بين الجسد والقلب، بين النّظريّة والتّطبيق، بين القول والفعل، بين الوسيلة والغاية، بين الأرض والسّماء، بين المشرق والمغرب، بين العقل والنّقل، بين الآداب والفلسفة، بين الفنون الجميلة والعلوم البحتة. ولقد أقيم مؤتمر في كليّة العلوم في المنية – القاهرة تحت عنوان: «الدّراسات البينيّة في العلوم العربيّة والإسلاميّة في ضوء التّسارع التكنولوجي والمعرفي» في آذار ٢٠١٩، انتهى إلى خلاصات وتوصيات عدّة، لتفعيل الدّراسات البينيّة في مختلف العلوم. ومن أهمّها:

- أنّ إبستمولوجيا الدّراسات البينيّة تمثّل انعطافة بالغة الأهميّة في المنهجيّات والأنظمة العلميّة المعاصرة.
- أنّ الرؤية البينيّة رؤية إبداعيّة تعتمد على حوار المناهج، وتلاقح الأفكار، وتعدّد المنظورات في ربط الظواهر وتعميق الصّلات بين القضايا.
- تبنّي الرؤية البينيّة في مجال الأنظمة العلميّة القائمة في التّعليم، من أجل أن تترسّخ لدى المتعلّم قيم تعدّد المنظورات وتفاعلها وتكاملها؛ فلا تستقطبه أحاديّة المنهج، أو انغلاق التخصّص.

- توجّيه الدعوة للمجالس العليا للجامعات في عالمنا العربيّ والإسلاميّ لاعتماد مقرّر خاصّ بعنوان: (مدخل إلى الدّراسات البينيّة)؛ هذا الاتّجاه المعرفيّ الجديد يؤكّد تشابك وجهات النّظر العلميّة وضرورة ربط المعلومات في نظام تتّصل فيه جميع التخصّصات، فضلاً عن ارتباط كلّ هذه المجالات بالعلوم الإنسانيّة الأخرى: النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وغير ذلك، ممّا يفضي حتمًا إلى الوصول إلى مخرجات موضوعيّة للبحث العلميّ وتفسير الظّواهر وحلّ المشكلات؛ نظرًا للتّطوّر المتسارع في ميادين المعرفة ومجالات البحث العلميّ ومناهجه، والتحوّلات الكبيرة في ميادين المعرفة كافة. (صالحين، ٢٠١٩).

أكّد مارون (٢٠١٩) في محاضرة له في المعهد العالي للدكتوراه في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة: عنوانها: «من التقوقع إلى بينيّة العلوم»، أنّ التطوّر الاقتصاديّ والاجتماعيّ في القرن التاسع عشر الذي نتج عنه نشوء جامعات حديثة، وبالتالي أبحاث وعلوم جديدة، أدّت إلى المغالاة في تقوقع كلّ علم على ذاته. من هنا وفي منتصف القرن العشرين بدأت النّظرة إلى دراسة النّقاط المشتركة بين هذه العلوم تتغيّر، وبالتّالي الحاجة إلى فتح هذه العلوم على بعضها. وهذا الانفتاح أدّى إلى ثلاثة أنواع من التّبادل بين العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة وهي: تبادل المناهج والمقاربات وتبادل تقنيّات الأبحاث وتبادل المتغيّرات المستقلّة، وأضاف إليها العلوم المركّبة. أمّا أشكال البينيّة فقد أشار إليها بشكلين، الأوّل محصور في فلك العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، والثّاني يخرج عن فلك تلك العلوم ليشمل العلوم كافّة. ولقد أسهمت البينيّة في إرساء مبدأ التكامليّة بين العلوم وربط المتغيّرات التي تنتمي إلى غير علم، وفي نشوء علوم جديدة واختصاصات شموليّة جديدة؛ كعلوم الاتّصال وعلوم التنمية وعلوم التربية وغيرها. وأكّد أنّ هناك حاجة ماسّة في هذا القرن إلى تعزيز البينيّة من خلال تدريسها في الكلّيّات الجامعيّة والتحفيز على إنشاء فرق بحثيّة ومراكز أبحاث متعدّدة الاختصاصات.

أكد Beane (١٩٩٧) أنّ المنهج الدراسيّ المتكامل يهتمّ بتعزيز إمكانيّات الاندماج الشخصيّ والاجتماعيّ من خلال تنظيم المناهج الدراسيّة حول المشكلات والقضايا المُهمّة، والّتي يجري تحديدها بشكل تعاونيّ من قبل المعلّمين والشباب. كما اعتبر (Becker & Park، ٢٠١١) أنّ المناهج التكامليّة في العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيّات والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة أساليب تربط بالتعليم والتعلّم؛

وهو ما يعرف بـ (STEM)؛ حيث يقيم الطّلاّب صلات بين التخصّصات والمحتوى الأكاديميّ والخبرات الحياتيّة. كما أنّ مهارات التّفكير النّقديّ المتزايدة لدى الطلاّب والثّقة بالنفس وحبّ التعلّم تدعم أيضًا الدّعوة إلى استخدام منهج متكامل.

إنّ تطبيق التّكامل بين الموادّ الاجتماعيّة والعلميّة أصبح ضروريًّا؛ وخاصّة في الموادّ ذات المواضيع المتقاطعة. فعلم الاقتصاد – مثلاً – يلتقي مع العلوم الأخرى في مواضيع متقاطعة كما يبيّن الجدول الآتي:

أمل حسين، الباحثون المصريون. آذار، ٢٠١٦.

أكدّت زيادة تطبيق الرّياضيّات في مختلف فروع الاقتصاد في العقد الماضي ضرورة أن يكون الاقتصاديّون على معرفة أوّليّة بعلم الرياضيّات؛ لذلك، جرى اختيار بعض موضوعات الرياضيّات الّتي تتّصل بعلم الاقتصاد وجرى تدريسها للاقتصاديّين؛ ممّا يسهّل تدريس الاقتصاد الّذي يعتمد الأساليب الرياضيّة؛ وأدّى هذا إلى تطوير المفاهيم والاستنتاجات الاقتصاديّة (Yamane, 1962).

يعتمد علم الاقتصاد علوم الرياضيّات في كثير من الأحيان، ويستخدم المعادلات الرياضيّة لاحتساب تكاليف مشروع أو دخل أو ربح، وتتعمّق الدّراسة لتصل إلى ترجمة العلاقة بين المتغيّرات الاقتصاديّة في مجال الإنتاج والنموّ الاقتصاديّ، والتّوزيع إلى عبارات رياضيّة (Arabic Trader,2015)؛ فهذا العلم الّذي يمثّل العلاقة بين علم الاقتصاد وعلم الرياضيّات سمّي بالاقتصاد الرياضيّ (Mathematical Economics).

مشكلة الدّراسة

إنّ التقدّم الهائل الّذي شهده العالم في السنوات الأخيرة في شتّى العلوم والمعارف مردّه بالأساس إلى قطاع التربية والتّعليم. ومن أسس النّجاح في البيداغوجيا تكامل المناهج عبر ربط المواضيع المتشابهة بموادّ مختلفة (ابراهيم، ٢٠٠٤، ص١٨١٢). فالتّكامل يكون بين جوانب المعرفة سواء أكان ذلك دمجًا (الجهوري، ٢٠٠٢) أو اتّفاق المدرّسين على تقديم المعرفة المترابطة من دون أن يكون هناك دمج في المقرّرات (المعيقل، ٢٠٠١)؛

وبالتّالي الحفاظ على تخصّص كلّ مدرّس وكلّ مادّة، في حين أضاف الشربيني (٢٠٠١) إلى أنّ الأمر يتعلّق بجانبين من جوانب العمليّة التعليميّة، هما الجانب المعرفيّ والجانب التّنفيذيّ.

في لبنان، يدرس تلاميذ الصفّ الثّانويّ الثالث فرع الاقتصاد والاجتماع مادّة الرياضيّات الّتي تتضّمن مفاهيم اقتصاديّة خاصّة بالكلفة "Cost" والمردود "Revenue" والرّبح "Profit" لمشاريع معيّنة؛ وتتعمّق أكثر لتصل إلى مفهوم الكلفة الحدّيّة "Marginal cost" والكلفة الوسطية "Average cost" (مناهج الرياضيّات، المركز التّربويّ للبحوث والإنماء، ١٩٩٧). بالمقابل، يدرس تلاميذ هذا الصّفّ في مادّة علم الاقتصاد، المفاهيم الرياضيّة الّتي تتعلّق بالكلفة والمردود والرّبح والاستهلاك والاستثمار والإنتاج والجدوى الاقتصاديّة والتحليل الماليّ. (مناهج الاقتصاد، المركز التربويّ للبحوث والإنماء، ١٩٩٧). والتّساؤلات البارزة هي: هل هناك تكامل بين تعليم هذا المفهوم الموحّد في المادّتين؟ هل راعت المناهج اللبنانيّة هذا التّكامل؟ ما وجه التّقارب والاختلاف بين المناهج اللبنانيّة والفرنسيّة من ناحية التّكامل بين الرياضيّات والاقتصاد؟

الدّورات التدريبيّة المشتركة لأساتذة الرياضيّات والاقتصاد هي خطوة نحو التعليم التكامليّ في لبنان؛ ولكنّها جاءت اختياريّة، غير مبرمجة وغير مدروسة ضمن سلسلة دورات وورش عمل؛ حيث قامت هذه الدّورات على جهد فرديّ من الأستاذ فيصل صعب ضمن برنامج التدريب المستمرّ، وجاءت على مدى يومين فقط لأستاذ الرياضيّات أو الاقتصاد في المرحلة الثانويّة. (مشروع التّدريب المستمرّ، ٢٠١٢-٢٠١٣)

انطلاقًا من تجربة شخصيّة في تعليم مادّة الاقتصاد، ولمدّة تتجاوز العشرين سنة، لاحظت أنّ هذا المفهوم مدرج في المناهج وفي كتب الرياضيّات والاقتصاد بطريقة مختلفة، ولم يُلاحَظ أيّ تعاون بين أساتذة المادّتين لرأب هذا الصّدع بل تُركت للتّلميذ مهمّة التّقريب بين المفهوم الواحد في المادّتين، إذا وعى هو هذا التّقارب؛ لذلك كان الهدف من هذا البحث إلقاء الضوء على هذه المشكلة ولفت أنظار معدّي المناهج والرؤساء الذين تعاقبوا على رئاسة المركز التربوي للبحوث والإنماء.

سؤال البحث

ما وجه التّقارب والاختلاف بين المناهج اللبنانيّة والفرنسيّة من ناحية التّكامل بين الرياضيّات والاقتصاد في الصفّ الثّانويّ الثّالث فرع الاجتماع والاقتصاد؟

أهميّة البحث

نظرًا لأهميّة البحوث البينيّة والتّكامليّة بين الموادّ؛ وخاصّة في الموادّ التي تحتوي مفاهيم مشتركة؛ وبما أنّ مادّة الاقتصاد تتلاقى في كثير من المواضيع مع مادّة الرياضيّات؛ وخاصّة في الصّفّ الثّانويّ الثّالث فرع الاقتصاد والاجتماع، فإنّ هذا البحث يدخل في تحليل التّكامل بين الموادّ التعليميّة بشكل عام وبين مادّتي الاقتصاد والرياضيّات بشكل خاصّ، وذلك من وجهة نظر القيّمين على المناهج والكتب والامتحانات الرّسميّة.

كما أنّه يدرس وجوه التّشابه والاختلاف بين المنهجين اللبنانيّ والفرنسيّ في تطبيق التّكامل بين هاتين المادّتين.

منهج البحث

البحث المتعدّد التخصّصات هو نوع من الأبحاث يستمدّ من اثنتين أو أكثر من التخصّصات من أجل اكتساب منظور أكثر تطوّرًا أو في سبيل اكتشاف شيء جديد. تهدف المنهجيّة أو المقاربة المتعدّدة التخصّصات إلى التعامل مع النّصّ أو الخطاب أو الظّاهرة في ضوء مجموعة من التخصّصات العلميّة والمعرفيّة المتداخلة والمتقاطعة؛ لذلك، من الصعوبة بمكان الحديث في هذا السّياق عن منهجيّة خالصة ومستقلّة، بل نجد تلك المنهجيّات المستخدمة منصهرة فيما بينها، ومندمجة بشكل كلّيّ، يخدم فيه المنهج الواحد المنهج الآخر؛ هذا يعني أنّ المقاربة المتعدّدة التخصّصات مقاربة منهجيّة مفتوحة، تدرس النّصوص والظواهر في مختلف تجليّاتها، في ضوء مجموعة من العلوم والتخصّصات المعرفيّة المتعدّدة والمتشعّبة؛ بغية الحصول على الدّلالة، وبناء المعنى؛ وبهذا، تكون هذه المنهجيّة مرنة، ومنفتحة، وموسوعيّة، تشترك في بنائها مجموعة من المناهج والتخصّصات المتعدّدة. فليس ثمّة نظرة ضيّقة أحاديّة، ولا بُعد منهجيّ واحد في التّعامل مع القضيّة التربويّة أو الظاهرة الثقافيّة فهمًا وتفسيرًا. (الملّاح، ٢٠١٣)

أدوات الدراسة

دراسة مقارنة بين المنهجين لتحديد نقاط التّشابه والاختلاف، لتكامل تدريس مادّتي الاقتصاد والرياضيّات في الثانويّة العامّة.

- مدى الوعي لمفهوم البينيّة والتّكامل عند إعداد المناهج.
- الإجراءات المتّخذة حاليًّا والّتي تأخذ بعين الاعتبار المناهج التكامليّة.
- نقاط التّرابط بين المفاهيم الاقتصاديّة والرياضيّة في كلا المنهجين.

- النّظرة المستقبليّة للتّكامل عند إعداد المناهج الجديدة.

الدّراسات السابقة

- **دراسة** Jensenius (٢٠١٢).

أوضحت هذه الدّراسة أنّ تعريفات المفاهيم التربويّة، هي كالآتي:

– Intradisciplinary: المعرفة في إطار واحد أو مادّة واحدة.

– Cross - disciplinary تقاطع التخصّصات: عرض مادّة واحدة من منظور أخرى.

– Multidiscplinary متعدّد التخصّصات: أشخاص من مختلف التخصّصات يعملون معًا.

– Interdisciplinary تقاطع الموادّ: دمج المعرفة والأساليب من مختلف التخصّصات، وذلك باستخدام توليف حقيقيّ من المنهج.

– Transdisciplinary التخصّصات المتعدّدة أو المستعرضة: خلق وحدة من الأطر الفكريّة وراء المنظورات التأديبيّة.

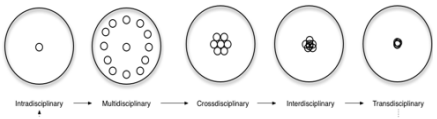

الفرق بين التخصّصات المتعدّدة Interdisciplinary والتخصّصات المستعرضة Transdisciplinary ليس جليًّا؛ ولكنّ الأخير هو خطوة أخرى نحو الاندماج الكامل. وهذا هو السبب وراء استقطاب الدوائر المركزيّة في الرّسم الأخير بحيث تتداخل تقريبًا؛ ولكن ليس بالكامل. عندها يحدث التّكامل الكامل للتخصّصات بالفعل.

- **دراسة زيدان (٢٠٠٩).**

أعدّ زيدان كتابًا للبحث في مشكلات تعليم مادّة الفلسفة في لبنان، ليكون دليلاً في الدّيداكتيك الفلسفيّ لأساتذة الصفوف المنتهية ولمدرّبي الأساتذة الثانويّين؛ أوضح فيه، أنّ الديداكتيك بدأ مع العلوم الرياضيّة في فرنسا عام ١٩٧٠ ثمّ انتقل إلى المجال الفلسفيّ عام ١٩٩٢، واعتمد نموذج ميشال توزي في ديداكتيك الفلسفة. وأكّد أنّ هناك تقنيات حقيقيّة يمكن أن يستعملها أستاذ الفلسفة في التّعامل مع المستندات والكتب والتّمارين الصّفيّة.

مادّة الفلسفة تحتاج إلى الديداكتيك لتسهيل إيصال المادّة إلى الطلاّب؛ لذلك، أدرج الكاتب مقاربات جديدة لتعليم الفلسفة في الصّفوف الثانويّة، كما بحث في مسالك الموادّ التعليميّة من زاوية التّقاطع والامتداد بين الموادّ؛ وذلك على الرّغم من التّنظيم التقليديّ للتعليم ضمن منظومة تقسيم العلوم إلى موادّ متخصّصة ومستقلّة.

يتّخذ هذا العمل موقع الدّفاع عن حيويّة أهميّة تقاطع الموادّ interdisciplinarity والموادّ الممتدّة أو المستعرضة

transdisciplinary، وذلك من خلال التّركيز على تنمية التّفكير في الأسس المعرفيّة الإبستمولوجيّة التي توضح مسارات التّقاطع والامتداد، ويعتمد منهجيّة خاصّة لتطبيق إدماج المعارف في تقاطع الموادّ والبحث في الظّروف المؤاتية لتحويل الأدوات من مجال مادّة تعليميّة إلى موادّ أخرى فيما اصطلح على تسميته موادّ مستعرضة أو مقترحات ديداكتيكيّة في هذين المجالين (تقاطع المواد والمواد المستعرضة).

● **دراسة بيو**، Fãtulescu, (2012). Puiu I,2012

تركّز هذا البحث على تساؤل أساسيّ هو: هل هناك ضرورة لتطبيق علم الرياضيّات في الاقتصاد؟ ومن هنا ركّز الباحث على أهميّة الاقتصاد الرّياضيّ؛ ففهم دور الاقتصاد الرياضيّ لا يقتصر على فهم الصّلات بين الرياضيّات والاقتصاد، بل يشمل الطّبيعة الحقيقيّة للأفكار الاقتصاديّة ويقدّم الحجج الّتي تهدف إلى التأكيد على ملاءمة الرياضيّات في مجال الاقتصاد؛ ولقد بدأت علاقة الاقتصاد بالرياضيّات عبر العلاقة بعلم الإحصاء منذ القرن السابع عشر، والّتي أنشئت أوّلاً لوصف الاقتصاد، وتستخدم لجمع المعلومات وتفسيرها، وهذه العلاقة هي ما كانت تعرف بالاقتصاد القياسيّ (Econometrics).

علم الاقتصاد لا يقتصر على نظريّة المعرفة في الاقتصاد؛ ولكنّه يحتاج إلى دراسة نموذج اقتصاديّ قابل للحياة من وجهات نظر مختلفة، كما أنّ دخول علم الرياضيّات في الاقتصاد يؤثّر في تغيير توقّعات الاقتصاديّين؛ هذا ما جعل الرياضيّات عاملاً أساسيًّا لاتّخاذ أيّ قرار اقتصاديّ.

● **دراسة** Tularam (٢٠١٣):

تتناول هذه الدّراسة أهميّة تدريس الرياضيّات في الأعمال التجاريّة والماليّة في المدارس ومؤسّسات التّعليم العالي في أستراليا. وتكشف طبيعة التّفكير اللّازم للدّراسات الماليّة أو الاقتصاديّة المتقدّمة، الّذي ينطوي على استخدام مهارات التفكير العليا والإبداع. وتوضّح كيفيّة ارتباط المهارات المختلفة المطلوبة في التمويل بالطّريقة الرياضيّة في التّفكير والاستدلال. ولفت الكاتب إلى الأزمة العالميّة عام ٢٠٠٧ مرجِعًا أسبابها إلى افتقار موظّفي الشّؤون الماليّة إلى مهارات الرياضيّات؛ ممّا جعله يطرح معالجتها من خلال إعادة تشكيل المدارس التجاريّة لتشمل دورات الرياضيّات الماليّة المصمّمة بشكل جيّد، والتركيز على أنماط التّفكير الرّياضيّ. وأظهرت الدّراسة أنّه، كما للرّياضيات أهميّة كبرى في ترسيخ المفاهيم الاقتصاديّة، كذلك تؤثّر المفاهيم الاقتصاديّة إلى حدّ كبير في البحوث الرياضيّة. وبيّنت أنّ هناك

العديد من الجامعات الّتي تدمج تدريس النّظريّات الماليّة والرياضيّات. ومن ناحية أخرى، أكّدت هذه الدّراسة نظريّة بريشيت وفينشتاين (١٩٩٩) بأنّ الطّبيعة المتكاملة تنتج تفهّمًا أعمق في كلّ من المجالات ذات الصّلة، وقدّمت حالات عدّة قد تكون الأفكار الاقتصاديّة فيها بسيطة ولكنّها تحتاج إلى الرياضيّات المعقّدة لحلّها، ولا يمكن أن يفهمها موظّفو التمويل بسهولة؛ لذلك، أكّد الباحث ضرورة توثيق العلاقة بين تعليم الاقتصاد، وخاصّة التمويل، وتعليم الرياضيّات؛ لما له من تأثير إيجابيّ في سوق العمل. خلصت هذه الدّراسة إلى أنّ تعلم الطلاّب يحتاج إلى دورات ضمن الرياضيّات الماليّة مصمّمة جيّدًا وإلزاميّة، واقترحت أن يجري تدريس التّمويل من قبل أساتذة الرّياضيّات؛ لأنّ المنهج التحليليّ والنّقديّ في مادّة الرّياضيّات يساعد التلامذة في استيعاب المفاهيم الاقتصاديّة.

● **دراسة زيّود (٢٠١٤):**

عالجت هذه الدراسة مشكلة الترفّع إلى الصّفّ الثانويّ الثّالث فرع الاقتصاد والاجتماع من فرعين مختلفين، التي أوجدت اختلافًا في المستوى بين التّلاميذ؛ لا سيّما في الموادّ المبنيّة على أساس علميّ، حيث يواجه تلاميذ فرع الإنسانيّات مشكلة في التّعامل مع تلك الموادّ. انطلاقًا من ذلك كان هدف الدّراسة التّعرف إلى المشاكل الّتي يعاني منها تلامذة الصّفّ الثّالث الثّانويّ فرع الاقتصاد والاجتماع، وتحديد أسبابها وموقف المعلّمين منها.

خلصت هذه الدّراسة إلى وجود مشكلة في محور «الحسابات الماليّة» في مادة الاقتصاد لدى التّلامذة المرفّعين من الصّف الثّاني إنسانيّات؛ يعود سببها إلى التفاوت في مستوى التلاميذ المرفّعين من صفّي الثاني علوم وإنسانيات في مادّة الرياضيّات. ولقد أكّد أساتذة مادّة الاقتصاد وجود هذا التّفاوت، ورفعوا توصية من خلال هذه الدّراسة إلى الجهات المعنيّة بإعادة تقييم المنهج الدراسيّ وإعادة النّظر بآليّة التّرفيع؛ لأنّ الطّريقة الحاليّة تسمح لتلامذة الصفّ الثّاني إنسانيّات بالترفّع إلى صفّ الاقتصاد والاجتماع.

منهجيّة البحث

المنهجية المتّبعة في هذا البحث هي المقارنة بين المناهج، وقد عرّف مجمع اللّغة العربيّة «المنهج المقارن» بأنّه: «مقابلة الأحداث والآراء بعضها ببعض لكشف ما بينها من وجوه علاقة أو شبه علاقة». وتعتبر المقارنة والموازنة من العلوم الإنسانية بمثابة الملاحظة والتجربة من العلوم الطبيعيّة.

نتائج الدّراسة

شهادة البكالوريا الفرنسيّة هي الشّهادة الّتي تشير إلى إكمال برنامج المدرسة الثانويّة الفرنسيّة وتتبع المبادئ التوجيهيّة

للمناهج الّتي وضعتها وزارة التعليم الفرنسيّة، وهو برنامج دراسة قبل الجامعة يدرّس بالكامل باللغة الفرنسيّة، ويجب على الطلّاب اختيار برنامج متخصّص للتعلّم، يتضمن ٣ مجموعات من الموادّ ضمن المناهج الدراسيّة الأساسيّة. بحيث يُحاز الدّبلوم في نهاية الصفّ ١٢، بعد إجراء الاختبارات المقرّرة من الخارج، ويعتمد عليها للدّخول إلى جامعات عدّة في جميع أنحاء العالم.

اعتبارًا من الصفّ الحادي عشر (1ère)، يختار الطلّاب واحدة من ثلاث مجموعات L "littéraire": (أدبيّ) و(ES "économique et sociale اجتماع واقتصاد) و«S علوم» (علميّ). ضمن هذه المسارات، تعتبر بعض الدورات التدريبيّة أكثر تحدّيًا من غيرها، ويجري وزنها بشكل أكبر. ويأخذ جميع الطلّاب الموادّ الأساسيّة الشّائعة: الفرنسية، ولغتين أخريين، العلوم، التاريخ والجغرافيا، الفلسفة (T/12)، التربية البدنيّة والرّياضيّة، وإذا رغبوا في ذلك، واحدة أو اثنتين من الموادّ الاختياريّة. يعتمد مستوى صعوبة بعض الموضوعات على الحالة المختارة؛ في الصفّ الثّاني عشر أو الفصل الدراسيّ، يجب على الطلّاب أيضًا اختيار تخصّص في مادّة ما. في السنة الأولى من البكالوريا الفرنسية (الصف ١١) يجب على الطلّاب إجراء بحث شخصي (TPE) في مجموعات من ٢ أو ٣. يجري تعريف TPE كقطعة من البحوث الشخصيّة الأصليّة الّتي تهدف إلى السّماح للطّلاب بدراسة موضوع متعدّد التخصّصات مرتبط بالموضوعات ضمن الاختصاص الّذي اختاروه. (Rochambeau.org).

أمّا فيما خصّ برنامج البكالوريا اللبنانيّة، فالمرحلة الثانويّة ثلاث سنوات بعد المرحلة الأساسيّة. وفي السّنة الثانية الثانويّة، ينقسم الطلّاب بين المسار العلميّ أو المسار الأدبيّ. وفي السّنة الثّالثة، يختار الطّالب أحد المسارات: الآداب والإنسانيّات والعلوم العامّة وعلوم الحياة والاقتصاد والاجتماع. ويحصل بنهايتها على «الشّهادة الثانويّة الرسميّة» أو ما يسمّيه العامّة «البكالوريا القسم الثاني» بعد اجتياز امتحانات رسميّة تشرف عليها وزارة التربية والتّعليم. وليس هناك أيّ أبحاث أو عرض شفهيّ يقوم به الطّالب وإنّما امتحانات خطّيّة فحسب (www.mehe.gov.lb).

للإجابة عن السؤال نبدأ بعرض المنهجين اللبنانيّ والفرنسيّ في الصّفّ الثانويّ الثّالث اقتصاد. نجد أنّ الجدول رقم ١ يعرض مناهج مادّتي الرياضيّات والاقتصاد في برنامج البكالوريا الفرنسيّة للعام ٢٠١٩. ويمكننا أن نلاحظ أنّ المنهجين متقاربان من ناحية دراسة الحالة العامّة الاقتصاديّة في المادّتين؛ وخاصّة في موضوع الاحتمال والإحصاء ونمذجة الأوضاع الاقتصاديّة.

جدول رقم ١: مناهج مادّتي الاقتصاد والرياضيّات في البكالوريا الفرنسيّة

منهج مادّة الاقتصاد	منهج مادّة الرياضيّات
● **Theme 1: Growth, fluctuations and crises:** What are the sources of economic growth? / How to explain the instability of growth?	● **Theme 1: Analysis:** Suites; Notion of continuity on an interval; Exponential functions; Natural logarithm functions; Convexity; Integration
● **Theme 2: Globalization, international finance and social integration:** What are the foundations of international trade and the internationalization of production? / What is the place of the European Union in the global economy?	● **Theme 2: Probability and Statistics:** Conditioning; Notion of density law from examples; Fluctuation interval; Estimate
● **Theme 3: Economics of sustainable development:** Is economic growth compatible with the preservation of the environment?	● **Theme 3: Algorithms:** Basic Instructions; Loop and iterator, conditional statement
● **Theme 4: Classes, stratification and social mobility:** How to analyze the social structure? / How to report on social mobility?	● **Theme 4: Mathematical Notations and Reasoning.**
● **Theme 5: Integration, conflict, social change:** What social links in societies where the primacy of the individual is affirmed?/Social conflictuality: pathology, cohesion factor or engine of social change?	
● **Theme 6: Social Justice and Inequality: How can public authorities contribute to social justice?**	
● **Theme 7: Work, employment, unemployment:** How are labor market and organization organized in the management of employment? / What policies for employment?	

https://www.bac-es.ne

كما يعرض الجدول رقم ٢ مناهج مادّتي الرياضيّات والاقتصاد في برنامج البكالوريا اللبنانيّة، وهو المنهج المتّبع منذ العام ١٩٩٧ إلى اليوم، ويظهر أنّ منهج الرياضيّات يركّز على المفاهيم الاقتصاديّة ويعمل على حلّ مشكلات اقتصاديّة عبر النّمذجة.

جدول رقم ٢: مناهج مادّتي الاقتصاد والرياضيّات في البكالوريا اللبنانيّة

منهج مادّة الاقتصاد	منهج مادّة الرياضيّات
● المحور الأوّل: علم الجبر	● المحور الأوّل: التّجارب التنمويّة العالميّة
● المحور الثّاني: حساب التّفاضل والتّكامل	● المحور الثّاني: السياسات الاقتصاديّة الظرفيّة والبنيويّة
● المحور الثّالث: النّماذج الرّياضيّة لزوم الاقتصاد والعلوم الاجتماعيّة.	● المحور الثّالث: المفاهيم النّظريّة الّتي تمكّنه من فهم التقلّبات والأزمات الاقتصاديّة ومنهجيّة تشخيصها ومعالجتها
● المحور الرّابع: الرّياضيّات الماليّة.	● المحور الرّابع: الأزمات والمشاكل الّتي تتعرّض لها الحياة الاقتصاديّة مع عرض للسياسات والإجراءات المفترضة لمواجهة هذه الأزمات.
● المحور الخامس: مبادئ التّحليل الاقتصاديّ الكمّيّ والنّوعيّ.	
● المحور السّادس: مفاهيم علم الإدارة وأسسها وتطوّرها التّاريخيّ.	

https://www.crdp.org

يمكننا أن نلاحظ من خلال الجدولين رقم ١ و٢، أنّ المناهج اللبنانيّة والفرنسيّة تتشابه في المضمون في مادّتي الرّياضيّات والاقتصاد، مع بعض الإضافات في المنهج الفرنسيّ، والّتي ترتبط بالبرمجة وحلّ المشكلات عبر استعمال التكنولوجيا والآلات الحسابيّة القابلة للبرمجة، والّتي لا توجد في المنهج اللبنانيّ.

يتضمّن المنهج الفرنسيّ، إضافة إلى ما سبق، البرنامج التّطبيقيّ (Traveaux Pratiques) الّذي يقدّم فيه الطلاّب عملاً تطبيقيًّا تجري فيه نمذجة ما تعلّمه الطلاّب على مدى سنة كاملة، ويقومون بتقديمه شفويًّا في مدّة ثلاثين دقيقة، ويُعدّ هذا البحث بينيًّا بامتياز؛ إذ يحتاج المتعلّم إلى استثمار معلوماته في جميع الموادّ. ومن نماذج المواضيع الّتي يمكن أن يقدّمها الطلاّب تعريف المشكلة ووصفها بالشّكل الّذي يجعلها مبسّطة ومستندة على نظريّة لتسهيل تصوير الواقع الحقيقيّ، التنبّؤ بظروف المستقبل، تحليل النّتائج المتوقّعة للبدائل المتعدّدة المتاحة في الخطط والسياسات وتقييمها، وبما يمكّن صانعي القرار من الاختيار بين هذه البدائل لرسم السياسات الاقتصاديّة المناسبة، ومساعدتهم على ربط القرارات بالأهداف، وتلافي مخاطر التّغيير ومخاطر إجراء تعديلات غير مدروسة، ومعرفة سلوك الأنظمة والحالة المستقبليّة لها، واتّجاهاتها، وتقييم كفاءتها في الوصول إلى أهداف محدّدة، وإمكانيّة استعمال النّموذج في التّعرّف إلى القيود والعوامل الّتي تحدّ من فاعليّة بعض الحلول، والأهمّ في هذه المشاريع تحليل التّلاميذ لكيفيّة توفير الوقت والمال.

من هذا كلّه نستنتج أنّ البكالوريا الفرنسيّة أخذت بعين الاعتبار التّعليم التّكامليّ بين مادّتي الرياضيّات والاقتصاد في المرحلة الثّانويّة، وجاءت في مادّة الرياضيّات تطبيقًا على نظريّات اقتصاديّة؛ أي بشكل تطبيقيّ منمذج، أمّا المناهج اللبنانيّة في البكالوريا اللبنانيّة فكانت نظريّة بحتة لا يجد فيها الطّالب صلة الوصل بين الموادّ؛ حتّى يمكن أن ينظر اليها كموادّ منفصلة من دون أيّ صلة بينها.

الخاتمة

بعد أن جرى عرض رؤية المنهج التّكامليّ بين الموادّ التعليميّة في لبنان وفرنسا، وخاصّة بين مادّتي الاقتصاد والرياضيّات، تكوّنت مجموعة من الاستنتاجات الّتي من شأنها أن تلقي الضوء على مقدار طرح المنهج لهذه القضايا وكيفيّة عرضها، بالإضافة إلى معرفة كيفيّة معالجتها في كتب المادّة.

أثبتت هذه الدّراسة ثغرات في النّظرة

إلى مفهوم التّكامل في لبنان، علمًا أنّ هذا المفهوم لم يلحظ عند إعداد المناهج اللبنانيّة بشكل واضح. وقد خلصت هذه الدراسة أيضًا إلى أنّ هناك نقصًا في كيفيّة تطبيق التّكامل في الموادّ ذات المواضيع المشتركة؛ وبخاصّة بين الرياضيّات والاقتصاد في المجالين النّظريّ والتطبيقيّ، وفي الامتحانات الرسميّة أيضًا؛ لذلك نتقدّم بالتّوصيات الآتية:

١ – إعداد أبحاث مماثلة للبحث الحاليّ في المواد كافّة، تتناول الموادّ المتضّمّنة محاور متقاطعة لقياس مدى التّكامل في المناهج والتّعليم والتّقويم بين المادّتين.

٢ – إعداد دراسة ميدانيّة أو بحث إجرائيّ يطبّق فيه تدريس الرياضيّات والاقتصاد بطريقة تكامليّة، وعندها يقاس انعكاس التّكامل على أداء التلامذة ومواقفهم.

٣ – إعداد دراسة معمّقة تحليليّة لتقارب أسئلة الاقتصاد والرياضيّات في الامتحانات الرسميّة على مدى عدّة سنوات؛ لإظهار المواءمة بين المادتّين، ولا سيّما في محور الحسابات الماليّة.

لائحة المراجع

١ – البصلة، عايدة (٢٠١٧)، الدراسات البينيّة ومفهومها وأهميّتها في خدمة العلم والمجتمع، ملتقى مركز بحوث كليّة الآداب للبحث العلميّ المشترك.

٢ – بلعلى، آمنة (٢٠١٧)، الدّراسات البينيّة وإشكاليّة المصطلح العابر للتخصّصات، سياقات اللغة والدّراسات البينيّة. المجلّد الثاني، العدد الخامس.

٣ – إبراهيم، مجدي عزيز (٢٠٠٤)، رؤى مستقبليّة في تحديث منظومة التّعليم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.

٤ – الجهوري، زوينة بنت سليم بن عيسى (٢٠٠٢)، فاعليّة الطريقة التّكاملية في تحقيق الأهداف المرجوّة في تدريس المطالعة والنّصوص لدى طالبات الصفّ الأوّل الثّانوي بسلطنة عمان، رسالة ماجستير غير منشورة، كليّة التربية، جامعة السلطان قابوس.

٥ – الشربيني، فوزي (٢٠٠١)، التربية الحاليّة بمناهج التعليم لمواجهة القضايا والمشكلات المعاصرة. مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر.

٦ – المعيقل، عبد الله بن سعود (٢٠٠١)، المنهج التكامليّ مستقبل التربية العربيّة، القاهرة، العدد٢٢.

٧ – الملاّح، تامر (٢٠١٣)، مقالة بعنوان المنهجيّة المتعدّدة الاختصاصات، متاحة على:
https://kenanaonline.com/users/ta-mer2011-%20com/posts/553277

٨ – زيدان، سمير (٢٠٠٩)، المقاربات الديداكتيكيّة في تقاطع الموادّ التعليميّة. إعداد وترجمة سمير زيدان.

٩ – زيّود، فيصل (٢٠١٤)، أثر التّرفيع من الصّفّ الثانويّ الثّاني بفرعيه إلى الصّفّ الثانويّ الثّالث (الاجتماع والاقتصاد) على تفاوت المستوى في محور الحسابات الماليّة في مادّة الاقتصاد، بحث ماجستير. الجامعة اللبنانيّة – كليّة التربية.

١٠ – مارون، ابراهيم (٢٠١٩)، محاضرة بعنوان

من التّقوقع إلى بينيّة العلوم، الجامعة اللبنانيّة – المعهد العالي للدكتوراه في العلوم الإنسانيّة.

References

1 - Elder N, Miller W. Reading and evaluating qualitative research studies. J Fam Practice 1995;41:279-85.

2 - Beane, J. (1997). Curriculum integration: Designing the core of democratic education. New York, NY: Teachers College Press.

3 - Becker, K., & Park, K. (2011). Effects of integrative approaches among science, technology, engineering, and mathematics (STEM) subjects on students' learning: A preliminary meta-analysis. *Journal of STEM Education, 12* (5), 23-37.

4 - Caropreso, E., & Haggerty, M. (2000). Teaching economics: A cooperative model. College Teaching, 48(2), 69-74

5 - Jensenius, A.R. (2012). Disciplinarities: intra, cross, multi, inter, trans'', Available at: www.arj.no/.2012/03/12/disciplinarities-2 (Accessed 23 January 2017).

6 - Fãtulescu, Puiu I,2012. Mathematics in Economics: Necessity or Sufficiency? International Journal of Advances in Management and Economics. July.-Aug. 2012 | Vol.1 | Issue 4|01-06.

7 - Jephcote, M. (2004). Economics in the school curriculum: Its origins, and reflections on the workings of a subject community. Teaching Business and Economics, 8(1), 13-20.

8 - Tularam, G. A. (2013). Mathematics in finance and economics: importance of teaching higher order mathematical thinking skills in finance. Journal of Business Education & Scholarship of Teaching Vol. 7, No. 1, 2013, pp: 43-73. http://www.ejbest.org/a.php?/content/issue/12.

9 - Yamane, Taro. Mathematics for Economists: An Elementary Survey. Prentice-Hall, 1962.

Sites:

1 - http://www.arabictrader.com/ar/news/details

2 - https://www.rochambeau.org

الأماكن المفتوحة والمغلقة في رواية «ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي

غنى الريّس

تمهيد:

الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي، من أبرز المؤلفين في الرواية العربيّة الحديثة، الّذين ذاع صيتهم في الوطن العربي خلال السنوات العشرين المنصرمة، وقد أصدرت روايتها الأولى موضع الدّراسة «ذاكرة الجسد» عام ١٩٩٣، ونالت انتشارًا واسعًا، وجمهورًا عريضًا، وشهرة لم يحظَ بها إلا القليل من الروائيين العرب. وحصدت العديد من الجوائز، أهمها وأبرزها: جائزة نجيب محفوظ للرواية عام ١٩٩٨م. تُرجمت الرواية إلى عدد من اللغات الغربية: الإنجليزية والإيطالية والفرنسية. وظلّت سنوات عديدة الرواية الأكثر مبيعًا. وكانت روايتها ضمن أفضل مائه رواية عربية. وفي عام ٢٠١٠ تمّ تمثيل هذه الرواية في مسلسل سُمِّيَ بالاسم نفسه، للمخرج نجدة أنزور بطولة جمال سليمان وأمل بوشوشة.

ذاكرة الجسد رواية تحكي الأحداث المؤلمة الّتي رافقت حياة مقاتل مجاهد اسمه «خالد بن طوبال» الّذي شارك في جبهة الثّورة الجزائريّة، وأُصيبت ذراعه اليمنى في الكفاح ضدّ الجيوش الفرنسيّة، ثم انتقل إلى مشفى بحدود تونس. خالد أُصيب بالكآبة واليأس عندما كان محبوسًا في المشفى بسبب ابتعاده عن الوطن والجبهة. طبيبه يوصيه باختيار هواية معيّنة تجعله مستعدًّا لمواصلة الحياة بيد واحدة، فاختار الرّسم من دون علم به، وكان أول شيء قام برسمه الجسور المعلّقة التي تعد مَعْلمًا أثريًا بقسنطينة تلك المدينة التي وُلد فيها وترعرع. قبل نقله إلى المشفى طلب قائده «طاهر عبد المولى» تسجيل اسم ابنته في دائرة البلدية. بعد مضي مدّة في الجزائر، غادرها إلى فرنسا لمواصلة فنّ الرّسم التّشكيلي بإحدى المدارس الفرنسيّة وفيها تعرّف إلى (عارضة أزياء) اسمها كاترين، وأصبح رسامًا مشهورًا؛ وبعد خمسة وعشرين عامًا وفي معرض

الرسومات الذي أقامه، التقى بابنة سي الطاهر واشتدّ حنينه إلى السنوات الماضية، وأصبحت هذه الشّابة تجسّد له قسنطينة من جديد.

وعن أهمية رواية «ذاكرة الجسد» قال نزار قباني عنها وعن الكاتبة «أحلام مستغانمي»: روايتها دوّختني. وأنا نادرًا ما أدوخ أمام رواية من الروايات، وسبب الدّوخة أن النص الذي قرأته يشبهني إلى درجة التطابق فهو مجنون ومتوتر واقتحامي ومتوحش وإنساني وشهواني وخارج على القانون مثلي. ولو أن أحدا طلب مني أن أوقع اسمي تحت هذه الرواية الاستثنائية المغتسلة بأمطار الشعر، لما ترددت لحظة واحدة.ويتابع نزار قباني قائلاً: «هل كانت أحلام مستغانمي في روايتها (تكتبني) دون أن تدري لقد كانت مثلي تهجم على الورقة البيضاء بجمالية لا حد لها وشراسة لا حد لها، وجنون لا حد له، الرواية قصيدة مكتوبة على كل البحور بحر الحب وبحر الجنس وبحر الإيديولوجيا وبحر الثورة الجزائرية بمناضليها، ومرتزقيها وأبطالها وقاتليها وسارقيها هذه الرواية لا تختصر «ذاكرة الجسد» فحسب ولكنها تختصر تاريخ الوجع الجزائري والحزن الجزائري والجاهلية الجزائرية التي آن لها أن تنتهي...» وعندما قلتُ لصديق العمر سهيل إدريس رأيي في رواية أحلام، قال لي: «لا ترفع صوتك عاليًا، لأن أحلام إذا سمعت كلامك الجميل عنها فسوف تجنّ... أجبتُه: دعها تُجن... لأن الأعمال الإبداعية الكبرى لا يكتبها إلا مجانين!!». وهذه الكلمة لنزار قباني نجدها على صفحة الغلاف الخلفية في رواية «ذاكرة الجسد».

ركزت الرواية الحديثة على بناء المكان، لما له من أهمية في الإخراج الفني لبنية الرواية، «يضاف إلى ذلك تعزيز نمط الوصف الذي يوقف مجرى الزمن، ويساهم في بسط رواية المكان، كما يرى جيرار جينيت. ومع ارتقاء الوصف ارتقى أيضًا مفهوم الأشياء المكانية بنسيجها الحسي وازدادت أهميتها لأنها غدت من نقاط الاستدلال الأكثر صدقية نظرًا إلى عدم الاستقرار الاجتماعي، وإلى الاضطراب الداخلي الذي صار سمة الشّخصيّات»[1].

«المكان في الرواية ليس هو المكان الطبيعي والموضوعي وإنما هو مكان يخلقه المؤلف في النص الروائي عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئًا خياليًا»[2].

يرى حميد لحمداني، أنه «لا يمكن تصوّر الفضاء الرّوائي من دون تصوّر

(١) وفاء مجاعص عبد النور، المكان بطلًا في الرواية اللبنانية: السكون الهادر/ ملحق النهار الثقافي، ١٠/ ٤/ ٢٠١١.
(٢) بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة والنشر والتّوزيع، ص٩٤.

الحركة التي تجري فيه، في حين أنه يمكن تصوّر المكان الموصوف من دون سيرورة زمنيّة مكانيّة»[١].

وقد تطرق الدكتور علي زيتون في كتابه «في مدار النقد الأدبي» إلى مفهوم المكان في الثقافة العربية مفادها «أن لا حدوث بلا مكان ولا مكان ذا وظيفة بلا حدوث، وأن المكان في الثقافة اللغوية العربية ذو بعد وجودي يقف في الموقع الضدي من (العدم). فالمكان رحم الوجود وغيابه الخواء والعدم»[٢].

وعندما نذكر المكان يجب أن لا نغفل عن العلاقة الجدليّة بين هذا المكان وبين الشخصية، لأن كلاً منهما يتأثر بالآخر، فلا يكون هناك دور لأي منهما دون الآخر. وهذا يجعلنا ندرك أن للإنسان دور في إضفاء بعد بنائي على المكان، كما تحدث إيان وات في بحث عنوانه «الواقعية والشكل الروائي» عن العلاقة بين المكان والإنسان فقال: «إننا عاجزون عن تشكيل لحظة خاصّة من الوجود من دون إحلال هذه اللحظة في سياقها المكاني. وعلاقة الإنسان بالمكان داخل العمل الروائي علاقة شديدة الحساسية، ومن المعروف أن المكان لا يتشكل إلاّ باختراق الأبطال له، وليس هنالك بالنتيجة أي مكان محدّد مسبقًا، وإنما تتشكل الأمكنة من خلال الأحداث الّتي يقوم بها الأبطال»[٣].

نرى بذلك أن أهمية المكان ترتبط بشكل وثيق بالحدث وبالشّخصيّات، فالأماكن المميزة تكتسب أهميتها ومكانتها من الأحداث والشّخصيات المرتبطة بها. وسعى إبراهيم خليل في كتابه «بنية النصّ الروائي» إلى إعطاء أهمية للمكان وجعله على رأس العناصر والأركان الأولية التي يقوم عليها البناء السردي فالمكان ـ بحسب رؤيته ـ «له القدرة على التأثير في تصوير الأشخاص وحبك الحوادث فالتفاعل بين الأمكنة والأشخاص شيء دائم ومستمر في الرواية مثلما هو دائم ومستمر في الحياة»[٤].

«ذاكرة الجسد» غنيّة بالأماكن، حيث إنّ السارد ذكر العديد منها مثل: قسنطينة، تونس، وفرنسا... إلخ، فهي مدن ودول مرّ بها، إلا أنّ المكان الأبرز الذي كان راسخًا في ذاكرة بطل الرواية «خالد» طوال الوقت، حتى وهو موجود في مكانٍ آخر، هي مدينة قسنطينة بحسبانها المكان الذي وُلِد فيه وعشِقه بجنون. وبذلك نجد أن المكان عند

(١)) حميد لحمداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، ط ١، ص٦٣.
(٢) علي زيتون، في مدار النقد الأدبي، الثقافة - المكان - القص، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٥٢.
(٣) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٢٥.
(٤) إبراهيم خليل، بنية النصّ الروائي، ص١٣١.

«أحلام مستغانمي» «توزّع على مساحة النصّ بشكل فنّيّ جميل، ما يعطي للمكان الرّوائيّ طابعًا خاصًّا ومميّزًا، ويمكن اعتبار قسنطينة المكان المحور للأحداث، باعتبار الأماكن الأخرى لا تشكّل سوى نقاط عبور في التقاء الشّخصيّات وتطوّر الأحداث فهي ملجأ مؤقّت، وكلّ ما فيها عابر عرضي لا يملك مقوّمات الاستمرار». لذلك سوف نتصدّى في هذه الدراسة إلى الأماكن القسنطينية الواردة في الرواية، والعلاقة القائمة بين تلك الأماكن.هذه العلاقة المحدّدة للأمكنة، هي التي تحدّد وجهة النظر السّرديّة، وتسهم في بلورة الكثير من عناصر السّرد الأدبي، وانطلاقًا من تحديد العلاقة بين الأمكنة، أمكن اعتماد التقاطب بين نوعين من الأماكن:

أولًا: الأماكن المفتوحة

تتخذ الرواية في عمومها أماكن مفتوحة على الطبيعة تؤطّر بها للأحداث مكانيًّا، وتخضع هذه الأماكن للاختلاف بغرض الزمن المتحكّم في شكلها الهندسي»[1].

١ – الجسر:

أحد المعالم التي تزخر بها قسنطينة، والتي بقيت شامخة دالّة على عراقة المدينة، حيث تكثر فيها الجسور، فـ«خالد» كان يعشق مدينة قسنطينة وجسورها، حيث جسّد ذلك في رسوماته التي أبدعها في غربته، فكانت لوحة «حنين» أوّل تجربة في الرسم، تلك اللوحة الّتي كانت تجسيدًا لجسر الحبال في قسنطينة يقول «خالد»: **«انتظرتُ فقط طلوع الصّباح لأشتري بما تبقّى في جيبي من أوراق نقديّة ما أحتاج إليه لرسم لوحتين أو ثلاث. وقفت كمجنون على عجلٍ أرسم (قنطرة الحبال) في قسنطينة..»**[2].

رسم «**خالد**» لذلك الجسر الدالّ على تعلقه بمدينة قسنطينة، فالجسر هو الرّابط بينه وبين ذاكرته الّتي نسجها في الماضي، «حيث تقوم الرواية على لوحة تسمّى «حنين» هي صورة الجسر في قسنطينة هو قنطرة الحبال، رسم البطل «خالد» هذا الجسر بتلقائيّة عقب بتر ذراعه، رسمه تنفيذًا لوصيّة الطبيب اليوغسلافي «كابوتسكي» الذي قال له ارسم أقرب شيء إلى نفسك، فاشترى «خالد» ما يلزم ورسم جسرًا أسماه «حنين»... ولكن «خالدا» لم يرسم الجسر مرّة واحدة، بل ظلّ يرسمه كلّ مرّة... وتتطرّق الرّواية للوصف الطوبوغرافي للجسر فتصفه بالارتفاع المحدّد بـ ١٧٢ مترًا»[3].

وللمدينة بابان، باب مَيْلة في الغرب

(١)) الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي (دراسة في روايات نجيب الكيلاني)، ص٢٤٤.
(٢)) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٣٧٠.
(٣) صالح مفقودة: قسنطينة والبُعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، ص ٢٤٥.

وباب القنطرة في الشرق، وهذه القنطرة من أعجب البناءات، لأنّ علوها يشفّ من مائة ذراع وهي بناء الروم، وقد تعرّض هذا الجسر للتعطيل في وقت ما أصلح صالح باي»[1].

فعلى الرغم من أنه توجد جسور في فرنسا إلا أنّ «خالدا» لم يرسم شيئًا منها، لأنّ ذاكرته معلّقة بجسور قسنطينة، كان قلبه متيّمًا بقنطرة «سيد راشد» و«وادي الرّمال»: «**كانت عيناي تَرَيان جسر ميرابو ونهر السّين، ويديّ ترسم جسرًا آخر ووديًا آخر لمدينة أخرى... وعندما انتهيتُ كنتُ رسمتُ «قنطرة سيدي راشد» و«وادي الرّمال»... لا غير وأدركت أنّنا في النّهاية لا نرسم ما نسكنه... وإنّما ما يسكننا**»[2].

فرسم «**خالد**» للجسر يحمل أكثر من دلالة: عن طريق الجسر، عن الحياة الماضية والحاضرة، هو حديث عن أحلام الشهداء، وما آلت إليه في الحاضر، وهو حديث عن الوضع في البلاد وعن المستقبل، وكل ذلك يمكن أن يرمز له بالجسر، وقد حاول «زياد» الفلسطينيّ في الرّواية أن يصوّر الجسر المرسوم ويبيّن بعض دلالاته، تقول الكاتبة على لسان هذه الشّخصيّة:

«**في اللوحة الأخيرة لا يظل باديًا من الجسر سوى شبحه البعيد تحت خيط من الضوء، كلّ شيء حوله، يختفي تحت الضباب فيبدو الجسر مضيئًا علامة استفهام معلّقة إلى السماء بالرّكائز تشدّ أعمدته إلى الأسفل، لا شيء يجده على يمينه ولا على يساره، وكأنّه فقَد فجأة وظيفته الأولى كجسر**»[3].

٢ – الغابة:

هي المكان الذي احتضن المجاهدين في وقت الثّورة، فكانت الأمّ الحنون، حيث كانت مغاراتها وممرّاتها كاتمة لأسرارهم، فكانت نافذة «خالد» التي تطلّ على تلك الأشجار الشّامخة دالّة على شموخ الأبطال الّذين مروا بها. ونجد خالدا يصف أنواع هذه الأشجار من غار وبلّوط، يقول:

«**أغلق باب غرفتي وأشرّع النافذة... أحاول أن أرى شيئًا آخر غير نفسي. وإذا النافذة تطلّ عليّ... تمتدّ أمامي غابات الغار والبلّوط، وتزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة، وكلّ تلك الأدغال والجروف والممرّات السريّة التي كنت يومًا أعرفها، والّتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان، فتوصلك مسالكها المتشعّبة، وغاباتها الكثيفة، إلى القواعد السريّة للمجاهدين، وكأنّها تشرح لك**

(١) صالح مفقودة: **قسنطينة والبُعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد**... المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص١٦٢. (٣) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص٢٠٧.

شجرة بعد شجرة، ومغارة بعد أخرى»[1].

فالغابة كالمجاهدين ناضلت هي الأخرى، بقيت صامدة على الرغم من القصف الحاقد عليها، وعلى من احتضنتهم: **«إنّ كل الطرق في هذه المدينة العربية العريقة، تؤدي إلى الصمود. وإنّ كل الغابات والصخور هنا قد سبقتك في الانخراط في صفوف الثورة»**[2].

نجد هنا أن «الغابات خاصة بغموض مساحتها الّتي تمتدّ لما لا نهاية متجاوزة قناع جذوع الأشجار وأوراقها، تلك المساحة المتحجبة عن أعيننا، ولكنّها مفتوحة للفعل، هي مفارقات نفسيّة حقيقيّة»[3].

فعلى الرّغم من أنّ الغابة رمز من رموز التّحدّي والتصّدي للمستعمر، إلاّ أنّ الكاتبة أحلام تشير لها من خلال صفحة واحدة في الرّواية. وتبدو على غير علمٍ بها، ولا بطرقاتها ومنعرجاتها، فتكتفي بوصفها من بعيد، إذ إنّ النّاحية المرجعيّة مفقودة بالنّسبة للكاتبة، وليس مُقنعًا فنّيًا ولا واقعيًّا أن يتحدث البطل «خالد» عن مثل هذه الأمور بهذه البساطة، والحال أنّها مكان مغامرته الأولى والصّعبة في حياته»[4]، فالغابة هي صمود شعب بأكمله.

٣ - الشارع والسوق:

هو المكان الّذي يلتقي فيه الناس، فنجد فيه كلّ المظاهر الّتي تعبّر عن وجه المدينة، حتى أنّ السوق هو «المكان الّذي تلتقي فيه أنواع مختلفة من البشر، ويزخر بأشكال متنوّعة من الحركة... كما يمثّل مناسبة لتقديم شخصيّات جديدة»[5]، ونجد في الشارع كلّ فئات المجتمع، فيمشي الفرد فيه ليحقّق الوجهة التي يقصدها، فهو يضمّ السوق والمتاجر والمقاهي، وغيرها من الأماكن التي يحتاجها النّاس، فالشّارع والسوق: «أمكنة عامّة تؤمن للنّاس حريّة الفعل وإمكانيّة التنقّل وسَعة الاطّلاع والتبادل، لذا، فهي أمكنة انفتاح تنفتح على العالم الخارجي، تعيش دومًا حركة مستمرة تؤدي وظيفة مهمّة، فهي سبيل النّاس إلى قضاء حوائجهم»[6].

فـ «خالد» عندما يفتح نافذة غرفته كانت تأتي إلى مسامعه أصوات مختلفة، من المآذن وأصوات المارّة، وكذا صوت الغناء الصادر من المذياع.

---

(١) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص٢٥. (٢) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص٢٥.
(٣) غاستون باشلار: **جماليات المكان**، ص ١٧١ - ١٧٢.
(٤) صالح مفقودة: **قسنطينة والبُعد الحضاري للمكان**.... مرجع سابق، ص٢٤٥.
(٥) عبد الحميد بورايو: **منطق السرد (دراسات في القصة الجزائريّة الحديثة)**، ص١٤٦.
(٦) الشريف حبيلة: **بنية النصّ الروائي**، مرجع سابق، ص٢٤٤.

يقول «خالد»: «**ها هي ذي قسنطينة... وها هو كل شيء أنت، وها أنت تدخلين إليّ، من النافذة نفسها الّتي سبق أن دخلت منها منذ سنوات. مع صوت المآذن نفسها، وصوت الباعة، وخطى النساء الملتحفات بالسّواد، والأغاني القادمة من مذياع لا يتعب...**»[1] ونجد كيف أنّ الشارع يعبّر عن هموم النّاس ومشاكلهم، ففي الرواية تصف الكاتبة أفواج المارّة، وهم يجوبون الشّوارع من دون وجهة محدّدة، والبطل «خالد» من بين هؤلاء المارّة، يمشي معهم، والنساء ملتحفات بالسّواد، والرجال في بدلات رماديّة متشابهة الكل حزين، وهم يطوفون، وكأنّهم قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي لحظة نتيجة الكبت المعاش.

٤ – المقهى:

هو المكان الذي يقصده الرجال بغرض التّرفيه عن أنفسهم، وهو مكان يلتقي فيه الأصدقاء، يتبادلون أطراف الحديث ويتسامرون هناك. فهو المتنفّس الذي ينسون فيه بعض أعباء الحياة ومشاكلها: «تمثل المحلّات العامة مثل المقهى والمتجر مكانًا مناسبًا للقيام بالدور الإعلامي عن طريق تبادل الأخبار بين أفراد يرتادون مثل هذه المحلات»[2].

فالمقهى لديه مكانته الخاصة في المجتمع العربي قديمًا وحديثًا، ويختلف كل مقهى عن آخر في مستوى الخدمات التي يقدّمها ليصبح له خصوصيّته في الرواية: «لو تتبّعنا تاريخ الرواية سواء في الغرب **أو** العالم العربي، لوجدنا لهذا المكان حضورًا كبيرًا»[3]. يقول «خالد»: «**فأمشي في الماضي مغمض العينين... أبحث عن المقاهي القديمة تلك التي كان لكلّ عالم أو وجيه مجلسه الخاص فيها، حيث كانت تعدّ القهوة على الوجاق الحجري وتقدّم بالجَوزة... ويخجل نادل أن يلاحقك بطلباته. كان يكفيه شرف وجودك عنده**»[4] وهنا نرى أنّ أحلام مستغانمي تعطي «للمقاهي القديمة صفة الإجلال واللياقة مشيرة إلى أنّ الوجهاء كانوا يرتادونها»[5].

وقد سمّى «خالد» مقهيَين اشتهرا في ذلك الوقت كان يتردّد عليهما: ابن باديس وبلعطار وباشتارزي، وأحيانًا كان يرى

(١) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص ١١.
(٢) عبد الحميد بورايو: **منطق السرد (دراسات في القصة الجزائريّة الحديثة)**، ص ١٤٧.
(٣) حميد لحمداني: **بنية النصّ السرديّ من منظور النقد الأدبي**، ص ٧٢.
(٤) أحلام مستغانمي، **ذاكرة الجسد**، ص ٣١١.
(٥) صالح مفقودة: **قسنطينة والبُعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد..**، مرجع سابق، ص٢٤٧.

والده هناك، يقول «خالد»: «**وفي ذلك الزمن كان لابن باديس المقهى الذي كان يتوقّف عنده. وهو في طريقه إلى المدرسة. كان اسمه (مقهى بن يامينة). وكان هناك مقهى (بوعرعور)، حيث كان مجلس بلعطار وباشتارزي وحيث كنت ألمح أبي أحيانًا وأنا أمرّ بهذا الطريق...**»[1].

٥ – المقبرة:

من العناصر المكانية **الثابتة** والدّالة في قسنطينة، هو المقبرة، الرجوع إلى الأصل، والامتزاج بالمكان والذوبان فيه.

«**تلك المقبرة ألقيت نفسي في سيارة أجرة، ورحت أبحث فيها عن قبر... وأستعين بسجلّات حارسها لأتعرّف على أرقام الأموات الّتي كانت تصل إليها...**»[2].

زواج حياة «البطلة» زاد من وحشة «خالد» في تلك المدينة الّتي أحبّها بجنون، فلم يجد ما يطفئ النّار الّتي كانت تحرق كلّ شيء داخله، وقادته رجلاه إلى المقبرة للترحم على والدته المدفونة هناك، للوفاء أيضًا للماضي العزيز عليه.

يقول خالد: «**عند قبرها الرخامي البسيط مثلها، البارد كقدرها... والكثير الغبار كقلبي، تسمرت قدماي، وتجمدت تلك الدموع التي خبأتها لها منذ سنوات الصقيع والخيبة. ها هي ذي «أما»... شبر من التراب، لوحة رخامية تخفي كلّ ما كنت أملك من كنوز صدر الأمومة الممتلئ... رائحتها... خصلات شعرها المحنّاة... طلّتها... ضحكتها... حزنها... ووصاياها الدائمة**»[3].

يمرر البطل يده على رخام قبر أمّه قائلاً: «**وكأنّني أحاول أن أنزع عنه غبار السّنين وأعتذر له عن كلّ هذا الإهمال**»[4].

فغبار السّنين بدأ يغطي الماضي المدفون، والرّاوي يحاول نزع الغبار عنه، ويحاول الاعتذار عن الإهمال على مستوى شخصي بما يتعلّق بضريح الأمّ، وعلى مستوى عام بما يتعلّق الأمر بماضي الأمّة أيضًا.

٦ – المطار:

هو الرابط الذي يصل المغترب بوطنه الأم، وهو المَعلم الانتقالي في قسنطينة، يربط المدينة بالخارج. يصف خالد المطار بالبرودة. وبمجرد الوصول لذلك المطار فتحت ذاكراته كلّ أبوابها على الماضي، وعلى مدينة أحبّها ورسم من أجلها لوحته «حنين»، لذلك عندما تشرع المضيفة باب الطائرة للنزول. يقول: «**ولا تنتبه إلاّ إلى**

(١) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣١١ - ٣١٢.
(٢) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٢٩.
(٣) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٣٢٩.
(٤) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٩٢.

أنها تشرع معه القلب على مصراعيه، فمن يوقف نزيف الذاكرة الآن... من سيقدر على إغلاق شباك الحنين، من سيقف في وجه الرياح المضادة، ليرفع الخمار عن وجه هذه المدينة... وينظر إلى عينيها دون بكاء... ها هي حياتي النسخة الناقصة عن قسنطينة في لقاء ليلي مع اللوحة الأصل... تكاد مثلي تقع على سلّم»[1].

ثانيًا: الأماكن المغلقة

الأماكن المغلقة هي «التي ينتقل بينها الإنسان ويشكّلها حسب أفكاره، والشكل الهندسي الذي يروقه ويناسب تطوّر عصره، وينهض الفضاء المغلق كنقيض للفضاء المفتوح، وقد تلقّف الروائيّون هذه الأمكنة وجعلوا منها إطارا لأحداث قصصهم ومتحرّك شخصيّاتهم»[2]. والأماكن المغلقة في رواية ذاكرة الجسد هي:

١- البيت:

بيت خالد في قسنطينة:

وهو البيت الذي وُلِد فيه خالد وقضى أيّام طفولته وشبابه فيه. ذكريات طفولته قد نقشت في ذاكرته، وهو الآن يستحضرها بمجرد دخوله ذلك البيت القديم، بيت الطفولة هو مكان الألفة، ومركز تكييف الخيال وعندما نبتعد عنه نستعيد ذكراه دائما، ونسقط عليه الكثير من مظاهر الحياة المادية، وذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين يوفرهما لنا البيت.

وعند عودته إلى هذا البيت يستعيد الذاكرة بكلّ ما تحتويه «الكثير من ذكرياتنا محفوظة بفضل البيت، وإذا كان البيت أكثر تعقيدًا أي له قبو وعلّية وأركان منعزلة ودهاليز وأروقة، فإنّ أحلامنا تكون أكثر تحدّدًا نعود إليها دومًا في أحلام يقظتنا»[3].

يقول «خالد»: **«أكاد أرى خلف الجدران الجديدة البيضاء آثار المسمار الذي علق عليه أبي يومًا شهادتي الابتدائيّة منذ أربعين سنة، ثم جاورها بعد سنوات شهادة أخرى»**[4].

وذلك البيت الذي كانت فيه العائلة مجتمعة، أصبح بيتًا لعائلة «حسّان» الذي بقي محافظًا على عراقته: «يسمح الحديث عن بيت العائلة بإضاءة كثير من الجوانب في شخصيّة البطل «خالد» وكذا عائلة أخيه «حسّان»، بل والحديث عن العائلة بأكملها، فالبيت هويّة لمجموعة الشخصيّات التي تتقاطع من خلاله، إن البيت كما يقول: هو

(١) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص ٢٨٤.
(٢) الشريف حيلة: **بنية الخطاب الروائي**، مرجع سابق، ص٢٠٤.
(٣) غاستون باشلار: **جماليات المكان**، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠٠٦، ص٩.
(٤) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص٢٨٨.

الكون الأول للإنسان، ومن خلاله ترتسم المشاعر والعواطف»[١].

والمثال الّذي نجد فيه مفهوم جمالية المكان هو العبارة: «**كنتُ أشعر برغبة في البقاء في سريري في ذلك الصباح، وعدم مغادرته قبل الظهر، ربّما بسبب متاعب البارحة، وربّما استعدادًا للسّهر والمتاعب الأخرى التي تنتظرني في ذلك اليوم**»[٢] سبب عدم شعور خالد بالرغبة في حضور اجتماع أعضاء الأسرة يعود إلى إلى أنّه سافر إلى قسنطينة حتى يحضر حفلة زواج «حياة»؛ في الوقت الذي لم يكن فيه راضيًا عن تزويجها من شخص لا يوافقها نفسيًّا واجتماعيًّا؛ لهذا، كان خالد متأثّرًا بالمكان وبالحادثة غير المحبّبة إليه.

بيت «حياة» في تونس:

هو البيت الذي عاشت فيه «حياة» طفولتها، فقد اختار «سي الطاهر» أن يكون مكانه في تونس بدل الجزائر ليحمي أسرته من العدوّ، فكان يمثّل له ولأسرته الأمان والحماية: «**بعدها اتصل بي «سي الشريف» من قسنطينة، ليطلب مني بيع ذلك البيت الذي لم يعد هنالك ضرورة لوجوده، والذي اشتراه «سي الطاهر» منذ عدّة سنوات ليهرّب إليه أسرته الصغيرة، عندما أبعدته فرنسا عن الجزائر في الخمسينيّات**»[٣].

كان السارد يصف ذلك البيت، حيث كان في أحد شوارع تونس، ويقول: «**وقفت أدقّ باب بيتكم في شارع التّوفيق بتونس... انتظرت أمام بابكم الحديديّ الأخضر**»[٤].

فقد نقش ذلك البيت في ذاكرة «خالد»، وعادت تفاصيل هذا البيت لـ«حياة»: «ونظرا إلى أن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة، فإن هذه البيوت، تعيش معنا طيلة الحياة، الآن يتضح هدفي يجب أن أبيّن أن البيت هو واحد من أهم العوامل الّتي تدمج أفكارنا، وذكريات وأحلام الإنسانيّة. ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة والماضي والحاضر والمستقبل وديناميات مختلفة»[٥].

أحبّ «خالد» البيت وأحسّ فيه بالأمان، منذ أول زيارة له، فوصف دوالي العنب، وشجرة الياسمين بكلّ شاعريّة حاملاً أمانة من عند «سي الطاهر» تمثّلت في أوراق نقديّة واسم «حياة»، يقول «خالد»: «**أحببت ذلك البيت... بدوالي العنب الّتي تتسلّق جدران حديقته الصغيرة، وتمتد لتتدلّى عناقيد ثريّات سوداء على وسط الدّار،**

---

(١) صالح مفقودة: قسنطينة والبعد الحضاري للمكان.... ص٢٤٣.

(٢) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٣٣١. (٣) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٥٦.

(٤) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص١١١. (٥) غاستون باشلار: جماليات المكان، ص ٣٦ - ٣٧.

شجرة الياسمين التي ترتمي وتطلّ من السور الخارجيّ، كامرأة فضوليّة ضاقت ذرعًا بجدران بيتها، وراحت تتفرّج على ما يحدث في الخارج... ورائحة الطّعام التي تنبعث منه، فتبعث معها الطمأنينة ودفئا غامضا يستبقيك هناك»[1].

بيت خالد في الغربة:

هو البيت الذي كان يسكنه «خالد» في فرنسا، كانت له فيه ذكريات كثيرة انطلاقًا بـ«كاترين» مرورًا بـ«حياة» و«زياد»، حيث أن كاترين كانت أول امرأة تدخل إلى البيت وتطلق العنان لحريتها فيه.هذا البيت الّذي احتضن لقاءاتهما السرّية لمدّة سنتين.

تلتها «حياة» التي أُعجبت كثيرًا بذلك البيت وبترتيبه. ومع ذلك فإن السّارد لا يصفه إلا عندما احتضن حبيبته «حياة» في لقائهما الأوّل، وهذا ما يؤكّد أن وصف المكان في «ذاكرة الجسد» لم يكن لتحديد إطار الحدث والحكاية، بل كان وصفا مقترنا بالحالة الشعوريّة والانفعاليّة التي تعتري الذات السّاردة».

فكان «خالد» يقضي أغلب وقته في ذلك البيت، وخاصة في تلك الغرفة التي اتّخذها مرسمًا له، حيث «أنّ الغرفة بالتحديد المكاني هي فضاء يحدّد حركة السّرد في حيّز حدود ثابت وساكن»[2].

وعلى الرّغم من كون «البطل خالد يقيم معرضًا للرسم في باريس في قاعة خاصة، ويصحب معه إلى المقهى زيادا وحياة... «إلا أن المكان المفضّل لديه هو الغرفة لكونه أجنبيًّا عن المدينة، والاهتمام بالغرفة يمكّن هنا من تعميق الحياة الداخليّة للبطل، وعدم الاهتمام بالوصف الخارجي، كما أنّ وصف الغرفة وآثار زياد ووصف المرسم ينوب عن الشّخصيّات التي مرّت من هنا، إن المكان أحيانًا ينوب عن الشّخصيّات، ويلقي في ذهن المتلقّي أنّ هذه الشخصيّات حقيقيّة»[3].

٢ – السجن:

سجن **الكديا** من المعالم المكانية البارزة في قسنطينة، وهو يتصل بشخصية خالد اتصالاً مباشرًا حيث دخله وهو ابن ست عشرة سنة وكان موعده النضالي هناك حيث التقى مع زميله القائد سي الطاهر وتكوّن سياسيًّا على يديه، وهو القاسم المشترك بين المناضلين جميعًا، كما يعتبر الشحنة التي زادت في عزم خالد على النضال والجهاد، وهو المكان الرئيس الذي

(١) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص١١٢ – ١١٣.

(٢) عبد الرزاق عيد: **دراسات في الرواية العربية**، مجلة المعرفة، العدد ٢٧٧، الفصل ٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، آذار ١٩٨٥، ص٣٩.

(٣) صالح مفقودة: **قسنطينة والبعد الحضاري للمكان**... ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

يرتبط بالشخصية الرئيسة في هذه الرواية وهي شخصية خالد.

يقول خالد: **في سجن الكديا كان موعدي النضالي الأول مع سي الطاهر، كان موعدًا مشحونًا بالأحاسيس المتطرفة، وبدهشة الاعتقال الأول بعنفوانه... وبخوفه.**

وكان سي الطاهر الذي **استدرجني إلى الثّورة يومًا بعد آخر، يدري أنّه مسؤول عن وجودي يومها هناك، وربّما كان يشفق سرًّا على سنواتي الست عشرة، على طفولتي المبتورة، وعلى «أمّا» التي كان يعرفها جيدًا ويعرف ما يمكن أن تفعله بها تجربة اعتقالي الأولى. ولكنه كان يخفي كلّ شفقته تلك، مردّدًا لمن يريد سماعه «لقد خلقت السجون للرجال»**[1] فالسجن كان مدرسة للثّورة وللرجولة بل فائض رجولة، مثلما أشارت الكاتبة إلى ذلك، وأن فرنسا ارتكبت أكبر حماقاتها حين جمعت لعدة أشهر **بين السّجناء السّياسيين وسجناء الحق العام في زنزانات يجاوز أحيانًا عدد نزلائها العشرين معتقلاً**[2]، لأنه في هذا الجمع نقلت عدوى الثورة إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي كما تشير الكاتبة إلى أولئك الذين **راهن البعض على خيانتهم لاختيارهم الثقافة الفرنسيّة فكانوا من الذين سُجِنوا وعُذّبوا لكونهم يحملون أكبر وعي سياسي مبكر وبفائض وطنيّة... وفائض أحلام..**[3].

كما يتكلّم «خالد» عن لقائه بسي الطاهر الذي يعتبر شيئًا أسطوريًّا غيّر مجرى حياته وقدره في قوله: «**كان في مصادفة وجودي مع سي الطاهر في الزنزانة نفسها شيئًا أسطوريًّا بحد ذاته، وتجربة نضاليّة ظلّت تلاحقني لسنوات كاملة، وربّما كان لها بعد ذلك أثر في تغيير قدري**»[4]..

وما يلاحظ على «أحلام مستغانمي» هنا أنها كانت واقعية في تصوير الحياة آنذاك بكل وعي وصدق إلى درجة أننا نعتبرها وثيقة تاريخية تعالج حقبة من الزمن في تاريخ الجزائر أيام الثورة.

٣ – المسجد:

المكان الذي تسمو فيه الروح حيث تؤدى فيه شعائر الصلاة، فتطمئن فيه النفوس، وتحسّ بالأمان والاستقرار، فالمسجد من المعالم العريقة التي تزخر بها مدينة قسنطينة حيث أن: «المسجد يساهم في بناء الرواية ويشكّل إلى جانب الأماكن

(١) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٥.
(٢) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٦.
(٣) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٧.
(٤) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص ٣٧.

الأخرى بناء المكان العام للخطاب، يفتح على النّاس كمكان للعبادة يتّجهون فيه لأداء الفريضة والتزوّد من أجل مواجهة ظروف الحياة الصعبة، ينتقلون إليه في حركة متكررة خمس مرات في اليوم، يدفعهم التزام نابع عن إيمانهم وارتباطهم بربّهم. يأتونه تقودهم رغبة روحيّة»[١].

فعلى الرغم من وجود أماكن أخرى من «ماخور» وغيره تغوي النّاس، إلاّ أن المساجد تبقى صامدة في وجه الفساد، فهي التي تدعو مآذنها خمس مرّات في اليوم إلى العودة إلى الطّهارة والعفّة، وهي الّتي تبعث الأمل دائمًا إلى التّوبة، فالمسجد هو المكان الذي يلتقي فيه الناس دونما تفريق بينهم، فيقف الغني بجانب الفقير، والكبير بجانب الصغير حيث يمثل المسجد: «الحيّز المكاني الذي يحتضن المشاعر المشتركة بين أفراد الجماعة، حيث تختفي فيه المشاحنات الفرديّة، وتطغى فيه روح الجماعة.»[٢].

فصوت المآذن في قسنطينة لها أثر كبير في نفس «خالد» الذي افتقد سماعها منذ سفره إلى فرنسا، وبعد عودته إلى قسنطينة وجد أن أصوات المآذن لم تتغيّرمن حيث قوّتها، وكذا التّأثير الذي تتركه على نفس الإنسان فيحسّ بالرهبة، وسموّ الروح، فالمسجد مكان مقدّس عند خالد وعند كل مسلم يقول «خالد»: «**... ويسمو بي إلى أعلى ذلك النّداء الآخر، لتلك المآذن الّتي افتقدت طويلاً تكبيراتها، ورهبة آذانها الذي كان يدعو إلى الصّلاة، فيخترق بقوّته دهاليز نفسي، ويهزّني لأوّل مرة منذ سنوات**»[٣].

٤ – الدار المغلقة – الماخور:

هي الدار الذي كانت تمارس فيها الرذيلة، حيث يقصدها أولئك الذين مات لديهم الوعي الدينيّ، توقف خالد أمام هذه الدّار وهو يمشي في شوارع المدينة، حيث تحدث عن لون جدرانها الصفراء، كما أشار إلى أنها كانت دارا كبيرة ولها ثلاثة أبواب، يقول «خالد»:

«تتوقف فجأة خطواتي أمام جدران بيت لا يشبه بيوتًا أخرى.

هكذا كانت الأكبر (دار مغلقة) يرتادها الرجال. وكان لها ثلاثة أبواب تؤدي إلى شوارع وأسواق مختلفة. لقد كانت في الواقع دارا مغلقة مشرّعة مدروسة ليتسلّل إليها الرّجال من أية جهة، ويخرجون منها من أية جهة أخرى. كان الرجال يؤمّونها من كلّ صوب، هربًا من

(١) الشريف حبيلة: **بنية الخطاب الروائي**، ص ٢٣٤.

(٢) عبد الحميد بورايو: **منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)**، ص ١٤٧.

(٣) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص ٣١٥.

المدن والقرى المجاورة، التي لا ملذّات فيها ولا نساء»[1].

ويضيف «خالد» بأن تلك الدار كانت تضمّ بين جدرانها نساء جميلات وبائسات يأتين إليها بغرض كسب المال، ولا يخرجن منها إلاّ وهنّ عجائز للتّوبة، يقول: «**وكانت النساء الجميلات والبائسات، يأتين أيضًا من كل المدن المجاورة، ليتخفين خلف هذه الجدران المصفرة، التي لا يخرجن منها إلا عجائز لينفقن ثروتهنّ في الصدقات والحسنات للتوبة... هنا أنفق أبي ثروته ورجولته**»[2].

٥ – المستشفى:

هو المكان الّذي يداوي جراح المرضى الذين يلجأون إليه، وهو المكان الذي يقدّم أكثر الخدمات إنسانيّة، فالمستشفى كخليّة نحل لا تهدأ، ففي كلّ وقت يمكن أن تأتي إليه حالات مستعجلة، حيث أن لكل فرد عامل وظيفته الخاصة التي لا يمكن الاستغناء عنها: ويعد المستشفى بوظيفته: «عكس الأماكن الأخرى المغلقة أو المفتوحة كونه يعمل على ترميم ما حطّمته هذه الأمكنة في إنسان أرهقه المكان والزمان، فكان ملجأ كلّ مريض يصنع الراحة النفسية ويقدّم العلاج الأمثل لمختلف الأمراض لا يجد المريض في سواه حلاًّ سواء أكان البيت أم الشارع أو المدينة، فيه يستشعر الاطمئنان، ويأمل في الشفاء»[3].

نُقل «خالد» إلى مستشفى «الحبيب ثامر» بتونس بغرض العلاج بعدما أُصيب في ذراعه اليسرى في مواجهات مع العدوّ في الجزائر، فكان المكان الذي داوى جراحه، حيث قرّر الأطبّاء بتر ذراعه، وبعدها ساءت حالته النفسيّة، لكن الطبيب الّذي بتر ذراعه كان في الوقت نفسه من عالجه من تلك الحال التي مرّ بها حيث كان ذلك الطبيب المحفّز لـ«خالد» على الرّسم الّذي أصبح بفضله من المبدعين، يقول «خالد»: «**ارسم أقرب منظر إلى نفسك... إنّها الجملة التي قالها لي الطبيب اليوغسلافي الذي قَدِم مع بعض الأطبّاء من الدّول الاشتراكيّة إلى تونس، لمعالجة الجرحى الجزائريّين، والّذي أشرف على عملية بتر ذراعي، وظلّ يتابع تطوّراتي الصحيّة والنفسيّة فيما بعد**»[4].

فكان «خالد» في ذلك المستشفى «يحكي همومه وأحلامه وآماله، ماضيه وحاضره ومستقبله المرتقب يعري فيه نفسه شعورًا بالأمن»[5].

فلم يكن هناك وصف دقيق لذلك

(١) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص٣١٣.
(٢) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص٣١٣.
(٣) الشّريف حبيلة: **بنية الخطاب الروائي**... ص ٢٣٨.
(٤) أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، ص٥٩.
(٥) الشّريف حبيلة، **بنية الخطاب الرّوائي**... ص ٢٨٣.

المستشفى في سياق كلام «خالد» لكنّه أشار إلى الجدران البيضاء الّتي كانت في غرفته بأنّها استمرار لجدران ذلك المستشفى، يقول «خالد»:

«عدت يومها إلى غرفتي مسرعًا، أريد أن أخلو مع نفسي بين تلك الجدران البيضاء، الّتي كانت استمرارا لجدران مستشفى «الحبيب ثامر»»[1].

٦ – المعرض:

المكان الذي عرض فيه «خالد» رسوماته ولوحاته، فهو المكان الذي جمع بين «خالد» و«حياة» للمرة الثانية وهي شابّة، ففتح هذا اللقاء الباب أمام «خالد» لعواصف لم يكن يتوقّعها، وبعد ذلك قامت لقاءات أخرى بينهما في ذلك المكان.

يقول «خالد»: **«كان يوم لقائنا يومًا للدهشة... لم يكن القدر فيه هو الطرف الثّاني. كان منذ البدء الطّرف الأوّل. أليس هو الذي أتى بنا من مدن أخرى، من زمن آخر، وذاكرة أخرى؛ ليجمعنا بقاعة باريس، في حفل افتتاح معرض للرسم؟»**[2].

كان ذلك المعرض يضم لوحات كثيرة رسمها، وبين تلك اللوحات لوحته الأولى التي كانت أول تجربة له في الرسم بعد بتر يده، فكانت تلك اللوحة التي أسماها «حنين» تمثّل جسر «قنطرة الحبال» في قسنطينة.

يقول «خالد»: **«انتظرت فقط طلوع الصّباح لأشتري بما تبقّى في جيبي من أوراق نقديّة ما أحتاج إليه لرسم لوحتين أو ثلاث، ووقفت كمجنون على عجل أرسم «قنطرة الحبال» في قسنطينة... خمس وعشرون سنة، عمر اللوحة التي أسميتها دون كثير من التفكير «حنين»»**[3].

خاتمة

إنّ جمالية المكان أمر يهتم بدور البيئة الّتي يعيش فيها الإنسان، وفي كيفية تكوين الهوية والتي تثير الحالات النفسيّة بألوانها المختلفة منها الشّعور بالفرح والحزن والأنسنة والمعاداة والإخفاق. ودراسة العناصر الجماليّة للمكان في المجال الأدبي، وتحديدًا في الرواية، تبرز لنا أنّ المبدع يبذل أقصى جهده للتعبير عن العلاقة بين المواضع التي ترعرع فيها المرء، ومشاعره وأثرهما في الحياة والقرارات المأخوذة من قِبل الشخص طوال عمره، كما لاحظناها في حياة البطل «خالد» الذي كان يأخذ قراراته مستندًا على معتقداته عن وطنه.

وجدير بالذكر أنّ هنالك تأثيرات بارزة مهمّة من تصوّرات الشخص حول الأمكنة التي وقعت فيها الأحداث المصيرية، وردود فعله تجاه الآخرين، توجد علاقة بين المكان

(١ – ٢) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٦١.

(٣) أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، ص٦٣.

وهوية الشخصيات ومعتقداتها بشكل مباشر. فلذلك، نجد الشخصيات الروائية ذات مستويين، المستوى الخارجي الذي يراه الآخرون والمستوى الداخلي المتمثّل في أفكارها؛ فبهذا الطريق يمكن للقارئ أن يتعايش مع الشخصيات خلال عملية السّرد؛ لأنها خطوة رئيسة في فهم جماليّات المكان وما يتبعه الروائي من الأمنيات والأحلام أثناء كتاباته.

وفي واقع الأمر إنّ نظام الأمكنة السردي عند أحلام مستغانمي يتحوّل إلى أداة لغويّة للتّعبير عن سياسة الجزائر وتاريخها وثقافتها وحضارتها، حتى تبقى أيّامها الماضية حيّة للأجيال القادمة، وما فيها من الشّهداء الّذين انصرفوا عن حياتهم لكي لا يموت وطنهم.

قائمة المصادر والمراجع

المصدر:

أحلام مستغانمي: **ذاكرة الجسد**، دار الآداب، الطبعة ٢٤، بيروت، ٢٠١٠.

المراجع:

١) باشلار، غاستون: **جماليات المكان**، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط٦، ٢٠٠٦.

٢) بحراوي، حسن: بحراوي، حسن: **بنية الشّكل الرّوائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

٣) بورايو، عبد الحميد: **منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)**، ديوان المطبوعات الجزائرية، ١٩٩٨.

٤) حبيلة، الشّريف: **بنية الخطاب الرّوائي دراسة في روايات نجيب الكيلاني**، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٠.

٥) خليل، إبراهيم: **بنية النصّ الروائي**، الدار العربيّة للعلوم، ناشرون، بيروت، ٢٠٠٢.

٦) زيتون، علي مهدي: **في مدار النّقد الأدبي، الثقافة- المكان- القصّ**، الفارابي، ٢٠١١

٧) عثمان، بدري: **بناء الشّخصية الرّئيسية في روايات نجيب محفوظ**، ط١، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنّشر والتّوزيع.

٨) عيد، عبد الرزاق: **دراسات في الرواية العربية**، مجلة المعرفة، العدد ٢٧٧، الفصل ٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، آذار ١٩٨٥.

٩) لحمداني، حميد: **بنية النصّ السرديّ من منظور النقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، ط٣، بيروت، ٢٠٠٠

١٠) مجاعص، وفاء عبد النّور: **المكان بطلاً في الرّواية اللّبنانية: السّكون الهادر**، ملحق النّهار الثقافي، ١٠/٤/٢٠١١

١١) مفقودة، صالح: **قسنطينة والبُعد الحضاري للمكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي**، مجلة العلوم الإنسانية، عدد ٢٠٠٠.

السيميائية والتناص في الإعلان التلفزيوني في دولة الكويت

إعداد الباحث: مبارك حمد الدسمة[1]

ملخص البحث باللغة العربية:

للسيميائية والتناص أثر مهم في نجاح الإعلان التلفزيوني في تحقيق أهدافه، ومن هنا حاول هذا البحث التعرف على التوظيف السيميائي في الإعلان التلفزيوني في الكويت، وتحديد إلى أي مدى توظف الإعلانات التلفزيونية في الكويت الجوانب السيميائية، ولتحقيق هذا الهدف تم تحليل مجموعة من الإعلانات التلفزيونية في الكويت، وأسفر التحليل عن ضعف التوظيف السيميائي في الإعلانات التي تم تحليلها، ويوصي البحث بالاهتمام بالسيميائية والتناص وتوظيفهما في الصورة التى تحقق أهداف الإعلان.

Abstract

Semiotics and intertexuality have a significant effect in the success of TV advertisingÁ this research tried to familiarize with the semiotic use in TV ads in Kuwait and determine the extent of usage of semiotic aspects in the ads in Kuwait, to achieve its goal, a group of TV ads in Kuwait were analyzed and research conclusion stating that the use of semiotics in the ads is weak, and the research recommendations to pay more attention to use Semiotics and intertexuality in the ads in order to achieve its goals

أولًا - مقدمة

أدت الثورة المعرفية والقفزات التكنولوجية المتلاحقة في المجال الإعلامي والإعلاني إلى تغيير المفردات الأساسية للعمل الإعلامي والإعلاني في التليفزيون؛ حيث أصبح الاعتماد بشكل أساسي على الصورة كوسيلة توصيل وتواصل، وكوسيلة للترويج تتضمن المعرفة والفهم والتوجيه والتسلية؛ مما جعل الصورة الإعلانية تحتل مكانا بارزا في الإعلام

(١) باحث دكتوراه في الإعلام.

الجديد. وتؤثر الصورة الإعلانية التليفزيونية تأثيرا كبيرا في المتلقي، فالمخزون الدلالي لها يجعلها أداة تواصل عالية التأثير في الجانب العاطفي والمعرفي والجمالي والثقافي، مكونة أثرا غزيرا في المعاني والدلالات، ومن هنا تبرز أهمية سيميائية الصورة[١].

والإعلان التلفزيوني لا يروج للسلع والمنتجات فحسب، وإنما يشمل الترويج للأفكار والخدمات والمعاني لفظية كانت أو رمزية، وهذا قد يسهم في تعميق الثقافة؛ من خلال توظيف الرموز الدينية والاجتماعية وغيرها.

كما أن الإعلان ينتج قيما، ويوجه أذواقا، ويخلق حاجات في منأى عن كل رقابة، فهو لا يكذب ولا يقول الحقيقة. إنه يكتفي بالعرض. وتلك هي خطورته وقوته الضاربة؛ لأنه يسرب المنتج أو السلعة ضمن وضع إنساني مألوف يتماهى فيه كل مستهلك، وبالتالي يصبح اقتناء هذا المنتج أمرا طبيعيا، وهذا ما يضفي على الإعلان طابعا خاصا، فما يقوله الإعلان لا يفترض معرفة سابقة، بل يستدعي إثباتا لاحقا يؤكده واقع العلامة التنبؤية التى يلقي بها إلى التداول[٢].

وهو في سبيل ذلك يستعين بعدد من الرموز والأيقونات والدوالِّ والإشارات التى تحمل مدلولات متنوعة تسهم في تحقيق أهداف الإعلان التلفزيوني.

وتوظف الإعلانات التلفزيونية العديد من الصور؛ باعتبار الصورة مشترك إنساني عام بين كل الثقافات، وهى المهيمنة على كل الأشكال التصميمية، ولا تكف عن التدفق والحضور في كل لحظة من لحظات الحياة، بدرجة يصعب معها تصور الحياة من غير صور، كما أن التفكير صعب من دون صور، والتفكير بالصور يرتبط بالخيال، والخيال يرتبط بالإبداع، والإبداع يرتبط بالقدرة على إنتاج الدلالة، والدلالة تعني الخروج إلى آفاق أكثر اتساعا وعمقا، من أجل تقديم طرق مختلفة للتفكير»[٣].

ومن هنا فالسيميائية والتناص يمكن أن يغنيا الإعلان ويكسبانه بعدا جماليا، وهذا يوجب دراسة السيميائية والتناص وتحديد دورهما في الإعلان التلفزيوني في الكويت.

---

(١) الفضلي، سعدية محسن عايد (٢٠١٠) ثقافة الصورة ودورها في إثراء التذوق الفني لدى المتلقي، رسالة ماجستير، كلية التربية - جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، ص٢٠.

(٢) بنكراد، سعيد (٢٠٠٦). سميائيات الصورة الإشهارية. الدار البيضاء، أفريقيا الشرق للتوزيع. ص٢٩.

(٣) عباس، هدى فاضل (٢٠١٤). سيميائية الخطاب الاتصالي في التصاميم الجرافيكية. مجلة الباحث الإعلامي، العدد ٢٤ - ٢٥، كلية الإعلام، جامعة بغداد. ص٢٢٢.

مشكلة البحث:

تحدد مشكلة البحث في القصور في فهم الدور الذي تقوم السيميائية والتناص في الإعلان التلفزيوني في الكويت.

أهداف البحث:

إلقاء الضوء على دور السيميائية والتناص في الإعلان التلفزيوني في الكويت، وكيف يعتمد عليهما مصمم الإعلان التلفزيوني.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي في عرض الإطار النظري، وتحليل نماذج من الإعلانات التلفزيونية؛ لبيان المعاني السيميائية والتناصية التى يعتمد عليها المصمم حين يصمم إعلانا تلفزيونيا.

ثانيًا - الإطار النظري للبحث

١- سيميائية الإعلان التلفزيوني

يحظى التواصل والدلالة باهتمام كبير من السيميائيين، وقد أدى ذلك إلى اختلافهم حول الموضوع الرئيس للسيميائيات، هل هو التواصل أم الدلالة؟ وانتهى الأمر إلى اتفاقهم على أن العلاقة بين التواصل والدلالة علاقة جدلية، فكل تواصل لا بد أن يتضمن دلالة ما- أو ينتج دلالة ما بالاعتماد على أنساق متنوعة من التسنين الثقافي والاجتماعي واللغوي والقيمي، وهو ما يجعلها منفتحة على عدد مهم من الإجراءات النسقية والتداولية(١).

والسيميائية علم خاص بالعلامات، هدفه دراسة المعنى الخفي لكل نظام علاماتي فهي تدرس لغة الإنسان والحيوان وغيرها من العلامات غير اللسانية باعتبارها نسقًا من العلامات مثل علامات المرور وأساليب العرض في واجهة المحلات التجارية والخرائط والرسوم البيانية وغيرها(٢).

«والسيميائية تتخطى مجال اللسانيات؛ لأن كل إشكال التواصل تستخدم لغة ما، سواء أكانت لغة رمز، أو لغة الألوان، أو لغة الشكل، أو أي لغة أخرى. فاللغة بوصفها نسقاعلاماتيًا تتجاوز الحروف الهجائية، فقد تكون السيميائية في الثياب التي نلبسها؛ لكونها تنقل إلى الآخر معلومات ودلالات عن لابسها. وقد تكون اللغة إشارات المرور التي تعين سائقي السيارات والمشاة على التنقل وتجنب المخاطر. فالسيميائيات بوصفهاعلماجديدالمتولد في استقلالية تامة عن العلوم، فهي تستمد أصولها ومبادئها من كثير من الحقول المعرفية كاللسانيات، والفلسفة والمنطق،

(١) روانة، الطاهر (٢٠٠٧). سيميائية التواصل الفني، الكويت، عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد الخامس والثلاثون، ص٢٤٩.

(٢) عبد الله، قدور (٢٠٠٧). سيميائية الصورة، الأردن: مؤسسة الورق للنشر والتوزيع، ص١٠٠.

والتحليل النفسي والاجتماعي، والأنتربولوجيا، والسيميائيات تهتم بكل مجالات السلوك الإنساني وتحليل مظاهره، بدءا من الانفعالات البسيطة، ومرورا بالطقوس الاجتماعية[١].

ومن حقول السيمياء علامات الحيوانات، وعلامات الشم، وعلامات الاتصال باللمس، ومفاتيح المذاق، والاتصال البصري، وأنماط الأصوات، والتشخيص الطبي، وأوضاع الجسد، واللغات الصورية والمكتوبة، والإعلان والإشهار، والسينما، والقصة المصورة والملصقات، وقراءة اللوحات التشكيلية[٢].

وهذا معناه أن الدراسات السيميائية تشمل علوما متعددة، منها علوم الإعلام والإعلان.

٢ – مفاهيم السيميائية:

أ – العلامة: وتتناول السيميائية الأبعاد الآتية:

– **البعد النظمي السياقي:** ويتناول الخصائص الداخلية في بنية العلامات دون تفسيرها.

– **البعد الدلالي:** يهتم بالعلاقة بين العلامة ومدلولاتها وتفسيرها وتأويلها.

– **البعد التداولي:** ويتناول العلاقة بين العلامة ومن يتداولها[٣].

ب – المحايثة: وتعنى عزل النص عن سياقاته المحيطة؛ فالنص لا ينظر إليه إلا في ذاته مفصولا عن أي شيء خارجه. وهذا ينطبق على النص الإعلاني.

ج – المعنى والدلالة : قد لا يفرق الكثيرون بين المعنى والدلالة. ولكن البعض يجدون اختلافا بينهما فالجرجاني يفرق بين المعنى ومعنى المعنى. فالمعنى توصلك إليه الألفاظ من غير واسطة. أما معنى المعنى فهو يوصلك إلى معانٍ أخرى. الدلالة مفهوم محوري للسيميائية، التي لا تبحث عن دلالات جاهزة أو سابقة على الممارسة، وإنما تبحث في شروط الإنتاج والتداول والاستهلاك.

د– التأويل: والتأويل يتجاوز المعنى الظاهر إلى الخفي، وهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٤].

---

(١) سليمان، إبراهيم محمد(٢٠١٤). مدخل إلى مفهوم سيميائية الصورة، قسم الإعلام كلية الآداب جامعة الزاوية، المجلة الجامعة، المجلد الثاني، العدد ١٦. ص١٦١

(٢) فاخوري، عادل(١٩٩٠). تيارات في السيمياء، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر. ص١١

(٣) بشير كاوربريت(٢٠٠٨). مناهج النقد الأدبي المعاصر(دراسة في الأصول والملامح والإشكاليات النظرية والتطبيقية). الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٣٦

(٤) بنكراد، سعيد. معجم السيميائيات. موقع سعيد بنكراد، متاح على http://www.saidbengrad.net/dic/index.htm.

٣ – أهمية السيميائية للإعلان التلفزيوني:

تتمثل أهمية السيميائية في أنها:

- تساعد في التعبير عن معاني متنوعة من خلال الإعلان التلفزيوني، وذلك من خلال استخدام الدلالات والرموز والأيقونات والعلامات.
- يساعد الاهتمام بالسيميائية في تأكيد الجانب الرمزي للصورة الإعلانية في التلفزيون؛ وهذا قد يسهم في إعداد جيل من المصورين والفنانين والمصممين يستطيع توصيل مضمون الإعلان بصورة رمزية.
- قد يساعد الاهتمام بالسيميائية في تنمية مهارات التحليل والنقد لدى المتلقي.
- الاهتمام بالسيميائية يتفق مع التطورات المعرفية والتكنولوجية؛ فالسيميائية تدرس في ضوء الواقع وضمن سياقها الاجتماعي، فهي ليست مجرد أفكار نظرية، إنماهي دراسة للواقع بكل جوانبه وتفاصيله(شولز، ١٩٩٤، ٣٢)

٤ – الرموز في الإعلان التلفزيوني

تحمل الصور الموجودة في الإعلانية التليفزيونية دلالات مختلفة، تحمل معاني متعددة ذات رموز محددة يصعب فهمها دون فك الرموز. وتتمثل الرموز الأساسية في:

- **رمز النقل:** Transmission: ويختص هذا الرمز بالتكوين الفيزيائي للصورة على نحو ما يلاحظ من خطوط الكترونية فى الصورة التليفزيونية.
- **الرموز التشكيلية** (Morphologiques): ويختص هذا الرمز بالجانب التشكيلي للصورة من خطوط وظلال وكتل.
- **الرمز اللوني:** (Chromatique): ويختص هذا الرمز بالدلالات المختلفة التى يحملها اللون داخل الصورة الإعلانية التليفزيونية، فاللون الأحمر يحمل معنى التضحية والطاقة والعزيمة، وهكذا لكل لون دلالات معينة.
- **رمز التصوير الضوئي:** ويختص هذا الرمز بأحجام اللقطات والزوايا المختلفة لها ودلالات هذا الأمر وأثره فى الصورة.
- **الرمز اللغوي** (Linguistique): ويختص هذا الرمز بدلالات اللغة المستخدمة داخل الصورة، وأثره على المتلقي.
- **الرمز الاجتماعي** - الثقافي (Socio-culture): ويختص هذا الرمز بالبحث عن الثقافة فى الصورة الإعلانية فغالبا ما تكون الصورة محملة ببعض الصور

الأخرى التى تحمل دلالات ثقافية معينة.[١]

٥ – التناص

أحد الأسباب التي تجعل النصوص السردية، مثل: الأفلام والبرامج التليفزيونية والإعلانات تؤثر في المتلقي بقوة أنها كثيرا ما تعتمد على النصوص الأخرى التي نألفها وهو ما يعرف بالنصوص المتداخلة أو التناص intertextuality [٢].

والتناص حاضر بقوة في النصوص الأدبية فالشعر يحوى بداخله كما هائلا من التراث على نحو ما نشاهد من تناص قرآنى فى نصوص الشعر، وغيره من أشكال التناص المختلفة. وإذا كان التناص قائما على تداخل النصوص فهو يمتد أيضا ليشمل الصور لتداخل الصور فيما بينها مكونة معنى معينا له طابع رمزي معين.

وتؤدّي الصور دورا بارزا في الفهم، فهم الصورة الإعلانية التليفزيونية؛ فالتلقي بوساطة الحاسة البصرية التي تشاهد التجسيم لفكرة أو حدث أكثر تأثيرا في الوعي والإدراك من تلقي النص المقروء أو المسموع، كما أن صورة واحدة تستطيع أن تختزل قضية كبرى يحتاج التعبير عنها كتابات عديدة. ومن خصائص تلقي الصورة قدرتهاعلى إضاءة فكرة بزمن قياسي. التناص كما هو متداول هو تداخل النصوص والصور فى بعضها البعض، والبعض هنا قد يسأل عن علاقة التناص فى الصورة الإعلانية التليفزيونية.

وهناك علاقة كبيرة بين الإعلان التليفزيونى والتناص؛ فالصورة الإعلانية التليفزيونية تستعين بحشد هائل من الصور، كل صورة لها دلالتها ومعناها وتأثيرها على المتلقى؛ وبالتالي فتوظيف الصور وتداخلها معا أمر يحقق للإعلان النجاح، وللمتلقي المتعة. فمن خلال التناص الأسطوري يوظف الإعلان بعض الأساطير المعروفة داخل الإعلان؛ بحيث يتضمن الإعلان صورًا وأحداثا تنتمي إلى عالم الأساطير، بخاصة وأن العالم به كم هائل من الأساطير. ومن خلال التناص التاريخي: يستدعي الإعلان التلفزيوني بعض الأحداث التاريخية ويوظفها داخل الإعلان. والأمر نفسه في التناص الإسلامي: حيث يستعين الإعلان ببعض الرموز الإسلامية في لإعلان التلفزيوني، من خلال توظيف العلامات والرموز والأيقونات الإسلامية داخل محتوى الإعلان.

---

(١) Yveline Baticle, (1973) clés et codes du cinéma, Paris, Magnard Université, p37.

(٢) بيرجر، آرثر اسا(٢٠١٢) وسائل الإعلام والمجتمع وجهة نظر نقدية ترجمة صالح خليل أبو أصبع. الكويت، عالم المعرفة، عدد مارس.

ثالثًا - نتائج البحث

قمت بقراءة عدد من الإعلانات التلفزيونية في الكويت في السنوات الثلاث الأخيرة على النحو الآتي:

أولاً – إعلانات ٢٠١٦

قمت بتحليل ثماني إعلانات على النحو الآتي:

- **إعلان بنك بوبيان:** جاء التوظيف السيميائي في الإعلان ممثلا في الزى الخليجي وبعض الرموز الخليجية.
- **إعلان أسنان تور:** وفيه ظهرت بعض الرموز مثل الهاتف النقال، وظهر فيه الإيحاء من خلال الدلالة اللغوية والإيحائية لكلمة «نار».
- **إعلان بنك الكويت الوطني:** وفيه اعتمد الإعلان اعتمادا كليا على الزى الوطنى، مع توظيف بعض الكلمات الدينية مثل: مبارك عليكم الشهر الكريم.
- **إعلان وزارة الداخلية:** وهو إعلان غني بالرموز السيميائية مثل: أذان المغرب، والتمر، وتبادل زجاجات المياه في لحظة الأذان في شهر رمضان، كما ظهرت بعض الرموز مثل شعار وزارة الداخلية، وصوت سيارة الشرطة.
- **إعلان الخباز:** جاء التوظيف السيميائي في الإعلان ضعيفا؛ حيث اعتمد فقط على تنوع ألوان وأشكال الخبز.
- **إعلان مستشفى دار الشفاء:** جاء التوظيف السيميائي في الإعلان ضعيفا؛ حيث اعتمد فقط على بعض الكلمات الدينية.
- **إعلان البنك التجاري:** جاء التوظيف السيميائي في الإعلان ضعيفا للغاية؛ حيث لم تظهر فيه أي ملامح سيميائية.

ثانيًا – إعلانات ٢٠١٧

قمت بتحليل ثماني إعلانات على النحو الآتي:

- **إعلان بنك الائتمان الكويتي:** جاء التوظيف السيميائي فقيرا؛ حيث اقتصر على توظيف اللبس الخليجي، واستحضار صورة عرس للدلالة على الفرح والبهجة، وكأن التعامل مع البنك يسبب حالة من الفرح والسعادة. كما حضر التناص في الصور العرس التى تحمل معنى تراثيا ما.
- **إعلان مطعم كالكوتا:** اعتمد الإعلان على التناص من خلال الاستعانة بالثقافة الهندية والموسيقى الهندية، الزى الهندي، التراث الهندي، وهذا التوظيف للتناص استحضر رموزا سيميائية أخرى.
- **إعلان البنك الكويتي للطعام:** جاء التوظيف السيميائي مقتصرا على الأزياء والأضواء وقيم الرحمة المرتبطة

بشهر رمضان الكريم. وهى أيضا يمكن اعتبارها تناصا دينيا.

- **إعلان مركز تيجان الدولى لطب الأسنان:** اقتصر التوظيف السيميائي على توظيف بعض الكلمات الدينية في الإعلان.
- **إعلان دعاية بيان لطب الأسنان:** وجاء فقيرا من الناحية السيميائة والتناص. وبني الإعلان من الأساس على تحريف كلمات «أبجد هوز حطي كلمن».
- **إعلان شوكلتنس:** جاء فقيرا من الناحية السيميائية؛ حيث تم اختيار غالبية الممثلين من ذوي البشرة السمراء لقرب هذا اللون من لون الشيكولاتة.
- **إعلان مستشفى دار الشفاء:** تم توظيف بعض الكلمات الدينية، غير أن هذا التوظيف جاء محدودا.
- **إعلان حلويات سعد الدين:** جاء التوظيف السيميائي مقتصرا على الرموز المرتبطة بطبيعة شهر رمضان المبارك.

ثالثًا – إعلانات ٢٠١٧

قمت بتحليل ثماني إعلانات على النحو الآتي:

- **إعلان دكان بزة:** جاء الإعلان مختلفا إلى حد بعيد عن باقي الإعلانات، حيث اعتمد على أخذ جزء من فيلم أجنبي وتركيب الكلمات عليه. وجاء التوظيف السيميائي محدودا.
- **إعلان مطعم نماش:** اعتمد الإعلان على التناص من الثقافة الهندية؛ من خلال الغناء الهندى، الرقص الهندى، الاستعراض الهندى والأزياء الهندية.
- **إعلان وزارة الداخلية:** وجاء مطابقا إلى حد بعيد لإعلان عام ٢٠١٦ ولم يختلف عنه في أي شيء.
- **إعلان أوريدوا:** حول الإعلان الربط بين مزايا الخدمة والشهر الكريم، وكيف أن اوريدوا تحقق أهدافا اجتماعية ودينية وترفيهية.
- **إعلان بنك الخليج:** حاول الإعلان الاستفادة من أحد الرموز المرتبطة بالشهر الكريم والاستفادة منها، وهذا ما ظهر من توظيف شخصية المسحراتي وأداته التراثية المشهورة «الطبلة».
- **إعلان البنك الأهلي المتحد:** جاء الإعلان تقليديا ولم تظهر فيه السيميائية بصورة واضحة سوى في بعض الأزياء.
- **إعلان شركة الجسار للعطور:** وجاء التوظيف السيميائي فيه مقتصرا على الموسيقى الخليجية والزى الخليجي.

- **إعلان سيدي الرئيس:** وجاء الإعلان غنيا ببعض الرموز السيميائية وهذا اتضح في الديكور والملابس والأيقونات والعلامات والأماكن المقدسة التى ظهرت في الإعلان، فضلا عن الكلمات التى جاءت على لسان الطفل.
- **إعلان ابن العميد:** اعتمد هذا الإعلان كليا على التراث المصري من خلال توظيف «الحنطور» وهو مركبة مصرية تراثية معروفة، كما استدعى الإعلان صورة النيل، الحسين، السحور، العلم المصري، صورة لاعب الكرة المشهور.

ملخص النتائج

وبعد قراءة هذه الإعلانات يتضح ما يلي:

- الإعلانات التلفزيونية في الكويت التى تم تحليها في هذه البحث جاءت فقيرة في توظيف السيميائية، واقتصرت الإعلانات على توظيف القليل من الرموز والعلامات، كما أن التوظيف جاء فقيرا من الناحية الفنية. ولا يمكن القول إن هذا التوظيف كان إبداعيا وأعطى الإعلان طابعا جماليا ودلاليا.
- جاء إعلان سيدي الرئيس الأعلى من ناحية توظيف الرموز السيميائية، وهذا الإعلان بحكم الحديث عن قضية القدس استعان بعدد كبير من الرموز الدينية التى تخدم أهدافه. كما أن هذا الإعلان اعتمد على التناص الدينى من خلال تداخل الصور التى تحمل دلالات إسلامية.
- جاء توظيف التناص محدودا واقتصر فقط على الاستعانة ببعض النصوص الدينية.
- ظهرت بعض الثقافات في الإعلانات التى تعرضت في الكويت؛ فالثقافة الهندية ظهرت من خلال الموسيقى والاستعراض والأزياء الهندية، كما ظهرت الثقافة المصرية في إعلان ابن العميد.
- التوظيف المناسب للسيميائية يحقق عوامل جذب متنوعة للإعلان، ويجعل المتلقي يقبل على الإعلانات ويتفاعل معها، لكن هذا يتطلب توظيفا إبداعيا للسيميائية والتناص داخل الإعلان، وليس فقط توظيف بعض الأزياء والديكورات والعبارات الدينية.
- يدور موضوع السيميائية حول العلامات أو الدلالات التي يحملها الإعلان التلفزيوني نتيجة توظيف بعض العلامات والأيقونات والرموز.
- سيميولوجية الإعلان التلفزيوني جزء من السيميولوجيا بمعناها العام، لأن السيميولوجيا تدرس العلامات اللغوية وغير اللغوية.

المراجع

- بشير كاوربريت(٢٠٠٨). مناهج النقد الأدبي المعاصر(دراسة في الأصول والملامح والإشكاليات النظرية والتطبيقية). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- بنكراد، سعيد(٢٠٠٦). سيميائيات الصورة الإشهارية. الدار البيضاء، أفريقيا الشرق للتوزيع.
- بنكراد، سعيد. معجم السيميائيات. موقع سعيد بنكراد، متاح على http:// www.saidbengrad.net/dic/index.htm
- بيرجر، آرثر اسا (٢٠١٢). وسائل الإعلام والمجتمع وجهة نظر نقدية. ترجمة صالح خليل أبو أصبع، الكويت عالم المعرفة. مارس.
- روانية، الطاهر(٢٠٠٧). سيميائية التواصل الفني، الكويت، عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد الخامس والثلاثون.
- سليمان، إبراهيم محمد(٢٠١٤).مدخل إلى مفهوم سيميائية الصورة، قسم الإعلام كلية الآداب جامعة الزاوية، المجلة الجامعة، المجلد الثاني، العدد ١٦.
- شولز، روبرت(١٩٩٤). السيمياء والتأويل. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عباس، هدى فاضل(٢٠١٤). سيميائية الخطاب الاتصالى في التصاميم الجرافيكية. مجلة الباحث الإعلامي، العدد ٢٤-٢٥، كلية الإعلام، جامعة بغداد.
- عبد الله، قدور (٢٠٠٧). سيميائيةالصورة. الأردن، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع.
- الفضلي، سعدية محسن عايد(٢٠١٠). ثقافةالصورة ودورها في إثراء التذوق الفني لدى المتلقي. رسالة ماجستير، كليةالتربية – جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية.

- Yveline Baticle, (1973) clés et codes du cinéma, Paris, Magnard Université, p37.

«الشّبكة العنكبوتيّة ومواقع التّواصل الاجتماعي في حياة تلامذة المرحلة الثانويّة»

إعداد: يحيى وفيق خفاجة(*)

مستخلص الدراسة:

لقد حولت الوسائل التكنولوجية الحديثة العالم إلى قرية صغيرة انعكس تطورها في مجالات عديدة. وقد جاء الانترنت ليشكل أحد أهم اختراعات القرن حيث حول العالم إلى مكتبة بلا جدران وقرية بلا أسوار وأمدت سكان هذه القرية بثقافة دون حواجز، فالشبكة العنكبوتية أو ما يعرف بشبكة المعلومات العالمية (World Wide Web) هي جزء من شبكة الانترنت وتعد الجزء الأساس والمهم منها كونها تشتمل على كافة المعلومات المنقولة عبر الشبكة.

وترافق ذلك في التأثير على مختلف فئات المجتمع، ومن بينها تلامذة المرحلة الثانوية الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٤-١٧ سنة، وبالتالي جاءت هذه الدراسة بهدف التعرف على تأثير الشبكة العنكبوتية في المنظومة القيمية لدى المتعلم في المرحلة الثانوية وعلاقتها بمستوى التحصيل الأكاديمي لديه، مع تحديد أبرز المواضيع التي تشكل محور اهتمام التلميذ في متابعته لمواقع التواصل الاجتماعي ومختلف استفادات الشبكة العنكبوتية.

وعبر المنهج الوصفي التحليلي ومن خلال الاستبيان الموزع على عينة من ٦٠ تلميذًا في المرحلة الثانوية، ومن خلال التحليل الإحصائي تمت الاستفادة من درجة الدلالة (p value) ومن الرائز الإحصائي كاي - تربيع (chi-squared) وذلك يساعد في التعرف على العلاقة بين مختلف المتغيرات التي تمت متابعتها، وقد توصلت الدراسة للنتائج الآتية:

- هناك علاقة عكسية بين معدل علامات تلميذ المرحلة الثانوية مع معدل ساعات متابعته للشبكة العنكبوتية، حيث أن

(*) باحث اجتماعي تربويdr.Yehyakhafaja.com\

أصحاب المعدلات المرتفعة هم أقل استخدامًا للشبكة العنكبوتية.

– تختلف متابعة الأهل للشبكة العنكبوتية لأبنائهم بحسب جنس التلميذ في المرحلة الثانوية، فهم على دراية وإطلاع لصفحات بناتهم أكثر منه لمتابعتهم لصفحات أبنائهم.

– إن لاستخدام الشبكة العنكبوتية أثر كبير على مختلف توجهات متعلمي المرحلة الثانوية، من حيث لغة الكتابة والسلوك المعتمد في الظروف المختلفة بالإضافة إلى أن البعض منهم يتجه لتخطي حدوده الأخلاقية مع الشبكة العنكبوتية.

Abstract

"The Internet and social networking sites in the life of high school students"

Modern technology has transformed the world into a small village whose development has been reflected in many areas. The Internet has become one of the most important inventions of the century in a way connecting world within a library without barriers and a village without walls saturating it with a culture free from barriers. The Web or what is known as the World Wide Web is part of the Internet, and considered to be the basic and important part of it since it includes all information transmitted over the network.

This study was carried out in order to identify the influence of the internet in the value system of the learner in the secondary stage and its relation to the level of academic achievement. Having that said, it also has an influence over various groups of the community, part of those groups are the secondary students between 14 and 17 years, thus, this study was carried out in order to identify the influence of the internet in the value system of the learner in the secondary stage and its relation to the level of academic achievement, together with identifying the most important topics that are the focus of the student's attention in follow-up to social networking sites and the various benefits of the Internet.

Through the descriptive analytical method and through the questionnaire distributed to a sample of 60 students in the secondary stage, and through the statistical analysis has been used to the degree of significance (p value) and the statistical leader chi-squared, which helps to identify the relationship between the various variables Which was followed up, the study reached the following results:

- There is an inverse relationship between the secondary school scores and the average follow-up hours of the internet, as those with high rates are less likely to use the internet.

- Follow-up and monitoring of the parents to their children use of the internet differentiates according to the student gender in the secondary stage, they are familiar with the pages of their daughters more than their sons.

Ù The use of the Internet has greatly in-

fluenced the different orientations of secondary school studentsõ in terms of the language of writing and behavior adopted in different circumstancesõ some of them cross limits in terms of moral and abuse of internet

مقدمة:

أحدثت التطورات التكنولوجية الحديثة في منتصف عقد التسعينات من القرن الماضي نقلة نوعية، وثورة حقيقية في عالم الاتصال حيث انتشرت شبكة الإنترنت في مختلف أنحاء العالم وربطت أجزاء هذا العالم المترامية بفضائها ومهدت الطريق للمجتمعات كافة للتقارب والتعارف وتبادل الآراء والأفكار والرغبات، واستفاد كل متصفح لهذه الشبكة من الوسائط المتعددة المتاحة فيها وأصبحت أفضل وسيلة لتحقيق التواصل بين الأفراد والجماعات ثم ظهرت المواقع الإلكترونية، والمدونات الشخصية، وشبكات المحادثة، التي غيرت شكل العالم ومضمونه وخلقت نوعًا من التواصل بين أصحابها ومستخدميها من جهة والمستخدمين أنفسهم من جهة أخرى.

وينمو الاستخدام العالمي للشبكة العنكبوتية بشكل لافت ويزحف النشر الالكتروني ليستولي يومًا بعد يوم على مساحات جديدة كانت بالأمس القريب يسيطر عليها عالم المكتوب إلى الحد الذي جعل الورق يتقادم بشكل متسارع ويدفع كثيرًا من الباحثين إلى التنبؤ بأن طلابنا سيشهدون عالمًا خاليًا من الورق. وكما أن لكل مرحلة عمرية خصائصها فلا يخفى على المتخصص التربوي مدى شغف الفرد ما بين العمر ١٤-١٧ سنة نحو الانفتاح والتعرف على كل ما هو جديد، وإن رافق ذلك تحديات مع الأهل، ناهيك عن تأثير هذا الانفتاح المفرط في بناء شخصية التلميذ في المرحلة الثانوية، هذا وما يرافقه من تأثير على تحصيله الأكاديمي وتوجهاته القيمية.

الإطار المنهجي للدراسة:

أهداف الدراسة:

إن التوجهات الأساسية للدراسة هدفت للتعرف على تأثير الشبكة العنكبوتية في حياة الفرد المتعلم من الناحية القيمية والثقافية والتربوية وعلاقاته الاجتماعية.

ومن خلال الهدف الأساسي يمكن لنا تحديد الأهداف الفرعية:

- معرفة واقع حياة المتعلم الثانوي مع الشبكة العنكبوتية ومدى تأثيرها على ثقافته ومنظومته القيمية.
- تحديد آلية متابعة الأهل للشبكة العنكبوتية لولدهم بحسب جنسه.
- معرفة أهمية الشبكة العنكبوتية في

التطوير الأكاديمي لدى أفراد متعلمي المرحلة الثانوية.

مشكلة الدراسة:

ساهمت تكنولوجيا المعلومات والاتصال الرقمية بتطوير نطاق المعرفة والبحث العلمي لدى مختلف الفئات، كما ساعدت على ربط التواصل بين الشعوب بمختلف توجهاتها الحضارية، متجاوزة بذلك الحدود السياسية والجغرافية، والعزلة الحضارية التي كانت تعيشها معظم المجتمعات البشرية، إذ يشهد عالمنا المعاصر تحولات كبيرة في تكنولوجيا الاتصال، تؤثر في مختلف العلاقات بين الأفراد ضمن المجتمع الواحد، وفي أنماط التفكير في المجتمعات المختلفة، وقد قامت شبكات التواصل ومختلف المواقع ومحركات البحث بدور فاعل في مد الإنسان بكثير من المعلومات والمواقف والاتجاهات، مساهمةً بذلك في تشكيل وعيه وبإعداده ليكون أكثر قدرة على التأثير في الآخرين واستمالتهم، فهي تقدم تعلم اللغات وتسهم في ترجمة المعلومات من اللغة العربية وإليها، من أجل تسهيل عملية التواصل بين الشباب وازالة الفوارق الحضارية، فضلاً عن تميز هذه الشبكات بعدة مميزات منها التشاركية والتفاعلية والحضور الدائم.

ولا يخفى على أحد التزايد المتسارع في أعداد المشتركين في الشبكات الرقمية ولا سيما الشباب والمراهقين الذين يتلهفون نحو كل ما هو جديد، وخاصةً تلامذة المرحلة الثانوية حيث أنهم يمرون في مرحلة عمرية (١٤ – ١٧) تتوق إلى كل ما هو جديد ومستحدث، وقد أدى تزايد عدد المشتركين في تلك الشبكات إلى تصاعد تأثيرها ودورها في حياة الفرد من تلامذة المرحلة الثانوية، انطلاقًا من تأثيرات الشبكة العنكبوتية في حياة المتعلم وتفاعلها في بناء شخصيته وتحديد توجهاته، إلى أي مدى استطاعت الشبكة العنكبوتية التأُثير في بناء شخصية وثقافة متعلمي المرحلة الثانوية وتوجهاتهم القيمية؟

ويتفرع من هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

– هل يستفيد متعملو المرحلة الثانوية من الشبكة العنكبوتية في تطوير قدراتهم التعلمية؟

– ما مدى تأثير جنس التلميذ على آلية متابعة أهله لتصفحاته الالكترونية؟

– ما مدى تأثير الشبكة العنكبوتية في ثقافة متعلمي المرحلة الثانوية ومنظومتهم القيمية؟

فرضيات الدراسة:

من خلال التعمق في سلوك متعلمي المرحلة الثانوية، وارتباطهم بالشبكة العنكبوتية فإن الدراسة تسعى للإجابة على الفرضيات الآتية:

– يوجد علاقة بين مدة مكوث متعلمي

المرحلة الثانوية على الشبكة العنكبوتية وبين نتائج جهودهم الأكاديمية.

– يؤثر جنس التلميذ على مدى تقبل أهله لنشاطاته على الانترنت وعلى تعاطي الطرفين مع المسألة.

– للانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي تأثير سلبي سيء على المراهقين والقيم التي يتحلون بها.

منهج الدراسة:

إن مرحلة تعيين المنهج تأتي في مقدمة الإجراءات المنهجية، وتحديده يرتبط بنوع البحث وطبيعته والأبعاد التي يهتم بها والأهداف المقصودة منه، وقد تتعدد الطرق العلمية التي يستخدمها الباحث في تناول إشكالية بحث، ولكن يبقى منهجًا محددًا يطغى بصورة عامة، وقد تمثل في هذه الدراسة بالمنهج الوصفي التحليلي، حيث وصْف وتحليل نتائج أجوبة الاستبيان المعتمد مع متعلمي المرحلة الثانوية، وإيجاد العلاقات المتبادلة بين مختلف العناصر التي تشكل جوهر كل فرضية على حدة وذلك ضمن الأسلوب الكمي الذي يرتكز على الأرقام والنسب المئوية، بهدف الحكم على صحة الفرضية من عدمها ضمن نطاق موضوعي وعلمي ممنهج.

حدود الدراسة ومجالاتها:

إنّ البحث العلمي يتطلب أسس منهجية يعتمدها الباحث خلال مشوار بحثه حتى تكوّن له قاعدة أساسية في عملية الانطلاق للبحث والدراسة، وتشكل المرشد الذي يتبناه حتى تكون دراسته ذات أبعاد ودقة علمية، لذا،لا بدّ ومع تحديد المنهجية والإطار النظري من تعيين حدود الدراسة ومجالاتها، أما من حيث تنظيم عمل البحث فجاءت حدوده كالآتي:

– **حدود بشرية:** تكونت عينة البحث من ٦٠ تلميذًا ضمن المرحلة الثانوية وهذه المجموعة تتراوح أعمارها ما بين ١٤ و١٧ سنة، موزعين بشكل متساوٍ ما بين ٣٠ تلميذًا من الذكور و٣٠ تلميذًا من الإناث، وضمن تتبع منتظم في مختلف صفوف المرحلة الثانوية حيث ٢٠ تلميذًا في الصف الأول ثانوي و٢٠ تلميذًا في الصف الثاني ثانوي و٢٠ تلميذًا في الصف الثالث ثانوي.

– **حدود زمانية:** مع بداية العام الدراسي ٢٠١٨–٢٠١٩ تم بدء العمل، خاصة بما يرتبط ببناء الجانب النظري، ومع شهر شباط من العام ٢٠١٩ بدأت عملية جمع البيانات من تلامذة عينة البحث، وما يرافق هذه المرحلة من فرز وتصنيف وتحليل إحصائي لمختلف معطيات الاستمارة، وقد أنجز العمل خلال شهر تموز من العام ٢٠١٩.

– **حدود مكانية:** تشكل منطقة الغازية في محافظة الجنوب اللبناني ضمن قضاء صيدا، النطاق الجغرافي لعمل البحث.

مفاهيم الدراسة:

الشبكة العنكبوتية: عبارة عن شبكة ضخمة من أجهزة الحاسب الآلي المرتبطة ببعضها البعض المنتشرة حول العالم. وتعمل على تقديم العديد من خدمات المعلومات لمختلف فئات المجتمع وقد عزز استخدام الشبكة العنكبوتية العالمية (WWW) من تطوير المعرفة وتعزيز التواصل وتقديم مختلف الخدمات في المجالات المتعددة (كاتب، ٢٠٠٠، ص. ٩)

ومن الناحية الإجرائية يُقصد بها مختلف المواقع الالكترونية من تواصل ومعرفة وتخصصات محددة بما تقدمه من مادة معرفية يطلع ويتفاعل معها التلميذ في المرحلة الثانوية.

دور الأنترنت: تجدر الإشارة إلى أن الدور له استخدامات مختلفة: منها الدور التربوي، فقد يقصد به مجموعة الأنماط السلوكية التي يتخذها الفرد أو المؤسسة التربوية تجاه موقف ما، وفي إطار نسق اجتماعي محدد، وقد يقصد به المظهر الدينامي للمكانة، فالسير على الحقوق والواجبات معناه القيام بالدور على اعتبار أن المكانة هي مجموعة الحقوق والواجبات، (عطا، ١٩٩٠، ص. ٣٦).

ويقصد به إجرائيًا: مجموعة المهام والوظائف والأساليب التي توفرها في حياة التلميذ الثانوي بما يؤثر على سلوكه وتصرفاته وعلاقاته في مختلف ظروف حياته اليومية.

مواقع التواصل الاجتماعي: منظومة من الشبكات الإلكترونية، التي تسمح للمشترك فيها بإنشاء مواقع خاصة به، ومن ثم ربطه من خلال نظام اجتماعيّ إلكترونيّ مع أعضاء آخرين لديهم الاهتمامات والهوايات نفسها، أو مع أصدقاء الجامعة أو الثانوية. (راضي، ٢٠٠٣، ص. ١٨) ومن أبرز مواقع التواصل الاجتماعي نجد: فايس بوك، تويتر، انستغرام، واتساب.

التحصيل الأكاديمي: مدى استيعاب الطلبة، لما اكتسبوه من خبرات عبر مقررا ت دراسية معينة، تقاس بدرجة يحصل عليها الطالب في الاختبارات التحصيلية المعدة لهذا الغرض. (موسى، ٢٠٠٠، ص. ٣٤)

الاتجاهات الثقافية:

تمثّل الثقافة المعرفة البشرية والاعتقادات والسلوك الفردي الذي يعتمد على قدرة الفرد على التفكير والتعلم الاجتماعي بطريقة سليمة، ضمن مجموعة من الاتجاهات والقيم والأهداف التي تميّز فئة محددة في المجتمع عن غيرها من الفئات. (عيسى، ٢٠١٦، ص. ١٧)

ومن الناحية الإجرائية فالاتجاهات الثقافية تمثل ميول ورؤية وتفاعل تلامذة المرحلة الثانوية مع المواقف المختلفة التي تواجههم في حياتهم اليومية، بحسب القيم التي يعتقدون بها ضمن سلوك وتصرف في علاقاتهم اليومية.

الدراسات السابقة:

هناك عدة دراسات تطرقت لأثر استخدام الشبكة العنكبوتية في حياة الشباب وتأثيره في بناء شخصية الفرد وتقدمه المهني والتعلمي، ومنها ما درس تأثير الشبكة في تطور علاقات الفرد الاجتماعية وحياته المهنية، وبعض الدراسات تناولت جانبًا محددًا في الشبكة العنكبوتية كمواقع التواصل الاجتماعي حصرًا، وهذه الدراسات خرجت بنتائج مهمة تفيد أغراض الدراسة الحالية، وإن كانت مشابهة لها بصورة عامة.

وفيما يلي عرض موجز لبعض الدراسات التي تناولت موضوع الدراسة:

دراسات عربية:

- دراسة (العوض، ٢٠٠٤) بعنوان: «دور استخدام شبكة الانترنت في التحصيل الدارسي لدى طلاب جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية» وتمثلت مشكلة الدراسة بالإجابة على السؤال الرئيسي التالي:

ما دور استخدام شبكة الانترنت بالتحصيل الدراسي لدى طلاب جامعة نايف؟ وشمل مجتمع الدراسة جميع طلاب الماجستير والدكتوراه في السنة الأولى والثانية بكلية الدراسات العليا بجامعة نايف، مع اختلاف تخصصاتهم وأقسامهم، وتم استخدام أسلوب المسح الشامل لجميع طلبة الماجستير والدكتوراه بكلية الدراسات العليا، وتم توزيع ٣٧٠ استبانة، بنسبة ٤٦٪ من المجتمع الأصلي، ومع استخدام برنامج التحليل الإحصائي في العلوم الاجتماعية SPSS توصل الباحث إلى النتائج الآتي:

أ - لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في أثر استخدام شبكات الانترنت في التحصيل الدراسي لدى طلاب جامعة نايف تعزى لمتغير المؤهل العلمي.

ب - توجد فروق ذات دلالة إحصائية في أثر استخدام شبكات الانترنت في التحصيل الدراسي لدى طلبة جامعة نايف تعزى لتغير مستوى الخبرة في التعامل مع شبكة الانترنت.

- دراسة (ليث، ٢٠١١) بعنوان: أثر استخدام شبكات التواصل الاجتماعي «الفيس بوك» على تقدير الذات لدى الشباب في محافظة طولكرم «وتناول الباحث مشكلة الدراسة التي تحددت بالسؤال الرئيس التالي: ما أثر استخدام شبكات

التواصل الاجتماعي «الفيس بوك» على تقدير الذات لدى الشباب في محافظة طولكرم؟ وقد تكون مجتمع الدراسة من جميع مستخدمي «الفيس بوك» في محافظة طولكرم، ويقدر عددهم بـ ١٥٥٨٨ مستخدم وقد أجريت الدراسة على عينة مكونة من ١٠٠ مستخدم ومستخدمة، لمواقع التواصل الاجتماعي «الفيس بوك»، أي بنسبة ٠,٦٤٪ من مجتمع الد راسة، وقد استخدم المنهج الوصفيّ التحليلي، وتم تصميم استبانة تتكون من ٢٠ فقرة، وتم جمع الاستبانات، ثم ترميزها، وإدخالها الحاسوب، ومعالجتها إحصائيا باستخدام برنامج الرزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية spss ومن النتائج التي توصلت إليها دراسة «ليث»:

أ – لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجة أثر استخدام «الفيس بوك» على تقدير الذات لدى الشباب في محافظة طولكرم تعزى لمتغير السن.

ب – لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجة أثر استخدام «الفيس بوك» على تقدير الذات لدى الشباب في محافظة طولكرم تعزى لمتغير المؤهل العلمي.

دراسات أجنبية:

– دراسة «أرين كارنسكي» (Karbiniski, 2010) وهدفت الدراسة للتعرف إلى أثر استخدام موقع «فايس بوك» على التحصيل الدراسي لدى طلبة الجامعات، وقد طبقت الدراسة على ٢١٩ طالبًا جامعيًا في نيويورك، حيث أظهرت النتائج أن الدرجات التي يحصل عليها طلاب الجامعات المدمنون على شبكة الانترنت وتصفح موقع «فيس بوك» أكبر الشبكات الاجتماعية على الإنترنت أدنى بكثير من تلك التي يحصل عليها نظراؤهم الذين لا يستخدمون هذا الموقع، كما أظهرت النتائج أنه كلما ازداد الوقت الذي يمضيه الطالب الجامعي في تصفح هذا الموقع كلما تدنت درجاته في الامتحانات.

كما بينت النتائج أن الأشخاص الذين يقضون وقتًا أطول على الانترنت يخصصون وقتًا أقصر للدراسة مشيرًا إلى أن لكل جيل اهتمامات تجذبه، وأن هذا الموقع يتيح للمستخدم الدردشة وإبداء رأيه في كثير من الأمور والبحث عن أصدقاء جدد أو قدامى ، وبينت النتائج أن (٧٩٪) من الطلاب الجامعيين الذين شملتهم الدراسة اعترفوا بأن إدمانهم على موقع «الفيس بوك» أثرّ سلبًا على تحصيلهم الدراسي.

– دراسة «ميشيل فانسون (Vansoon, 2010) وقد هدفت للتعرف على أثر استخدام شبكات التواصل الاجتماعي على العلاقات الاجتماعية، وقد طبقت الدراسة على عينة بلغ قوامها ١٦٠٠ شاب من

مستخدمي شبكات التوصل الاجتماعي في بريطانيا، وأظهرت النتائج أنَّ أكثر من نصف الأشخاص البالغين الذين يستخدمون مواقع من بينها الفيس بوك ويوتيوب قد اعترفوا بأنهم يقضون وقتًا أطول على شبكة الإنترنت من ذلك الوقت الذي يقْضُونه مع أصدقائهم الحقيقيين أو مع أفراد أسرهم.

وأظهرت الدراسة أيضا أنهم يتحدثون بصورة أقل عبر الهاتف، ولا يشاهدون التلفاز كثيرًا، ويلعبون عددًا أقل من ألعاب الكمبيوتر، وبينت الدراسة ،من خلال (٥٣٪) من الذين شاركوا في الدراسة المسحية، بأن شبكات التواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت تسببت بالفعل في تغيير أنماط حياتهم.

– دراسة «لورداش دراغوس» (lordache,2013) هدفت الدراسة إلى استكشاف استخدام مواقع شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل المفاهيم السياسية والرأي العام لشباب الجامعات في رومانيا، وتم التوصل إلى النتائج التالية:

– أظهرت التحليلات أن أكثر شبكات التواصل الاجتماعي التي يحرص طلاب الجامعات الرومانية على استخدامها هي الفيس بوك ثم اليوتيوب.

– ظهرت علاقة ارتباط موجبة بين استخدام مواقع التواصل الاجتماعي والمشاركة السياسية وتوجيه الرأي العام الطلابي نحو قضايا الشأن العام في رومانيا.

الإطار الميداني التطبيقي:

أولًا: هوية أفراد العينة

جدول ١: توزع تلامذة عينة البحث حسب الجنس.

الجنس	التكرار	النسبة ٪
ذكر	٣٠	٥٠٪
أنثى	٣٠	٥٠٪
المجموع	٦٠	١٠٠٪

يظهر لنا الجدول رقم (١) أن عينة البحث مناصفة بين الذكور والإناث، فنجد أن ٥٠٪ من عينة البحث هم من التلاميذ الذكور البالغ عددهم ٣٠ تلميذًا، و٥٠٪ منهم من الإناث، وهنا تجدر الإشارة إلى أن العينة عمدية حيث تم توزيع الاستمارة على أساس المناصفة في الجنس.

جدول ٢: توزع تلامذة عينة البحث حسب الصف الدراسي.

الصف الدراسي	التكرار	النسبة ٪
الأول الثانوي	٢٠	٣٣,٣٪
الثاني الثانوي	٢٠	٣٣,٣٪
الثالث الثانوي	٢٠	٣٣,٣٪
المجموع	٦٠	١٠٠٪

يعكس لنا الجدول رقم (٢) تناسب

تلامذة عينة البحث على مختلف الحلقة الثانية من التعليم الثانوي، حيث ٣٣,٣٪ منهم ضمن الصف الأول ثانوي والبالغ عددهم ٢٠ تلميذًا، و٣٣,٣٪ في الصف الثاني ثانوي و٣٣,٣٪ في الصف الثالث ثانوي.

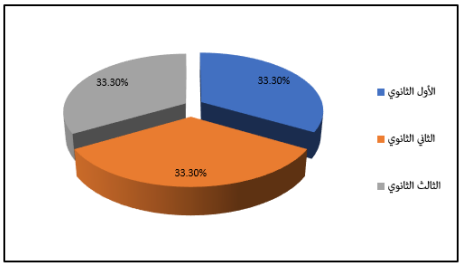

رسم توضيحي ١: توزع تلامذة عينة البحث حسب الصف الدراسي.

ثانيًا: تحليل تساؤلات البحث

- **الفرضية الأولى:**

– يوجد علاقة بين مدة مكوث متعلمي المرحلة الثانوية على الشبكة العنكبوتية وبين نتائج جهودهم الأكاديمية.

توزع تلامذة عينة البحث حسب ساعات استخدام النت ومعدلاتهم الوسطية.

جدول ٣: توزع تلامذة عينة البحث حسب ساعات استخدام النت ومعدلاتهم الوسطية.

يظهر الجدول رقم (٣) تفاوت نسب التلامذة استنادًا إلى معدلاتهم الوسطية بالنسبة إلى عدد الساعات التي يقضونها على الانترنت.

المعدل الوسطي / ساعات استخدام النت	أقل من ١٣		أكثر من ١٣		المجموع	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
أقل من ٤ ساعات	٧	٪ ٢٠,٠٠	١٤	٪ ٥٦,٠٠	٢٢	٪ ٣٦,٦٧
٨٤ ساعات	١٠	٪ ٢٨,٥٧	٦	٪ ٢٤,٠٠	١٦	٪ ٢٦,٦٦
أكثر من ٨ ساعات	١٨	٪ ٥١,٤٣	٥	٪ ٢٠,٠٠	٢٢	٪ ٣٦,٦٧

إن عينة البحث العمدية تم توزيعها بشكلٍ متساوٍ على صفوف الحلقة الثانوية وذلك لتنوع البرامج التعليمية التي يخضع لها التلاميذ، مما يساعد على التعرف على واقع الحلقة الثانوية بشكل عام، كما يساعد ذلك على الربط بين أكثر من متغير ضمن الجداول المركبة، كما سيظهر في النقاط التالية.

نلاحظ أن العدد الأكبر من التلامذة ذوي المعدلات المتدنية (٥١,٤٣ ٪ منهم) يقضون أكثر من ثماني ساعات على الانترنت ومواقع التواصل. بينما التلامذة ذوو المعدلات الأعلى فيقضون بمعظمهم (٥٦,٠٠ ٪) أقل من ٤ ساعات على الانترنت ومواقع التواصل.

من خلال المقارنة، فإننا نرى فروقات

واضحة بين عدد الساعات التي يقضيها أصحاب المعدلات المتدنية وتلك التي يقضيها أصحاب المعدلات الأعلى.

فهل هناك علاقة بين عدد الساعات التي يقضيها المراهق على الانترنت ومواقع التواصل ومستوى تحصيله العلمي؟

من حيث دراسة العلاقة والارتباط بين عدد ساعات استخدام الانترنت ومعدل علامات المراهق الوسطي، تمت الاستفادة من درجة الدلالة (p value) ومن الرائز الإحصائي كاي – تربيع (chi-squared) والمعادلة على الشكل التالي:

$$x^2 = \sum \frac{(e_0 - e_t)^2}{et}$$

شرح المعادلة: إن e_0 عبارة عن التكرار المشاهد وهو عبارة عن الرقم الحقيقي الذي يظهره الجدول مثل (١٠، ٨، ٥،...). وe_t وعبارة عن التكرار المتوقع لكل واحدة من التكرارات المشاهدة، وهي عبارة عن: (المجموع الأفقي)(*) (المجموع العامودي) / (المجموع الكلي الذي يبلغ ٦٠).

بعد تطبيق المعادلة، نحتسب درجة الحرية df وهي: (مجموع الأعمدة –١)(*) (مجموع الصفوف – ١).

ثم نقارن بين القيمة المحتسبة لكاي–تربيع وفق المعادلة، ونقارنها بالقيمة النظرية وفق جدول كاي–تربيع عند مستوى المعنوية وذلك بحسب درجة الحرية df المحتسبة.

بعد ذلك ننطلق من فرضية العدم H_0 حيث لا توجد علاقة بين عدد الساعات التي يقضيها المراهق على النت ومواقع التواصل وتحصيله الدراسي. والفرضية البديلة H_1 حيث توجد علاقة بين عدد الساعات التي يقضيها المراهق على النت ومواقع التواصل وتحصيله الدراسي.

ففي حال كانت القيمة المحتسبة لكاي–تربيع وفق المعادلة X^2 أكبر من قيمة كاي الجدولية عند مستوى المعنوية وبحسب درجة الحرية df عندها نرفض فرضية العدم H_0 ونأخذ بالفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين ساعات استخدام النت ومستوى التحصيل العلمي للمراهق. وفي حال كانت القيمة المحتسبة لكاي–تربيع وفق معادلة X^2 أصغر من قيمة كاي–تربيع الجدولية عند مستوى المعنوية وبحسب درجة الحرية df عندها نقبل فرضية العدم H_0 التي تنفي وجود علاقة بين ساعات استخدام النت ومستوى التحصيل العلمي لدى المراهق ونرفض الفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين ساعات استخدام النت ومستوى التحصيل العلمي لدى المراهق.

أما باستخدام البرنامج الإحصائي Vassarstats فإننا نحصل على درجة الدلالة p value والتي سوف يتم الاستفادة منها في بحثنا لتحديد إن كان هناك علاقة وتأثير أم لا. وتتم الاستفادة منها على الشكل التالي: إذا كانت درجة الدلالة أكبر من ٠,٠٥ عندها نقبل بفرضية العدم H_0 التي تقول بعدم وجود علاقة بين المتغيرين، وإذا كانت أصغر من ٠,٠٥ عندها نرفض فرضية العدم H_0 ونقبل بالفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين المتغيرين.

بعد معرفة وجود تأثير أو عدمه، يبقى لنا أن نعرف نسبة هذا التأثير، وهنا يجب الاعتماد على معادلة كرامر (V cramer) وهي على الشكل التالي:

$$\sqrt{\frac{x^2}{N(K-1)}}$$

شرح المعادلة: X^2 هي نتيجة معادلة كاي-تربيع المحتسبة. وN عبارة عن المجموع العام الكلي أما k فهي العدد الأصغر في الصفوف أو الأعمدة.

بعد ذلك نعرض نتيجة القيمة المحصلة لـ V على الجدول التالي:

جدول ٤: قيمة دلالة الارتباط ودرجة تأثيرها.

قيمة دلالة الارتباط لـ V	درجة تأثيرها
٠,٠١ _ ٠,٠٦	لا يوجد علاقة
٠,٠٦ _ ٠,١١	علاقة ضعيفة جدًا
٠,١١ _ ٠,١٥	علاقة متوسطة
٠,١٥ _ ٠,٢٥	علاقة قوية
٠,٢٥ وما فوق	علاقة قوية جدًا

المصدر: كفروني، يوسف: «البحث الكمي في العلوم الاجتماعية»، المركز العربي للأبحاث، بيروت، ٢٠١١، ص: ٩٣.

بالعودة إلى الجدول رقم (٣)، فإن درجة الدلالة (p value) تساوي ٠,٠١ < ٠,٠٥ وبالتالي فإننا نأخذ بالفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين متغير عدد ساعات استخدام النت ومواقع التواصل والمعدل الوسطي للتلميذ.

أما نسبة هذا التأثير فإننا نجد: V = 0.39 وبالعودة إلى جدول قيمة دلالة الارتباط لـ V ودرجة تأثيرها فإننا نجد تأثيرًا قويًا جدًا لعدد الساعات التي يقضيها التلميذ على النت ومواقع التواصل على معدله الوسطي.

- **الفرضية الثانية:**

يؤثر جنس التلميذ على مدى تقبل أهله لنشاطاته على الانترنت وعلى تعاطي الطرفين مع المسألة.

توزع تلامذة عينة البحث حسب موقف الأهل من استخدام أبنائهم للنت ومواقع التواصل.

جدول ٥: توزع تلامذة عينة البحث حسب موقف الأهل من استخدام أبنائهم للنت ومواقع التواصل.

يظهر الجدول رقم (٥) تفاوت مواقف الأهل من استخدام أبنائهم للانترنت ومواقع التواصل بحسب الجنس.

الجنس	ذكر		أنثى	
موقف الأهل	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
موافق	١٦	٪ ٥٣,٣٣	١٠	٪ ٣٣,٣٣
معارض	٥	٪ ١٦,٦٧	١٤	٪ ٤٦,٦٧
محايد	٩	٪ ٣٠,٠٠	٦	٪ ٢٠,٠٠

نلاحظ أن معظم الذكور (٥٣,٣٣٪) يحظون بموافقة أهلهم على استخدام الانترنت وجزء قليل منهم (١٦,٦٧ ٪) يُقابلون بالرفض.

بينما نرى أن القسم الأكبر من الإناث (٤٦,٦٧ ٪) يعارض أهلهن استخدامهن للانترنت ومواقع التواصل.

فهل هناك علاقة بين جنس المراهق وتقبل أهله لاستخدامه الشبكة العنكبوتية؟

بالعودة إلى الجدول رقم (٥)، فإن درجة الدلالة (p value) تساوي ٠,٠٤٣٩ < ٠,٠٥ وبالتالي فإننا نأخذ بالفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين جنس المراهق وتقبل أهله لاستخدامه الشبكة العنكبوتية.

أما نسبة هذا التأثير فإننا نجد: V = 0.32 وبالعودة إلى جدول قيمة دلالة الارتباط لـ V ودرجة تأثيرها فإننا نجد تأثيرًا قويًا جدًا لجنس المراهق على قبول أهله لاستخدامه الانترنت ومواقع التواصل.

توزع تلامذة عينة البحث حسب معرفة الأهل بمتابعات التلميذ الإلكترونية.

جدول ٦: توزع تلامذة عينة البحث حسب معرفة الأهل بمتابعات التلميذ الإلكترونية.

يظهر الجدول رقم (٦) تفاوت نسب

الجنس	ذكر		أنثى		المجموع	
يعلم الأهل	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة
نعم	١٢	٪ ٤٠	٢٥	٪ ٨٣,٣	٣٧	٪ ٦١,٦٧
كلا	١٨	٪ ٦٠	٥	٪ ١٦,٦٧	٢٣	٪ ٣٨,٣٣

معرفة الأهل بمتابعات أبنائهم الاكترونية حسب جنس الأبناء.

نلاحظ أن غالبية الذكور (٦٠,٠٠ ٪) لا يعلم أهلهم بمتابعاتهم الالكترونية بينما القسم الأكبر من الإناث (٨٣,٣٣ ٪) يعلم أهلهن بمتابعاتهن الانترنت.

فهل هناك علاقة بين جنس المراهق واهتمام أهله بمعرفة متابعاته الالكترونية؟

بالعودة إلى الجدول رقم (٦)، فإن درجة الدلالة (p value) تساوي ٠,٠٠١٤ < ٠,٠٥ وبالتالي فإننا نأخذ بالفرضية البديلة H_1 التي تقول بوجود علاقة بين جنس المراهق ومعرفة أهله بمتابعاته الإلكترونية.

أما نسبة هذا التأثير فإننا نجد: V = 0.44 وبالعودة إلى جدول قيمة دلالة الارتباط لـ V ودرجة تأثيرها فإننا نجد تأثيرًا قويًا جدًا لجنس المراهق على معرفة أهله لمتابعاته الالكترونية، حيث أن متابعات الذكور بمعظمهم غير معروفة لدى أهلهم، أما بالنسبة إلى الإناث، فأغلبهن يعرف أهلهن بمتابعاتهن الالكترونية.

وعدم معرفة الأهل بمتابعات أبنائهم تعود إلى سببين: إما عدم رغبة الأبناء أن يعرف أهلهم متابعاتهم الالكترونية، وإما عدم اهتمام الأهل أنفسهم بما يتابعه أبناؤهم.

- **الفرضية الثالثة:**

للانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي تأثير سلبي سيء على المراهقين والقيم التي يتحلون بها.

٧ – توزع تلامذة عينة البحث حسب تأثير الانترنت في بناء شخصيتهم

جدول ٧: توزع تلامذة عينة البحث حسب تأثير النت في بناء شخصيتهم.

استخدام النت ينقل للتلميذ قيمًا اجتماعية تؤثر في بناء شخصيته	التكرار	النسبة ٪
موافق	٤٣	٧٦,٦٧ ٪
غير موافق	١٧	٢٣,٣٣ ٪

الجدول رقم (٧): إن النسبة الأكبر من التلامذة (٧١,٦٧٪) يرون أن استخدام الانترنت ينقل للتلميذ قيمًا اجتماعية تؤثر في بناء شخصيته، بينما ٢٨,٣٣ ٪ فقط يرون العكس.

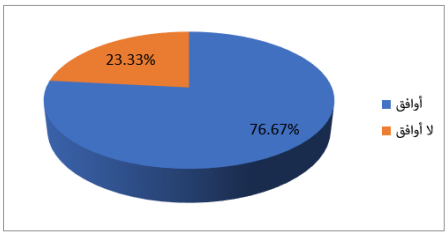

رسم توضيحي ٢: توزع تلامذة عينة البحث حسب اعتقادهم بمدى تأثير القيم المأخوذة من النت في بناء شخصيتهم.

لذا فمن الواضح أن الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي تؤثر في بناء شخصية

المراهقين عبر جملة من القيم التي تنقلها إليهم.

توزع تلامذة عينة البحث تأثير الانترنت فيهم.

جدول ٨: توزع تلامذة عينة البحث حسب تأثير الانترنت فيهم.

الانترنت ومواقع التواصل تؤثر في التلميذ	التكرار	نسبة التلاميذ
تأثيرًا سلبيًا	٢٧	٪ ٤٥,٠٠
تأثيرًا إيجابيًا	١٩	٪ ٣١,٦٧
لا تؤثر	١٤	٪ ٢٣,٣٣

يظهر الجدول رقم (٨) أن نسبة التأثير السلبي للانترنت ومواقع التواصل هي النسبة الأعلى (٤٥,٠٠ ٪) حيث تفوق نسبة التأثير الإيجابي (٣١,٦٧ ٪) ونسبة عدم التأثير (٢٣,٣٣٪).

توزع تلامذة عينة البحث حسب اللغة المستخدمة في الكتابة.

جدول ٩: توزع تلامذة عينة البحث حسب اللغة المستخدمة في الكتابة.

اللغة المعتمدة في الكتابة	التكرار	نسبة التلاميذ
اللغة العربية	٥	٪ ٨,٣٣
لغة النت	٥٥	٪ ٩١,٦٧

يظهر الجدول رقم (٩) أن نسبة كبيرة جدًا من التلاميذ (٩١,٦٧٪) يستخدمون لغة النت في الكتابة بينما (٨,٣٣٪) منهم فقط يستخدمون اللغة العربية.

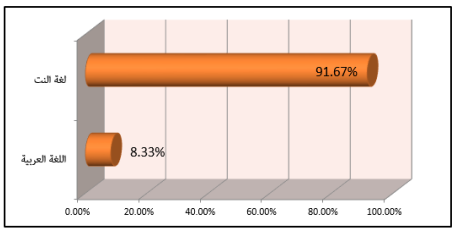

رسم توضيحي ٣: توزع تلامذة عينة البحث حسب اللغة المستخدمة في الكتابة.

نستنتج من هذا أن الانترنت قد ساهم بشكل كبير في تخلي المراهقين عن لغتهم العربية ولجوئهم لاستعمال اللغة الالكترونية ما يشير بوضوح إلى مدى تأثير الشبكة العنكبوتية عليهم.

توزع تلامذة عينة البحث حسب تأثير الانترنت في تخطي حدودهم الأخلاقية

جدول ١٠: توزع تلامذة عينة البحث حسب تأثير الانترنت في تخطي حدودهم الأخلاقية.

المتابعات على المواقع الالكترونية ومواقع التواصل تؤثر في تخطي الحدود الدينية	التكرار	النسبة
دائمًا	١٤	٪ ٢٣,٣٣
غالبًا	٢٩	٪ ٤٨,٣٤
نادرًا	١١	٪ ١٨,٣٣
أبدًا	٦	٪ ١٠,٠٠

كما ويظهر الجدول رقم (١٠) أن متابعة المراهقين للمواقع الالكترونية تؤدي غالبًا

إلى تخطي الحدود الأخلاقية، فنجد أن ٢٣,٣٪ يتخطون حدودهم بشكل دائم، مقابل ٤٨,٣٪ غالبًا ما يتخطون حدودهم الأخلاقية، وهذا إن دل شي فهو يدل على مدى تشكيل شبكة التواصل مسرحًا واسعًا ومساعدًا في تخطي الفرد للحدود التي قيد ويتقيد بها في حياته الواقعية وبالتالي يجد المنفذ في الشبكة العنكبوتية.

ثالثًا: خلاصة واستنتاجات

من خلال القراءة التحليلية لأسئلة الاستمارة وما تعكسه المعطيات الميدانية وبعد تحديد العينة العمرية المتمثلة بتوزيع الاستمارة على مختلف صفوف المرحلة الثانوية وبشكل متساوٍ (٢٠ استمارة للصف الأول ثانوي و٢٠ للصف الثاني ثانوي و٢٠ للصف الثالث ثانوي)، وبالمناصفة بين التلاميذ الذكور والإناث (٣٠ استمارة لكل منهما)، تبين أن للانترنت ومواقع التواصل تأثيرًا كبيرًا على التحصيل العلمي للمراهق حيث أنه استنادًا إلى الجدول رقم (٣) تظهر علاقة عكسية بين المدة التي يقضيها المراهق على الشبكة العنكبوتية ومعدل علاماته الوسطي إذ ينخفض المعدل مع ارتفاع عدد الساعات.

كما يظهر بوضوح أن تعاطي الأهل مع مسألة الانترنت في حياة أبنائهم يختلف بين جنس وآخر إذ أن معظم الأهل يوافقون على استخدام أبنائهم الذكور للشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل ولا يعلمون بكامل متابعات أبنائهم الذكور بينما يختلف الأمر عند الإناث حيث يرفض معظم أهلهن استخدامهن للانترنت، (الجدول رقم ٥ والجدول رقم ٦)، وقد اتضحت العلاقة القوية جدًا في تأثير جنس التلميذ على رأي أهله اتجاه استخدامه للشبكة العنكبوتية.

ومن جهة أخرى، فقد تبين استنادًا إلى تحليل مجموعة أسئلة من الاستمارة مرتبطة بثقافة المراهق الالكترونية والقيم التي يتلقاها، أن للانترنت تأثيرًا سلبيًا على المراهق يدفعه في المرتبة الأولى إلى تخطي الحدود الأخلاقية (الجدول رقم ١٠) وإلى التحرر من لغته العربية مفضلا الاستعاضة عنها بلغة بديلة تُجاري الثقافة الاكترونية (الجدول رقم ٩)، وإلى تلقي مجموعة قيم مغايرة لقيم المجتمع الأصلي الذي يعيشون فيه.

رابعًا: خاتمة وتوصيات

بعد التعرف على مختلف متابعات التلميذ في المرحلة الثانوية، وآلية متابعته للشبكة العنكبوتية من خلال الاستبيان المكون من ٢٧ سؤالاً يطال عدة محاور في حياة التلميذ، ومن خلال تحليل المعطيات وتأكيد فرضيات البحث، لا بدّ من التأكيد على التوصيات الآتية:

١. تنظيم الوقت بين الدراسة والحياة الاجتماعية والانترنت بحيث لا تكون متابعات النت على حساب التحصيل الأكاديمي.

٢. ضرورة الترشيد، والاستخدام المعتدل لشبكة الإنترنت من قِبَل الأطفال والشباب، بهدف تحقيق أغراض محدَّدة وواضحة.

٣. الحذر من الدخول إلى مواقع خطيرة، أو غير ملائمة لمرحلتهم العمرية، وفي ذلك استدراج لهم وتحطيم لقيمهم الأخلاقية.

٤. السعي إلى تكوين صداقات واقعية بدل صداقات الانترنت الوهمية.

٥. الانخراط في الأعمال الاجتماعية التطوعية في المجتمع لتحقيق أنفسهم والإحساس بذواتهم.

٦. وضع الأجهزة المحمولة والاتصال عبر الانترنت في مكان مشترك لجميع أفراد الأسرة.

٧. دعوة الجهات الرسمية والمختصة للقيام بدور فعال في التوعية من مخاطر الاستخدام السيء لشبكة الانترنت.

لائحة المراجع:

مراجع اللغة العربية:

- العوض، وليد بن محمد. (٢٠٠٤). دور استخدام شبكة الأنترنت في التحصيل الدراسي، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة نايف للعلوم الأمنية، العلوم الاجتماعية، الرياض. المملكة العربية السعودية.
- راضي، زاهر. (٢٠٠٣). استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي. *مجلة التربية*، ١٣، ١٢-٢٩.
- عطا، محمد ابراهيم. (١٩٩٠). *طرق تدريس التربية الاسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة.*
- عيسى، حنا. (أيار، ٢٠١٦). الثقافة عقائد وقيم رقي المجتمعات. *مجلة دنيا الوطن، ٤٤، الصفحات ١٢-٣٩.*
- كاتب، صالح. (٢٠٠٠). *الانترنت المرجع الكامل. عمان: دار الفردوس.*
- ليث، واوي. (٢٠١١). أثر استخدام الفيس بوك على تقدير الذات لدى الشباب في محافظة طولكرم، (رسالة غير منشورة)، كلية التنمية الاجتماعية والاسرية، جامعة القدس المفتوحة، طولكرم. فلسطين.
- موسى، عطا. (١٩٩٩-٢٠٠٠). أثر استخدام المنحنى البيئي على التحصيل الآتي والمؤجل لدى طلبة صف التاسع، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس. فلسطين.

مراجع اللغة الأجنبية:

Aren, Karbiniski. (2010) *Facebook and the technology revolution.* N,Y: Spectrum Publications.

lordache, Dragos. (2013). *Exploring the Usage of Social Networking Websites: Perceptions and Public Opinions of Romanian University Students.* Romania: Natraj Publishers.

Vansoon, Mecheel. (2010). *Facebook and the invasion of technological communities.* New yurk: United Nations Educational.

بلاد الشام إبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ -١٩١٨

د. رمضان أحمد العمر

تمهيد

لا بدّ من القول إن المماليك قسم بلاد الشام إلى ست وحدات إدارية، عرفت باسم «نيابات» هي نيابة الشام ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك، وأثناء فتح السلطان سليم لبلاد الشام عام ١٥١٦ أبقى التقسيمات الإدارية فيما على ما كانت عليه في عهد المماليك وكذلك عين جانبردى الغزالي نائبًا على دمشق، ومع محاولة الأخير أن يتمرد على الدولة العثمانية وفشلها، أصدر السلطان سليمان القانوني قرارًا بوضع نظام جديد لإدارة بلاد الشام، حيث عين نواب عثمانيين للنيابات السورية، وإقرار تقسيم إداري لبلاد الشام «التقسم التقليدي والتقسيم الإداري»[(١)]، وبهذا النظام قسمت بلاد الشام إلى ثلاث وحدات إدارية عرفت باسم ولايات «ولاية دمشق ضمت عشرة ألوية، ولاية حلب وضمت تسعة ألوية، ولاية طرابلس وضمت خمسة ألوية»[(٢)].

حدثت تقسيمات أدارية لولاية سورية بين عامي ١٨٦٤ – ١٩١٤، استنادًا لنظام الولايات الذي صدر عام ١٨٦٤ ونظام الولايات العمومية الصادر عام ١٨٧١ قسمت ولاية سورية إلى ألوية «سناجق» والالوية بدورها إلى أقضية والاقضية إلى نواح وقرى ومحلات ومزارع. بعد عام ١٨٦٤ ضمت إلى ولاية سورية وما لبثت أن فصلت مثل ألوية القدس الشريف والوية طرابلس وبيروت وعكا واللاذقية ونابلس، وفي عام ١٩٠٠ كانت التشكيلات الإدارية في لواء الشام تضم قضاء الشام وقضاء بعلبك وقضاء البقاع وقضاء النبك وقضاء

(١) أحمد عزت عبد الكريم، **التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني**، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد رقم ١، ص، ١٢٩ – ١٤١.

(٢) فيلب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٥٩، ص، ٣٠٧-٣٠٩.

دوما وقضاء وادي العجم وقضاء حاصبيا وقضاء راشيا وقضاء الزبداني، أما لواء حماه فضم المنطقة الشمالية من ولاية سورية وحدث فيه أكثر من تغير بين عامي ١٨٦٤ - ١٩١٤، في حين ضم لواء حوران ثمانية أقضية، أما لواء الكرك فضم أربعة أقضية وهي الكرك ومعان والطفلية والسلط[١]. وولاية حلب تضم ثلاثة ألوية هي حلب، أورفة، مرعش، أما ولاية بيروت كانت تضم ٥ ألوية وهي بيروت، عكا، طرابلس، اللاذقية، نابلس، وكانت متصرفية القدس تضم أربعة أقضية يافا، غزة، بئر السبع، خليل الرحمن، ويتبع هذه الاقضية ١١ ناحية و٣٨٤ قرية ومزرعة، أما متصرفية دير الزور أو الزور فهي كانت مستقلة تضم أربعة أقضية هي العين، عشارة، البوكمال، عربان، أما عن متصرفية جبل لبنان فكانت تضم ثمانية أقضية و٤٠ ناحية و٩٣٤ قرية والاقضية هي الشوف، المتن، كسروان، البترون، جزين، الكورة، زحلة، دير القمر[٢].

تطور الوعي القومي في بلاد الشام قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى

بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في المشرق العربي نهضة ثقافية بعد فترة من الركود الفكري وظهرت من خلال ازدياد نشاط البعثات التبشيرية وإنشاء المدارس الحديثة الاهلية والأجنبية، وكذلك انتشرت الطباعة والصحافة، ونشأت عدة جمعيات أدبية وعلمية، ولعب كل من آل البستاني واليازجي وغيرهم كثيرين من ادباء بلاد الشام في احياء حركة التراث العربي[٣].

انتقلت النهضة العربية من حيزها الأدبي إلى حيزها السياسي، واتخذت شكل جمعيات وأحزاب سرية بين الأوساط المثقفة في سورية ولبنان[٤]، أبرزها «الجمعية العلمية السورية في بيروت» عام ١٨٧٥، والتي انضم إليها أكثر من (١٥٠) عضوًا، واشترك فيها بعض الزعماء العرب من مختلف العقائد وكان من أعضاء مجلس ادارتها العالم الدرزي الأمير محمد أرسلان

(١) عبد العزيز محمد عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤**، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر، ص، ٧٠ - ٧٩.

(٢) أحمد طربين، **الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر ١٨٠٠ - ١٩٥٨**، دون طبعة، دون تاريخ، ص، ٦٤٤ - ٦٤٦.

(٣) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠**، دار المعارف بمصر، مكتبة الدراسات التاريخية، بدون تاريخ، ص، ١٥.

(٤) المرجع نفسه، ص، ١٦.

والذي بقي عدة سنوات رئيسًا لها[1].

وتأسّست جمعية بيروت السرية في نفس العام على يد بعض الطلاب في «الكلية السورية البروتستانتية»، ومن مطالبها ما يلي[2]:

١ - الاستقلال التام لسورية.

٢ - والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية.

الأحزاب والتجمعات السياسية التي ظهرت على مسرح السياسة بين عامي ١٩٠٨ -١٩١٤.

ظهرت الأحزاب والتجمعات السياسية كثمرة أساسية من ثمار حركة النهضة العربية التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر من جهة، وكصدى من أصداء التيارات العمالية التي غزت الدولة العثمانية وولاياتها من جهة أخرى، وأبرز تلك الأحزاب والتجمعات هي[3].

١ - جمعية الاخاء العربي العثماني ١٩٠٨: تعتبر أول منظمة سياسية عربية بعد اعلان الدستور، تأسست في إسطنبول عام ١٩٠٨من قبل كبار الموظفين السوريين بالإضافة إلى بعض الملاك، أما أهداف هذه الجمعية فهي كالتالي:

- العمل على المحافظة على القانون الأساسي ووقايته من كل خلل.

- توعية أبناء العرب وسائر العثمانيين على أن الوطن العثماني لا يقبل التجزئة ومقاومة التفرقة.

- تمتين الروابط بين العرب وسائر الاقوام العثمانية.

- التمسك بالعرش العثماني والإخلاص لمقام الخلافة الإسلامية.

- السعي لإعلاء شأن العرب والعربية ضمن الجامعة العامة العثمانية، ومنح أبناء العرب على اختلاف مذاهبهم ما منحتهم المساواة الدستورية من حق إحراز الوظائف والمناصب وغير ذلك من الحقوق المشروعة.

- العمل على نشر المعرفة بين أبناء العرب، من خلال تأسيس المدارس وطبع الكتب والرسائل وكذلك الصحف.

---

(١) جورج أنطونيوس: «**يقظة العرب**»، ترجمة ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧، صفحة ٩٧.

(٢) علي محافظة، **مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية (١) موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ - ١٩٤٥**، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، صفحة ٣٦.

(٣) عبد الله حنا، **ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري**، (المجلد الثالث)، دون طبعة، دار البعث للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ، ص، ٣٢٤ - ٣٣٦، أيضًا: علي محافظة، **الاتجاهات الفكرية عن العرب في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩١٤**، بيروت، الدار الاهلية للنشر، ١٩٧٥، ص، ١٣٦ - ١٤٨.

– حث أبناء العرب على التعاون مع سائر العثمانيين لتأسيس الشركات التجارية والصناعية الزراعية.

– تقديم المساعدة لأبناء العرب وإغاثة المحتاجين من فقراء وأيتام وأرامل.

٢ – المنتدى الادبي ١٩٠٩: كانت الشخصيات العربية في العاصمة العثمانية يعاضدون المنتدى الادبي ويلقون فيه المحاضرات والخطب، وفتحوا له فروع في بعض المدن العربية، وكذلك انتسب اليه العديد من أبناء الشعب العربي. ولابدّ من الإشارة إلى أن رئيسه عبد الكريم الخليل قد حدّد أركان القومية العربية بوحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن وأيضًا وحدة المنفعة، التي تتوافر كلها في الأمة العربية[١].

٣ – الجمعية القحطانية: تأسست على يد بعض المثقفين والضباط عام ١٩٠٩ ومن مؤسسيها المدنيين عبد الكريم الخليل وعارف الشهابي، ومن الضباط سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ[٢].

٤ – الجمعية الإصلاحية البيروتية والجمعية الإصلاحية الدمشقية: قام بعض التجار وأصحاب المال والبنوك والأراضي والأطباء وكذلك المحامين، بتأسيس الجمعية الإصلاحية في بيروت، وتمَّ الاعتراف بها في (٣١) كانون الثاني ١٩١٣[٣].

٥ – جمعية العهد: تأسست في ٢٨ تشرين الأول ١٩١٣على يد الضابط العربي عزيز علي المصري، بعد عودته من طرابلس الغرب مع عدد من الضباط العرب والشبان في الجيش العثماني، ويمكن تلخيص **برنامج هذه الجمعية** بما يلي[٤]:

– السعي إلى الاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تكون متحدة مع الدولة العثمانية.

– بقاء الخلافة الإسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان.

---

(١) أحمد عزت الاعظمي، **القضية العربية، أسبابها، مقدماتها، تطوراتها، نتائجها**، ٦ أجزاء، الجزء ٣، بغداد (على الأرجح طبع بين عامي ١٩٣١ – ١٩٣٤)، ص،٣.

(٢) الأمير مصطفى الشهابي، **القومية العربية**، القاهرة، معهد الدراسات العربية العليا، جامعة الدول العربية، طبعة ثانية، ١٩٦١، ص، ٦٩ – ٧٠.

(٣) عبد الله حنا، **ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري**، مرجع سابق، ص، ٣٢٤ – ٣٣٦.

(٤) علي محافظة، **الاتجاهات الفكرية عن العرب في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩١٤**، مرجع سابق، ص١٤٤. أيضًا أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، عدد المجلدات ٣، المجلد رقم ١، مكتبة مدبولي، بدون تاريخ، ص، ٤٦.

– الدفاع عن الآستانة والمحافظة على سلامتها أمام الاطماع الاوربية والأجنبية.

– يترتب على العرب أن يكونوا القوى الاحتياطية التي تدعم الأتراك في حمايتهم للشرق أمام الغزو الغربي.

– إنماء الفضائل في نفوس الأعضاء، وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة إيمانًا من الجمعية بأن الامة لا تحتفظ بكيانها السياسي القومي ما لم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة القومية.

في عام ١٩١٤ وصل خبر هذه الجمعية للعثمانيين فقاموا باعتقال عزيز علي المصري، وتم الحكم عليه بالإعدام. ولكن تدخلت بريطانيا من جهة ومساعي الزعماء العرب من جهة ثانية تم تخفيض الحكم بعقوبة النفي[١].

ظهور الحركة القومية العربية على المسرح الدولي: مؤتمر باريس ١٧ – ٢٣ حزيران ١٩١٣

عقُد هذا المؤتمر في باريس، وكانت الحركة الإصلاحية في بيروت ودمشق والعراق «قد هيأت الجو والنفوس لهذا المؤتمر، وتدعمها الجمعيات السرية العربية العاملة في الآستانة وباريس وبلاد المهجر الأمريكي، وهدف منظمو المؤتمر إلى بسط وإيضاح أمور قد تبدو متناقضة لأول وهلة»، وقد دعا المؤتمر الدولة العثمانية إلى مجاراة حركة الإصلاح، بمعنى أخر الاعتراف بحقوق الامة العربية، والى تطبيق الإصلاحات الضرورية داخل الولايات العربية[٢].

قرر أعضاء المؤتمر ما يلي[٣]:

– أن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية على العثمانيين، فيجب أن تنفذ بوجه السريع.

– من المهم أن يكون مضمونًا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية اشتراكًا فعليًا.

– أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.

– اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الدولة.

– أن يخدم المجندين العرب في ولاية عربية، إلا في حالات استثنائية.

– يجب ان تحسن الدولة العثمانية شؤون متصرفية جبل لبنان المالية، وأن تكفل وسائل تحسينها.

---

(١) الأمير مصطفى الشهابي، **القومية العربية**، مرجع سابق، ص، ٨٠.

(٢) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، دار الشورى، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ، بيروت، ص، ٧٨ - ٨٠.

(٣) عزيز بك، **سورية ولبنان في الحرب العالمية**، تعريب فؤاد ميداني، دون سنة نشر، بيروت، ص ٢٦٥-٢٦٦.

وصدر ملحقًا بهذه القرارات، تضمَّن ما يلي[١]:

– في حال عدم تنفيذ هذه القرارات التي صادق عليها المؤتمر، فالأعضاء المنتمون للجان الإصلاح العربية يمتنعون عن أي منصب في الحكومة العثمانية، إلا بعد موافقة خاصة من الجمعيات المنتميّن إليها.

– ستكون هذه القرارات برنامجًا سياسيًا للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أيّ مرشح في الانتخابات التشريعية، الا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.

لقد نتج عن هذا المؤتمر ما يلي[٢]:

– اعترف الدولة العثمانية باللغة العربية لغة رسمية في المدارس الابتدائية فقط.

– أن تبقى اللغة التركية لغة رسمية في مدارس العواصم، والجدير بالذكر أن العثمانيين قد تظاهروا بالاعتراف بالمؤتمر.

ودعا إلى استقلال سورية ندرة المطران وجورج سمنة وخير الله في كتبهم التي حملت عنوان سورية، ولا بدّ من الإشارة إلى أن هؤلاء جميعًا تعاونوا مع الدوائر الاستعمارية الفرنسية حيث اتفقوا على استقلال سورية وبمساعدة من فرنسا والعمل على دعم هذا الاتفاق[٣] وبحسب ما قاله الدكتور وجيه كوثرني في مقال نشره في مجلة ابعاد، «يعبر ندرة مطران من بعلبك عن طموحاته الاستقلالية حدودها في إطار سورية. ففي الوقت الذي رأي عبد الغني العريسي أن العرب أمة، نرى مطران يعدُّ السوريين أمة كانت مستقلة في التاريخ العربي الإسلامي، ولم تخضع لسيطرة الاتراك إلا بعد حوادث ١٨٦٠»، من الملاحظ في خطاب مطران دلالات على تصوره خصائص مراحل التاريخ العثماني وطموحه الاستقلالي في كيان خاص لسورية[٤].

وبعد قرارات هذا المؤتمر رأى أركان حزب الاتحاد والترقي ضرورة مقاومتها بتأليف شبكة استخبارات خاصة بالولايات

(١) قدري قلعجي، **جبل الفداء، قصة الثورة العربية الكبرى ونهضة العرب**، دون طبعة، دار الكتاب العربي، دون تاريخ نشر، ص، ١١٩ – ١٢٠.

(٢) نجاة قصاب حسن، **جبل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥**، المذكرات (٢) (مجلدين)، الطبعة الأولى، مطابع ألف باء، دمشق، ١٩٩٤، ص، ٢٦٠ – ٢٦١.

(٣) علي محافظة، **مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية (١) موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ – ١٩٤٥**، مرجع سابق، ص، ٣٦.

(٤) وجيه كوثراني، **دراسة في بدايات تكوين الوعي السياسي العربي الحديث، مجلة ابعاد**، العدد ٤، أيار ١٩٩٥، بيروت، ص، ٩٥.

العربية فعقدوا اجتماعًا حضره كل من أحمد جمال محافظ إسطنبول، وأنور باشا وطلعت باشا وعزمي بك مدير الشرطة وغيرهم من رجال الاتحاديين وقرروا ما يلي[1]:

١ – تشكيل شعبة سياسية في وزارة الداخلية تحت إشراف وزير الداخلية طلعت باشا تكون أهدافها ما يلي:

– معرفة تطور الحركات العربية ومقاومة المساعي التي يبذلها العرب بشكل سري في العاصمة ونواحيها.

– التعامل مع بعض الجواسيس من العرب المتصلين بعزيز علي ورفاقه.

– العمل على مراقبة هؤلاء ومعرفة مدى اتصالهم بالسفارات الأجنبية وعلى وجه التحديد السفارتين الفرنسية والإنكليزية.

– مقاومة دعاة الانفصال عن السلطنة العثمانية من العرب.

– إيجاد (فيش) لكل زعماء العرب الذين يقاومون السياسة الاتحادية ووضعهم تحت المراقبة الشديدة.

– يتولى رئاسة هذه الشعبة في القائمقام أركان حرب نوري بك ويدير كل من فرع من فروع هذه الشعبة في البلاد العربية، عثماني يستخدم من الجواسيس العدد الذي تفرضه الإدارة.

٢ – أبعاد الضباط العرب الذين في العاصمة إلى مختلف الانحاء التركية، وعدم الموافقة على وجود قائد عربي في مركز واحد يعاونه ضباط عرب، وإذا كان لا بدّ من وجود قائد عربي فمن الواجب أن يكون أركان حربه من الضباط الاتراك الذي يثق بهم الاتحاديون.

٣ – أن يتولى الضباط الاتراك القيادة في البلاد العربية.

٤ – تنفيذ سياسة تتريك مختلف العناصر الغير التركية في البلاد بالقضاء على الجمعيات القومية المؤسسة في البلاد، وأنشاء المدارس الثانوية والعليا لبث الروح والثقافة التركية بين أبناء العرب.

٥ – مقاومة الحركات الإصلاحية التي بدأت في مؤتمري بيروت وباريس.

٦ – ابعاد من في العاصمة من العرب المدنيين وغيرهم من العرب الذين يعملون لمقاومة الحكومة التركية.

٧ – تقوية نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية بأنشاء فروع لها هناك وإقامة الحفلات والولائم لإجل تعزيز نفوذ الجمعية واستمالة الاهلية لها.

(١) **الاستخبارات والجاسوسية في لبنان وفلسطين وسورية خلال الحرب العالمية**، مذكرات سياسية نشرت تباعًا في صوت الاحرار، تعريب فؤاد ميداني، مطبعة دار صادر، بيروت (على الأرجح طبع في عام ١٩٢٧)، ص، ٩ – ١٠.

بلاد الشام عشية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

كان من نتائج اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، توقفت المفاوضات العربية التركية، ودخلت القضية في مرحلة جديدة جرت أحداثها في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، إذ أدرك العرب أنهم مجبرون على دخول الحرب العالمية الاولى، وهم في غِنىً عنها، خصوصًا أن الدولة العثمانية قد ضعفت، ويمكن وصف الوضع السياسي عشية الحرب العالمية الأولى في الولايات العربية على النحو التالي[١]:

١ - لقد تأثر بعض الجمعات العربية بما قدمته القوى الاوربية من وعود لها دون أدنى اهتمام بالإمكانيات العملية لتحقيقها - وإقامة وطن على أساس عصبيات إثنية او طائفية.

٢ - الملاحظ أن هناك صدام داخل النخب السياسية العربية، أفراد النخب العربية ذو المصالح المكتسبة في الدولة العثمانية كانوا عثمانيين، أما الذين لم يكن لهم مثل تلك المصالح فكانوا عروبيين.

٣ - إن مأزق الاتحاديين كان أكبر من طموحهم في إنقاذ الدولة العثمانية وتوحيدها، فالتراجع أمام الهجمة الغربية في أكثر من منطقة فيها يؤشر إلى أن الوضع العثماني كان برمته يمر بأزمة سلطة.

٤ - كانت منطقة بلاد الشام المركز الرئيسي للطامحين بدور عربي مميز، ومثلت دمشق بالتحديد مركز قوتهم، إذ إنه من أصل ١٢٦ ناشطًا معروفًا في الحركة العربية قبل العام ١٩١٤ كان بينهم ٤٠٪ من مدن سورية الداخلية، وإن دمشق وحدها ضمت نحو ٨٠ ٪ من إجمالي العضوية السورية. والجدير بالذكر أن العروبيين السوريين لم يكونوا فريقًا متجانسًا بل كانوا عبارة عن مجموعة من ذوي الميول العربية الأولية، غير أن أيديولوجيتهم الأساسية تكوّنت ليست كرد فعل على الدولة العثمانية بل كرد فعل على زوالها.

مع بدء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ شرعت العناصر المؤيدة لفرنسا بنشاطها الموجه نحو بلاد الشام، فبتاريخ ١٥/٨/ ١٩١٤، وقبل ان تدخل الدولة العثمانية الحرب بعدة أشهر، بادر خير الله خير الله مؤسس اللجنة اللبنانية في العاصمة الفرنسية، إلى التطوع بالجيش الفرنسي، ووجه نداء إلى مواطنيه بالالتحاق بالجيش

(١) علي شعيب، **التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٥، ص، ١٧٣، أيضًا: خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٢٢ - ٢٣.

الفرنسي لخدمة قضية الحق والحرية والمساعدة على خلاص بلدهم «على حد تعبيره»[١].

أولًا: سياسة القمع والتنكيل العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى في بلاد الشام

أحمد جمال باشا (السفاح) حاكمًا على بلاد الشام

اتخذت العثمانيين من عدم تلبية أبناء بلاد الشام للقتال إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى زريعة لاتِّباع سياسة القمع والبطش ضد الأهالي[٢].

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في بدايات ترين الثاني ١٩١٤، إلى جانب دولتي ألمانيا والنمسا، وتم تعيين أحمد جمال باشا وزير البحرية قائدًا للجيش الرابع في سورية، ودخل سورية بتاريخ ٥/١٢/١٩١٤، وظل يحكمها حكمًا مطلقًا مدة ثلاث أعوام[٣].

اتبع جمال باشا سياسة التقرب من الإصلاحيين، وسعى لاستمالتهم فتواصل مع رجالهم وزعمائهم وقربهم اليه وأدناهم منه فأتخذ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر طبيبًا خاصًا له، وكذلك فتح أبوابه في وجه عبد الكريم الخليل، فكان يدخل ويخرج أي وقت أراد، «أعطى محمد كرد علي مبلغًا كبيرًا من المال باسم جريدة المقتبس وجاد بمثل ذلك على عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد – وكلتا الجريدتين من أعظم صحف الإصلاحيين»، وعندما كشف عن نواياه بالقتل والتشريد والقمع والإرهاب ومارسها في سوريا ولبنان[٤]. لقد أنشأ أحمد جمال باشا «السفاح» **الديوان العرفي** في عالية (لبنان) إثر وصوله إلى سورية عام ١٩١٤ لمحاكمة المتهمين بالقضايا الخيانة للدولة العثمانية والتعامل مع بعض الدول الأجنبية، ولدى عودته من فلسطين بعد هزيمته في معركة قناة السويس وانهيار أحلامه بأن يكون خديوي مصر وبلاد الشام، يومها أعطى أومراه ببدء البطش بالأحرار العرب[٥]، أولى ضحاياه

(١) وجيه كوثراني، **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ – ١٩٢٠**، الطبعة الثانية، بيروت، معهد الانماء العربي، ١٩٧٨، ص، ٢٥١ – ٢٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٣.

(٣) سليمان موسى، **الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤**، بيروت، دار النهار، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، ص، ١٠٠.

(٤) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، مصدر سابق، ص، ٦٤.

(٥) أحمد جمال باشا، **الإيضاحات، المجموعة التاريخية العثمانية العربية ١٩٠٨-١٩١٨**، إعداد وتحقيق، محمد السعيدي، الكتاب الثاني، دار الفارابي، الطبعة الأولى، نيسان ٢٠١٣، ص، ٥ – ٧.

كان عبد الكريم الخليل[١]، الذي كان يحسب أنه كسب ثقة القائد أحمد جمال وودّه. «القائد الوزير عزا فشل حملته (التجريدة) إلى قناة السويس، لائمًا الشعب المصري ومتهمًا الشريف حسين والموظفين العرب من الاحرار الإصلاحيين الآخرين، وهؤلاء في متناول اليد، فكانت المحاكمات الصورية ونتجت عنا الاحكام والسجن والنفي»[٢] ولا بدّ من القول أن محكمة الديون كانت برئاسة ضابط برتبة زعيم/ عميد (أميرالاي) تحسين باشا وعم العلم ان الديون العرفي كان **مؤلفًا من هيئتين**[٣]:

– هيئة تحقيق ترأسها الضابط صلاح الدين بك.

هيئة قضاة برئاسة (القائمقام) العقيد كري بك

الواضح أن هذا الديوان لم يكن يسير على سنن المحاكم العرفية المتعارف عليها في الدول الدكتاتورية، وانما يسير وفقًا لمشيئة ورغبة السفاح احمد جمال باشا، كان جمال باشا يتمتع بصلاحيات واسعة في حكم أبناء الشعب السوري، وبعد شهر شباط ١٩١٥ أصدر أحكام إعدام متتالية تهّم المحكومين بالخيانة للدولة العثمانية وتسليم البلاد إلى إدارة اجنبية، وكان ذلك بالاستناد إلى ما وقع في يده من وثائق القنصلية الفرنسية في بيروت التي تدين بعض النخب السياسية العربية، والواضح من خلال هذه الوثائق أن أصحابها لم يرغبوا في الانفصال عن العثمانيين لا بل رغبوا في العمل من أجل الحكم الذاتي[٤]، قدم في شهر نيسان ١٩١٥، عددًا من المتنورين العرب السوريين إلى المحكمة العسكرية في عالية في لبنان، والتي

---

(١) الشهيد عبد الكريم الخليل (١٨٨٧-١٩١٥) من مواليد الشياح، حاز شهادة الحقوق من تركيا " استطنبول" . عمل في المحاماة. أسس مع بعض المناضلين العرب جمعية المنتدى الادبي (النادي) إثر اعلان الدستور العثماني ١٩٠٩ وإعلان المشروطية الثانية، انتخب رئيسًا للنادي. أتصب بالذكاء والثقافة الواسعة، كان نشيطًا دؤوبًا على العمل القومي العربي وبملكة خطابية عربية حماسية، بسبب ثقته بالاتحاديين وتصديقه لشعاراتهم وأهدافهم نحو الولايات العربية، سمح لنفسه بأن يذهب الى باريس مع مدحت شكري سكرتير الاتحاد والترقي ويواجه المؤتمرين هناك محاولًا التخفيف من جذرية المطالب وكبحها، مصدقًا أن الاتحاديين سائرون في تحقيق الرقي والتقدم للسوريين، الخليل العروبي الشاب المندفع استماله أحمد جمال باشا التركي حاكم بلاد الشام، متظاهرًا بالموافقة على إقامة مملكة سوريا (خديوي) على غرار مصر تابعة للدولة العثمانية. أرسله بصحبة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إلى فلسطين ليشجع ويوقد جذوة الحماسة في قلوب الجنود والضباط العرب في الجيش الرابع الزاحف إلى قناة السويس لطرد الإنكليز. . . أنظر: أحمد جمال باشا، **الإيضاحات، المجموعة التاريخية العثمانية العربية ١٩٠٨-١٩١٨**، مصدر سابق، ص، ١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص، ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص، ٧.

(٤) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٢٣.

أصدرت حكمًا بإعدام أحد عشر منهم، ونُفذ الحكم في ساحة المرج ببيروت في صباح يوم ٢١/٨/ ١٩١٥ وهم عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، مسلم عابدين ونايف تلو، ومحمود المحمصاني، ومحمد المحمصاني، وعبد القادر الخرساء، ومحمود العجم، وسليم عبد الهادي، ونور الدين القاضي، وأيضًا على علي الارمنازي. وكذلك تم الحكم غيابيًا على سبعين شخصًا من أبناء بلاد الشام[١].

وذهبت مجموعة ثانية من المتنورين العرب في بلاد الشام إلى المحكمة العسكرية في عالية في خريف عام ١٩١٥، وتم تنفيذ حكم الإعدام بحق ٢١ منهم، سبعة في ساحة المرجة في دمشق وهم: عبد الحميد الزهراوي، وشفيق المؤيد العظم، والأمير عمر الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليجي، ورشدي الشمعة، ورفيق رزق سلوم، وكذلك تم اعدام أربعة عشر في ساحة البرج في بيروت وهم: الميرألاي سليم الجزائري، الميرألاي أمين لطفي الحافظ، عبد الغني العريسي[٢]، الشيخ أحمد طبارة، الأمير عارف الشهابي، توفيق البساط، سعيد عقل، جلال البخاري، سيف الدين الخطيب، باترو باولي، محمد الشنطي، جرجي الحداد، علي النشاشيبي، عمر حمد، تم ذلك بتاريخ ٦/ ٥/ ١٩١٦[٣]، مع هذه الإجراءات حدث انتشار للمجاعة والأمراض والأوبئة، على سبيل المثال في سورية وحدها مات في أثناء الحرب ما لا يقل عن نصف مليون نسمة من أصل أربعة ملايين نسمة بسبب الاعتقال والخدمة العسكرية والإعدام. وثلاثمائة وخمسون ألف نسمة ماتوا بسبب الجوع والتشرد، وكذلك هناك حوالي ثلاثة آلاف نسمة تمَّ نفيهم أو ماتوا بسبب سوء المعاملة، وفي نهاية المطاف فإنّ الخسارة لا تقلّ كثيرًا عن نصف مليون سوري ماتوا أثناء الحرب العالمية، وهي نسبة عالية جدًا بالمقارنة مع دول أخرى[٤].

في سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ –١٩١٨)، عاشت بلاد الشام نكبات

---

(١) امين سعيد، **سيرتي ومذكراتي السياسية ١٩٠٨ - ١٩٦٧**، تبويب وتوثيق وتحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، عدد المجلدات ٢، المجلد ١، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، بدون دار نشر، ص، ٩٥ -٩٦ أيضًا: سليمان موسى، **الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤**، مرجع سابق، ص، ١٠٧.

(٢) لمعرفة تفاصيل حياة الشهداء أنظر: أحمد جمال باشا، **الإيضاحات، المجموعة التاريخية العثمانية العربية ١٩٠٨-١٩١٨**، مصدر سابق، ص٥-١٥-١٧ - ١٩-٢٣-٢٤ - ٢٩-٣١-٣٣-٤٠.

(٣) امين سعيد، **سيرتي ومذكراتي السياسية ١٩٠٨ - ١٩٦٧**، مصدر سابق، ص، ٩٤-٩٥، أيضًا: سليمان موسى، **الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤**، مرجع سابق، ص، ١١٣-١١٥.

(٤) جورج أنطونيوس: "**يقظة العرب**" مرجع سابق، ص، ٣٤٥.

أهمها في ارتفاع الأسعار، وكذلك نقص الأموال، ونقص المياه وكثرة الأراضي البور «الغير مزروعة»، وهذا ما أثر سلبًا على اوضاع السكان من الناحية الاجتماعية والمعيشية، وظهرت أزمة اقتصادية في كافة المناطق وأبرزها كانت في سورية نتيجة لكثرة الانفاق وعدم الانتاج وتراجع سعر الليرة السورية وغيرها من مشاكل[١].

ثانيًا: بريطانيا والاتصالات مع الشريف حسين

لا بدّ من القول إن بريطانيا كانت تراقب المنطقة بشكل جيد ومستمر، لأنها ساحة حرب ولها أهمية كبيرة، واستغلت استياء العرب من الدولة العثمانية وسياستها اتجاه العرب، مع العلم ان العلاقات بين الشريف الحسين والانكليز كانت قد بدأت في عام ١٩١٢، عندما تمت مقابلة بين عبد الله بن الحسين وكتشنر «المعتمد البريطاني في مصر عام ١٩١١» وكان يرغب عبد الله بن الحسين معرفة موقف بريطانية في حال حدوث تمرد ضد الاتراك، وطلب امداده بالأسلحة وقد حضر هذه المقابلة ستورز «السكرتير الشرقي في دار المعتمدية» ولما سئل عن هدف الأسلحة أجاب أنها للدفاع ضد أي هجوم عثماني، وأعطى كتشنر تعليمات بخصوص هذه المقابلة في تاريخ ٢٤ أيلول ١٩١٤ والاتصال بالشريف حسين، وهنا كان من الطبيعي أن تشن بريطانيا حربها ضد العثمانيين من خلال العرب وذلك بدفعهم لإعلان ثورة تحقق هدفين هما[٢]:

١ – تحطيم الوحدة العثمانية فتسهل بذلك انهيار الدولة العثمانية.

٢ – خلق ظروف حرب أهلية تجبر العثمانيين على تحويل قوتهم العسكرية نحو الثورة مما يسهل ويساعد على هزيمتهم عسكريًا.

لقد عُرفت المراسلات باسم مراسلات حسين – مكماهون، وكانت بأسلوب غامض ومعقد لدرجة كبيرة ربما لأن الحرب العالمية الاولى كانت قاب قوسين او أدني[٣].

كان قد وصل إلى مكة أواخر شهر أيلول ١٩١٤ تاجر مصري يدعى علي أفندي أصغر[٤]، يحمل للشريف عبد الله

---

(١) ستيفن هامسلي لونغريغ، **تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، دون طبعة، دار الحقيقة، دون تاريخ، بيروت، ص، ٥٢.

(٢) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٢٥. ٢٦.

(٣) E.L Woodward, and Rohan Butler: "Documents on British Foreign Policy, 1919-1939", First series, London, 1952, P. 241.

(٤) هو من انسباء حسين البهائي الموظف في قلم الترجمة بدار المندوب السامي يومئذ، وهو الذي اختاره لهذه المهمة،

رسالة من المستر ستورز «السكرتير الشرقي لدار الحماية» وجاء فيها «أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية أن اكتب إلى سيادتكم لأسالكم فيما إذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب، وقد سبق له وأن أجابكم بعدم إمكانه مساعدتكم في تحقيقها. فإن في أستطاعه حكومة جلالة الملك أن تقدم لكم المساعدات اللازمة، بسبب عزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الاعداء، وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين»[١].

بالفعل حدثت مراسلات سرية بين الطرفين استمرت حتى أعلان الثورة العربية الكبرى بتاريخ ١٠ حزيران ١٩١٦[٢]، مع العلم أن العرب كانوا يفضلون مساعدة بريطانية، ويشعرون أن مصلحة بريطانية تكمن في مساعدتهم، الا أنهم كانوا قد قرروا أن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وان يحكموا بلادهم بأنفسهم دون أن يتدخل أي أحد في شؤونهم[٣]، ووضع العرب بعض الشروط لدخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء وهي[٤]:

أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية.

– أن تحظى حكومة الشريف حسين العربية، بأفضلية إنكلترا في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية ومنها في بلاد الشام.

– يتعاون كل من العرب والانكليز في مواجهة أي خطر خارجي يقوم بهجوم على أحد الطرفيين، ولا يعقد الصلح دون موافقة الطرفيين.

– يتم التشاور بين الطرفيين في حال دخول أي منهم في حرب مع طرف ثالث.

– يجب ان تعترف إنكلترا بإلغاء الامتيازات الأجنبية في البلاد العربية، ويترتب عليها مساعدة حكومة الشريف على دعوة مؤتمر دولي لتصديق ذلك الإلغاء.

ويعتمد الإنكليز على هؤلاء البهائيين المستعربين في أعمالهم السرية ببلاد العرب، ويثقون بهم لما خبروه من إخلالهم، أنظر: أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، مصدر سابق، ص، ١٢٨ – ١٢٩.

(١) المصدر نفسه، ص، ١٢٨ – ١٢٩.

(٢) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، مرجع سابق، ص، ١٣٨.

(٣) لمعرفة تفاصيل المراسلات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون، أنظر: أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، مصدر سابق، ص، ١٣١ – ١٤٤.

(٤) وليد المعلم، **سورية ١٩١٦ – ١٩٤٦ الطريق الى الحرية**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٨، دمشق، ص، ٤٠ – ٤١.

ثالثًا: إعلان الثورة العربية الكبرى ١٠ حزيران ١٩١٦

نظرًا للهزائم المتكررة التي تعرضت لها القوات البريطانية في العراق، طالبت القيادة البريطانية من الشريف حسين إعلان الثورة من أجل تخفيف الضغط العثماني على بريطانيا، بالمقابل لبى الشريف حسين طلب بريطانيا، وإعلان الثورة في مكة على العثمانيين، وقام بحصار الحامية العثمانية في مكة حتى استسلمت بتاريخ ١٣ حزيران ١٩١٦[١].

١ - تحرير بلاد الشام

تحرير الأردن

عمل الأمير فيصل على كسب زعماء وعشائر بلاد الشام، واستقبل العديد منهم في مقره وكان أبرزهم عودة أبو تابه شيخ التوايهة وهم بطن من الحويصات قيل فيه أنه قبيلة في رجل وتم التفاهم بسرعة بين الرجلين وسمع فيصل من عودة ما كان يتمناه في أعماقه ويتلهف إلى تحقيقه، فقد عرض عوده مهاجمة العقبة وأبدى رغبته واستعداده لاحتلالها برجاله[٢].

ومع الأيام الأولى من شهر تموز ١٩١٧[٣]، سيّر جيش تحت قيادة الشريف ناصر بن علي، إلى منطقة معان والعقبة، وتم الهجوم على معان، وكان ذلك بمساعدة الشيخ عودة أبو تايه، وواصل تقدمه وسيطر على العقبة بتاريخ شهر أب ١٩١٧، وتم أسر الحامية التركية التي كانت تتألف من ٧٢٠ جنديًا و٣٠ ضابطًا، واغتنام مدفعين وأسر قائد المنطقة وهو برتبة أميرالاي، وبعدها نقل الجيش الشمالي على إثر هذا الانتصار قاعدته إلى العقبة، وأنتقل اليها الأمير فيصل مع حاشيته، وتم في العقبة إنشاء خط أتصال أيضًا بدمشق[٤].

تحرير فلسطين

كان من الواضح أن العمليات العسكرية في سيناء وجنوب فلسطين تسير ببطء

---

(١) وليد المعلم، **سورية ١٩١٦ - ١٩٤٦ الطريق الى الحرية**، مرجع سابق، ص، ٦٣.

(٢) إبراهيم مصطفى المحمود، **موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام**، تقديم علي حبيب، الجزء الأول، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١، ص، ٢٩٤.

(٣) بعد سقوط جنوب شرقي الأردن بيد الثوار العرب والانكليز من خلفهم، قصدوا القدس الشريف فحاصروها ودافع عنها العثمانيين، ولكنها سقطت أخيرًا بأيدي القوات البريطانية فدخلها اللنبي دخول الفاتحين في ٩/ ١٢/ ١٩١٧، وكان هذا أول دخول لقوات غير مسلمة من الغرب النصراني بعد تحررها من أيدي الصليبيين على يد صلاح الدين، وعندما وقف أما كنيسة القيامة قال: " الآن انتهت الحروب الصليبية " وبهذا لاحت في الأفق أولى أهداف الغرب الأوروبي والحركة الصهيونية في إقامة وطن يهودي على أرض فلسطين، في ظل جهل قادة الثورة من العرب بأهداف ونوايا الغرب.

(٤) امين سعيد، **سيرتي ومذكراتي السياسية ١٩٠٨ - ١٩٦٧**، مصدر سابق، ص، ١٤٣.

ودون فاعلية حتى صيف ١٩١٧، وحدث تبدل هام في الأوضاع العسكري، أهمها احتلال القوات العربية للعقبة وتحوله إلى مركز عسكري، وكذلك حدث تبدل في القيادة العسكرية البريطانية، أبرزها تعين اللنبي قائد للقوات البريطانية، ويعتبر واحد من ألمع القادة العسكريين البريطانيين، وبعد أن سمع باحتلال العقبة «وأهمية الدور الذي يستطيع الجيش العربي أن يلعبه على ميمنة القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين»[١].

أثناء التحضير للحملة على فلسطين كان هناك حملة دعائية واسعة النطاق لدى أهالي فلسطين، وبنفس الوقت وجه الملك حسين رسائل إلى عرب فلسطين يحثهم على التعاون مع القوات البريطانية «التي وصفها بالصديقة» كذلك وجه نداء إلى الجنود العرب الذين ما زالوا يقاتلوا لصف العثمانيين يدعوهم للوقوف لجانب القوات البريطانية والقتال معها. بالمقابل فأن رسل الملك حسين وفيصل يعملون بنشاط لإقناع زعماء العشائر والوطنيين في فلسطين وشرقي الأردن والاتفاق معهم على العمل ضد العثمانيين[٢].

في شهر تشرين الأول ١٩١٧، تمكن اللنبي من السيطرة على مواقع العثمانيين في مناطق غزة وبئر السبع، وعن طريق فيلق الصحراء تمكن من مطاردة العثمانيين باتجاه مدينة القدس مارًا بمدينة الخليل وبين لحم، وبتاريخ ٨ كانون الأول ١٩١٧ تم سقوط مدينة القدس في يد القوات البريطانية[٣].

كانت القوات العربية تتألف من حوالي ٨٠٠٠ مقاتل من الهجانة والفرسان تحت قيادة الأمير فيصل، وكذلك تدعمها بعض المصفحات ومزودة بمواد التخريب، وتتمركز في منطقة الأزرق في شرقي الأردن، بينما كان عدد القوات الحليفة في هذا الخط قرابة ٥٧٠٠٠ جندي مشاة مع ١٢٠٠٠ جندي خيال مع ٥٤٠ مدفع من مختلف العيارات، وبعد انسحاب القوات العثمانية من القدس تمركزت في خط دفاعي موازٍ للقوات البريطانية، ويمتد من أغوار الأردن إلى ساحل البحر المتوسط، مع العلم ان القوات العثمانية كانت تتألف من ثلاثة جيوش بقيادة الجنرال الألماني «فون ساندرز» ومقره مدينة الناصرة، ومجموع القوات العثمانية بلغد ٣٢٠٠٠ جندي مشاة مع ٢٠٠٠ جندي خيال مع ٤٠٢ مدفع من مختلف العيارات، بالمقارنة

(١) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، مرجع سابق، ص، ٢٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص، ٢٤٥.
(٣) المرجع نفسه، ص، ٢٤٦-٢٤٧.

مع اعداد جنود الطرفين فان نسبة القوى تميل لصالح القوات البريطانية بنسبة ٢ إلى ١ في المشاة أما في الخيالة فقد كان التفوق ٦ إلى ١ وفي المدفعية ٢٥،١ إلى ١[١].

وضع اللنبي في ربيع ١٩١٨ خطة لتدمير القوات العثمانية في فلسطين ومطاردتها إلى دمشق وحلب ثم الأراضي العثمانية، وبالفعل أستطاع تدمير الجيوش العثمانية في أيلول ١٩١٨[٢].

تحرير سورية ولبنان

لقد تم إعادة تنظيم الجيش في العقبة بشكل جديد، بعد أن زاد عدده من متطوعين وضباط وكذلك زادت الأسلحة، والجديد بالذكر أنه كان قد تم اتفاق بين الجيش والقيادة البريطانية في مصر، على مهاجمة مراكز العثمانيين في شمالي فلسطين وعلى خطة موحدة كانت قواعدها كما يلي[٣]:

- ينقل الجيش العربي نشاطه إلى حوران وجبل الدروز وغوطة دمشق.

- ينقل الأمير من العقبة إلى الأزرق، على سيف الصحراء من جهة جبل الدروز، ويقود بالذات الحملة التي تتولى الاعمال العسكرية في هذه المرحلة.

- يحمي الجيش العربي التاج البريطاني الايسر، ويحول بين الاتراك المرابطين على ضفة الأردن الشرقية وبين الاشتراك في المعارك المقبلة.

- يقطع خط رجعة الاتراك من حوران، وكانت تتألف هذه الحملة من لواء الهجانة ويضم ٦٠٠ هجان و٤ مدافع و٤ رشاشات ثقيلة و٢٠ خفيفة و٤ دبابات ومفرزات تخريب وطيارتين للكشف، وانضم إليها الحويطات، وعشائر الرولة، وسرية الشريف ناصر.

لقد بدأت الحملة بالتحرك في أوائل شهر أيلول ١٩١٨، قاصدة الأزرق فاجتازت سكة الحديد من جنوب معان الشرقي، واستقرت في مقرها بتاريخ ١٨ أيلول منه، وبدأت عملها في يوم ٢١ منه، وقامت بمهاجمة محطة قرية غزالة الواقعة بين درعا ودمشق، كذلك تم نسف خط حديد بين المزيريب ودرعا من أجل تعطيل سكة حديد يافا، وبتاريخ ٢٨ أيلول تم السيطرة على مدينة درعا، وفي اليوم الثاني «اتصلت بالجيش البريطاني الذي كان يتقدم إلى دمشق والذي كان يسلك طريق القنيطرة، وبالفعل تم الزحف إلى دمشق فدخلها في صباح ٣٠ أيلول ١٩١٨ ورفعت العلم العربي على ابراجها».

---

(١) المرجع نفسه، ص، ٢٤٧.

(٢) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، مرجع سابق، ص، ٢٤٨.

(٣) امين سعيد، **سيرتي ومذكراتي السياسية ١٩٠٨ - ١٩٦٧**، مصدر سابق، ص، ١٤٤ - ١٤٥.

في النهاية أن التعاون بين الجيش العربي والقوات البريطانية، كان لها أثر بالغ الأهمية في هزيمة الاتراك، وجلائهم على يد القوات العربية، والجديد بالقول إن الجيش العربي قد أسر وحده في تلك الحملة ٣٥ ألف أسير، وهذا الكلام يؤكده اللنبي قائد الجيش البريطاني، حيث جاء في تقريره إلى وزارة الحربية البريطانية في شهر تشرين الأول ١٩١٨، وقدر عدد الاسرى الذين وقعوا بيد هذا الجيش بخمسة وثلاثين جندي تركي، ويقول اللنبي: «لقد ساعدنا الجيش العربي مساعدة عظيمة، بقطع مواصلات العدو قبل القتال، وبمعاونته لفرساننا في أثناء الزحف على دمشق، فقد رابط على الطريق الذي تقهقر منه العدو، شمالي درعا فحال دون فرار جانب من الجيش العثماني الرابع، وأنزل به خسارة كبيرة»[١].

لقد تم تحرير سورية ولبنان قبل أن ينتهي شهر تشرين الأول ١٩١٨ نتيجة «لحركتين حربيتين متميزتين»، حيث سارت الحركة **الأولى** على طول الساحل مارة بصور وصيدا إلى بيروت وطرابلس، بينما سلكت **الثانية** الطريق الداخلية عبر حمص وحماه وحلب، ولم يقم العرب بدور هام في الأولى وانما كان لهم نصيب وافر في الثانية[٢]. ان تطهير مناطق سورية ولبنان من السيطرة العثمانية أثار في النفوس الفرح والبهجة، وارتفعت العواطف المستثارة بآمال الحرية السياسية، لقد أصبح أربعمائة عام من الاحتلال العثماني للدول العربية في ذمة التاريخ[٣].

رابعًا: الاتفاقيات والوعود المتناقضة أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨

اثناء تفاوض الشريف حسين مع مكماهون واستعداده للتحالف مع بريطانيا ضد العثمانيين، كانت بريطانيا تعقد اتفاقية مع فرنسا وروسيا لاقتسام غنائم الدولة العثمانية ولتحديد مناطق النفوذ بينهما في الولايات العربية كي لا يحدث أي خلاف بينهما في المستقبل[٤].

---

(١) امين سعيد، **سيرتي ومذكراتي السياسية ١٩٠٨ - ١٩٦٧**، مصدر سابق، ص، ١٤٦.

(٢) مصطفى طلاس، **الثورة العربية الكبرى**، مرجع سابق، ص، ٢٦١.

(٣) المرجع نفسه، ص، ٢٦٢.

(٤) كانت الإمبراطورية العثمانية قد دخلت القرن التاسع عشر في دور تفكك ولم تعش إلا بفضل تنازع الدول على اقتسام أجزائها برغم أنه سمح لكل منها أن تتدخل بطرق وأساليب مختلفة لاقتسام قناة السويس وإبقاء المواصلات مفتوحة نحو الهند، وكانت تراقب بحذر امتداد النفوذ الألماني من آسيا الصغرى نحو سوريا على شكل مشاريع إنشائية ومساعدات عسكرية. أما **المطامع الفرنسية** فكانت متركزة في سوريا على شكل مصالح اقتصادية وادعاءات دينية، **وكان هم روسية** الوصول إلى المتوسط عن طريق المضائق والتدخل في شؤون الإمبراطورية لحمايتها للأرثوذكس،

١ – الاتفاقية الإنكليزية – الفرنسية – الروسية في نيسان – أيار ١٩١٦ «المعروفة باتفاقية سايكس بيكو»

كان الحلفاء يبحثون مصير الإمبراطورية العثمانية وعملية تفكيكها واقتسامها، وذلك من أجل تحقيق وتوطيد غايتهم في المحافظة على مصالهم الاقتصادية وكذلك السياسية، وبعد المشاورات والمفاوضات وقع الحلفاء **بتاريخ ٤ مارس ١٩١٦ في بطرسبرغ المعاهدة** التالي[١]: بناء على المفاوضات التي حدثت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في ربيع عام ١٩١٥ في بارس ولندن، ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء البلاد العربية راغبة في التخلص من السيطرة العثمانية فتقرر ما يلي[٢]:

– تتعهد فرنسا وبريطانيا وروسيا فيما بينهما أن تعمل يدا واحدة في سبيل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها، وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها، وتكون بريطانية مسؤولة عن مراقبتها وإدارتها.

– تتعاهد الدول المتعاقدة بحماية الحج، وتسهيل سائر السبل المؤدية إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

– تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الشكل التالي[٣]:

أولًا: منطقة نفوذ روسيا

تضم إلى روسيا المناطق التالي:

أ – ولايتا أرضروم وبتليس والمناطق التابعة لهما.

ب – الأراضي الكائنة جنوبي كردستان وتمتد على خط زلاية موش إلى سعرد ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمر، ثم تتبع خطا مستقيم إلى العمادية ومنها إلى الحدود الإيرانية.

ت – تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالاً إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون في سمتها.

ث – تنتهي نقطة حدود روسيا على البحر الأسود شرقس طرابزون في منطقة تحدد فيما بعد.

واقتصر **اهتمام إيطاليا** على طرابلس الغرب كخطوة أولى نحو تحويل المتوسط إلى بحيرة إيطالية. وبنشوب الحرب تحركت أطماع الدول، وبرغم تضارب مصالحها شعر ساستها بضرورة الوصول الى اتفاق، إذ أصبح واضحًا أن هزيمة الإمبراطورية العثمانية ستؤدي الى تقسيمها وهي عملية كانت ستّم بعد عشرات السنين. أنظر: خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٣٦.

(١) **نشرت الحكومة البلشفية هذه المعاهدة يوم ٢١ فبراير عام ١٩١٨**.

(٢) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، مصدر سابق، ص، ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص، ١٨٣.

ج – تخضع هذه الأراضي خضوعًا تاما إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته.

ثانيًا: منطقة نفوذ فرنسا

تضم إلى منطقة نفوذ فرنسا المناطق التالي[١]:

أ – السواحل السورية، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهي في الاسكندرونة.

ب – تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسا مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي.

ت – تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها، والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرف عنه في الفقرة السابقة.

ث – تضم ولاية كيليكية إلى النفوذ الفرنسي وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمر، ثم تتجه إلى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالاً من الاطاغ – قيصرى – اق طاغ – ييلديز طاغ – زرعه – اكين – خربوط.

ج – تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسي.

ثالثًا: منطقة النفوذ البريطاني

تؤلف منطقة النفوذ البريطاني من المناطق التالي[٢]:

أ – تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والفرنسية في الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطاني. وهذه المنطقة تضم القطر العراقي مع نفس مدينة بغداد.

ب – السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكار. حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا.

ت – تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى أخر البحر الأحمر إلى نفوذ بريطانيا المطلق.

ث – تؤلف الحكومات العربية عملاً بالمادة الآتية من سكان المناطق المسكونة بالعرب. على أن تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال اللازم لها، والذي يعين فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

ج – تتألف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الفرنسي والإنكليزي دولة

---

(١) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، النضال بين العرب والترك**، مصدر سابق، ص، ١٨٣، أيضًا: جمال واكيم، **صراع القوى الكبرى على سورية، الابعاد الجيو-سياسية**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت، ٢٠١٨، ص، ٩٥.

(٢) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، مصدر سابق، ص، ١٨٤.

او حلف دولة عربية مستقلة، وفقًا لاتفاق خاص بين فرنسا وبريطانيا على أن تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق.

ح – يكون ميناء اسكندرونة دوليًا.

خ – تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضي التركية. على أن توضع تحت إدارة خاصة وفقًا لاتفاق يعقد بين إنكلترا وفرنسا وروسيا بهذا الشأن، وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم.

د – تعترف الدول المتعاقدة مبدئيًا ومتقابلاً بجميع العقود والامتيازات المعقودة المعطاة قبل الحرب في هذه الأراضي.

ذ – تقبل الدول المتعاقدة جانبًا من الدين العثماني بنسبة الأراضي التي تمتلكها.

بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩١٥ عينت فرنسا جورج بيكو قنصلها العام في بيروت لمتابعة شؤون الشرق الأدنى ولمفاوضة الحكومة البريطانية في مستقبل البلاد العربية، واجتمع مع مارك سايكس النائب في مجلس العموم البريطاني والمندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى بمصر، الجدير بالذكر أن سايكس قد انجز صفقته مع الشريف حسين دون أن تطلع الحكومة البريطانية الحكومة الفرنسية على شروط الاتفاق معه. ودارت المفاوضات بينهما بخصوص مصير البلاد العربية وبعد أن تم الاتفاق عليها في شهر أيار ١٩١٦ دون علم الشريف حسين أرسل بول كامبون «سفير فرنسا في لندن» في ٩ أيار ١٩١٦ إلى السير ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية كتاب يمكن تلخيصه بما يلي[١]:

أمرت أن ابلغكم أن الحكومة الفرنسية قبلت الحدود التي رسمت على الخرائط الموقعة بين سايكس وبيكو ورضيت بالمبادئ التي دارت عليها المفاوضات بينهما.

جاء في **المادة الأولى** من الاتفاق «ان فرنسا وبريطانيا مستعدتان ان تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) داخل سوريا و(ب) داخل العراق، على أن يكون لفرنسا في المنطقة (أ) ولإنكلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية او حلف الحكومات العربية».

(١) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي ١٩١٥-١٩٤٦، دار صادر، بيروت، ص، ٢٤.

أما المادة الثانية: يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء ولإنكلترا في المنطقة الحمراء.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء «فلسطين» يعين شكلها بعد استشارة روسيا والاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة[١].

الواضح أن اتفاقية سايكس بيكو قد أهملت الحقائق الجغرافية والسياسية والنفسية وناقضت رغبات الأهالي وفكرة الوحدة، وأنها خالفت وعود الإنكليز للشريف حسين ولم تطلعه بالاتفاقية مع فرنسا برغم أنها قد أطلعت فرنسا على اتفاقها مع الشريف حسين، بالمقابل فقد ظهرت الشكوك في وعود الغرب «بريطانيا» حتى قبل أن تكشف اتفاقية سايكس بيكو من قبل وزارة الخارجية الروسية بعيد الثورة الشيوعية[٢].

وهنا لابدّ من القول إن من نتائج الثورة الشيوعية في روسيا «تشرين الأول ١٩١٧» فضحها لاتفاقية سايكس بيكو، حيث عثر النظام الجديد على وثائق الاتفاقيات والمذكرات السرية في ملفات وزارة الخارجية القيصرية ونشرها المسؤولون الجدد في شهر تشرين الثاني ١٩١٧، ونقلها الاتراك للعرب ليروا الخديعة التي اوقعهم بها الحلفاء، وقراها جمال باشا على زعماء العرب في بيروت ثم طبعها في الصحف السورية[٣].

كذلك قام أحمد جمال باشا بإعلام الأمير فيصل أبن الشريف حسين عبر رسالة مؤرخة بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧ عن تفاصيل الاتفاقية وحولها الأمير فيصل إلى والده الشريف حسين، وقام الأخير بتحولها إلى المندوب السامي البريطاني في القاهرة بتاريخ ٢٩ كانون الأول ١٩١٧، فأجاب المندوب السامي برسالة مؤرخة بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩١٨، موضحًا «أن الخطب والتصريحات التي فاه بها كبار الساسة من الحلفاء تدل بأجلى وضوح على شدة رغبة الحلفاء بترقي وإحياء الامة العربية التي كانت نهضة جلالتكم باعثًا عظيمًا لها وعلى ذلك ومشجعًا كبيرًا في هذا السبيل»[٤].

---

(١) لمعرفة المزيد عن اتفاق سايكس بيكو أنظر: حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي ١٩١٥-١٩٤٦**، مصدر سابق، ص، ٢٤ - ٢٥.

(٢) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٣٧ - ٣٨.

(٣) انيس صايغ، **الهاشميون وقضية فلسطين**، صيدا، بدون دار نشر، ١٩٦٦، ص، ٦١ - ٦٢.

(٤) سليمان موسى، **المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨ الثورة العربية الكبرى**، عمان، ١٩٧٣، الجزء الأول ص، ١٤٨ - ١٥٣.

٢ – وعد بلفور عام ١٩١٧

أعطتّ ظروف الحرب العالمية الأولى للصهيونية الاعتراف بأهدافها السياسية بعد دعاية مركزة استمرت ٢٠ عامًا كان ينظمها تيوردو هرتسل، فقد عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧، وحدد هدف الصهيونية خلق وطن قومي لليهود في أراضي فلسطين كحل للمشكلة اليهودية في العالم، مع العلم من وجود معارضة يهودية لا ترى في فلسطين الا مركزًا روحيًا حضاريًا[١]. والملاحظ أن الصهيونية سعت لتحقيق أهدافها بجهود منظمة للضغط على الحكومة العثمانية بشكل مباشر او عن طريق الدول الكبرى بمنح اليهود مزيدًا من حق الاستيطان في أراضي فلسطين. اما العرب فلم يكونوا على مستوى النشاط الصهيوني ولم يؤسسوا حركة رسمية، ومع ذلك لم يخفى عليهم خطر الصهيونية «وقد تجلى رد الفعل بعد عام ١٨٩٠ على شكل احتجاج على شراء الأراضي والهجرة»[٢].

الواضح ان إنكلترا كانت حائرة جدًا بسبب الوعود الكثيرة التي تعهدت بها من أجل كسب الدول والشعوب لجانبها في الحرب العالمية الأولى، ومن جملتها القوة الصهيونية العالمية التي مدت لها يد العون مقابل تحقيق الحلم اليهودي في أرض الميعاد «فلسطين» وكان من أثر سعي الصهيونية في الولايات المتحدة الامريكية أن جرتها إلى الحرب بجانب إنكلترا وحليفاتها، والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الامريكية قد أعلنت الحرب بتاريخ ١٢ نيسان ١٩١٧ بجانب الإنكليز، وهذا ما دعا إنكلترا لإصدار بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ وعدها المشؤوم، وذلك بإصدار كتاب من اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى البارون روتشيلد الزعيم الصهيوني وفيه تعد الحكومة البريطانية اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين دون استشارة الشريف حسين، وكذلك دون اخذ رايه فيه مع أنه يختص بأقليم عربي[٣].

ووصل خبر هذا الوعد للعرب وقام الشريف حسين بإرسال مذكرة يطلب توضيحًا لهذا الوعد ومضمونه، وكلفت وزارة الخارجية القائد هوغارت من المكتب العربي في القاهرة نقل رسالة من وزارة الخارجية إلى الشريف حسين في جدة في

(١) خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠**، مرجع سابق، ص، ٣٩-٤٠.

(٢) أنيس صايغ، **الهاشميون وقضية فلسطين**، بدون دار نشر، بيروت، ١٩٦٦، ص، ٤٣ - ٤٥.

(٣) حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي ١٩١٥-١٩٤٦**، مصدر سابق، ص، ٣٠.

أوائل كانون الثاني ١٩١٨[١]. وأوضح هوغارت مسألة وجود اليهود في فلسطين وقال: أنها لن تتعارض مع حرية السكان من الوجهتين الاقتصادية والسياسية، وأكد أن زعماء الحركة اليهودية مصممون على وجود علاقات صداقة وتعاون مع العرب، ويتكلم هوغارت «أنه برغم قبول الحسين بإيجاد ملجأ لليهود في فلسطين وتقديره قيمة التعاون العربي اليهودي، الا انه لم يتنازل عن مطلب السيادة العربية»، بالاستناد إلى كلام هوغارت فأن هناك تناقض في مواقف الحسين من الصهيونية، والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يقبل الحسين بأن تكون دولة فلسطين ملجأ لليهود؟! وكيف يتطلع لقيام الوحدة العربية؟[٢].

٣- وعود وتصريحات أخرى «تصريح بريطانية للعرب السبعة ١٦ حزيران ١٩١٨»

اثناء تواجد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وكامل القصاب وحسن حماده وخالد الحكيم ورفيق العظم وفوزي البكري ومختار الصلح في القاهرة، كانوا يعملون بنشاط على تأييد الثورة العربية الكبرى ضد الاتراك، وعندما علموا هؤلاء الابطال بالاتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور تملكهم الشكوك والمخاوف وتزعزعت ثقتهم بوعود الإنكليز، فألفوا في ربيع ١٩١٨ من انفسهم هيئة للقيام بعمل مشترك وكتبوا تصريحًا في شكل مذكرة موجهة لبريطانية، ووضحوا فيها الموقف كما تراءى لهم من ناحيتيه الداخلية والخارجية، وكذلك طلبوا من بريطانية توضحًا لسياساتها المتعلقة بمستقبل البلاد العربية بمجموعها في بيان واضح شامل[٣].

وبتاريخ ٢٢ حزيران ١٩١٨ دعا الكوماندور هوغارت عميد جامعة أكسفورد، وأبلغهم جواب الحكومة البريطانية الرسمي ويمكن تلخيص العهد البريطاني كما جاءت في كتاب حسن الحكيم «الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي ١٩١٥-١٩٤٦»، بما يلي[٤]:

- أن حكومة جلالة الملك ترغب في أن تكون عامة الشعب التي تتكلم اللغة العربية

(١) **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ١٩١٥ - ١٩٤٦، الجامعة العربية**، إدارة فلسطين، القاهرة، ١٩٥٧، ص، ٧٧، أيضًا: جورج أنطونيوس: "**يقظة العرب**" مرجع سابق، ص، ٥٨٣-٥٨٥.

(٢) أسعد رزوق، **إسرائيل الكبرى «دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني»** بدون دار نشر، بيروت، ١٩٦٨، ص، ٣٧٩.

(٣) حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي ١٩١٥-١٩٤٦**، مصدر سابق، ص، ٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ص، ٣٣-٣٤، أيضًا: جورج أنطونيوس: «**يقظة العرب**» مرجع سابق، ص، ٥٨٦.

منقذة من السلطة التركية، وأن تعين فيها بعد عليها الحكومة التي ترغب فيها.

– ان بعض البلاد العربية لما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة، أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به إنكلترا اعترافًا تامًا، وهذا يكون شأنها أيضًا مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب.

– إن سائر البلاد العربية هي الآن أما خاضعة للترك او تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل، ولها الثقة لشعوب هذه البلاد ان تحصل أيضًا على حريتها واستقلالها وان يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغائبها.

– ان حكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل احياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلبًا ناجحًا، وهي تعد بكل مساعدة لمن يسعى في ازالتها ومستعدة لان تنظر في أي خطة لعمل مشترك ويتفق مع المبادئ السياسية لبريطانية وحلفاءها.

استنتاجات

قسمّ الاتراك البلاد العربية إلى ولايات لتسهل السيطرة عليها، واتبعت سياسة اقطاعية ونتيجة للسيطرة على الأراضي والفلاحين ومصادرة الأملاك وتدني مستوى المعيشة، ونتيجة لذلك تأثّرت الحياة الاجتماعية في بلاد الشام وتم فرض التجنيد الإجباري لمساعدة الاتراك، مما أدى إلى كارثة إنسانية حلَّت بأبناء بلاد الشام من قتل وتشريد وتهجير، ونشأت فكرة القومية العربية وتأثرت بالنهضات القومية الأوروبية، وتأثرت بالمدارس الأجنبية والبعثات التبشيرية، وتأسست جمعيات وأحزاب سياسية عربية كانت مهماتها بثّ الوعي في بلاد الشام.

ولعبت بريطانيا دورًا هامًا في إقناع الشريف حسين من أجل اعلان الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين، التي نجحت في تفكيك وأضعاف العثمانيين، حيث أكدت مراسلات الشريف حسين مع بريطانيا ١٩١٥ – ١٩١٦ أن بلاد الشام كانت تمثل محورًا أساسيًا في المراسلات والمباحثات، وأثبتت الخداع الأجنبي الواضح للعرب وعدم الالتزام بوحدة واستقلال البلاد العربية، وكذلك رفض مزاعم الحركة الصهيونية في السيطرة على فلسطين.

يمكن وصف وضع بلاد الشام إبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤–١٩١٨، بما يلي:

– عودة الغزو الفرنسي الثقافي والفكري والاقتصادي لبلاد الشام بعد ان توقف في سنوات الحرب ولكن هذه المرة مدعوم بجيوش نكلت وقتلت وشردت السكان.

– ظهور نشاط للصهيونية العالمية بشكل كبير، وازدياد محاولاتها الهادفة

لاحتلال أراضي فلسطين الحبيبة، وتقديم مساعداتها لإنكلترا مقابل ذلك، بعد ان كانت حتى وقت قريب في خدمة المانيا.

– زوال قوات المانيا الاستعمارية في الشرق وانهيار مشاريع خط حديد برلين – بغداد.

– تدعيم مواقع الاستعمار الإنكليزي الاقتصادية والسياسية والثقافية، واحتلال جيوش الإنكليز مساحات واسعة من أراضي بلاد الشام.

– تصادم المصالح الاستعمارية الفرنسية الإنكليزية بعد زوال الاستعمار الألماني، ودخول كل من فرنسا وانكلترا في صراع عنيف من اجل اقتسام بلاد الشام والاستفادة من خيرات البلاد واستعمار ابناءها.

– رغبة الولايات المتحدة الأميركية في السيطرة على بلاد الشام، والواضح أن الاحتكارات الأميركية لم تكن بعد الحرب العالمية الأولى من القوة إلى درجة تمكنها من إزاحة نفوذ الاستعمار الفرنسية والإنكليزي من طريقها.

أثرت هذه الظروف وغيرها على تطور الحركة العربية في اثناء الحرب العالمية الأولى، وهناك ظروف داخلية كان لها في الواقع التأثير الحاسم في بث وانطلاق الحركة الوطنية والقومية وبلورة مطالبها وأهدافها التي يمكن وصفها بالمختلفة، والملاحظ أن الحركة الوطنية العربية في بلاد الشام عاشت بعد الحرب العالمية الأولى ظروف جديدة وكان هدفها الأول التخلص من العثمانيين ورغبتها بالحكم الذاتي المستقل، وبعد الحرب كان هدفها زوال الاستعمار الفرنسي والإنكليزي والسعي لتأسيس دولة وطنية مستقلة كل الاستقلال، وأيضًا الدعوة لتوحيد بعض أجزاء من الوطن العربي.

وبالفعل حاول الأمير فيصل بن الشريف حسين الإبقاء على الحكومة العربية بدمشق التي إعلانها عام ١٩١٨، وكذلك رفض أن تكون لسورية قضية وللبنان قضية ولفلسطين قضية وللأردن قضية وإنما اعتبر الحكومة العربية بدمشق هي قضية العرب الواحدة، ولكن كان الرفض الفرنسي والبريطاني حاضر بقوة يدعمه بعض القوى اللبنانية الانفصالية الرافضة لاستمرار وحدة سورية ولبنان، نلاحظ ذلك من خلال تأثير السياسة الفرنسية على بعض المسيحين ويعود ذلك إلى الدور الذي لعبه المستشرقين الفرنسيين الذين وضعوا الدراسات، وقاموا بتوجيه المثقفين من أبناء الطائفة باتجاه الانغلاق وذلك عن طريق الارساليات التي كانت منتشرة في كافة أنحاء المناطق المسيحية.

احتلت فرنسا لبنان عام ١٩١٨ وكانت تنتظر الفرصة لاحتلال سورية وأستمر ذلك حتى عام ١٩٢٠ ودخلت دمشق بعد معركة ميسلون في تموز ١٩٢٠.

ديوان «لو أن الضوء ينام»[1] لخليل عاصي[2]
التجربة... سياقاتها وتحولاتها

د. ياسين بن عبيد[3] / الجزائر

إن كان لا بد من فاتحة

عمّ يَبحث النقدُ في تجارب الشعراء؟ وهل يستنجزهم شيئا غيرَ ما يتيح له الوعيَ بمكوناته؟ وما هي سلطته على تجربةٍ هو فيها أقل من طرف؟!

عربيًّا – وحتى أبعد من المدار العربي – ما الذي زهّد الشاعرَ في نسق من الكتابة لم تستطع البدائل أن تلغيه؟ تغييرُ الأنساق ناتجٌ عن التحولات المعاصرة المعروفة، فهل استبدل الشاعرُ الحداثي بمن كان لأسلافه جمهورًا واعيا وحَكَمًا على الذائقة والمراس متلقيا خُوِّلَ من السلطة ما أشركه في عملية الإنشاء وإن ظل غريبا على حالة الشاعر؟

راودتني هذه الأسئلة وأنا أقرأ ديوان الشاعر خليل عاصي، وخالصُ المراودةِ ومنعطفُها الحاسمُ الوقوفُ على أبنية هذه التجربة – رؤيا وأسلوبا وخطابا – وقد دأبتُ على إعادة استبطانها منذ تعرفتُ على الشاعر، نهاية صائفة ٢٠١٦، بالهرمل ثم ببيروت.

الخيارُ الذي يصرف إلى تجارب الشعراء أو يصرف عنها، هو الوعي بالحالة التي تنتابهم حال انفصالهم عما حولهم، وهو اللغة التي بها يُهيبون إذا عبّروا. وقبل النظر في الوعي الذي به إدراك الذات وتحديد المعنى، وفي اللغة بنعتها أداةَ تعبير، يُنظَر – وذلك مقتضى نفسي قبل أن يكون مقتضى نقديًّا – في صلة الشاعر العامّة بالسياقات الجامعة لتجربته والمنتجة لها، وفي صلته باللغة في إطارها المعجمي، وفي تلك التي يختصّ بها في مراحل نضجه المتقدمة.

لا أحكم – وليس لي ذلك – ولكني أصف دوافع دفعت بي إلى اعتبار تجربة

---

(١) عاصي. خليل، لو أن الضوء ينام، الحركة الثقافية في لبنان، بيروت، ط١، ٢٠١٥.

(٢) شاعر من الجنوب اللبناني، ولد سنة ١٩٧٦.

(٣) أديب جزائري وأكاديمي مؤهل في الأدب المقارن والأدب الصوفي، يدرس بجامعة سطيف ٢/ الجزائر.

خليل مادّة للتحليل تصلح أن يؤرَّخ بها لما يكتبه جيل – كأنه جديد – من شعراء العربية تتجاذبهم جدلية الأصالة والمعاصرة ويتنازعهم قطباها تجاذبا وتنازعا لا يخفيان على بصير.

يلوح كما يجب أن يلوح أن هاته الشاكلة من الشعراء لا يزعجها التراوح بين عوامل الانتماء ومقتضيات التجريب. كما يلفت بأكثر من اعتبار أنّا إزاء طراز من الشعراء يحجبهم دون الحسم في الخيار أنهم لا خيار لهم في أن يعيشوا سياقات ثقافية على غيرهم، وليس عليهم، تبعاتُ وجودها.

استوقفني الشاعر الذي تَتَحَفَّى به هذه السطور – أول ما استوقفني – بنصّ عموديّ لم تأت عليه المناسباتية، ولم يُجهِزْ عليه الظرفُ الذي أنشئ من أجله، وبدا حينها التوفيق فيه أكثر من مجرد حذو أمثلة سابقة، كمن يتحرى مسرة متلقين لا شك في ذائقتهم.

جاء دور «لو أن الضوء ينام» ليُثبِت الرأيَ المتشكل ابتداءً – على جنحة السرعة، مع ما في ذلك من احتمال الجنوح – وليكشف المحجوبَ الذي كان ينتظر آجالاً أخرى للوقوف عليه من كثب.

سَهُل مع القراءات المتعاقبة تصنيفُ هذه التجربة وصرفها مصارفها الأقرب إلى حقيقتها الجمالية، وإلى المشروع الذي تطمح أن تكونه مع مرور الأيام.

لا معنى للتصنيف الذي نشير إليه، بحذر أكيد وتروٍّ واضح، إلا الإطار المرجعي الذي تنطلق منه تجربة خليل؛ وإلا الأداة التعبيرية التي بها الإفضاءُ إلى المتلقي – متعيّنا أو مفترضا –؛ وإلا الرؤيا/الرؤية التي يصدر عنها في قوله ذاتَه قولاً لا يُحَجِّرُهُ عليه أحد، وإن ناقدًا كبيرا.

الشكل منطلقا ومنتهى:

كأن رهان خليل على الشكل أحد الثوابت التي تدور عليها تجربته، وأتناول الشكل بعيدًا عن تأسيس المرزوقي متحدثا عن عمود الشعر.

في السياقات المعاصرة، قلما يعني الشكلُ المنظورَ الخليلي وما ينحاز عنه من الاقتراحات الحديثة التي تقترحها قصيدة التفعيلة، وليس ثمة ما يخفيه خليل عاصي بخصوص الأريحية التي يجدها في استدعاء الخيار «الحر»، سائرًا في ذلك بالسوية – مع فارق يسير – مع الخيار العمودي؛ فعلى امتداد ستة عشر نصا نجد تسعة نصوص: «بذور المنافي»[1] (من

(١) عاصي. خليل، لو أن الضوء ينام، ص. ٢٩.

الخفيف)، «خلف جدار الصمت»[١] (البسيط)، «بلا عودة»[٢] (المتقارب)، «النبأ العرّاف»[٣] (البسيط)، «إلى أين تمضي»[٤] (المتقارب)، «الشآم.. مجد يترنح»[٥] (الكامل)، «هياكل الدمع»[٦] (الكامل)، «لا بدَّ لي»[٧] (الكامل)، جدلية النفس»[٨] (الكامل)، عمودية مُعادا توزيعُها على غير النظام القديم، وهذا نموذج من قصيدة «بذور المنافي»:

أرّقتني الهموم
كم أرّقتني
وابتنت معبدًا لها
فوق مَتْني
هامتي! الرملُ
كلما عَصَفَتْ ريحٌ،
أُذرّي بألفِ شكٍ وظنِّ[٩]

ونموذج آخر من قصيدة «النبأ العراف»، نستدعيه لجماله:

يا أيها النبأ العرّافُ
قُصّ لنا
ماذا تخبّئُ في طيّاتِها السُّبلُ؟
ماذا تحوكُ لنا الأقدارُ؟
أيُّ يدٍ؟
وأيُّ آتٍ لنا
قد حاكه الأجلُ؟
تقودُنا الريحُ،
للأين وجهتُها
وإنّنا مركبٌ ربَّانُه ثَمِلُ[١٠]

بينما باقي الأبيات من المجموع: («الشاعر»[١١]، «لو أن الضوء ينام»[١٢]، «كأس وصراط»[١٣]، «شيخي البحر»[١٤]، «تمرّد بلقيس»[١٥]، «بعد غياب الشمس»[١٦]، «توبة»[١٧])، من الشعر الحر.

القراءة الحادية لقضية الشكل عند الشاعر، توحي بأن المسألة عنده مسألة شعر أو لا شعر، والمطارحة الجمالية تتحكم فيها منابع المعنى لا حدود الشكل. الخيار الحر على وضعه المعهود غير

(١) عاصي. خليل، لو أن الضوء ينام، ص. ٤١.
(٢) نفسه، ص. ٤٧.
(٣) نفسه، ص. ٦٥.
(٤) نفسه، ص. ٧٥.
(٥) نفسه، ص. ٨٩.
(٦) نفسه، ص. ١٠٥.
(٧) نفسه، ص. ١٢١.
(٨) نفسه، ص. ١٢٧.
(٩) نفسه، ص. ٣١.
(١٠) نفسه، ص. ٧٠.
(١١) نفسه، ص. ١١.
(١٢) نفسه، ص. ١٧.
(١٣) نفسه، ص. ٣٥.
(١٤) نفسه، ص. ٥٣.
(١٥) نفسه، ص. ٨٣.
(١٦) نفسه، ص. ٩٩.
(١٧) نفسه، ص. ١١٣.

كاشف، لأن النقاش فيه تجاوزه الزمن، والنظر فيه من جديد لا يُحَيِّنُ شيئا.

فالمثير هو منحى خليل إلى غير ما ينحو إليه كثير من الشعراء، أعني إعادة التصرّف في النص العمودي القائم على البحر الممزوج بحيث يلبس ثوب الشكل الحر، إذ يقوم من يفعل ذلك من الشعراء في عملية تحويل مستعصية لأن البحر غير مطواع على التجارب الجديدة.

هل ضاق النص العمودي عند خليل عاصي بالمعنى حتى أفضى به إلى هذا التجاوز؟

لعل الاطلاع على مجموع المادة من الديوان وخارجه هو وحده الكفيل بالإجابة عن ذلك. والفصل فيه مُرْجَأٌ إلى حين استيفاء الإلمام بمتن خليل عاصي في مجموعه.

عطفا على هذا، لا نعتبر الشكل مع تحوّلاته المذكورة في هذه التجربة – فيما بين أيدينا منها – حائلا في مسألة الموضوع، فنسق الكتابة عند الشاعر واحد، والمطارحة واحدة سواء أوغل في نسق التحديث الذي تنهض به الكتابة الحرّة، أو استجرّ الشكل إلى خارطة بصرية مختلفة، فالموضوع هو هو وطريقة العرض هي نفسها:

كلٌّ به موغلٌ في الجُبِّ
يبحثُ في أغواره
عن معانٍ كنهُها بئرُ
فيه القصيدةُ حُبلى بالخيالِ،
إذًا، في كلِّ صمتٍ جنينٌ
واسمهُ الشعرُ[1]

هذا الشكل يقابله البديل عنه، من غير أن يتحول عنه من جهة العرض:

يُغرقني حتى قاع الصَّدمة فيَّ
بصوتٍ قلْ نايٌ مبحوحٌ جرّحه البُعد
ونصفٌ من ثغرٍ يخطو في شفةٍ عرجاءَ

يقولْ:

أَخبرني
يا ناكئَ ثغر الأحزانْ
عن شفتي الأخرى المقطوعةِ
عن لبنانْ[2]

سبيل المقارنة بين المنحيين هو الخلوص إلى تفنيد الزعم بأن المسلك العمودي، وإن متصرَّفًا في توزيعه، أعضل من أن تطوّعه الطريقة الحديثة، وأن النص الحداثي، في شكله وأسلوبه، مستفرد بخصيصة التنهيج المفارق للمَعارض التقليدية.

العنونة... أو نسق المغايرة

لما يسمى بالنص الموازي paratexte أكثر من دلالة على الخيارات الأسلوبية التي

(١) نفسه، صص. ٤٥ – ٤٦.

(٢) نفسه، ص. ٦١.

هي للشاعر متَحَيَّزٌ مهيمن، لولا أنه اعتراها من التوازن ما أوحى بأن خليلا في طور البحث عما يُقَارُّ تجربتَه ولا يشوّش عليها.

أعني بالتوازن تراوح العنونة بين ما هو بالسريالية أشبه (لو أن الضوء ينام، بذور المنافي، كأس وصراط، خلف جدار الصمت، شيخي البحر، النبأ العرّاف، الشآم..مجد يترنّح، هياكل الدمع)، وبين ما هو قريب المأخذ يرتدّ في معناه إلى المتداول المألوف، وإلى ما يجاور النثر في مأخذه اللفظي (الشاعر، بلا عودة، إلى أين تمضي؟، تمرّد بلقيس، بعد غياب الشمس، توبة، لا بدّ لي، جدلية النفس.)

الغلبة في هذا الانفصام الدلالي إلى ما يفارق الواقع ومعهود التعبير، إيذانا بأن العناوين وهي بوابات النصوص هي فواتح التجربة الشعرية السارية في المتن، وهي المهَيِّئُ لها والمعدّ لتناولها على ما هي عليه من إيحاء وتجريد وإغراب أحيانا.

من المهمّ، قبل المضيّ، الإشارة إلى عناية الشاعر بعناوينه، وتركيبها على أساس من أمرين: بنيتها الذاتية بشكل لا تفارق فيه طريقته في تركيب النص، هذا أولا، وثانيا وضوح الربط بينها وبين المتن بحيث لا وظيفة لها إلا امتصاص النص دلاليا واستجماع المهم من مفاتيحه.

هذه طريقةُ شاعرٍ يعي ما للعنوان من معنى ومن أهمية، وقد اتخذ مسارُ العنونة عنده طريقين: الطريق الأفقي، أخضع فيه العناوين إلى نسق تركيبي واحد؛ والطريق العمودي، فارق فيه العنوانُ النسق البنيوي الموحّد مع سائر العناوين إلى الصلة الداخلية بنصه، فنستشفّ من هنا أن كلّ نص، بعنوانه ومتنه، يشكل تجربة تختلف عن غيرها.

خَضَّتْ جزئيةُ العنونة في تجربة خليل، بالنسبة لكاتب هذه السطور على الأقل، الثابت والمُسَلَّمَ وما هو نهائي عند غيره. فالعنوان، عند خالد حسين ومن يأخذ مأخذهم، جزء (لا يتجزّأ من استراتيجية الكتابة لدى الناص لاصطياد القارئ وإشراكه في لعبة القراءة لدى المتلقي، في محاولة فهم النصّ وتفسيره وتأويله)[1]،إلا أن تجربة «لو أن الضوء ينام» لا تمشي – في المهم من نصوصها – مع هذا التقعيد، لأن تركيبة العناوين لا تتوفّر على ذهنية الاصطياد، بل تميل إلى إثارة المتلقي بما يترك له مجالا للخيار؛ ثم إن الاصطياد من خلال العنونة ليس من شأن النصوص الكبيرة، فالنص الكبير هو العنوان وما بعده، وليس العنوان وحده. لا نعتقد أن المكونات النصية لـ «لو أن الضوء ينام» عالة على

(١) حسين. خالد، اللغة والكتابة. استراتيجية العنوان، الموقف الأدبي، عدد ٢٢٨، ٢٠٠٦، ص. ٩٨.

عناوينها، بل هي منسجمة معها إلى ما بعدها بما يُشعِر بالوحدة في التشكيل، وبما هو أبعد، أعني وحدة التجربة. ومن هذه الوحدة أن الشاعر لا ينفتح على عالم التلقي من خلال العنوان وحده، فالمنجز بجزافه هو المدرك المشترك بين قطبي العملية الإبداعية، والرابط هو الحالة الشعرية بكل تفاصيلها.

هذا هو الغالب على نصوص الديوان، فالذي نجده بهذه السمة منها هو – تمثيلا لا حصرا –: (بذور المنافي، النبأ العرّاف، كأس وصراط، هياكل الدمع). فالملاحظ في تركيبة العناوين الممثل بها وما يقترب من بنيتها، التنافر اللفظي (وإن لم يكن ضدًّا) مع التقارب الدلالي، بما يعني وجود خيط رابط خفيّ بين طرفي العنوان، يحتاج للاطلاع على ما به من خفاء إلى التورّط في النص حتى آخره.

التجريد.. اللغة الأخرى.

تفارق هذه التجربةُ – مثل كثير من نظيراتها في المنظومة الحديثة – مَعارضَ الشعر التي تستقطب الذائقةَ المسماة تقليدية، وتقيم من لغتها وأسلوبها فوارز تحجزها عن استئناف الخط المرجعي لكثير من الشعراء، ولِجَمٍّ منهم يقعون في خارطة الشعر موقع الغالب، أو هكذا يرون أنفسهم.

يصعب على هذه العجالة التحديدُ الحاسمُ لموقع خليل عاصي من هذه الخارطة، فهو شاعر لا يبدو أنه باحث عن الاستثناء، وهو على اختراقه الواضح القواعدَ العامة للفعل الشعري كما ينحو إليه الكثيرون من مُجايِليه المشتغلين على ترقية القصيدة الحداثية، هو – على ذلك – محمود النزوع إلى التأسيس للغة تشبه تجربته، وإلى المضيّ إلى مستوى تعبيري أقل ما فيه إثارة من يتلقاه.

نسمّي لغة أخرى ما يتدرّج فيه خليل من نسيج لغوي لا مشكلة له مع ضوابط اللغة، رغم ما تتيحه الأخيرة للشعراء يتواردون عليه كيف شاءوا، إلى نسيج يكرّس الاختلاف انطلاقا من دهشة وانتهاءً إليها، ويحقّق الخصوصية تأصيلا على الإصغاء إلى الأصوات الداخلية التي ليس لأحد غيره أن يصغي إليها.

النص «العاصي» عصيّ على من يطالب الشاعر أن يكتب بلغة غيره، ومطواع إذا تعاور عليه من يرى فيه الشاعر وكفى.

يبدو مفاجئا للكثيرين ما نقوله، أو نومئ إليه، بصدد ما يسمّى بأفق الانتظار الذي تحوم حوله نظرية القراءة، واشتراطها المُكْتَسَبَ القبلي للوقوف على الحيثية الجمالية فيما يتناوله المتلقِّي.

ليس بنا أن نهوّن من شأن التجربة إذا أسقطنا شرط التهيؤ القبلي كما شرحناه، ولكنا نلحّ – بحس نقدي هو أقرب إلى العفو

منه إلى التنظير – على أن التجربة الشعرية حمالة وجدان وليست مطية فكر، وعلى أن الموقف الشعري حالة وجودية خصوصيتها لا تقبل الاشتراك حتى مع القارئ المتخصص.

لغة «لو أن الضوء ينام» سائرة لحالها، جارية على وتيرتها، وهي وإن قبلت الاقتياس على ما نقرأ هنا وهناك، في الشعر العربي عموما وفي التجارب الشامية على جهة التحديد، فهي لا تقبله منظورا إلى أداء صاحبها الناتئ من حالته الشخصية التي تتحكم فيها الفرادة، وتحكمها رؤى للوجود – يسميها غولدمان رؤية العالم vision du monde – تتجه بها اتجاه الانطواء على أسباب التميز الموعود.

الشعر نشاط لغوي، نعم، ولكن اللغة فيه – في مدارجها واجبةِ الوجود من أدناها إلى أعلاها – كِساءٌ لملامح المعنى البعيدة في نفس صاحبها، لا تملك من أقيستها طولا وعرضا ما يجعلها سيدةً وحدها على مجمل التجربة، ولا يُخَوِّلُها وحدها أن تكون مَجاز الشاعر إلى الذائقة العامة ومنها إلى علياء الخلود.

هذا الذي يصنع – من المفروض – كفاية في التلقي تأخذ الشاعر مأخذ التَّهْيِيء إلى عالمه الداخلي، ومأخذ الوسيط فيما يشعر به وما يقوله، بين تجربة داخلية هو أرضيتها الأولى وتربة مَناشِئها الغائرة، وبين مُلْتَفِتٍ يضع هذه الوساطة موضعها الذي لا ينبغي أن تعدوه.

هذه الشاكلة من النظر، أو هذا الموقف من التجارب التي تستوقفنا، هو الذي يتيح الانسجام مع ما يقبل الانسجام منها، والانصهار فيها متى وجدنا في الشاعر صورًا لنا في مرايا الوجود، ومن لغته لسانا ثانيا يقولنا. ولا فرق بيننا وبينه إلا الذات الفيزيائية المتنوّعة التشكل، يحدُّها من المكان ترابُه، ومن الزمان تَعاقبُه.

الشعر يصنع قارئه، هذا صحيح، لأنه يتلقاه في نهاية المطاف، ولكنه لم يُكتَب على مقاسه، لأن الأمر لو كان كذلك لما وجد شاعرٌ قارِئًا يقرأه.

على أن القارئ الذي يصنعه شاعر اليوم هو القارئ مطلقا في أي زمان كان، والتجربة التي نحن بصددها تنسجم مع هذا الفهم، ولذلك اختارت لنفسها لغة هي تلك التي يسميها الناقد الفرنسي كوهين Jean COHEN اللغة العليا le haut langage، باعتبار متَّسَعها خارج الضوابط المعجمية التي تُغْري كلَّ مأخوذ بأُكال الكتابة، وباعتبار وقوفها عند حدود الدلالة المستهلكة.

من هنا القول إن «لو أن الضوء ينام» لا يصلح لمن له مشكلة مع التوليد الدلالي الذي يسوّغ لصاحبه ما لا تسوغه اللغة العادية للناطقين بها – ترفا أو حاجة –

ويواجه اللغةَ بمجازها مُفارِقةً حقيقتَها إليه، لأن الحقيقة قضية الجميع بينما المجاز قضية الشاعر وحده.

لم نسمع أن شاعرا أصبح شاعرا بغير استقلال في لغته، ولم نسمع به تصدّر مملكة القول لأنه يحمل اللغة في مروياته، بل هو حقيق بالوصف الذي يحمله لدخول لغته في مكوناته الباطنة، يصدر عنها بوصفها فطرة فيه لا صدفة، وبنعتها طبعا لا ترتيبا.

إذا كان هكذا فهم التجارب، وكان كذلك الإقبال عليها، فمَعْناتُه أن التجربة المتحدَّث عنها صنعت قارئها بما يوافق توجهاتها، وأوجدته بآلياتها هي، واحترزت وافيَ الاحتراز من ألاّ يتناولها من لم يتأهل لها.

هذا بذاك، لم نسمع كذلك أن قارئا وجد مَساغه إلى التجارب الشعرية – عاصرها أو لم يعاصرها – لمجرد أنه توصّل بطرف منها، أو تلقف من المظانّ ما فَتَح له باب الوهم بأنه على فهمها قادر، وباختراق مجاهيلها مستبصر، خصوصا إذا أَدَّتْهُ دَعَةُ التناول إلى استسهال الرأي فيها، وحمله التعجل – كما هو ملحوظ اليوم – على الحكم لها أو عليها. إن مجمل الرأي في المتلقي أنه ذاتٌ تقرأ نفسها في مرآة غير مرآتها، والتلقي – شأنه شأن الكتابة – موقف ذاتي منطلقه داخليّ، وما المثير الخارجي – عنوانا ونصًّا – إلا منبّه على تَهَيُّؤٍ ثم خيارٍ داخليين يعزّ وجودهما عند جميع الناس.

تتلخص حصيلة الرأي فيما أسلفنا أن هدير «العاصي» عالي الصوت، وأن لصاحبه بين الصائتين عزًّا ومزية، ولا يسوؤه أن يتوزّع قارئُه بين الواقع والافتراض، ولن يقف أمامه عقبةً أن يختلف الناس في فهمه وتخريجه، فقد تعلّمنا أن أنجح التجارب هي تلك التي تتواجه فيها الآراء، وقديما قالوا: الماء العَذْب يَكْثُرُ وُرَّادُهُ!!!

فلو عدْتِ يومًا
بلا موعدٍ
وجِئتِ المكانَ الذي ضمّنا
فقولي:
سلامٌ على راحلٍ
لكَمْ من جراحِ الهوى
أُثْخِنَا

زمن القلاقل والاضطرابات في روسيا القيصرية
محطات مظلمة في التاريخ الروسي (١٥٩٨-١٦١٨)
(دراسة تاريخية لحقبة القلاقل والاضطرابات، الأخطر في التاريخ الروسي الحديث)

د. زياد منصور[١]

مقدمة:

اتسم التاريخ الروسي بالكثير من الأحداث والاضطرابات والفتن، التي كادت أن تؤدي إلى نهاية حتمية للبلاد، فتركت آثارًا جد سلبية على الحياة العامة والخاصة، وتطلبت جهودًا جبارة كي تستعيد الدولة وحدتها وتوازنها السياسي ومكانتها الدولية، وانتشالها من براثن الفتن والمؤامرات التي كادت أن تمزقها إربا، وما ساهم في عملية إنقاذها هو التراث التاريخي الطويل المتأصل في الوعي الشعبي المستند إلى فكرة صون وحدة الوطن بأي ثمن، رغم ذلك بقيت هذه المحطات علامة سوداء تميزت بالدموية والأحقاد الدفينة، وبصراع سافر على السلطة والعرش، كالذي شهدته روسيا مطلع القرن السابع عشر، والذي سُمِيَ في التاريخ الروسي (زمن القلاقل والاضطرابات والفتن)[٢]، وتحديدًا الفترة التي أعقبت وفاة القيصر إيفان الرهيب في ٢٨ آذار ١٥٨٤.

ولا تقل هذه الأحداث التاريخية أهمية عن تلك الفترات التي عرفت فيها روسيا اهتزازات كبرى، كإصلاحات بطرس الأكبر، ودمج الدوقيات المستقلة بدوقية موسكو في القرنين XV- XVI، وثورة أكتوبر عام ١٩١٧، والمجاعات الكبرى في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، والحرب

(١) أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الفرع الثالث، قسم التاريخ.

(٢) كوتوشيخين غرغوري كاربوفيتس (Kotoshikhin G.K). روسيا في عهد أليكسي ميخائيلوفيتش. النص الأصلي باللغة الروسية، من اعداد ج. أ. ليونتييف.، موسكو، ٢٠٠٠، ص.٩.

الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥)، بأثمانها الباهظة على الشعب والدولة، بقدر الإشارة إلى أن هذه الحقبة من أخطر الحقبات لأنها رسمت على مدى قرون صورة الدولة الضعيفة المتهالكة، بعد أن اجتاحت البلاد فوضى عارمة، وتناوب على العرش قياصرة دجالين لديهم شهوة السلطة، أشخاصًا ليسوا أهلاً لها، وانتشرت الانقلابات والاغتيالات والدسائس وعمت الفوضى وانتشر الفساد.

لقد مرت روسيا إثر وفاة إيفان الرابع الرهيب، بمرحلة تزاحم الوقائع وكثرة الشعارات وتنوع التيارات الإيديولوجية والغرق في تفاصيل الأحداث اليومية، وتحكم الشخصيات الانتهازية الذين دفعتهم الأحداث الاستثنائية إلى الواجهة، ففتحت الباب مشرعا أمام تدخلات خارجية لا مثيل لها، وتحكمت في السلطة فئات وشرائح تنكرت لإرث أسرة روريك أول أسرة روسية حكمت البلاد ثمانية قرون.

وصفت هذه المرحلة بأنها «زلزال اجتماعي وسياسي عميق هزَّ أركان «دوقية موسكو»، بحسب المؤرخ الروسي فاسيلي اوسيبوفيتش كلوتشيفسكي، الذي رأى أن أسبابها الحقيقية كانت متجذرة في بنية الدولة ذاتها، وفي التوزيع غير المتكافئ للخدمات العامة التي تسببت في انقسام اجتماعي خطير[١]. بات واضحًا أن «زمن القلاقل والاضطرابات»، أحدث خرابًا كبيرًا في دوقية موسكو، فيما وصفها مؤرخون أنها مأساة لن تمحى آثارها من ذاكرة الشعب الروسي. فلقد تداخلت في تاريخ زمن الاضطرابات عوامل مختلفة، منها: أزمة السلطة والتدخل الأجنبي، والصراع بين ممثلي أسر البويار ونمو الوعي القومي والهوية الوطنية. ومع ذلك، فإن العنصر الأساس الذي ميّز عصر الاضطرابات هو انتهاك التوازن الداخلي للمجتمع الروسي، بسبب فقدان أحد أهم أسس قيامته – الملكية الشرعية (القانونية)، كما أن محاولات الحكام والتكتلات والشرائح الاجتماعية الداعمة لها، لم تنجح في استعادة الاستقرار المفقود لفترة طويلة، إذ فشلت في تحقيق النتيجة المرجوة، فلقد تفاقم الوضع بسبب تأثير العوامل الجديدة المزعزعة للاستقرار التي اقتحمت الحياة العامة لروسيا – التدخل الأجنبي، اقتحام القوزاق للحياة السياسية، وظهور الحكام المحتالين.

تعود الاضطرابات إلى عهد إيفان الرابع، الذي دخل التاريخ باسم إيفان الرهيب. وبدأت هذه المرحلة إثر وفاته المفاجئة في ١٨ آذار ١٥٨٤، بعد إصابته بجلطة دماغية،

(١) Ключевский Василий Осипович. Курс русской истории/ Москва,1908.

خلال لعبه الشطرنج مع بوغدان بيلينسكي، عرف عن إيفان شدته وقسوته، وهو الذي قتل ابنه الأكبر، إثر نوبة غضب شديدة جراء خلاف وقع بينهما، فهوى بصولجانه المدبّب على رأس ابنه، ليسقط مضرجًا بدمائه، في الوقت الذي كان ابنه الأصغر ديمتري لم يبلغ العامين من عمره، بعد وكان لا يزال يترعرع في حضن والدته ماريا نغايا في أوغليش الواقعة على بعد نحو ١٢٠ ميلاً إلى الشمال من موسكو[١]؛ ونغايا هي الزوجة السابعة لإيفان الرهيب، فانتقل العرش إلى شقيقه الأصغر «فيودور»، الذي قيل الكثير عن سذاجته وبساطته واعتلاله، ليتوج قيصرا باسم فيودور الأول وفق التقاليد الروسية، لكنه سيقتل لاحقا دون أن يترك ذرية، وبموته انقطع نسل إيفان (أسرة روريك) تماما، لتدخل روسيا من بعده في حقبة، سميت «بحقبة الفتن»، وينتقل بعدها العرش إلى أسرة رومانوف النبيلة[٢].

في ١٥ أيار ١٥٩١، عثر على ديميتري مذبوحا في فناء قصر أوغليش، فأرسلت إلى هناك لجنة تحقيق خاصة للتحقيق بمقتله، وأشارت تقاريرها إلى أن الأمير قتل نفسه في نوبة صرع أثناء ممارسته مع أقرانه لعبة رمي المسمار والحلقة المعروفة باسم «سفايكا» (svayka)، وهي لعبة كانت واسعة الانتشار في روسيا القديمة، لكن الاعتقاد السائد أن البويار بوريس غادونوف هو من خطط لقتل ابن شقيقته، ذلك أنه كان مغمورًا بالسلطة.

لقد شكل انتخاب غادونوف إثمًا تاريخيًا ودينيًا كبيرًا ارتكبه مجلس البويار، ذلك أن تتويجهم له على العرش، وهو ما ساهم في اجتثاث جذور الأسرة القيصرية التي حكمت روسيًا قرونا طويلة من الزمن بقتله آخر عنقود هذه السلالة – الأمير ديمتري ايفانوفيتش، وانتخاب مغتصب للسلطة، اعتبره معاصروه أمرًا، خَرقت فيه كل الأعراف والقيم المعمول بها آنذاك، إذ كان سائدًا، أن القيصر لا ينتخبه ممثلي طبقة الملاك، بل العناية الإلهية، الله: بمعنى أن موقف البويار كان يجسد الإرادة الإلهية، وبالتالي ما كان يجب أن تنتخب بوريسا، الذي لم يكن انتخابه شرعيًا من الناحية الإجرائية، ومنافيًا للقيم الدينية[٣].

---

(١) وال وابريل ديورانت. موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد علي أبو درة، دار نوبلس للنشر، المجلد ٣٨، ص. ٣٠.

(٢) الهلالي ابراهيم. القيصر ايفان الرهيب. www.kabbos.com/index.php?darck=280

(٣) سريننيكوف آر. الأوقات الصعبة: موسكو في القرن السادس عشر – القرن السابع عشر. ص٤٤.
Скрынников Р.Г. Лихолетье: Москва в XVI-XVII веках. С. 44.

عند وفاة إيفان الرابع، كان بوريس غادونوف من أكثر البويار[1] المقربين إلى العرش والأكثر نفوذا، فخلال عهد فيودور أصبح الآمر الناهي، بل يمكن القول الحاكم الفعلي للدولة، ومرد ذلك أن القيصر إيفان كان قد شكل مجلسًا استشاريًا لمساعدة ابنه في إدارة دفة الحكم لمعرفته بتدني قدرات ابنه العقلية، وسرعان ما بدأ الصراع على السلطة في داخل المجلس الاستشاري، وحسم لمصلحة البويار (الإقطاعي) بوريس غادونوف. أولاً: بسبب زواج القيصر الجديد فيودور من شقيقته، وثانيا زواج بوريس شخصيا من ابنة الجلاد سكوراتوف الذي كان أيضا عضوا في المجلس الاستشاري؛ في شباط ١٥٩٨، عقد مجلس النبلاء اجتماعه متوجا بوريس غادونوف قيصرا على روسيا، وبدءًا من هذا التاريخ دخلت روسيا عصر الاضطرابات والقلاقل.

ونظرًا لشح المصادر العربية وقلة الدراسات الأكاديمية التي تعنى بشأن التاريخ الروسي الحديث، ولا سيما هذه المرحلة بالذات، وباعتبار أنها لم تولِ الاهتمام الكافي للاستفادة من نتائجها واستخلاص العبر منها بما يجنب الشعوب العربية مراحل كهذه، فقد آثر الباحث معالجة هذا الموضوع لهدفين اثنين: رفد المكتبة العربية بموضوعات تتعلق بالتاريخ الروسي الحديث التي تفتقدها فعليًا خصوصا بعد تنامي الدور الروسي بشكل كبير في المنطقة، وتشجيع الباحثين الآخرين دراسة مثل هذه الموضوعات الجديدة التي تفتقر إليها المكتبات العربية واللبنانية على وجه التحديد، كونها لا تضم إلا القليل منها بل أن غالبيتها يقتصر على ما ورد في مواقع إلكترونية وموقع الويكيبيديا الذي لا يستند إلى وثائق مرجعية دقيقة، ويقتصر على دراسة جوانب عامة وسطحية من التاريخ الروسي العام.

كما تكمن أهمية اختيار هذا الموضوع في كونه لا يزال يحظى بدراسات تاريخية إلى الآن، ويستحوذ على نقاش تاريخي عميق اختلف على مضامينه المؤرخون الروس كما الأوروبيون، الذين باعدت بينهم الاجتهادات والرؤى المختلفة والتقييم المتناقض لطبيعة هذه المرحلة، وبالتالي فإن الموضوع مهم من وجهة نظر الباحث، نظرًا لنتائجه وتداعياته، ولأهمية دراسة مرحلة معقدة هي اطار البحث الزمني لفترة

(١) البويار، هم النبلاء الأعلى رتبة في الأرستوقراطية الروسية، ولم يكن يعلوهم مكانة إلا الأمراء، واستمرت في روسيا كلقب. وقد شغل البويار أعلى المناصب في الدولة، ومن خلال مجلس (الدوما (Duma)، كانوا يقدمون النصائح إلى الدوق الأكبر. وقد حصلوا على منح ضخمة من الأراضي، وكأعضاء في مجلس دوما البويار، كانوا المصدر الرئيسي للتشريع في كييف روس.

حساسة بين الأعوام ١٥٩٨-١٦١٨، وبالتالي من المهم أن يتعرف القارئ العربي على هذه المرحلة من التاريخ الروسي وانعكاساتها على الشعب والدولة ونتائجها، للاستفادة منها والتعمق في كيفية مواجهة أزمات الحكم وتداخل هذه الأزمات مع مراحل الاحتلالات والتدخلات.

هناك جملة من الأسئلة كانت في صلب اهتمامات الباحث، استدعت طرح إشكاليات تناولت جملة قضايا، منها:

ما هي الأسباب والظروف الموضوعية والذاتية التي أدت إلى حصول هذه الاضطرابات؟

- كيف تبدت هذه الأحداث، ما هي طبيعتها، ما هو مسارها، ولماذا آلت إلى تقويض شبه كامل لعمل الدولة، وكيف ساهم التدخل الخارجي في تأجيج عوامل الصراع؟

- ما هي العواقب التي تنتج عن نهم بعض الأشخاص وطمعهم بالسلطة، وما هي النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تسببت بها هذه القلاقل والاضطرابات.؟

على هذا قام الباحث بتناول الموضوع على شكل محاور مفصلة، عالج فيها الأسباب التاريخية التي أدت للوصول إلى مرحلة القلاقل في روسيا، المراحل التاريخية للقلاقل والاضطرابات، الحقبة الأولى، الحقبة الثانية، الحقبة الثالثة، نتائج حقبة القلاقل والفتن، ثم خاتمة، واستنتاجات، ولائحة بالمصادر.

الأسباب المختلفة للقلاقل والاضطرابات:

متى بدأت عمليًا حقبة الاضطرابات؟ سؤال تستدعي الإجابة عليه الكثير من التأني والدقة، إذ يمكننا الحديث عن مجموعة متنوعة من العوامل الاجتماعية والسياسية والنفسية والاقتصادية، وحتى الشخصية وصراع المصالح، والتي ساهم كل منها بحد ذاته بدنو كارثة الدولة الروسية في تلك الفترة، باختصار لقد تحطمت الآمال التي رسمها إيفان في بداية عهده، وتبددت الأحلام بالحياة الجديدة في موسكو التي نادى بها الروس والحلم بالدولة القوية، ليلحق مصير العار والموت كل من يقف معارضًا هذه الحقيقة المتأصلة في عقلية الروس آنذاك.

بداية ما الذي جعل دوقية موسكو على شفير الهاوية؟ إن أولى الأسباب هي وصول سلالة رومانوف إلى العرش مكان أسرة روريك التاريخية، فلقد ولى عهد أسرة روريك القديمة، التي حكمت روسيا منذ العصور الوثنية، والتي كان ينظر إليها على أنها الأسرة الأبدية الحاكمة، وفجأة انهارت فكرة الأزلية - الأبدية بعد مقتل فيودور الذي توفي بلا ذرية، فآل عرش

روسيا بعده إلى صهره بوريس غودونوف[١]... أما السؤال الثاني: كيف كانت الناس تنظر إلى بوريس غودونوف؟ وهو الذي كان حاكما شبه معيَّن، ولم يكن نسبه من سلالة نبيلة،بل دفعت به الظروف إلى الواجهة. لقد تم التشكيك بمدى شرعيته التي كانت تلامس شرعية الأمراء المحتالين المدّعين، وهو الذي جلس على العرش مستغلا الوهن الذي أصاب الحكم، وما آلت إليه أوضاع ورثة إيفان الرابع مستغلاً ثقة الوريث الحقيقي وسذاجته، وكذا فاسيلي شويسكي الدجال المحتال الآخر، الذي نصّب على العرش ووضع على رأس السلطة من قبل حفنة من البويار الذين كانوا يكنون الكره لإيفان الرابع[٢].

كانت الكنيسة الأرثوذوكسية تعترف فقط بالزيجات الثلاثة الأولى، وأية ذرية منهن تعد شرعية، لذا فإن ديميتري (وأسرة والدته) لم يكن لهم الحق الوراثي بتولي البلاط، حينها قرر مجلس البويار إرسال ديميتري ووالدته ماريا ناجايا (Maria Nagaya) إلى أوغليتش ليديروا بالنيابة عنهم دفة الحكم، وعندما مات ديميتري في عام ١٥٩١، وهو في العاشرة شكلت لجنة تحقيق برئاسة فاسيلي شويسكي لكشف الأسباب، وهوالذي ينتمي إلى عائلة أميرية عريقة النسب لديها طمع بالسلطة. أشار تقرير شويسكي أن الفتى حزَّ حنجرته أثناء نوبة صرع، كما ادعت أرملة إيفان ناغايا أنَّ غودونوف هو من أمر عملائه بقتل ابنها، لكن التهمة لم تثبت التهمة على غودونوف، ثم أجبرت ناغايا وبعد وقت قصير للاعتكاف في دير نوفوديفيتشيه وتقضي بقية عمرها كراهبة، دُفن ديميتري إيفانوفيتش على الفور، وتدريجيًا ذهبت قضيته طي النسيان[٣].

ثانياَ: بحلول عهد القلاقل والاضطرابات، ازدادت أعداد المعارضين للدولة ومن بينهم القوزاق الذين وصفهم المؤرخ الروسي سيرجي سالوفيوف، بقوله: إنهم أعداء كل

(١) корочкевич.А.Л. отечественные историки о государе. Зимин.А.А.Иван IV Грозном . "россия времен Ивана грозного",. М.1982. ст.151-174.
كوروتشكيفيتش أ.ل.، . زيمين أ.أ. التاريخ العام لرجل الدولة؛ إيفان الرابع الرهيب.روسيا في عهد ايفان الرهيب. مويكو، ١٩٨٢، ص.ص.١٥١ - ١٧٤.

(٢) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حافظ البويار على نفوذهم في موسكو. قل نفوذ البويار بشكل تدريجي، خصوصًا إبان فترة حكم إيفان الثالث وإيفان الرابع. وقد قيد القيصر إيفان الرابع «إيفان الرهيب» من نفوذ البويار بشكل كبير أثناء القرن السادس عشر. وقد تم تقليص الحق في الانتقال من خدمة أمير إلى أمير آخر، كما تم تقليص حقهم في امتلاك الأرض بدون الخدمة الإجبارية للقيصر.

(٣) Durant, Will (1961). "The Story of Civilization". VII-"The Age of Reason Begins". Simon & Schuster

Никита Новский. Генезис русского казачества. https://syg.ma/@pannov
21:07, 31 августа 2016

نظام، أناس يعيشون بقلق وحيرة»[١].
وبالفعل كان القوزاق القوة الصادمة التي أحدثت القلاقل والفوضى، بل كانوا في طليعة المتمردين الذين استغلوا من الجميع، والذين انضم إليهم ليس فقط البويار أصحاب المصالح الخاصة الضيقة، ولكن أيضًا عامة الشعب[٢].

ثالثًا: السياسة البولندية الخارجية وأهدافها؛ إذ لماذا أصبح الكثير من الروس على استعداد للقبول بالأمير فلاديسلاف عاهلا على عرش دوقية موسكو، شريطة اعتناقه للأرثوذكسية؟ حقيقة الأمر، أنه بحلول مطلع القرن السابع عشر، تلاشت فكرة القومية القيصرية الروسية، وظهرت في أوروبا سلالات حاكمة عابرة للحدود؛ لقد بدأت الملكية المحلية والطبيعية تفقد مكانتها واعتبارها في الوعي والذاكرة الروسيتين، وظهر أنه من الممكن السماح لأجنبي الجلوس على العرش، على سبيل المثال، فإن البلاد خرجت عن بكرة أبيها للترحيب بمارينا منيشيك[٣]، فطوابير الناس امتدت كيلومترات بجلالتها تهليلاً لها، لقد كانوا يحتفون بأميرة موسكو الجديد[٤].

علاوة على كل ذلك، بات من المعروف أن حقبة القلاقل، بدأت بأزمة خطيرة داخل الكنيسة الأرثوذكسية، فعند حلول نهاية القرن السادس عشر – بداية القرن السابع عشر، نشأت جماعات من الفرق والبدع على اختلاف أنواعها وأطيافها، اعتقد الجميع انه تم القضاء عليها، لكنها في الواقع كانت لا تزال تمارس نشاطها السري الباطني. لقد بات الانفجار وشيكا واختمر بالفعل، كما أنَّ عوامل الانقسام نضجت كليا، وفي هذه اللحظة المفصلية بالذات ظهرت الأسباب الحقيقة لاندلاع الأحداث والاضطرابات،

(١) Никита Новский. Генезис русского казачества. https://syg.ma/@pannovsky/gieniezis-russkogho-kazachiestva. 21:07, 31 августа 2016
نيكيتا نوفسكي. أصول القوزاق لروس. بحث الكتروني.

(٢) Завков М.О, русская земля! Из истории гос-ва российского //Вся Россия. - № 5 1993, с. 166 - 246.
زافيكوف م.أ الأرض الروسية! من تاريخ الدولة الروسية، مجلة عموم روسيا، العدد الخامس، ١٩٩٣، ص.ص. ١٦٦ – ٢٤٦.

(٣) مارينا منبشيك زوجة الملك ديمتري المحتال الأول، توجت معه ملكة في عام ١٦٠٦، قبل وقت قصير من وفاته، (المرأة الوحيدة التي توجت في روسيا قبل كاترين الأولى)، ثم كانت زوجة للدجال الثاني ديمتري. وافقت مارينا على أن تكون زوجة لعبد سابق مجهول وقبيح بسبب الرغبة في أن تصبح ملكة وتحت تأثير إقناع رجال الدين الكاثوليك الذين اختاروها كسلاح لهم لنقل الكاثوليكية إلى المملكة الروسية

(٤) Очищение от Смуты. Что стоит за новым красным днем календаря? //Родина. – 2005. - №11. – С.105.
التخلص من آثار عصر الاضطرابات. ، ما هي خلفية هذا اليوم الأحمر الجديد في الروزنامة؟ مجلة «رودينا»، العدد ١١، ص.١٠٥.

لتصبح قصة الأمير ديمتري الذي قتل ظلمًا الفتيل الذي فجر الأحداث. تحولت هذه القضية وكل ما دار حولها أولوية لدى الروس، فدخلت قضيته كل دسكرة وبيت وقرية وبلدة ومقاطعة، خصوصًا حول ما أشيع عن أن مقتله كان جراء نوبة صرع، الذي بقي لغزًا لم يصدقه الناس وشككوا بها إلى حد كبير(١).

٢ الاضطرابات والقلاقل

٢. ١: الحقبة الأولى:

في ١٣ نيسان ١٦٠٥، مات القيصر بوريس غودونوف بشكل لم يتوقعه أحد، تردد أنَّ وفاته كان نتيجة تلقيه ضربة على الرأس، وعلى الفور وفي اليوم التالي أقسمت موسكو اليمين القيصرية لفيودور بوريسوفيتش غودونوف، الابن الأوحد للقيصر الراحل.

أثار موت غودونوف المفاجئ موجة من الشائعات، ومنها مثلاً أن القيصر بوريس تناول السم منتحرًا، ذلك بسبب ما اعتراه من ندم على قتله فيودور ولكثرة الذنوب والآثام التي ارتكبها. بات واضحًا أن الشعب نسب كل ما حلّ بروسيا منذ وفاة إيفان من موبقات وأفعال شريرة وضغائن ومصائب على كاهل الأخير، بدءًا من موت القيصر إيفان الرابع، إلى تساريفيتش ديميتري، فالقيصر فيدور، وحتى الملكة الأخت إيرينا غودونوفا.

على أن الكثير من الأبحاث التاريخية الروسية حفلت في بداية القرن السابع عشر بالكثير من الوقائع التي تنعت بالسوء وتلقي باللوم على غودونوف، فغالبًا ما كان يطلق عليه «القيصر العبد»، ذلك أنه بعد تتويجه على العرش بدأت عملية تدمير ممنهجة لصورة وشخصية وحرمة وحصانة السلطة الملكية التي تعرضت للاهتزاز(٢).

لقد كان بوريس عريض المنكبين وممتلئ الجسم، لكنه كان قصير القامة، وكان وجهه مستديرًا والشيب بدأ يغزو شعره ولحيته وشاربه، وكان يمشي متثاقلاً متهدجًا بسبب إصابته بمرض النقرس... لكنه تميز بالكرم والسخاء

(١) Кобрин, В. Б. Гробница в московском Кремле /Смутное время – утраченные возможности/ Кому ты опасен, историк? / Владимир Борисович Кобрин. — М.: Московский рабочий, 1992
كوبرين.ب.ف.، مصير القبر المقدس في الكرملين/ زمن الاضطراباتحضياع الممكن، لمن أنت خطرًا أيها المؤرخ؟موسكو، مجلة العامل الموسكوبي، ١٩٩٢.

(٢) كوستاماروف ن.إ (kostomarov N.I) التاريخ الروسي في سير شخصياته الرئيسية.، موسكو، ٢٠٠٦، القسم الأول: هيمنة أسرة القديس فلاديمير. الفصل ٢٣. بوريس غودونوف.
Костомаров Н.И .Русская история в жизнеописаниях ее главнейших деятелей.,2006. Первый отдел: Господство дома Св. Владимира.,Глава 23. Борис Годунов

واللطف، خصوصًا مع الأجانب الأوروبيين، وكان يتمتع بذاكرة قوية، رغم انه كان أميًا، ومع ذلك، كان على معرفة بأشياء كثيرة، أفضل بكثير من أولئك الذين تلقوا علوم ذلك الزمان، وأصدر العديد من القوانين والامتيازات الجيدة التي حسن الإدارة وجعلت موسكو مدينة ذات عمارة رائعة...»[١].

في تاريخ دوقية موسكو دخل بوريس غودونوف في بداية حكمه كرجل إصلاحي وحضري وكمصمم عظيم؛ ففي ولايته أقيمت جدران المدن البيضاء والترابية[٢]، وتم الانتهاء من بناء برج إيفان العظيم، وبدأ ببناء كاتدرائية والدة القدوس، فللمرة الأولى في تاريخ الدولة الروسية اعتلى عرش السلطة قيصرا منتخب، وليس وراثًا، لقد ظهر كحاكم ذكي، وتميز حكمه بالانفتاح على أوربا الغربية، فاستقدم علماء ومهندسين للخدمة في الدولة الروسية، وأوفد مجموعة من الشبان النبلاء للدراسة في أوربا الغربية، لكن هذه البداية أجهضت بسبب وقوع الكوارث الطبيعية، ففي عامي ١٦٠١ و١٦٠٢، شحّت الأمطار الربيعية وترافقت معها موجات من الصقيع الجاف ما أدى إلى هلاك المحاصيل الزراعية بشكل كامل، فعمّت المجاعة وكثر المتسولون والمحتاجون في العاصمة موسكو وضواحيها، وفي المقاطعات الغربية والجنوبية، حيث بدأ الأهالي بالتهام الأعشاب، وجذور النباتات، والقطط والكلاب والجرذان، وبدأت ظاهرة أكل لحوم البشر والقطط تنتشر، وزاد من حدة الأزمات اقتناع الروس أن الكوارث والمجاعة هي نتاج عقاب ربّاني حلَّ على روسيا بسبب ارتكاب السيدة الحاكمة الذنوب والآثام والمعاصي[٣].

تسببت المجاعة وخيبة الأمل بحكم غادونوف باندلاع أولى الانتفاضات الشعبية، وانتشرت الشائعات في أوساط الشعب الذي انتظر ظهور المخلص لينقذه، ورغم أنّ جيش القيصر تمكن من قمع جماهير الجائعة التي هاجمت مستودعات

(١) أنظر كاستوماروف، المصدر نفسه، ص. ٢٤٠

(٢) حتى نهاية القرن السادس عشر، لم تكن أراضي المدينة الترابية جزءًا من حدود المدينة. ربما كانت المدينة الترابية بأكملها أو الجزء الغربي منها في ذلك الوقت تسمى أربات. أصبحت المدينة الترابية جزءًا من موسكو خلال الحرب السويدية العادية في الفترة ١٥٩٠ – ١٥٩٥، فقد تم بناء جدار ترابي مع جدران وأبراج خشبية، وتم حفر خندق أمام العمود، بحيث أصبح الجزء المرفق حديثًا من المدينة يُعرف بالمدينة الخشبية.

(٣) كلوتشيفسكي. ف. أ. (Klyuchevsky V.O). التاريخ الروسي، سلسلة محاضرات، موسكو، ٢٠٠٤.

- Ключевский В.О. Полный курс лекций., М., 2004.

الأغذية في ضواحي موسكو، ولكن كان هناك استحالة تحد من موجة انتشار الأقاويل ومفادها أن الأمير ديمتري نجا من الموت بأعجوبة، وهو متخف وسيعود لإنقاذ روسيا. لقد عاكست الظروف غادونوف وكانت قاسية على أول قيصر منتخب، كما أنَّ الذاكرة الشعبية لم ترحمه[١].

لم يستمر حكم وريثه فيودور الثاني طويلاً، إذ قتل إثر تمرد عسكري بالقرب من مدينة «كروم» في ٧ أيار ١٦٠٥، وكان أبرز المخططين والمنفذين له، ضابط يدعى بيوتر بسمانوف، الذي كان في السابق من القادة المحظيين لدى القيصر غادونوف، ليتحول إلى ألد أعدائه؛ أسفر الانقلاب عن قُتل فيودور في الفترة بين ١٠ إلى ٢٠ حزيران ١٦٠٥[٢]. تردد أنه بعد خلع القيصر الوريث وقتله، عقد لقاء في ضواحي موسكو بين زوجة إيفان الرهيب ماريا نوغايا وديمتري الكذاب الأول، وبنتيجته تم الإعلان عن أنها (اعترفت أنه ابنها ديمتري).. وعلى أثر ذلك اقتنع أهالي موسكو بشكل كامل ونهائي بأنه القيصر الحقيقي، فهاجمت الجماهير المنتفضة الكرملين، وطلبت مقابلة البويار فاسيلي شويسكي الذي ترأس اللجنة الحكومية الرسمية التي حققت في عام ١٦٥١، بحادثة وفاة الأمير ديمتري، وفي هذه اللحظة أشعل شويسكي نار الفتنة الحقيقية عندما أعلن فعلاً بأنه الأمير وأنه حي يرزق، وعلى أثر ذلك قتل المهاجمون القيصر فيودر بوريس غادونوف[٣].

يبدو أنَّ خطأ بوريس غادونوف يكمن في أنه أعلن أمام الملأ على أن هذا ليس سوى مدعٍ كاذب وليس وريثا للعرش وأنه مجرد راهب فار من إحدى الأديرة، واسمه غريغوري أوتريبابييف، الأمر الذي دفع الأخير للتخطيط لخلعه.

أستغل المحتال دميتري المنتحل صفة الوريث الشرعي الوضع الناشئ فجمع شمل جيشه من الغرباء والقوزاق وأعاد توحيده ليندفع نحو موسكوبدعم مباشر من النبلاء الليتوانيين والبولنديينالتي كانت لا تزال تحت سيطرة الحكم القيصري،

---

(١) Завков М.Р. О, русская земля! Из истории государства российского // Вся Россия. - № 5 1993, С. 170.

(٢) "Славянская энциклопедия. XVII век М.: Олма-Пресс, 2004.
الموسوعة السلافية. القرن السابع عشر، موسكو، دار أولما برس، ٢٠٠٤. -

(٣) Шокарев Сергей Юрьевич . Повседневная жизнь Средневековой Москвы., М. ،2012.
شوكاريف س يو (chokarev.c.y). الحياة اليومية لموسكو في القرون الوسطى. موسكو، ٢٠١٢، الفصل، ديمتري الدجال الأول.

فصدقه الناس على أنه نجل إيفان الرهيب ديميتري إيفانوفيتش، فهموا لاستقباله قادمًا من بوتيفيل (Putivl) إلى تولا (Tula)، فموسكو ليدخلها دخول المنتصر المعظم كأمير شرعي حقيقي، بعد أن دعا الموسكوبيين للتمرد والانقضاض على قصر الكرملين فأمسكوا بأفراد أسرة غادونوف، تخلل الوضع موجة من السلب والقتل والتخريب لقصور القيصر والأسر الأرستوقراطية الحليفة، كنبلاء فيليامين وسابوروف فنهبت وفتك بأصحابها، أما بالنسبة للقيصر فيودور ووالدته ماريا غادونوفا وابنته إكسينيا، فقد أسروا وسجنوا في سجن قصر بوريس غودونوف القديم، وبلغت الفوضى حدًا غير مسبوق إذ تم العبث بضريح القيصر بوريس في كاتدرائية رئيس الملائكة – ارخانغيلسك (Arkhangelsk)، ونقلت رفاته من مكانها ليدفن في مقبرة المتسولين والمتشردين والفقراء في دير فارسونوفسكي (Varsonofevsky)[1]. في ٢٠ حزيران دخل القيصر الدجال ديمتري موسكو، على رأس حشد كبير من أهالي الجنوب الروسي والقوزاق والبويار الغاضبين من سياسة القيصر بوريس غودونوف الضريبية، واحتجاجًا على المجاعة التي عصفت بالبلاد ما بين عامي ١٦٠١ و١٦٠٣ وأسفرت عن سقوط مئات آلاف القتلى[2].

تميز الدجال ببشاعته ووجهه القبيح، وذكرت بعض المراجع الروسية: أنه كان قصير القامة، عريض المنكبين، ذو عضلات مفتولة، «لكنه كان يبدو من مظهره ومشيته وتعامله أنه ليس من سلالة نبيلة بل أشبه إلى النبلاء البولنديين، وكان لا يوحي أنه ملم بآداب وثقافة النبلاء». ورسمت ملامحه مراجع أخرى، فوصفته، كالتالي: «ذو بشرة شديدة البياض وأملس، وشعر روسي اللون (الأشقر الداكن)، وأنف أفطس، ولديه ثؤلولات بالقرب من الأنف، لا شارب له ولا ذقن،وذو رقبة قصيرة»[3].

---

(١) بني في القرن الخامس عشر، وكان يوجد بالقرب منه مقبرة للمتسولين والمشردين والذين يتم إعدامهم، واعتبر كل من يدفن فيها شخصًا لحقه العار والسمعة السيئة، وجاء دفن بوريس غودونوف وعائلته فيها بهدف الإساءة إلى صورته، لكن رفاتهم نقلت لاحقا لتدفن كنيسة القديس المثلث الرحمات جاوريوس.

(٢) أوليغ أوسينكو (Oleg Usenko). سبعة عشر دجالًا على العرش الروسي. مجلة رودينا، ٢٠٠٤، العدد الخامس، ص. ٦٥ – ٦٩.

Олег Усенко.17 самозванцев у русского трона.,опубл.: // Родина. 2004. № 5. С. 65–69

(٣) ميخائيل فوستريشيف (mikhaelvostrishev). كل حكام روسيا. أسلافنا، موسكو،دار ليترز. ٢٠١٧،

Михаил Вострышев.Все правители России -Наши предки.,М.2017

ويبدو لافتًا أن اهتمام الأبحاث التاريخية بمظهر الدجال، كانت الغاية منه التشكيك بهذه الشخصية الغامضة وحسبها ونسبها.. وورد في بعض منها أنه ليس سوى خادم كنيسة، واسمه الحقيقي غيورغي أوترويبيف.، وأتى في أخرى أنه من أصول نبيلة، لكن أسرته انتكست وتدهور حالها ليصبح مجرد خادم (خولوب) لدى الأمير فيودر نيكيتش رومانوف، وأنه عندما قام بوريس غادونوف بملاحقة عائلة رومانوف بتهمة تدبير مؤامرة للإطاحة بحكمه اختفى هذا الأخير، فقام بحلق شعره وتنكر في شخصية قسيس، وعمل سكرتيرا لدى الأسقف إيوف (اللقب الديني للأمير فيودر رومانوف)، وعائلة رومانوف هي من أعدته لتقمص شخصية الأمير ديمتري لأنها كانت على اطلاع جيد على كل ما يدور في القصر وخصوصًا بتفاصيل حادثة وفاة الأمير ديمتري، وتسند رأيها إلى أنه عندما اعتلى أوتريبيف العرش الروسي تحت اسم ديمتري عيّن الأسقف إيوف مطرانا على مقاطعة روستوف. وبدأت القصة في العام ١٦٠٢، عندما هرب أوتريبيف إلى بولونيا (مملكة رتش بوسبوليتا) الكاثوليكية، وأقام هناك إلى أن نضجت الظروف للإعلان عن نفسه وريثًا لإيفان الرهيب، فاستغل حكام المملكة البولونية الليتوانية هذا الأمر لتحقيق أغراضها في روسيا، خصوصًا بعد أن وجدت فيه شخصها المراد، وقيامه بتقديم الوعود لحكام بولونيا بالتنازل عن مساحات واسعة من أراضي الدولة الروسية. وفي شهر تشرين الأول عام ١٦٠٤، عبر ديمتري الكذاب الأول الحدود الروسية الغربية الجنوبية على رأس أربعة آلاف مقاتل، نصفهم بولونيون، وتوغل في الأراضي الروسية الجنوبية الغربية التي تجمعت فيها أعداد كبيرة من الفلاحين الهاربين (الخولوب) وقطعات من القوزاق. وفي شهر كانون الأول عام ١٦٠٥ ألحقت القوات القيصرية الروسية هزيمة ساحقة بقواته في المناطق الجنوبية الغربية، فتخلى عنه البولونيون، وبدأ يعد عدته للفرار إلى بولونيا، ولكن في هذه اللحظة الحرجة أنقذه المزاج الروسي الشعبي العام التواق للخروج من أزمته بأي ثمن، على يد أي كان، فقد زحفت نحوه جماهير غفيرة من الروس القاطنين في المناطق الجنوبية الغربية، والتفوا حوله واعتبروه الوريث الشرعي للعرش الروسي، والمنقذ من الأزمة، وطلبوا منه متابعة الصراع ضد القوات الحكومية، ورغم أن الكثير من أهالي موسكو لاحقًا شعروا بالندم على موقفهم المخزي هذا، بعد أن عرفوا سيرته وتاريخه كراهب فار، معلنين توبتهم للكنيسة طالبين المغفرة لتصديقهم إياه، لكن هذه التوبة حصلت بعد فوات الأوان، بعد أن عمد إلى

قمع وإذلال أهالي موسكو مدعوما بالجيوش البولونية الليتوانية الغازية[١].

حاول اوترباييف – (ديمتري الدجال الأول) الحصول على دعم الدول المجاورة والاعتراف به كإمبراطور من خلال عقد تحالفات مع بولندا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا، لكن كان يحصد خيبات الأمل بسبب رفضه التنازل لبعض هذه الدول عن الأراضي وبسبب رفضه اعتناق الكاثوليكية، إلا أن هذا لم يمنعه من بناء الكنائس الكاثوليكية، وعقد قرانه على مارينا منيشيك ابنة أحد النبلاء البولنديين وفقا للطقوس الكاثوليكية، مما أثار سخط النبلاء وأهالي المدينة إذ وخلافًا للعادة، التي اقتضت اعتناق زوجة القيصر للأرثوذكسية وتخليها عن مذهبها السابق عند الزواج، سمح ديميتري لزوجته الاحتفاظ بمذهبها، كذلك انتشرت العديد من الإشاعات حول ديميتري، فاتهمه خصومه بعقد اتفاقيات سرية مع الدولة البابوية للقضاء على الكنيسة الأرثوذكسية وتحويل البلاد للكاثوليكية.. كما أنه حال توليه لزمام الأمور، اتخذ ديميتري الكاذب الأول جملة من القرارات حيث صفح عن العديد من المنفيين وسمح لهم بالعودة كما منح بعض الحقوق للأقنان ولجأ لاعتماد لقب الإمبراطور بدل القيصر في إشارة إلى منصبه[٢].

لم يسبق أن عرفت موسكو مثل هذا الكم من الفاسدين، الغرباء من بولنديين وليتوانيين، لقد أغضب هذا الأمر السكان المحليين إلى حد لا يوصف، وزاد من غضبهم السلوك المتعجرف للقوزاق، الذين شعروا بأنهم المنتصرون الأسياد، وراحوا يمارسون العبث واللهو وشرب الخمر في حانات موسكو من خزينة، كما أن القيصر المحتال لم يأبه لكسر الأعراف والقواعد المعمول بها في القصر بكل وقاحة، وخصوصًا تلك المتعلقة بالعرش والكنيسة، فأعلن عزمه الزواج من كاثوليكية مارينا منيشيك، هذا الزواج الذي تسبب بثورة غضب شعبية لا توصف[٣].

لقد تفاقم الاستياء الذي استغله أعدائه وبالتحديد فاسيلي شويسكي المتربص للانقلاب على الدجال، وانضم إلى شويسكي كل البويار الغاضبين، الذين هم

---

(١) Пронин А.А.//Самозванцы: от Лжедмитрия I до Анастасии Романовой// Сельские новости. - № 3., 2002, с. 40-42.
برونين.أ.أ. الدجالون: من ديمتري الأول إلى أناستاسيا رومانوفا. مجلة أخبار الريف، العدد ٣، ٢٠٠٢، ص.ص. ٤٠ – ٤٢.

(٢) Пронин А.А.//Самозванцы: от Лжедмитрия I до Анастасии Романовой// Сельские новости. - № 3 2002, с. 40-42.

(٣) ليف نيقولاييفيتش جوميلوف. من روسيا إلى روسيا، موسكو ١٩٩٢.

أنفسهم من أطاح ببوريس غادونوف إلا أنهم كانوا يرفضون الرضوخ والطاعة لشخص من سلالة ملتبسة، شخص مغرور مدع، وهارب، هذا التحريض المتزامن مع نقمة شعبية من الطبقات الدنيا التي أنهكتها المجاعة والحرب الأهلية، واعتراض أهالي موسكو على ممارسات القوزاق في العاصمة، ومطالبتهم إياه بإخراجهم منها بسبب السلب والقتل والتعدي على الممتلكات العامة والخاصة، كل ذلك سهل نجاح المؤامرة عليه.

في ١٧ أيار أعطى شويسكي الإشارة للبدء بالتمرد واقتحام القصر، فدخله أنصاره وقضوا على وحدة الحرس التي كان يترأسها بسمانوف؛ حاول ديمتري الدجال الهرب، لكنه تمَّ القبض عليه واعتقاله واستجوابه وتعذيبه ومن ثم قتله بشكل شنيع غير مسبوق، إذ تركت جثته في ميدان عام لثلاثة أيام والتمثيل بها، إذ تم إدخال وتد خشبي في فمه، وغرست مذراة حديدية في صدره، ثم أحرقت كعقاب له على أفعاله الشريرة، وتم خلط رفاته بالبارود وحشوها في مدفع أطلق نيرانه نحو الغرب، باتجاه بولندا[١]. ضروب التعذيب والتنكيل مورست أيضًا على كل البولنديين والأجانب الذين شاركوا في الزفاف الملكي، هكذا انتهى عهد الدجال الأول ديمتري القيصر الذي تمكن من تبوؤ العرش عن طريق المكر والاحتيال.

١ - الاضطرابات الحقبة الثانية:

بعد يومين من مقتل الدجال ديمتري الأول، اجتمع البويار ومجلس الدولة (الزيمسكي) المشاركون في التمرد، وأعلنوا فاسيلي ايفانوفيتش شويسكي وصيًا على العرش، ولكن لم تمض بضعة أشهر حتى عاد شبح القيصر ديمتري الحقيقي إلى الواجهة كما في عهد غادونوف، أي عادت قصة نجاته من الموت إلى الواجهة، لتصبح حجة لكل المستائين والمتمردين، ورغم أنه اضطر لإصدار سلسلة قرارات ومراسيم تقي حكمه من فتن ومغامرات جديدة، لكن هذه التدابير لم تؤت ثمارها، ومن بينها: اعتبار القيصر ديمتري أوغليتش الابن الأصغر لإيفان الرابع شهيدًا وترقيته إلى رتبة القداسة من قبل الكنيسة، وتكفير ديمتري الكذاب ومناصريه، إلغاء عقوبة الإعدام، وأصدر وثيقة حدد فيها مهام السلطة القيصرية، وتعتبر أول وثيقة في التاريخ الروسي حددت حقوق وواجبات المواطنين والتي سميت بـ

(١) يوم قذف الروس جثة إمبراطورهم المزيف بالمدفع نحو بولندا. موقع طقس فلسطين، http://palweather.ps/ar/node/50311.html الخميس ١٤/ ٠٣/ ٢٠١٩ - ١١: ٣٣ صباحًا.

(Krestotsevalnaya) وثيقة فاسيلي شويسكي (١٦٠٦)[١]، كما اتخذ غيرها من الإجراءات التي لربما كانت خطوات تكتيكية هدفها توحيد المجتمع والبويار وطبقة الموظفين لتأمين الاستقرار.

ومع ذلك لم يساعد هذا الأمر بشيء، إذ تمردت المناطق الجنوبية ضد القيصر فاسيلي، واصفة إياه بمنهك العرش، لتسري شائعات كالنار في الهشيم ومفادها أن القيصر «ديمتري» نجا من الانقلاب في ١٧ أيار ١٦٠٦، وهو يستعد للعودة إلى العرش.

من الواضح تمامًا أن ديمتري جسد في أذهان الروس صورة القيصر الحقيقي العادل الذي يمثل تطلعات مختلف الفئات الاجتماعية والجماهير العريضة، فيما بقي فاسيلي شويسكي قيصرًا مغتصبا للعرش غير شعبي، ما عكس الهوة العميقة بين الناس والطبقة الحاكمة التي كانت تبحث عن حاكم عادل.في هذه اللحظات الحرجة ظهر رجل في مدينة بوتيفل أطلق على نفسه «فويفود» أو القائد العسكري الأعلى للقيصر «دميتري» – إيفان إسايفيتش بولوتنيكوف وهو فلاح قِن، قاد حركة التمرد ضد شويسكي.

كانت نجاحات بولوتنيكوف سريعة فألحق ضربات موجعة بقوات شويسكي، وبعد بضعة أشهر، وتحديدًا في تشرين الأول استولى على سربوخوف، وهي الممرالمؤدي مباشرة إلى موسكو؛ دبَّ الذعر في العاصمة، في الوقت نفسه وبالتزامن مع حركة بولوتنيكوف، تحرك نبلاء ريازان الذين انضموا لحركة بولوتنيكوف، وعلى رأسهم إيستوم باشكوف، وبروكوبيه ليابونوف؛ بعد أيام قليلة، التحم جيش بولوتنيكوف بقوة باشكوف، فتولى بولوتنيكوف القيادة العليا لعملية محاصرة موسكو التي استمرت لشهرين، فاحتل كولومينسكوي، فيما ترك باشكوف في الموقع الخلفي للأحداث ما أدى إلى بروز خلافات وانشقاقات، الأمر الذي دفع بهذا النبيل الريزياني باشكوف ليحمل الضغينة والبغضاء في صدره ضد قائده على ما اعتبره تفردًامن قبله. لقد اتخذت الحرب طابعًا دمويًا بالغً العنف، عكست حالة السخط والكراهية التي يضمرها الشعب تجاه الفئات العليا[٢].

(١) قراءات عن تاريخ الاتحاد السوفياتي. المجلد ١. «مجموعة من رسائل ومعاهدات الدولة»، المجلد الثاني، العدد ١٤١، ص٢٩٩ – ٣٠٠. أنظر وثيقة القيصر فاسيلي شويسكي (١٦٠٦).

-Хрестоматия по истории СССР .Том1«Собрание государственных грамот и договоров», т. II, № 141, стр. 299–300. **КРЕСТОЦЕЛОВАЛЬНАЯ ЗАПИСЬ ЦАРЯ ВАСИЛИЯ ШУЙСКОГО** .,(1606)

(٢) كوزمينكو ف.م. تاريخ روسيا، موسكو، ١٩٩٩، باللغة الروسية.

كانت أوضاع العاصمة حرجة للغاية، فلقد انهار جيش النبلاء عمليًا، وفرّ جنود المقاطعات البعيدة إلى مدنهم وقراهم، واجه عدة آلاف من المقاتلين الأقنان (خولوب)، ألف مقاتل من النبلاء الذين كانوا موضع شك وارتياب، بعد انضمام قسم من حامية موسكو إلى المتمردين. بدأت موسكو تفقد الإمدادات الغذائية والمواد الأولية، وفرغت الخزينة من الأموال بحيث توقف دفع رواتب الأفراد العسكريين، وارتفع سعر الخبز والدقيق ثلاثة أضعاف، وامتدت الانتفاضة لتطال كل الضواحي، فيما استولى اللصوص والقوزاق على بوروفسك، وفاريا وموزايسك، وفولوكولامسك، وفيازما ومدن أخرى قريبة من العاصمة[١]..

اتخذ فاسيلي شويسكي تدابير حاسمة من أجل تعزيز القدرة القتالية للعاصمة، بحيث أجرى إحصاء لجميع السكان الذين تزيد أعمارهم عن ستة عشرة عامًا، فزودهم بالسلاح للقتال. أما في معسكر المتمردين فقد دبت الخلافات، ففي ١٥ تشرين الثاني ١٦٠٦، انضم قسم من نبلاء ريازان وفرق من القوزاق برئاسة بروكوبيه ليابونوف، وسانبولوف إلى شويسكي، وفيما بدأت المدينة تحصل على الدعم والتعزيزات من سمولينسك، شن قادة الجيش القيصري هجومًا معاكسًا، وفي لحظة حاسمة، أعلن ايستوما باشكوف IstomaPashkov انشقاقه وقسم كبير من المتمردين ليلتحقوا بالقيصر شويسكي، الأمر الذي اضطر بولوتنيكوف لفك الحصار والانسحاب مع فلول جيشه إلى سربوخوفا ومن هناك إلى كالوغا، ومنها إلى مدينة تولا[٢].

أسفرت هذه المعارك عن وقوع الكثير من الأسرى في أيدي قوات شويسكي، وحوصر بولوتنيكوف في كالوغا، حيث نجح هناك في صد هجمات الجيش القيصري، وفي أيار ١٦٠٧، وبعيد هزيمة قوات بويار تاتييف بالقرب من نهر بتشويلييه، انتقل إلى مدينة تولا حيث اتحدت قواته مع مجموعة القوزاق بقيادة دجال آخر اسمه إيليا غورتشاكوف الملقب بمورامیتس، مدعيًا انه النجل الحقيقي

(١) Карамзин Н.М. История государства Российского. Т. 12. Глава I . http://magister.msk.ru/library/history/karamzin/kar12_01.htm

(٢) Смирнов И. И., Восстание Болотникова 1606—1607, 2 изд., М.1951. И смотрите : Крестьянские войны в России XVII—XVIII вв., М.— Л.,1966.
سميرنوف. ن. ن. انتفاضة بولوتنسكوف ١٦٠٦ - ١٦٠٧، الاصدار الثاني،موسكو ١٩٥١. انظر أيضًا: الحروب الفلاحية في روسيا في القرنين السادس والسابع عشر، موسكو، ١٩٦٦.

للقيصر فيودور ايفانوفيتش – تساريفيتش بيوتر فيودوروفيتش ابن القيصر إيفان الرهيب الذي لم يخلفه أحد[١].

قاد الحملة ضد الدجال بيوترالجديد وبولوتنيكوف القيصرتشويسكي نفسه، ففي ٢١ أيار حتى تشرين الأول وبسبب الجوع والمرض استسلم المدافعون عن تولا بعد حصار استمر لثلاثة أشهر، بحيث أغلق مجرى نهر أوب بسد لمنع المياه عن المدينة، فيما أغرقت قلعتها بالمياه، وبعد وعود شويسكي للمتمردين بإنقاذ أرواحهم وتأمين سلامتهم في حال استسلموا، فتح هؤلاء بوابة المدينة، إلا أنه سرعان ما نكث بوعده، وأعدم أعضاء قيادة الانتفاضة كما أعدم الدجال بيوتر في موسكو، ونفي بولوتنيكوف إلى كارجابول حيث تم إغراقه في حفرة جليدية، أما القائد الثاني قائد قوات الدجال ديمتري الأمير شاخوفسكي فنفي إلى دير المخلص في كاميني[٢].

على أن صورة شويسكي في أذهان العامة والفئات الحاكمة كانت صورة ذلك الحاكم المريب المخادع، ذي النزعة التسلطية، وسبب هذه النظرة سلوكياته المثيرة للشبهات منها رفضه الإقامة في قصر ديمتري الدجال الأول، ولما لم تكن هناك أموال لبناء قصر جديد، أمر ببناء قصور بقباب مدببة في المكان نفسه الذي كان يقوم عليه قصر فيدور إيفانوفيتش الذي كانت شخصيته تلقى احتراما وتعاطفا، كما أنه بعد عام على وفاة زوجته أعلن رغبته بالزواج من الأميرة ماريا بتروفنا بوينوسوفا – روستوفسكايا، ابنة بيوتر الدجال الذي قتله بنفسه، وعقد قرانه في ١٧ كانون الثاني ١٦٠٧، حيث أنجب من هذا الزواج ابنتان هما أنّا وأناستاسيا، اللتان توفيتا في سن مبكرة.

ما إن خفّت حدة القلاقل في تولا، حتى اندلعت شرارة تمرد جديد عند مشارف الدولة وعلى مقربة من حدودها، ففي مناطق ومقاطعات القوزاق ظهر عشرات الدجالين المدعّين حقهم الوراثي على عرش موسكو، لكن الأخطر بينهم، هو ذلك المحتال الذي ظهر في ليتوانيا عام ١٦٠٧، ديمتري الدجال الثاني، أو كما سمي «لص توشينو»[٣]. في أيار عام ١٦٠٧، اجتاز

(١) Платонов С.Ф. Полный курс лекций по русской истории. СПб., 2000

(٢) سميرنوف، انظر المصدر عينه، ص. ٣١.

(٣) بعد وقت قصير من وفاة ديمتري الدجال الأول، قام أحد الدفاريان (النبيل مخائيل مولتشانوف)، وهو أحد قتلة فيودور غادونوف، الذي كان قد فرّ من موسكو باتجاه الحدود الغربية نشر شائعات مفادها أن شخصًا آخر قتل مكان ديمتري وأن القيصر تمكن من انقاذ نفسه.

الدجال الثاني الحدود البولونية الروسية، ليظهر في ستارودوب. كان شبيها إلى حد بعيد بديمتري الدجال الأول[١]، ليحظى بسبب ذلك بدعم الأهالي. أما سبب ظهوره فيعزى إلى البحث المضنى الذي قام به المتمردون في فيتيبسك في بيلاروسيا عن رجل شبيه بديمتري فادعوا أنه القيصر، الذي ظهر من جديد. على ما يبدو كانت الكثير من الفئات الاجتماعية بحاجة ماسة إلى ظهور هذا المحتال الجديد، سواء تلك التي كانت على صلة بالعهد القديم، أم أولئك المعترضون غير الراضين على سياسة فاسيلي شويسكي.

لقد اكتنف ظهور لص توشينو الكثير من الغموض بل كان ظهورا حامت حوله الشائعات والحكايات؛ أما أكثرها انتشارًا فهي تلك التي روج لها اليسوعيون، إذ وفقًا لاستقصاءاتهم، فإن احد اليهود ويدعى باغدانكو ادعى انه القيصر، وكان هذا الأخير مدرسًا في شكلوف، انتقل بعدها إلى مدينة موغيليوف حيث خدم هناك ككاهن (كان يرتدي ثيابًا رثة، ومعطفا رديئا ممزقا، وقبعة من صوف الغنم، يعتمرها حتى في فصل الصيف)[٢]، وبسبب سلوكيات مدرس شكلوف الرديئة، فقد كاد ما يلبث أن يخرج من السجن حتى يعود إليه، في هذه الفترة بالذات وقع تحت أنظار أحد كبار قادة الحملة على موسكو، البولوني ماتفاي (ماتيوس) ميخوفسكي، وتردد أن ميخوفسكي لم يكن متواجدا في بيلاروسيا صدفة بل كان ينفذ مهمة كلِّف بها من بولوتنيكوف وشاخوفسكي، وبيوتر الدجال، الذين كانوا بصدد البحث عن شخصية زائفة تشبه القيصر ديمتري وتؤدي دوره. وبالفعل كان هذا المدرس الخشن بنظر ميخوفسكي الشخص المناسب لتنفيذ هذه المهمة، فهو يشبه كثيرًا الدجال ديمتري الأول، لكن هذا المشرد المدرس، ارتعب من هذه، ففر نحو بوبرويسك، وهناك ألقي القبض عليه، ليجد نفسه أمام خيار واحد، إما العقوبة والسجن، أم القبول بلعب دور قيصر عموم روسيا.

احتضن معسكر توشينو مجموعة أشخاص من جنسيات ومناطق مختلفة (روس، بولنديون وتتار، والقوزاق)، ومن مناطق عدة من الدون، زابوروجيه والفولغا. لقد جمعت المصيبة والكراهية والحقد لشويسكي جميع هؤلاء تحت راية المحتال

---

(١) Орлов А.С., Георгиева Н.Г., Георгиев В.А.Исторический словарь.2-е изд,М., 2012, с.279.

أورلوف أ.س. غيورغيفا ن.غ. وغيورغيفا ف.أ. القاموس التاريخي، الاصدار الثاني، موسكو ٢٠١٢، ص.٢٧٩.

(٢) Большая энциклопедия русского народа - http://www.rusinst.ru. .Советская историческая энциклопедия.В 16 томах, М.: Советская энциклопедия1973—1982..Том 8, КОШАЛА – МАЛЬТА,1965.

الجديد، واجتاحت تفكيرهم الرغبة في كسب الأموال والحصول على المزيد من الامتيازات.

هاجم المحتال موسكو على حين غرّة، لكنه واجه مقاومة عنيدة من الجيش القيصري، حينها قرر محاصرة وإغلاق كافة الطرقات المؤدية إلى المدينة، خصوصًا طرق الإمداد، وتلك التي تربط المدينة بالأقاليم الأخرى.

وفي سبيل التفرغ لمواجهة المتمردين، توجه فاسيلي شويسكي إلى ملك السويد شارل التاسع طلبا للدعم، فأرسل الأمير سكوبين للتفاوض مع السويديين في نوفغورود، وخلال المفاوضات أظهر سكوبين موهبته كمفاوض محنك وعبقري، إذ تمكن من إقناع السويديين بتجنيد ما يقرب من ١٥٠٠٠ أجنبي للقتال إلى جانب الجيش الروسي بينهم سويديون واسكتلنديون، وآخرون من جنسيات أوروبية، كما تمكن من حشد حوالي الثلاثة آلاف من الشبان الروس في الأجزاء الشمالية. في العاشر من أيار عام ١٦٠٩، تحركت قواته انطلاقًا من نوفغورود باتجاه موسكو لتطهيرها من الغرباء، وتمكن خلال مواجهات عدة من تحطيم القوة الرئيسية للعدو، في ١٢ آذار ١٦١٠، دخل الأمير سكوبين موسكو منتصرًا فاستقبله الناس مهللين فرحين حاملين إياه على الأكف[١].

عاد النشاط والحيوية إلى توشينو بعد وفاة سكوبين شويسكي الغامضة إثر موجة خلافات مع القيصر بسبب طموحات سلطوية اعتبرها القيصر فاسيلي طموحات غير مشروعة، وترددت شائعات أنه مات مسمومًا، لكن هذه الواقع لم تتأكد، فيما ترددت شائعات أنه مات بسبب حمى قاتلة[٢]، وفيما شعر الدجال ديمتري الثاني وفاسيلي شويسكي بقلق وعدم اطمئنان، كل في عاصمته (موسكو وسمولينسك)، أعلن الملك البولندي سيغوزموند الثالث الحرب على روسيا في أيلول عام ١٦٠٩، وذلك احتجاجا على التدخل السويدي في الأوضاع الداخلية الروسية، فتدخلت قواته عسكريًا وحاصرت مدينة سمولينسك، حينها قام البولنديون ومعهم شركاؤهم الروس في توشينو بالتفاوض مع الملك الغازي، وانتهت بوضع الدجال الثاني تحت الإقامة الجبرية، لكنه تمكن لاحقًا من الفرار

(١) فاليشيفسكي.ك.ف. (VALICHEFSKI.k.f). أيام القلاقل،دار ديريكت ميديا (Direct.Media)، موسكو - برلين، ٢٠١٦. ص.ص. ٣٣١ - ٣٣٢.

Валишевский К. Ф.Смутное время., Москва- Берлин: Директ-Медиа,2016,Ст.,331-332

(٢) سكرينيكوف روسلان غرغورييفيتش (skrinnikov.R.G) فاسيلي شويسكي، https://rusidea.org/25050602

من توشينو إلى كالوغا، حيث استطاع هناك استمالة بعض المؤيدين له من الروس والقوزاق والبولنديون، ليخوض هذه المرة حربا على جبهتين: جبهة ضد شويسكي وأخرى ضد الملك سيغوزموند، وفي خضم المعارك التحق الكثير من رجال القيصر بقائدهم في سمولينسك، فيما هرب الدجال ومناصريه إلى كالوغا. ارسل فاسيلي شويسكي الأمير ديمتري ايفانوفيتش شويسكي لقتال البولنديين مع قوة من المرتزقة الأجانب بقيادة القائد السويدي الكونت ديلاغاردي، وفي ٢٤ حزيران تم القضاء على قوات ديمتري شويسكي في معركة خاضها مع «الهيتمان» البولوني جولكيفسكي في قرية كلوشين على مقربة من موجايسك، وكان من بين أسباب الهزيمة خيانة المرتزقة الأجانب قائدهم، بسبب تمنعه عن دفع مرتباتهم بحجة شح المال، يمكن القول أن هزيمة شويسكي في كلوشين وضعت النقاط على الحروف في حياة ومستقبل فاسيلي شويسكي لاحقًا، حيث أستغل البويار هذه الهزيمة الساحقة ليحوكوا مؤامراتهم مجددًا.

أرسل الأمير فوروتينسكي للتفاوض مع شويسكي بغية إقناعه بالتنحي، فتمكن من انتزاع موافقته على ذلك مقابل الاكتفاء بسيطرة محدودة على ما تبقى له في نيجني نوفغورود، لكن البويار سرعان ما انقضوا على قصره وقاموا بخلعه عنوة وشكلوا حكومة مؤقتة برئاسة البويار مستيسلافسكي التي وقعت على معاهدة الاستسلام الكامل أمام الملك البولوني سيجيزموند الثالث، الذي نصب ابنه ووريثه الأمير فلاديسلاف حاكما على الدولة الروسية، أمافاسيلي شويسكي فقد تم حلق شعر رأسه هو وزوجته، وأرسلا إلى وارسو العاصمة البولونية كأسرى حرب، وأجبرا على الركوع أمام عرش الملك البولوني سيجيزموند الثالث، وقبلا أطراف ثوبه بطريقة مذلة بحضور ممثلي الدول الأوربية وسفرائها..

القلاقل: الحقبة الثالثة:

بعيد انتشار المعلومات عن تنحي شويسكي، أصبحت موسكو تحت حكم البويار السبعة[1]، وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث العاصفة لعزل

(١) تضمن تكوين Boyars السبعة أعضاء في Boyar Duma : الأمير فيودور إيفانوفيتش مستيسلافسكي (؟ - ١٦٢٢). الأمير إيفان ميخائيلوفيتش فوروتنسكي (؟ - ١٦٢٧). الأمير أندريه فاسيليفيتش تروبتسكوي (؟ - ١٦١٢). الأمير أندريه فاسيليفيتش جوليتسين (؟ - ١٩ مارس (٣١)، ١٦١١). الأمير بوريس ميخائيلوفيتش ليكوف أوبولينسكي (١٥٧٦ - ٢ يونيو ١٦٤٦). بويار إيفان نيكيتيش ومانوف (؟ - ٢٣ أكتوبر ١٦٤٠). بويارين فيدور إيفانوفيتش شيريميتيف (؟ - ١٦٥٠).

شويسكي، كان ديمتري الثاني يحشد قواته في كالوغا للزحف على موسكو، تحرك جيش الملك هيتمان ستانيسلاف زوليكوفيسكي من جهة الشرق وكان في نيته تنصيب ولي عهده الملك فلاديسلاف على العرشتبعًا لما نصت عليه اتفاقية بويار توشينو والملك سيجيسموند الثالث. في ظل هذه الأوضاع المحتدمة، قويت العصبيات الحزبية الموالية لبولونيا، فأبرم مجلس البويار الحاكم ومجلس المدينة اتفاقًا في ١٧ آب ١٦١٠، مع جولكوفسكي قضى بالإقرار بعدم انتخاب ممثل عن الأسر النبيلة الروسية قيصرًا، بل تتويج الملك البولندي فلاديسلاف ملكًا على العرش، شرط اعتناقه للأرثوذوكسية.

أدى دخول البولنديون إلى موسكو إلى إنهاء فترة حكم البويار السبعة[١]. وسيطر البولنديون على مفاصل الدولة فنصبوا رجالاتهم في الإدارة وبينهم عددًا كبيرًا من الأعوان الروس المؤيدين للملك، لكن سيجيزموند الثالث تملص من كافة بنود الاتفاقية الروسية– البولونية ليضرب عرض الحائط بمطالب المبعوثين الروس التي قضت بفك الحصار عن سمولينسك المستمر منذ سنتين، معربًا عن رغبته الشخصية باعتلاء عرش موسكو، كما أعلن عن رغبته إنشاء الاتحاد الروسي البولوني (أونيا). وبسبب هذا الموقف المستجد تم نقل السلطة فعليًا إلى قائد الحامية البولندية بالنيابة عن الملك ألكسندر، الذي اعتمد سياسة توزيع الأراضي بسخاء على أنصار سيجيزموند، كما صادر أراضي أعدائه الروس، ونهب خزينة الدولة وضيّق الخناق على أهالي المدينة. أما بالنسبة للسويد فقد انقلبت أيضًا على معاهدة الصلح التي عقدتها مع القيصر المخلوع فاسيلي شويسكي، واحتلت مساحات كبيرة من الأراضي الروسية الشمالية، ففي شهر تموز احتلت القوات السويدية مدينة نوفغورود، ثم حاصرت مدينة بسكوف وأضحت روسيا دولة محتلة من قبل دولتين جارتين، دولة على حافة الانهيار، أمام تحديات جديدة واضطرابات سياسية، فبرز خطر ضم روسيا إلى مملكة رتش بوسبوليتا (البولونية – الليتوانية الموحدة)[٢].

تسارعت الأحداث بشكل كبير، وبدأت تتشكل في المدن النواة الأولى لحركة المقاومة الشعبية، التي كان لولبها أحد نبلاء

(١) مفهوم السبعة Boyars هو الاسم الذي اعتمده المؤرخون للحكومة الانتقالية في روسيا، من حزيران إلى كانون ألأول ١٦١٠، وظلت سائدة رسميا، حتى تم تتويج القيصر ميخائيل رومانوف على العرش.

(٢) كيريل كوشجاروف. صراع مجموعات البويار حول خطط زواج القيصر بيتر والعلاقات الروسية البولندية في ١٦٨٤ – ١٦٨٩. روسيا وبولندا وألمانيا في السياسة الأوروبية: تجربة التفاعل التاريخي وضرورات التعاون. موسكو ٢٠١٢.

ريازان بروكوفيه بيتروفيتش لايبينوف، الذي كان أحد قادة حركة التمرد التي قادها بولوتنيكوف في السابق، وأعلن أن هدفها الأول تحرير موسكو من الغزاة البولنديون.

لقد حظيت هذه الحركة بدعم كبير من البطريرك هيرموجين، الذي أرسل مبعوثيه إلى كل الديار الروسية داعيًا للثورة والتمرد على الحكومة الجديدة وطرد الغزاة الأجانب[١].

تكونت حركة المقاومة الشعبية الروسية من عناصر غير متجانسة، القوزاق والتتار الذين كانوا تحت قيادة البوبار توشينسك، الأمير ديمتري تيموفيفيتش تروبيتسكوي، والأتامان إيفان مارتينوفيتش زاروتسكي.

أثار النشاط الوطني الكبير للبطريرك هيرموجين، مشاعر الاستياء والسخط والغضب لدى الغزاة البولنديين كما لدى أعوانهم الروس، إذ طالب البوبار سولتيكوف[٢]، البطريرك بالكف عن دعم المقاومين، كما طالبه أن يجبرهم على وقف نشاطهم ضد الحكم في موسكو، لكن «الفلاديكا» بطريرك عموم روسيا رفض بشكل حازم هذا الطلب وأبى الرضوخ لطاعة الملك، إلا في حالة واحدة فقط، وهي معموديته وإعلانه اعتناق الأرثوذوكسية، ما أغضب سولتيكوف فاستل خنجره مهددًا بقطع رأسه لكن الأخير لم يجزع لاعنًا إياه، فصدرت أوامر باعتقال البطريرك وسجنه في سجن المعجزات، كما تم اعتقال عددًا آخر من البوبار السبعة، وهم الأمير إ. م. فوروتنسكي وأ. غوليتسين[٣].

إثر سلسلة من الحداث والانقسامات داخل حركة المقاومة الشعبية، تصدر الكفاح المسلح ضد الغزاة البطريرك هيرموجين نفسه، الذي توجه بنداء في ٢٥ آب ١٦١١، إلى جميع السكان والبوبار في كافة المناطق داعيًا إلى مكافحة السلب والسرقة، والتحلي بالنقاء والصفاء الروحيين وتغليب الأخوة على ما عداها والتفكير في كيفية تنقية النفوس لشحذ الهمم وبذل الجهود من أجل تطهير البيت من الغرباء المحتلين، ومن أجل رسوخ الإيمان المسيحي الذي تدعو إليه الكنيسة»[٤].

---

(١) Православная богословская энциклопедия. Том 4, стлб. 317. Издание Петроград. приложение к духовному журналу "Странник" за 1903 г. Орфография современная

(٢) ميخائيل غليبوفيتش سالتيكوف، الملقب كريفوي Krivoy، الأعرج (توفي قبل ١٦٢١)،إحدى شخصيات زمن الاضطرابات، ورئيس القسم الموالي لبولندا من الأرستقراطية الروسية.

(٣) Салтыков // Малый энциклопедический словарь Брокгауза и Ефрона : в 4 т. — СПб., 1907—1909.

(٤) Шокарев Сергей Юрьевич.Смутное время в Москве,Редактор: Скороход А. А.. Издательство: Вече, 2013 г.,Серия: От Руси к Империи.
شوكاريوف س.ي. الاضطرابات في موسكو، تحرير، سكورخود أ.أ، دار فيتشسه، سلسلة: من روس إلى عصر الإمبراطورية.

لاقى هذا النداء صدى واسعًا واستجابة كبيرة في نيجني نوفغورود، فتولى قيادة الحركة هناك رئيس لجنة الزيمسكي المحلية، تاجر اللحوم كوزما مينين زاخارييف، الذي تمكن من جمع الأموال لتنظيم الميليشيات المقاتلة، وعين على رأس مجموعة الثوار الأمير ديمتري بوزارسكي، الذي اشتهر بمآثره البطولية في الدفاع عن بقعة فيدينسك في لوبيانكا ضد البولنديين، وتدريجيًا بدأت تنضم إليه مجموعات من سائر المناطق ومن مختلف الفئات الذين كانوا يتلقون الرواتب والتجهيزات اللازمة للقتال من أموال التبرعات التي جمعها زاخارييف، حيث أعلن عن تشكيل جيش وطني موحد تحت قيادة المجلس الوطني لعموم الأراضي الروسية، الذي رفض الاعتراف باعتلاء الأجنبي العرش الروسي، وطرح مهمة تحرير العاصمة موسكو من السيطرة البولونية فاندفعت المجموعات نحو موسكو لمهاجمتها عبر مدن الفولغا– بالاخنا – غورودیتس – كوستروما، وبحلول نهاية آذار ١٦١٢، دخلت ياروسلافل، وفي خلال تحريرهم للمدن كانوا يرسلون الموفدين إلى المدن بهدف التعبئة والدعوة للانخراط في القتال وبحركة الزيموفستوات المحلية، كما أرسلوا فرقًا صغيرة لتطهير بعض المدن والنواحي وتحصينها بهدف الدفاع عنها في مواجهة الوحدات البولندية وحلفائهم القوزاق[١].

وصلت طلائع الوحدات القتالية للميليشيا الثانية موسكو في تموز ١٦١٢، حيث أقاموا معسكرًا على مقربة من المدينة، في نهاية تموز أدرك زاروتسكي أنه مع وصول هذه الوحدات، لن يفقد نفوذه فحسب، بل قد يفقد حياته أيضًا، فتراجع إلى كولومنا، حيث كانت تعيش مارينا منشيشيك، حيث أمر بنهب المدينة، وتوجه إثرها إلى ريازان واحتل مخائيلوف. في هذا الوقت وصلت إلى موسكو انطلاقا من ياروسلافل القوة الرئيسية بقيادة الأمير ديمتري بوجارسكي، الذي استعجل الوصول إلى المدينة، كي يسبق الأتامان هودكوفيتش، الذي هبَّ لمساعدة الحامية البولندية المحاصرة في الكرملين.

داهم الجوع الحامية البولندية وجميع الذين كانوا في الكرملين من البويار السبعة وخدمهم، وعائلاتهم، ورجال الدين والكتبة وموظفو الجهاز الإداري، وغيرهم.. مع ذلك، قاوم البولنديون بشدة، وقاموا بغارات

(١) Платонов С. Ф. Очерки но истории смуты в Московском государстве XVI—XVII. Изд. 3-е. М., 1937. С. 306—313.

بلاتونوف سيرغي فيودوروفيتش (Platonov S.f) مسائل في تاريخ الاضطرابات في موسكو في القرن السادس عشر – السابع عشر. الإصدار ٣. موسكو ١٩٣٧. ص٣٠٦ – ٣١٣.

وهجمات مضادة رافضين الاستسلام، وفي ٢٢ تشرين الأول، طرد القوزاق البولنديون من حي الصين، وفي نهاية المطاف بعد أن وصل البولنديون إلى حالة من اليأس والإحباط دخلوا في مفاوضات للاستسلام وتسليم المدينة مقابل الحفاظ على حياتهم. في ٢٧ تشرين الثاني دخل الثوار الكرملين رافعين الصلبان والأيقونات والرموز الدينية الأرثوذوكسية، وهكذا تم تحرير المدينة نهائيًا من الغزاة البولنديين[١].

في تشرين الثاني عام ١٦١٢، أرسل قادة وحدات الميليشيا الشعبية الثانية، مبعوثيهم حاملين رسائل إلى المدن داعين لاجتماع عام لمجلس الدولة الروسية الزيمسكي (زيمسكي سوبور)، بهدف خلع القيصر عن العرش وتجريده وعائلته من كافة حقوقهم.... وشارك في الاجتماع ممثلي جميع الفئات الاجتماعية، باستثناء الخولوبي وفلاحي الإقطاعيين، واستمرت أعماله أكثر من شهر نوقشت خلاله مسألة انتخاب قيصر جديد للدولة الروسية، حيث تخلل النقاشات سجالات حادة من بينها احتمال الخضوع للعرش السويدي، إلى أن حسم الأمر لصالح المحافظين مناصري الكنيسة الأرثوذكسية، وانتخب ميخائيل رومانوف نجل المطران فيودر رومانوف قيصرا على الدولة الروسية، واعتبر هذا الاجتماع الذي انعقد في عام ١٦١٣ الأكثر تمثيلا في تاريخ روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

لقد اتخذ المجلس قرارًا تاريخيًا: «تجريد كل ملوك ليتوانيا وورثتهم من حقهم الوراثي بالعرش ومنع انتخابهم لأي منصب وكذلك مارينا منيشيك وابنها، بسبب أكاذيبهم وأباطيلهم ومصادرتهم ملكيات نبلاء دوقية موسكو»[٢].

وضعت لائحة بأسماء كل المرشحين،وبعد المداولات تم استبعاد مرشحي البويار السبعة، رومانوف، وشيريميتيف ف.ي.، وكان النصيب الأوفر للمرشحين الذين كانوا نبض حركة الميليشيا الثانية الشعبية الأمير تروبيتسكوي، الأمير تشيركاسوف، الأمير برونسكي[٣].

---

(١) Бибиков Г. Н. Бои русского народного ополчения с польскими интервентами 22—24 августа 1612 г. Под Москвой,.Историческая записка — М.: 1950. — Т. 32.
بيبيكوف غينادي نيقولاييفيتش (Bibikov G.N.) معارك الميليشيات الوطنية الروسية مع الغزاة البولنديين في ٢٢ - ٢٤، آب ١٦١٢ بالقرب من موسكو. مجلة ملاحظة تاريخية. موسكو: ١٩٥٠. - العدد ٣٢.

(٢) Платонов С. Ф., Сочинения по русской истории., СПб., 1899. — 665с
بلاتونوف سيرغي فيودوروفيتش. . مسائل في التاريخ الروسي، سانت بطرسبورغ، ١٨٩٩، عدد الصفحات ٦٦٥.

(٣) بلاتونوف المصدر نفسه.

نجحت حملة تروبيتسكوي الدعائية، لكنه فشل في الحصول على العدد الكافي من الأصوات في الجلسة الأولى، واشتد التنافس في الدورة الثانية بظهور مرشحين جدد: الأمير رومانوف، الأمير د. شيركاسكي، الأمير إ.إ. شويسكي، الأمير السويدي كارل فيليب. وبعد مشاورات حامية وبفضل الدعم الحاسم للقوزاق، حاز ميخائيل فيدوروفيتش رومانوف على أكثرية الأصوات، بفضل صلة القرابة بالسلالة القيصرية السابقة (ابن أخ القيصر فيودور إيفانوفيتش)، وبسبب عدم تورطه في أعمال الفتن والاضطرابات.

كتب المؤرخ غوميلوف[١]: لقد كان انتخاب شخص من أسرة رومانوف من مصلحة الجميع وتوافق مع مصالح الجميع، فلربما ومن أجل توحيد البلاد والرغبة في إعادة الوضع إلى حالة الاستقرار والوفاق الوطني، كان لا بد من شخصية محايدة غير نافرة ومحافظة. لقد انتصبت أمام القيصر الجديد مهمة التغلب على نتائج عصر القلاقل والاضطرابات وإعادة تقييم نتائجها، ولعبت صلات القرابة والنسب أهميتها، فقد كان المطران فيودر رومانوف شقيق القيصرة أناستاسيا زوجة القيصر إيفان الرهيب، الذي له علاقات واسعة مع مختلف الأمراء والبويار الروس، ويتمتع بنفوذ قوي في داخل الكنيسة الروسية الأرثوذوكسية، كما كان ينظر إليه على أنه أحق من بوريس غادونوف في اعتلاء العرش بعد وفاة ابن أخته القيصر فيودر ايفانوفيتش..هكذا بدأ عصر آل رومانوف[٢].

سعى القيصر الجديد إلى تدعيم حكمه، من خلال قمع الحركة القوزاقية في الجنوب في الدون الأعلى بقيادة إيفان زاروتسكي الذي رفض الانصياع إلى سلطة القيصر الجديد،ودعا إلى الاعتراف بسلطة القيصر إيفان ابن ديمتري الدجال الثاني وزوجته مارينا ميتشيك، هذا الأمر جعل من الدون المسرح الرئيسي للحرب الأهلية في روسيا، حيث اندلعت المواجهة بين مؤيدي القيصر ميخائيل فيودوروفيتش رومانوف والأتمان إيفان مارتينوفيتش زاروتسكي.

زحفت قوات زاروتسكي نحو مدينة استراخان، وسيطرت عليها وهناك جرت مراسم تنصيب القيصر إيفان ابن ديمتري الكذاب الثاني، وكان عمره أربعة سنوات، ويبدو أن صغر سن إيفان وبعد المسافة عن الحدود البولونية سمحا للقوات

(١) غوميلوف (L.N. Gumilev)، نفس المصدر أعلاه.

(٢) Матусевич В.Д.//Лица ушедшей России//Наше наследие. - № 71 2004, с. 158-163.
ماتوسيفيتش ف.د. شخصيات الماضي الروسي. مجلة مورثنا، العدد ٧١، ٢٠٠٤، ص.ص. ١٥٨ - ١٦٣.

الروسية الموالية للقيصر ميخائيل رومانوف يقمع حركة زاروتسكي القوزاقية بعد سلسلة من المعارك العنيفة، حيث تم قتل الأتمان، وألقي القبض على مارينا مينشيك وابنها إيفان، وتم إعدامهما في الساحة الحمراء في موسكو، وفي الوقت نفسه أحكمت السلطة القيصرية الجديدة سيطرتها على الحركة القوزاقية الجنوبية من خلال عقد اتفاقات جماعية مع أبرز أتمانات القوزاق منحتهم بموجبها مساحات واسعة من الأراضي الجنوبية، شرط الولاء للعرش القيصري الروسي، وتأدية الخدمة العسكرية لديها[1].

لقد شكلت الاضطرابات مرحلة من أسوأ المراحل في التاريخ الروسي الحديث، لكنها أرست توافق جميع الفئات الاجتماعية على منح السلطة لسلالة جديدة بدل القديمة تقوم بإدارة البلاد ضمن عقلية محافظة كنسية، وترسيخ نزعات نمط استبدادي يبدو أنه كان ضروريا لاستكمال روسيا مسيرة طويلة طبعتها الكثير من التحديات الداخلية والخارجية.

نتائج حقبة القلاقل والفتن:

مع بدء انتهاء مرحلة القلاقل والاضطرابات المسماة «سموتا»، كانت خسائر روسيا قد تراجعت إلى حد كبير، ومع ذلك،بعد انتصار مينين وبوزارسكي، تراجع مستوى إراقة الدماء إلى حد كبير، ولم ينتشر الإرهاب ولا تصفية الحسابات والانتقام من الخونة، التي عادة ما تترافق مع الحروب الأهلية وعند نهايتها. ولا يمكن تفسير هذا إلا لسبب واحد، وهو أنه رغم كل الظروف التاريخية والأوضاع المريعة التي مرت بها روسيا في تاريخها الحديث، ظلت الأرثوذوكسية كعقيدة ودين عامل كبح أثر على أنماط التفكير والسلوكيات. قد نوافق وقد لا نوافق على هذا الاستنتاج، إلا أنه من الصعوبة بمكان فهم: لماذا لم يسمح مثلاً ديمتري بوزارسكي للقوزاق بكسر البويار (ومن بينهم أسرة رومانوف)، الذين غادروا الكرملين وهم الذين شاركوا البولنديون المحتلون شؤون البلاط والحكم؟!

كيف استطاعت روسيا أن تسامح من كانوا في مناصب ومراكز رفيعة في الإدارة والحكم، الذين نادوا بفلاديسلاف البولندي للجلوس على العرش، ومن كانوا على استعداد لقبول سيجيسموند ملكا؟! سؤال، لن يجد جوابًا له إلا بترفع النفس واستعداد عامة الشعب للتسامح.

(١) ستانيسلافسكي أ. الحرب الأهلية في روسيا في بداية القرن السابع عشر: القوزاق عند نقطة تحول التاريخ. موسكو، ١٩٩٠. ص٤٨-٥٠.

في دوامة الحرب الأهلية المستعرة، وفي خضم الصراعات الاجتماعية والتناقضات السياسية، بدأت ترتسم ملامح بعض الاتجاهات التي تؤشر إلى التخلص من مفاعيل عصر العبودية والرق، فالقوزاق الأحرار باعتبارهم طبقة من المحاربين – ملاك الأراضي، باتوا الآن بحاجة إلى علاقات إنتاج جديدة،إنَّ أول شيء قامت به الحكومة هو إعادة العمل بالقوانين التي تجيز استعادتهم من قبل مالكيهم بالقوة، وفرض حظر على انتقالهم[١]، وقلصت تدريجيا حقوق الفلاحين في الانتقال من مالك إلى آخر، مع فرضها عقوبات صارمة على من يمارس الاسترقاق، ووضعت أعباءً ضريبية باهظة على الفلاحين، الذين كانت نسبتهم أكبر مئة مرة في منتصف القرن ١٧، منذ قرن سبق، بالإضافة إلى ذلك، أغرقت الطبقة المتوسطة المدنية، من التجار والحرفيين بالضرائب ومثلهم العبيد، الذين منعوا من التنقل وتغيير مقر إقامتهم، وأخضعت جميع قطاعات السكان للخدمة العسكرية وفرض عليها ضرائب خاصة[٢].

تجدر الإشارة إلى أنه مع اكتشاف الروس للمناطق الجديدة في الفولغا، هرع مجموعة من الفلاحين إلى هذه المناطق من مناطق وسط روسيا سعيًا للهرب من الضريبة التي تفرضها الحكومة كما الملاك؛ لقد أدى هذا النزوح لهذه القوة العاملة الضخمة إلى أزمة اقتصادية غير مسبوقة، وكلما ازداد أعداد المغادرين زادت نسبة حيازة الأراضي، وزاد عدد الفلاحين الخاضعين لسلطة ملاك الأراضي، وأدى النقص في العمال إلى إجبار ملاك الأراضي على زيادة الضرائب والرسوم المفروضة على الفلاحين والسعي بكل الوسائل للاستحواذ على عدد من السكان الفلاحين الذين وضعوهم في عهدتهم.

في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ساهمت العديد من الظروف الخارجية والداخلية في زيادة حدة الأزمة ونمو الفقر ومنها حرب الليفونية التي استمرت ٢٥ عامًا وانتهت بالفشل التام، وغزو التتار وهزيمة موسكو عام ١٥٧١ التي زادت من الخسائر، كما تسببت الأوبرشينا (سياسة التدابير القمعية غير العادية ومصادرة الممتلكات الإقطاعية والأراضي لصالح الدولة، ومكافحة الخيانة المزعومة بين

(١) Боханов Александр Николаевич. История России с древнейших времен до конца XVII века
بوخانوف ألكسندر نيقولايفيتش. تاريخ روسيا من العصور القديمة حتى نهاية القرن السابع عشر. دون تاريخ.

(٢) للاطلاع على مناقشة تطور البنية الطبقية في روسيا القيصرية، انظر سكوبول تيدا. الدول والثورات الاجتماعية: تحليل مقارن لفرنسا، وروسيا، والصين. كامبردج يو،الصحافة، ١٩٨٨.

النبلاء) التي نفذها إيفان الرهيب، إلى اهتزاز العلاقات السائدة بين الطبقات الاجتماعية خاصة في مناطق «أوبريتشنيا»[1]، كما زادت من عمق الانقسام العام وحالة الإحباط.

تركت الاضطرابات آثارًا على موقع روسيا الدولي، فبعد فشل السويديون في معركة بسكوف في عام ١٦١٧، أجبروا على التوقيع على معاهدة ستولبوفو Stolbovo، استعاد بنتيجتها الروس نوفغورود، لكنهم خسروا كامل ساحل فنلندا، وفقدت إمكانية وصولهم إلى بحر البلطيق. بعد مرور مائة عام تقريبًا تغير هذا الوضع، أي في بداية القرن الثامن عشر عندما تسلم بطرس الأكبر العرش ولم تتمكن السويد من التصالح مع فكرة إبعاد روسيا لها عن الكومنولث البولندي الليتواني. في عام ١٦١٨، غزا البولنديون روسيا مرة أخرى لكنهم هزموا، وانتهت المغامرة البولندية بهدنة في قرية ديولينو في نفس العام. ومع ذلك، فقدت روسيا مدينة سمولينسك ومدن أخرى في الشمال، لتتمكن من استعادتها في منتصف القرن السابع عشر.

لقد نجت الدولة الروسية في زمن الاضطرابات وحكم القياصرة الضعيف بسبب قوة الإدارة والإرادة، التي مكنتها من البقاء في ظروف تقسيم البلاد إلى معسكرات متخاصمة، وفي ظل غياب حكومة مركزية شرعية قوية تسببت بها صراع الأسر والسلالات الذي أدى إلى فقدان الكثير من الأراضي وضمها إلى الكومنولث البولندي اللتواني في الحرب الروسية البولندية، وكذلك إلى الإمبراطورية السويدية في حرب انغريا[2].

رغم ذلك بقيت تعمل بعض المؤسسات خصوصا الزيمسكي سوبور، وأيضًا مجالس المتطوعين المحاربين، بكل مكوناتها الاجتماعية الواسعة جدًا مع تعزيز مبدأ الانتخابات الحقيقية وزيادة الصلاحيات بشكل ملحوظ، بما فيها وظائف السلطة التنفيذية، فلمدة عشر سنوات تقريبًا عملت هذه المجالس على تأمين تدفق الأموال، وشكل عمل المؤسسات التمثيلية في المدن إنجازا بحد ذاته.

---

(١) Опричнина. в Большой российской энциклопедии
أنظر الأبروتشينا في الموسوعة الروسية.

(٢) الحرب الليفونية (١٥٥٨ – ١٥٨٣) خيضت من أجل السيطرة على ليفونيا قديمة الواقعة حاليًا في أرضي إستونيا ولاتفيا عندما حاربت قيصرية روسيا تحالفًا متغيرًا من الدنمارك – النرويج، ومملكة السويد، واتحاد (لاحقًا كومنولث) دوقية لتوانيا الكبرى ومملكة پولندا.

الخلاصة:

إن عصر الاضطرابات هو عصر الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، عصر أزمة السلطة، الذي تقاطع مع تدخل أجنبي أدى إلى كارثة وطنية.

لقد أماط بحثنا اللثام عن وقائع تمازج مؤامرات البلاط بالتدخل الأجنبي وبحاجة البلاد إلى شخصية تاريخية افتقدت إثر وفاة إيفان الرابع الرهيب، فتميزت الحرب الأهلية التي اندلعت في القرن السابع عشر بفائض العنف والموت والدمار.

مما لا شك فيه أن القلاقل زادت في مستوى الوعي الوطني وإدراك مخاطر هذه الأحداث على استقلال البلاد وسلمها الأهلي،فحتى في فترات الفوضى الاجتماعية والانهيار السياسي ظهرت الرغبة الشديدة في استعادة استقلال ووحدة الدولة، لتصبح هذه النزعة أقوى من النزعات التي ساهمت في تفكك المجتمع الواحد، صحيح أن الثمن كان فادحًا، وصحيح أكثر أنَّ نهاية الحرب الأهلية لم تخفف من حدة الانقسام في إلا أن التغلب على العواقب في الاقتصاد، والتنمية المحلية، والسياسة الخارجية، وفي تقدم الحضارة الروسية تطلب جيلين أو أكثر لتجاوز نتائجها، كما احتاج الأمر إلى قرن من الزمن كي تنتقل روسيا في أوائل القرن الثامن عشر إلى مرحلة إصلاحات بطرس الأكبر.

لم يكن وقت الاضطرابات ثورة بقدر ما كان صدمة كبيرة لحياة دقية موسكو، فبالإضافة إلى الدمار والخراب الذي لحق بالبلاد، أضعفت هذه المرحلة قوة وتأثير البويار، الذين إما قتلوا في عواصف «الاضطرابات» أو تقهقروا جزئيًا، ذلك أنهم هم من تسبب بتدهور سمعتهم وتشويه صورتهم بسبب مؤامراتهم وتحالفهم مع أعداء الدولة والشعب.، كما أظهرت قدرة بعض القوى على حشد طاقاتها لإنقاذ البلاد من حالة الدمار، وأظهرت بشكل لا لبس فيه أن دوقية موسكو لم تنشأ بقرار من حكامها، بل كانت ولادتها ضرورة تاريخية نما في الوعي الجمعي لكل المدن والمقاطعات الروسية ولدى الشخصيات الذين شكلوا نواة بناء الدولة الروسية العظيمة.

المراجع

- باللغة العربية:

١ – ألكسييف وكارتسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي، دار التقدم، موسكو، د.ت.

٢ – ستانيسلافسكي أ. الحرب الأهلية في روسيا في بداية القرن السابع عشر: القوزاق عند نقطة تحول التاريخ. موسكو، ١٩٩٠.

٣ – سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة، ١٩٧٢.

٤ – عبد المجيد نعني، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة، ١٤٥٣–١٨٤٨. بيروت ١٩٨١.

٥ – عمر محمود شعار. روسيا في مرحلة الفتنة. مجلة الفيصل، العدد ٣٤٦، ٢٠٠٥، ص.ص١٥,–٣٣.
٦ – قراءات عن تاريخ الاتحاد السوفياتي. المجلد ١. «مجموعة من رسائل ومعاهدات الدولة»، المجلد الثاني، العدد ١٤١، ص ٢٩٩ – ٣٠٠. أنظر وثيقة القيصر فاسيلي شويسكي (١٦٠٦).
٧ – كلوتشيفسكي. ف.أ. (Klyuchevsky V.O). التاريخ الروسي، سلسلة محاضرات، موسكو، ٢٠٠٤.
٨ – كوتوشيخين غرغوري كاربوفيتس (Kotoshikhin G.K). روسيا في عهد أليكسي ميخائيلوفيتش. النص الأصلي باللغة الروسية، من اعداد ج. أ. ليونتييف.، موسكو، ٢٠٠٠.
٩– كوستاماروف ن.إ. التاريخ الروسي في سير شخصياته الرئيسية.، موسكو، ٢٠٠٦، القسم الأول: هيمنة أسرة القديس فلاديمير. الفصل ٢٣. بوريس غودونوف.
١٠– كيريل كوشجاروف. صراع مجموعات البويار حول خطط زواج القيصر بيتروالعلاقات الروسية البولندية في ١٦٨٤–١٦٨٩. روسيا وبولندا وألمانيا في السياسة الأوروبية: تجربة التفاعل التاريخي وضرورات التعاون. موسكو ٢٠١٢.؛ موسكو، د.ت، ص٣١.
١١ – ليف نيقولاييفيتش جوميلوف. من روسيا إلى روسيا، موسكو ١٩٩٢.
١٢ – مجموعة مؤلفين، موجز تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.، ترجمة طه الصواف، موسكو، د. ت، ص ١٠٦.
١٣ – محمد شكري فؤاد، الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩– ١٨٤٨، مؤسسة هنداوي للتعلم والثقافة، المجلد الأول القاهرة ١٩٥٨,، ص. ٤٣.
١٤ – الموسوعة السلافية. القرن السابع عشر، موسكو، دار أولما برس، ٢٠٠٤.
١٥ – نجدة فتحي صفوة. هذا اليوم في التاريخ، بيروت، ٢٠١٦، م١،
١٦ – وال وابريل ديورانت. موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد علي أبو درة، دار نوبلس للنشر.
١٧ – يبيفانوف، فيدوسوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة: خيري الضامن ونيقولا الطويل، دار التقدم، د.ت.

مراجع باللغة الانجيليزية:

1- Auty, Robert, An Introduction To Russian History, (Cambridge University (Press,1968), p. 87; Beatrice, Forbes, Manz, Mongol History rewritten and relived, (TuflsUniversityMedford Mass, 2000), p.14, Jouranli: Revue des mon-desmusulmans by www.ivsl.org; Florins-ky,o-Encyclopaedirabia. 29 marsh 2008
3 - Manfered. A.z, Ashort History of The World, Progress Publishers, Volume.1, Moscow, 1974, p.428
4 - Moon, david, The Russian Peasantry 1600 - 1930: the Word the Peasants made, Routledge, 2014, p.44

مراجع باللغة الروسية ٢

1- Орлов А.С., Георгиева Н.Г., Георгиев В.А. Исторический словарь. 2-е изд, М., 2012

2- "Славянская энциклопедия. XVII век М.: Олма-Пресс, 2004.

3- Бибиков Г. Н. Бои русского народного ополчения с польскими интервентами 22—24 августа 1612 г. Под Москвой,. Историческая записка — М.: 1950

4- Большая энциклопедия русского народа http://www.rusinst.ru. .Советская историческая энциклопедия. В 16 томах, М.: Советская энциклопедия 1973—1982.. Том 8, КОШАЛА – МАЛЬТА, 1965

5- Боханов Александр Николаевич. История России с древнейших времен до конца XVII века

6- Бушуев С.В., Миронов Г.Е. История государства Российского: Историко-библиографические очерки. М., 1991. Кн. 1.

7- Валишевский К. Ф. Смутное время., Москва- Берлин: Директ-Медиа,2016

8- Завков М. О, русская земля! Из истории гос-ва российского //Вся Россия. - № 5 1993, с. 166 – 246

9- К.Ю.Резников.Мифы и факты русской истории. От лихолетья Смуты до империи Петра.,Издательство Вече,2012

10- Карамзин Н.М. История государства Российского. Т. 12. Глава I . http://magister.msk.ru/library/history/karamzin/kar12_01.htm

11- Ключевский В.О. Курс русской истории // Сочинения. В 9 т. М., 1989. Т 3 .

12- Ключевский В.О. Полный курс лекций., М., 2004.

13- Ключевский Василий Осипович. Курс русской истории/ Москва,1908.

14- корочкевич.А.Л. отечественные историки о государе. Зимин.А.А.Иван IV Грозном . "россия времен Ивана грозного", . М.1982. ст.151-174 .

15- Костомаров Н.И .Русская история в жизнеописаниях ее главнейших деятелей., 2006. Первый отдел: Господство дома Св. Владимира., Глава 23. Борис Годунов

16- Костомаров Н.И. Русская история в жизнеописаниях ее главнейших деятелей. В 2 т. М., 1998. Т. 1 .

17- Котошихин Г.К. О России в царствование Алексея Михайловича // Хрестоматия по древней русской литературе. М., 1952.

18- Кобрин, В. Б. Гробница в московском Кремле /Смутное время – утраченные возможности/ Кому ты опасен, историк? / Владимир Борисович Кобрин. — М.: Московский рабочий, 1992

19- Кулюгин А.И. Правители России. Чебоксары, 1994 .

20- Матусевич В.Д.//Лица ушедшей России//Наше наследие. - № 71 2004,

21- Михаил Вострышев. Все правители России -Наши предки.,М.2017

22- Никита Новский. Генезис русского казачества. https://syg.ma/@pannovsky/gieniezis-russkogho-kazachiestva. 21:07, 31 августа 2016

23- Олег Усенко. 17 самозванцев у русского трона., опубл.: // Родина. 2004. № 5. С. 65–69

24- Очищение от Смуты. Что стоит за новым красным днем календаря? //Родина. – 2005. - №11. – С.105.

25- Платонов С. Ф. Очерки но истории смуты в Московском государстве XVI—XVII. Изд. 3-е. М., 1937.

26- Платонов С. Ф., Сочинения по русской истории., СПб., 1899. — 665с

27- Платонов С.Ф. Лекции по русской истории. Петрозаводск, 1996 .

28- Платонов С.Ф. Полный курс лекций по русской истории. СПб., 2000

29- Православная богословская энциклопедия. Том 4, стлб. 317. Издание Петроград. приложение к духовному журналу "Странник" за 1903 г. Орфография современная

30- Пронин А.А.//Самозванцы: от Лжедмитрия I до Анастасии Романовой// Сельские новости. - № 3., 2002, с. 40-42.

31- Пушкарев С.Г. Обзор русской истории. М., 1991.

32- Салтыков // Малый энциклопедический словарь Брокгауза и Ефрона : в 4 т. — СПб., 1907—190

33- Скрынников Р.Г. Лихолетье: Москва в XVI-XVII веках. М., 1988.

34- Скрынников Р.Г. Лихолетье: Москва в XVI-XVII веках. С. 44

35- Скрынников Р.Г. Россия в XVII в. Смута. М., 1988 .

36- Скрынников Р.Г. Самозванцы в России в начале XVII века. Григорий отрепьев. Новосибирск, 1987.

37- Смирнов И. И., Восстание Болотникова 1606—1607, 2 изд., М.1951. И смотрите : Крестьянские войны в России XVII—XVIII вв., М.— Л.,1966.

38- Соловьев С.М. Об истории древней России. М., 1993.

39- Тихомиров Л.А. Монархическая государственность. М., 1998.

40- Хрестоматия по истории СССР .Том1 «Собрание государственных грамот и договоров», т. II, № 141, стр. 299–300 . КРЕСТОЦЕЛОВАЛЬНАЯ ЗАПИСЬ ЦАРЯ ВАСИЛИЯ ШУЙСКОГО .,(1606)

41- Шокарев Сергей Юрьевич . Повседневная жизнь Средневековой Москвы., М. ‹2012.

42- Шокарев Сергей Юрьевич. Смутное время в Москве, Редактор: Скороход А. А.. Издательство: Вече, 2013 г., Серия: От Руси к Империи

المشرق العربي - الهوية الجيوبوليتيكية

حنان ناصر(*)

يحكم الترابط المكاني في المشرق العربي أقدار مجموعة الدول العربية المتجاورة في الصفات الطبيعية والحضارية، فيجمعهم الكثير من التاريخ، والقليل من الجغرافيا، وتفرقهم السياسة الدولية، والنزعات الاستقلالية المحلية. وإذا كانت دراسة الجغرافيا السياسية ترتكز على المظاهر السياسية المرتبطة بسطح الأرض، ومدى التوافق الجغرافي بين الدولة المُنشَأة والأمة(١)، والمدى الذي تستند اليه في تأمين مواردها، وسواء أكان داخليًا أم خارجيًا، فمن الضروري التوجه بنظرة جيوسياسية للدول العربية التي ظهرت على ركام الولايات العثمانية. رغم وجودها قبل العثمانيين تاريخًا وجغرافيةً.

لقد جاءت هذه الدول كأمر واقع فرضته القوتين الاستعماريتين المتنافستين، فرنسا وبريطانيا، فاجتزأت كسور الحدود التاريخية للولايات، وجمعت شظايا ولايات وأقضية، فأسست دولاً ورسمت حدودًا هجينة، تفاوتت بين الجغرافيا الطبيعية للمشرق العربي، وبين الضرورة التي فرضتها المصالح. ولم يكن غريبًا نشوء دويلات لم تكن موجودة، ولا حتى على شكل قضاء أو ولاية، فكان اصطناعها السياسي لغاية استراتيجية، لا يراه سوى راسمي الحدود الرفيعة على خريطة الولايات العثمانية المندثرة بعد الحرب العالمية الأولى.

كان المشرق العربي، كما هو، ذا أهمية قصوى للدولتين العظميين، لأسباب مرتبطة بمواصلات ذلك العصر، ولأسباب ارتبطت بشكل أو بآخر بالموارد الجديدة المهيأة للاستثمار بشكل قوي، بعد التوجه الكبير حينها نحو النفط وتطور الصناعات وآلات النقل والحرب المرتبطة به. فكان المشرق

(*) طالبة ماستر قسم الجغرافيا.

(١) محمد عبد الغني سعودي، **الجغرافيا السياسية المعاصرة**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ٢٠١٠، ص٥.

العربي على الخريطة أكثر من مجرد صحراء وجبال وسهول وأنهار، بقدر ما كان «عالم الموارد النفطية» التي تتوق اليها كل من فرنسا وبريطانيا. ويقع هذا العالم المثير لشهية الاستعمار، في قلب الشرق العربي الكبير، المرتكز على التاريخ، والمتجاوز لحدود الجغرافيا على مساحة قارات العالم القديم.

لقد استقر المشرق العربي القديم على شكل جغرافي مستطيل، غير متجانس، في وسط الشرق التاريخي، والذي يشبه مثلثًا كبيرًا تمتد قاعدته بمحاذاة الحدود الشمالية لليونان وتركيا وإيران وأفغانستان، ويمتد ضلعه الأيمن من كشمير إلى الصومال عبر باكستان والبحر العربي، بينما يمتد ضلعه الأيسر من الصومال شمالاً في قوس خفيف الانحناء عبر السودان وليبيا في اتجاه وسط البحر المتوسط؛ وهذا التكتل المساحي الكبير لا يتكون من مساحات أرضية متصلة، بل تتخلله البحار والخلجان في أشكال واتجاهات مختلفة، كما لو كانت تريد أن تلتقي، وقد ساعدها الإنسان على الالتقاء في أضيق نقاطها، فشق قناة السويس مكونًا بذلك أكبر طريق مائي عالمي عبر الشرق الأوسط، وعلى وجه العموم فإن دول الشرق الأوسط الكبير في معظمها تشارك بصورة أو أخرى في الإشراف على ممرات العبور الدولية سواء الجبلية منها أو البحرية أو الجوية، مما يدعونا إلى أن نطلق عليه عالم العبور[1].

ووفق نظرية التطوّر التاريخي في نشوء الدولة[2]، يعتبر نشوء الدولة نتاج عوامل طبيعية وبشرية تطورية تتضافر فيها عوامل متميزة. ويبدو أن دول المشرق العربي ارتسمت معالمها على عوامل خارجية، مع أنّه من الممكن وبنسب ضئيلة التركيز على بعض العوامل الداخلية من زوايا متعددة. فالتقسيم والتجزئة، أتى على قاعدة التقسيمات الإدارية، وليس على قاعدة الوحدة التاريخية، مع أن هذه الأخيرة شهدت في نهاية العصور العباسية التمزق والشرذمة، والانتماءات المختلفة والمتباينة، والمنقسمة على نفسها، والمنعزلة أحيانًا عن الخلافة المركزية. بل إن سقوط بغداد في زمن المغول عام ١٢٥٨، كان له إرهاصاته السياسية في تفتت الدولة،

(١) محمد رياض، **الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٢٢٨.

(٢) **دراسة موجزة عن مفهوم الدولة وأنواعها وأنواع السلطات العامة**، مجموعة باحثين، مطبعة زانا، ٢٠٠٦، ص١٨: يذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن نشأة الدولة. . . هي حصيلة لتطور اجتماعي وسياسي طويل، اسهمت به عوامل متعددة من داخل الجماعة وخارج الجماعة، واختلفت درجة التفاعل بين هذه العوامل.

وانتقال مركز الخلافة إلى القاهرة، حيث فقدت طيفها الديني المرجعي وبعدها السياسي في الحكم، لتصبح مجرد رمز غير قابل للحياة من دون رضى المماليك.

ومن زاوية البناء على التقسيم الإداري، يمنع ذلك توفر عنصر الغرابة في تشكيل الدول، حيث اختلفت بين منطقة وأخرى عوامل تشكيل الدولة، فجاءت الدول العربية بشكل عام، نتيجة فرض دولي، إضافة إلى تدخل في أصحاب الأرض بالتمني والمطالبة، لتبرير ذريعة الانشاء والتقسيم والضم بين هنا وهناك. فالحدود رُسّمت، ثم أنضجت سلطات عسكرية منتدبة هنا وهناك أدارت الحكم، يرافقها تواجد المحليين المندمجين بالمؤسسات الجديدة، لتتشكل فيما بعد عناصر الدولة في تطور تاريخي مصطنع، يناقض كافة المفاهيم التطورية للدولة وفق المدارس السياسية. فحيث توفر الوعي السياسي بضرورة كيان، غاب في أماكن أخرى لصالح عامل القرابة، فيما غابت عوامل أخرى لصالح الدين. بل اختفت كل العوامل في أحيان اخرى، لصالح تركيبة جديدة ارتضاها لمصالحه برؤوسها كافة.

١ - الدول العربية، بقايا عثمانية وأزمة هوية

لم تكن فكرة الدولة بمفهومها الحديث قد لاقت رواجًا في بداية القرن العشرين في المشرق العربي؛ إذ بقيت ترسبات القبليات والجهوية (REGIONALISME) والإقطاعية، قائمة في أذهان النخب على الرغم من تسلل فكرة الدولة إلى أذهان البعض. يقول سيتفن كوك وعمر ليهاتا أيضًا في هذا السياق أن الحدود وُضعت بناءً على توازن المصالح بين القوى الاستعمارية في مواجهة حركات المقاومة داخل تلك الدول. وقد شكلت تلك الحدود أراضي كانت موطنًا لهويات ثقافية متجانسة منذ زمن طويل، وفي أوضاع أخرى للدول المنشأة حديثًا مثل السعودية والأردن، أتت لتؤطر مع الوقت ما أصبح وطنًا لمجموعة سكانية اندمجت وتوطنت[١].

(١) Don't Blame Sykes-Picot for the Middle East's Mess, BY STEVEN A. COOK, AMR T. LEHETA, MAY 13, 2016, Foreign policy: "*The same holds true for the Middle East, where borders were determined by balancing colonial interests against local resistance. These borders have become institutionalized in the last hundred years. In some cases - such as Egypt, Iran, or even Iraq - they have come to define lands that have long been home to largely coherent cultural identities in a way that makes sense for the modern age. Other, newer entities - Saudi Arabia and Jordan, for instance - have come into their own in the last century. While no one would have talked of a Jordanian identity centuries ago, a nation now exists, and its territorial integrity means a great deal to the Jordanian people*".

وإذا كان كل من «باوندز وبول (Pounds and Ball)» عام ١٩٦٤ قد وضعا نموذج «منطقة المركز» لتفسير تطور الدولة الأوروبي، محددين فئتين من الدول: الدولة، والدولة العضوية[١]. ففي حالة الدولة، تكون رقعة الأرض قد اختصت بها الدولة في إطار جغرافي محدد مسبقًا ونتيجة لتسوية سياسية؛ أما في حالة الدولة العضوية فإنّ رقعة الأرض تتطور ببطء حول منطقة المركز كلما ضمّت الدولة إليها أرضًا من حولها. ففي المشرق العربي، يبدو أن الدول التي نشأت على أنقاض الدولة العثمانية نتجت عن نموذجين: نموذج الدولة ونموذج الدولة العضوية كما في حالة المملكة العربية السعودية، دون تغييب الدور الدولي والرعاية البريطانية في السماح لنقطة مركز بالتمدد إلى الحدود المصطنعة المرسومة من ناحية العراق أو من ناحية الأردن.

يبقى التأكيد أن الترسيم النهائي إنّما هو نتاج يغلب فيه العامل الدولي على المحلي بنسب عالية، حيث جاء في سياق حملة كبيرة لتغيير الخارطة السياسية في العالم، بدءًا من عهد الكشوفات الجغرافية، وحتى استعار حمّى الاستعمار وصولاً إلى بدعة الانتداب. فكثير من الدول أنشئت بدافع لا إرادي[٢]، ضمن الترسيم الدولي للعالم القديم والحديث على السواء على ما يذكر «ميشال فوشي» أن أكثر من ٧٠٪ من طول الحدود الحالية في العالم الثالث هي من فعل ١٢ دولة. ويوضح «فوشي» إلى أن اتفاقات «سايكس – بيكو» أنتجت ١٤٠٠٠ كلم من الحدود الجديدة تقريبًا، وتوزعت الحصص الجغرافية على الدول ذات الشأن على الشكل التالي: فرنسا ١٦٪، إنكلترا ٢٦٪، روسيا ١٤,٥٪، تركيا ١٩٪، الصراع الفرنسي البريطاني ٧,٥٪[٣].

لقد لعبت مصالح الدولتين في ترسيم كتل سلطوية جديدة، في حين سعت فيها كل دولة إلى إرضاء مجموعة قوى محلية كانت تجمعها بها علاقات تاريخية. لقد خسر مشروع الشريف حسين ومن خلفه الأحزاب القومية في إنشاء دولة موحدة، بزعامته أو بزعامة ابنه فيصل، ورجحت كفة التقسيم في معادلة جيوسياسية، جديدة على المنطقة. ولم يكن هنالك مصلحة بأي حال من الأحوال، لتكوين دولة عربية موحدة في المستطيل العربي من الخليج إلى البحر

(١) بيتر تيلور، **الجغرافية السياسية لعالمنا الحديث والمعاصر**، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، عدد ٢٨٢، تموز ٢٠٠٢، ص٢٥٤.

(٢) Michel foucher, **Fronts et frontières**, Fayard, 1991, PP. 110-111.

(٣) Ibid, PP. 342.

المتوسط، لأن التعاطي مع هكذا حجم، لن يكون سهلاً على الدولتين. من ناحية أخرى، كان هاجس التنافس بين القوتين، حافزًا في تعاطي الدولتين مع قوى محلية، للايحاء المتبادل بأن لها زبائنها ومريديها على أرض الواقع. فكانت هذه النوايا فرصةً لتضخيم أصوات صغرى على مساحة المشرق، ولتوسيع تمنيات أمام الرأي العام الدولي، بحثًا عن مكاسب هنا وهناك.

في هذا السياق، كانت بريطانيا الأقدر على تسويق هذه التمنيات، والأنجح في جذب ولاءات صغرى متفرقة سواء على شواطئ البحر الأحمر والخليج العربي، أو في بلاد ما بين النهرين، بل وفي فلسطين نفسها. وفي هذا السياق، حاول الأمير فيصل إيجاد مملكة في بلاد الشام، بدفع محلي، وبرعاية بريطانية خبيثة، حاولت قبل وبعد ميسلون، تخفيف مناطق النفوذ الفرنسية إلى الحد الأدنى. فكانت هذه الأخيرة، تواقة لموازنة الكفة البريطانية، فرعت المطالبات اللبنانية، بإيلاء متصرفية جبل لبنان المدى الجغرافي الأوسع على حساب ولاية سوريا. وفي هذا الاحتكاك، بدت ولاية سوريا الخاسر الأكبر، حيث لم تكن في مجموعتها السكانية نواة تواصل قوية مع القوى العظمى، بعد فشل فيصل بإقناع الفرنسيين، وبعد سقوط مراهنة البريطانيين عليه في بلاد الشام: فسقطت ضحية التقسيم هنا وهناك بعد أن استفرد بها الفرنسيون.

نسف التدخل الدولي، مسارات تاريخية، وأسس لواقع جديد، مقطوع الأوصال في غالب الأحيان مع الماضي، فأسهم في ترسيم حدود اصطناعية لدول جديدة، كان لا بدَّ لها أن تنشأ في عالم انهارت فيه الامبراطوريات، ولكن على قاعدة الهويات المتقاطعة، المنسجمة وغير المنسجمة. ففي موازاة الذاكرة التاريخية التي تلح بوحدة شاملة على أي قاعدة كانت، ووفق أي معيار، كانت رغبات الاقليات في تحرّك يرتكز على مناقضة هذا التوجّه، محاولة صناعة مسار تاريخي مغاير ومتمايز، خاص بها، وكان لفرنسا وبريطانيا المصلحة بتضخيم ذاكرة تاريخية مجهرية، وإعطائها الأهمية القصوى لإفشال أي مشروع وحدوي، ولإرساء قاعدة «فرق تسد». كانت هذه المشاريع الصغرى في هندسة المشرق العربي بعيدًا عن شمولية تاريخ المنطقة، البيادق الرابحة في قاعدة عامة متفق عليها بين طرفي الاستعمار، فيما كانت اللعبة نفسها تتمحور حول كسب مربعات على رقعة حسم أمر تلوينها وتقطيعها بين الأسود والأبيض. وهذه الهندسة التجميلية كان مقدرًا لها أن تنتج لدى الشعوب المؤطرة بحدود سيادية، أزمة هوية في الانتماء والولاء.

ولعل أبرز تعبير عن أزمة الهوية عام ١٩٢١ ما دار بين الأمير فيصل (قبل تتويجه) والسير بيرسي كوكس (Cox)، المندوب السامي البريطاني، والحاكم الفعلي للعراق. شرح كوكس للملك المقبل فكرة التنظيم السياسي الجديد في المنطقة: دولة تركية شمالاً، ودولة كردية مجاورة، ودولة عراقية (لعرب العراق). اعترض فيصل بدبلوماسية قائلاً: أنت تعطيني دولةً محاطةً بالأعداء. فثمة الأتراك (الذين حاربناهم) شمالاً، وابن سعود المحارب جنوبًا. وأوضح فيصل أنه عربي شافعي (سُني)، وأن أغلبية عرب العراق هم من الشيعة؛ فإن ذهب الأكراد في دولة، وفقًا لمبدأ القوميات (من الرئيس الأمريكي ويلسون إلى الرئيس الثوري الروسي فلاديمير لينين)، فإن فيصل سيجلس على عرش مملكةٍ ذات أغلبية شيعية لن تستقيم له. وافق كوكس على ذلك الرأي. وبهذا الترتيب بات العراق دولةً متعددة القوميات، وذات وزن سني مكافئ تقريبًا للشيعة (٤٥ في المئة للسُّنة مقابل ٥٢ في المئة للشيعة، و٣ في المئة لبقية المكونات)[١]. ويبدو أن الواقع في المشرق العربي، والذي أتى بعد ولادة خرائط سايكس بيكو الصغرى ودويلاتها المختلفة والمتباينة، يختلف جذريًا. فالمجتمع هو هو، وجاءت الحدود لتؤطر القديم على قدمه، ولتطلق مسارات تطور، أو ركود خارج إطار النشوء الطبيعي للدولة الحديثة.

لقد حضنت الدول الحديثة المنشأ بقايا الولايات والمتصرفيات، وسارت على خطوط الأقضية في أحيان كثيرة، بل أطّرت الاقطاع القديم، والأنظمة القديمة في شكل دولة، تاركةً للتاريخ وسيرورته بناء المواطنية في ظل استنزاف استعماري هائل. ولعبت القوى العظمى في ترسيمها على قاعدة إشعال النار، وتبريدها بقوى مجاورة، كما فعلت بالشريف حسين، وقوى المشيخات العربية المحاذية له، وبتعزيز قوة ابن سعود في القضاء على ما تبقى من حلم الشريف حسين بعد الحرب العالمية الأولى، وبتطويق الوعود المقطوعة لابن سعود نفسه بفكي كماشة بين العراق والأردن، وبخنق العراق بمنفذ الكويت، وبحصار الأردن عبر حماية قناة السويس بوطن قومي يهودي. في هذه المعادلة الجيوسياسية الضخمة جامعة الأضداد،

(١) فالح عبد الجبار، جريدة المستقبل، الأحد ٨ آذار ٢٠٠٩ - العدد ٣٢٤١ - صفحة ١٢، **العروبة وإشكاليات الوطني والإثني - المذهبي في العراق**، مقالة القيت في مؤتمر «العروبة في القرن الواحد والعشرين» الذي نظمه «تيار المستقبل» في بيروت (٢٥ - ٢٨ شباط ٢٠٠٩).

كان مقدرًا للهويات العربية الصغرى، أن تكون فتيل التقسيم القابل للتفجير في أية مرحلة تاريخية بعد ترتيبات ما بعد الحرب.

٢ - الدولة السياسية العربية - هويتها الجيوبوليتيكية

يعتبر استمرار دويلات المشرق العربي، خارج إطار النسيج الوحدوي التاريخي والذي جمعته الثقافة واللغة والدين عبر قرون، من قبيل الصدف والمعجزات التاريخية؛ إذ قلما نجد دولة رسمت بقلم على الورق، وأحاطت هذه الخطوط بمجموعة غير منسجمة من الانتماءات، لتستمر فيها منتجةً هوية وطنية، دافعت عن الحدود الجديدة الصغرى المصطنعة. وفي حالة المشرق العربي بعد سايكس بيكو، تغلبت الجغرافيا السياسية الجديدة على فجوات التاريخ، ومقابل ذلك بدا التطور الاجتماعي بطيئًا بفعل تدخلات خارجية، في توجه غير متكافئ بين الدويلات المنشأة نحو الدولة المدنية الحديثة.

ومن المهم بمكان معرفة الهوية الجيوبوليتيكية التي عرفتها تقسيمات سايكس بيكو، على صعيد نوعية الكيانات السياسية ومواقعها. «لقد اشار راتزل إلى اختلاف مواقع الدول ومنها: موقع الزاوية (triangle) ومواقع القاطع النصفي (Médiane) وموقع المدخل (Seuil) وموقع الخاصرة (Flanc) وموقع العبور (transition) وموقع الانفراد (Ecart) وأخيرًا موقع الدولة الحاجز (Etat-tampon)»[١]. هذا التنوع في هوية الموقع، عرفته دول المشرق العربي بالنسبة لموقع الجغرافي. كان لبنان حاجزًا طبيعيًا واحتل موقع المدخل بالنسبة للداخل السوري، وكانت سوريا في الوقت نفسه القاطع النصفي، فيما احتلت دولة العراق موقع الخاصرة المحاصرة بالكويت. وبالنسبة للأردن، تعتبر هذه الدولة دولة حاجز بين المملكة السعودية وفلسطين التي خطط البريطانيون لوطن قومي لليهود فيها. وهي في الوقت نفسه اعتبرت من حيث الموقع دولة عبور للنفط السعودي والعراقي باتجاه فلسطين وسواحل المتوسط، وحيفا تحديدًا[٢]. وبالنسبة للحجاز والمملكة المنشأة حديثًا احتلت موقع الزاوية، على الرغم من محاصرتها على مداخل الخليج بمناطق تابعة للنفوذ البريطاني.

كانت مفاصل هندسة الأضداد الجيوبوليتيكية ترتكز على إنشاء دول حاجز

(١) نبيل خليفة، **جيوبوليتيك الاستراتيجية اللبنانية**، مركز بيبلوس، ط١، ٢٠٠٨، ص١٤٨.

(٢) Ronald W. Ferrier, J. H. Bamberg, The History of the British Petroleum Company, Cambridge University Press, Feb 25, 1994, P. 165.

يديرها المستعمر أو المنتدب مباشرة أو بالواسطة من خلال سلطات محلية تابعة له، وإنشاء دول حبيسة لا حدود بحرية لها، وإن وجدت فضمن إطار ضيق قابل للتحكم عند الضرورة. وحرص البريطانيون وهم الأكثر خبرة في إدارة المستعمرات ولا سيما في المشرق العربي، على هندسة اقتصادية لكيانات تخدم الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، بإنشاء دول عبور وجسر تسمح بتمرير الموارد الاقتصادية والمواد الأولية باتجاه المرافئ الاستراتيجية للاستفادة منها في حالة السلم كما في حالات الحرب.

٢-١ لبنان، فكرة الدولة الحاجز

ومن منطلق توصيف الدولة المدخل، تنطبق على لبنان هذه الصفة لتوفّر الحجم السكاني الضئيل، والافتقار إلى التجانس الاجتماعي كونه يضم كسورًا اثنية أو دينية أو لغوية أو قومية. وهي تنطبق من زاوية تركيبتها وتدخل جيرانها ووقوفها على مفترق طرق، إضافة إلى وجود موانع طبيعية وسلاسل جبلية إضافة إلى إطلالتها على الشاطئ[١]. وكان هذا الاقتطاع من الواجهة السورية لصالح جعله منصة الدخول الفرنسي إلى بلاد الشام، مثار نزاع بين لبنان وسوريا الداخل، وحول لبنان إلى متهم دائم من الجانب السوري، بل وكان جيوبوليتكيًا عرضةً للحصار في كل مناسبة تسمح بذلك، لاسيما بعد خروج المنتدب الفرنسي. وليس أدل على ذلك من موضوع «خط التابلين» الذي رفضت سوريا تمريره إلى لبنان، تحت وطأة هذا النزاع التاريخي عام ١٩٤٦[٢]، ولم يحصل لبنان على هذه المكرمة النفطية إلاّ بعد استعار النزاع مع الدولة الصهيونية المعلنة عام ١٩٤٨، وسقوط المراهنة العربية على ميناء حيفا.

فضمن الحصة الفرنسية، كانت سوريا الكبرى الخاسر الأكبر جغرافيًا في ترسيم الخطوط المستقيمة والملتوية على مساحة ولاياتها القديمة. وعلى الرغم من طروحات بريطانيا المريبة التي دعمت نشوء اتحاد سوري أو مملكة سورية تحت إمارة فيصل، ومحاولة تقويض مشروع فرنسا في مناطق نفوذها المباشر وغير المباشر، نجحت فرنسا كمرحلة أولى، في تسويق لبنان الكبير «كدولة حاجز» لصالحها، بعد إيلاء متصرفية جبل لبنان المدى الحيوي بضم بعض المناطق الساحلية التي كانت تابعة لولاية بيروت، وبموازاة ذلك ضم بعض الأقضية الداخلية للبنان؛ واعتبار

(١) نبيل خليفة، **جيوبوليتيك الاستراتيجية اللبنانية**، مرجع مذكور، ص١٥٢ - ١٥٣.

(٢) Benjamin Shwadran, Middle East Oil: Issues and Problems, scheenkman Publishing Company, 1977, P. 40

سلسلة جبال لبنان الشرقية (Anti-Liban) حدودًا طبيعية سياسية لهذه الدولة. ليس هذا فحسب، بل أنشأت دولة العلويين ودولة حلب لتترك دولة دمشق محاصرة دون مرفأ بحري، مما جعل الضغط السوري على لبنان الكبير المنشأ حديثًا يزداد حدة في كل مرة تطرح فيها قضية الموارد، وعائدات الجمارك في بيروت، وغيرها من المصالح المشتركة.

ولم يعط لبنان المجال الجغرافي فحسب، بل تم ضخ الدعم السياسي للطبقة الحاكمة فيه، وتنظيمها، وتحديثها في مواجهة تقزيم الدويلات الطائفية التي أنشئت في سوريا. كان هذا التوجه الفرنسي، في تقسيم الجغرافيا بمظاهر سياسية هجينة، سببًا في نشوء النزاعات بين الطرفين، على الرغم من مغادرة فيصل باتجاه العراق. فبدل مفاوضة فيصل على توحيد سوريا والعراق، تقزم المشروع السوري إلى محاولة قضم لبنان. ولم ينجُ لبنان بجغرافيته السياسية الا بعد أن ارتد الصراع السوري إلى صراع بيني، وثورات دموية وانقلابات، أبعدت شبح المطالبة بالساحل اللبناني إلى غير رجعة. فيما انفلشت الهوية اللبنانية من جبل لبنان لتلقي بظلها على المناطق المضمومة التي وجدت في لبنان الكبير ملاذًا آمنًا، بعيدًا عن توترات الداخل السوري، أو الأطماع الصهيونية كحالة جبل عامل. ولا يعني ذلك أن حدوده السياسية كانت بمنأى عن موجات التوحد التي كانت تطرح من حين إلى آخر.

ففي عام ١٩٤٣ لحظ الأمير السعودي عبد الله، في محاولته الاستفادة من خطاب «ايدن» الشهير عن الوحدة العربية، يلحظ أنه في حالة رفض حكومة لبنان الانضمام لدولة الاتحاد، تعاد الأراضي السورية التي ألحقت به دون استفتاء شعبي ويعطى اليهود في فلسطين إدارة لامركزية. ويشير هذان التحفظان إلى أنّ القوة الوحدوية على اختلافها بدأت تتيقن أنّ هناك حدودًا لهذه الوحدة لا يمكن تخطيها بسرعة[١].

لقد صدّ التحول في الهوية لأرض الولاية والأقضية الأربعة هذه المحاولات في إعادة دمج ما اقتطع لجبل لبنان من مجال جغرافي حيوي، وكان واضحًا أن ما رسم على الخرائط، وما حمته الجغرافيا عبر السلسلة الشرقية، والنهر الكبير الجنوبي، وتخوم فلسطين المسلوبة، لن يعود كما كان. فقد برزت بعض المواقف المغايرة ضمن الشريحة الاسلامية، ومنها موقف الشيخ محمد الجسر الذي اعتمد مصطلح الأمة اللبنانية مؤيدًا. كما كان هناك

(١) غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٧، ص٦٢.

ثمة تحولاً نسبيًا في أوساط النخب الشيعية والدرزية باتجاه الاندماج أكثر فأكثر في مؤسسات الدولة الجديدة. فالنواب تلحوق وحماده وعسيران والزين وافقوا على المادة الثانية من الدستور التي تنص على أنه «لا يجوز التخلي عن أحد أقسام الأراضي اللبنانية أو التنازل عنه»[١]. وتبع هذا التحول تحول آخر من المعارضة الرافضة لفكرة الكيان، لاسيما بعد التوافق على مبدأ المراسلتين ٦ و٦ مكرر في الوظائف وايلاء خير الدين الأحدب رئاسة الوزراء، فحصل تطور في الموقف الاسلامي باتجاه التسليم بحدود الدولة، وسيتكرس هذا الموقف، إلى حد كبير، في ميثاق ١٩٤٣. ولم تكن هذه الدولة الحاجز، ميالة إلى استثمار علاقاتها الاستعمارية مع فرنسا تحديدًا بشكل مبالغ فيه، بل وازنت ما بعد ١٩٤٣ عبر صيغة الحياد الإيجابي أي لا شرق ولا غرب، بين مصالح هذه الدولة ورغبتها بالحياة، واستمرار تعاطيها الإيجابي مع المحيط وتعزيز انتمائها.

٢ – ٢ الأردن، دولة حاجز وهوية متمايزة

كان الهدف من تأسيس إمارة شرق الأردن بقيادة الملك عبد الله بن الحسين، إرضاء لخدمات الشريف حسين، ورغبة بمحاصرة ابن سعود فيما لو تمدد، بنقيضين بين فكي كماشة، جاهزين للإطباق علي الحجاز، فيما لو اختلت الموازين الدولية مع القوة الصاعدة بقوة الدين، من غبار نجد. وكان الهدف الاستراتيجي أيضًا، منصبًا على «إنشاء حزام متواصل من الأراضي التابعة لبريطانيا يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي»[٢]، للحفاظ على خط مواصلات البريطانية البحرية انطلاقًا من قناة السويس، وتأمين مناطق تجارية بحرية لاستغلالها استعماريًا إلى أقصى الحدود. وبعد أفول نجم الشريف حسين في الحرب الحجازية عام ١٩٢٤[٣]، اكتملت الصورة، وذلك ضم منطقتي العقبة ومعان، ضمن المخطط نفسه.

ولم تمل بريطانيا من اللعب بجيوبوليتيك المنطقة عبر المشاريع المختلفة، فكانت تشجع أحيانًا قيام اتحاد دويلات في بلاد الشام بزعامة الأردن تحت مشروع «سوريا الكبرى»، أملاً بإعطاء الأردن المجال الحيوي. لأنها «دولة سريعة

(١) يوسف قزما الخوري، **البيانات الوزارية**، مصدر مذكور، المجلد الثالث، دستور ١٩٢٦، ص١٨٤٩: محضر جلسة مناقشة الدستور، ١٩ أيار ١٩٢٦.

(٢) د. ر. فوبليكوف وآخرون، **تاريخ الأقطار العربية المعاصر**، الجزء الأول، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥، ص٢٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٤.

العطوبة في دفاعها، إذا لم تعوّض عن ذلك بقدرات تكنولوجية وبضمانات دولية»[1]. وبالمقابل تقمست دولة الأردن، هوية الدولة الحاجز، فغدا لها رؤيتها الخاصة، وهويتها الخاصة، ومصالحها التي كانت تتعارض مع الهوية العربية الكبرى. وعلى قاعدة هذه الهوية التي رغبت بالتمايز، بدا أنّ النواة الأردنية بدأت تنمو على قاعدة الدولة العضوية، من خلال توسعها باتجاه شرق فلسطين، ومحاولة دمجها دستوريًا في ٢٣ نيسان ١٩٥٠، مما أثار استياء البلدان العربية المجاورة، وجامعة الدول العربية التي قاطع جلساتها الوفد الأردني.

ولم تكن العلاقة مع الولايات المتحدة إلاّ جزءًا من هذه الهوية التي تختلف بشكل أو بآخر عن المحيط العربي، لا سيما مع توقيع معاهدة مع الولايات المتحدة الأمركية ضمن إطار برنامج ترومان في ٢٧ شباط ١٩٥١. ولم تكن الهوية الأردنية في تركيبتها في ظل النفوذ البريطاني المتجدد مع غلوب باشا، قريبة من الوحدة والتوحد مع المحيط، إذ ما لبث أن واجه الأردن الجمهورية العربية المتحدة، بوحدة مع العراق برعاية بريطانية أميركية، لم تعمر طويلاً بسبب انقلاب في العراق، مناهض للنوايا الامبريالية. وتوج الأردن هويته «الحاجز» والمتعددة الاتجاه، في صد الأخطار، إلى تصفية القضية الفلسطينية على أرضه عام ١٩٧١.

٢-٣ الحجاز، رمال متحركة في وجه الإنكليز

في التعاطي التاريخي البريطاني مع بلاد الحجاز، كان لدى الانكليز عدة هواجس جيواستراتيجية: تأمين طريق البحر الأحمر البحري، والحفاظ على مواقع استراتيجية على الخليج العربي من خلال الإمارات الصغرى المطلة عليه، وتخفيف توجهات الشريف العربية ونواياه بدولة عربية موسعة، وعزل خطابه التوسعي ضمن الحجاز مع إرضاء ابنائه بدول صغرى تقتطع من نواياه الجغرافية، إضافة إلى التعاطي البريطاني مع الواقع المستجد غداة الحرب العالمية الأولى مع نجد وتغيرات آل سعود، غير بعيد عن الموارد النفطية التي تثير شهيتها.

أسهمت هذه الهواجس الجيوبوليتيكية بتقسيم بلاد الحجاز وتطويقها من خلال قطر، وإمارات عمان المتصالحة، والكويت، البحرين ومسقط وعدن، ومن خلال تنصيب ابن سعود على نجد عام ١٩٢١[2]. ويبدو أن السياسة البريطانية المتعددة الرؤوس،

(١) نبيل خليفة، **جيوبوليتيك الاستراتيجية اللبنانية**، مرجع سابق، ص١٥٢.
(٢) د.ر. **فوبليكوف، تاريخ الأقطار العربية المعاصر**، مرجع سابق، ص٣٩٠.

رجحت كفة ابن سعود على الملك حسين، بعد أن انتزعت منه مناطق ضُمت إلى العراق والكويت على قاعدة محايدتها، عندما ترهلت مرجعية الحسين العربية بعد أن أعلن نفسه خليفة المسلمين عام ١٩٢٤، بدلاً من الخلافة الملغاة في تركيا. لقد أسهم هذا الإعلان في دفع ابن سعود إلى طرد الحسين من الحجاز.

ولكنّ التغيرات السعودية، غيرت قواعد اللعبة، وأدخلت لونًا جديدًا على رقعة الشطرنج الحجازية، أرّقت مضاجع الانكليز، وخلطت أوراقهم. كانت الموارد الاقتصادية تعتمد في تلك المملكة بشكل رئيسي على الحجاج، إلاّ أنّ تردي الأوضاع الاقتصادية في أواخر العشرينات دفع المملكة إلى اقتناص الفرص، وتلزيم حفر الآبار النفطية المكتشفة حديثًا تباعًا للأميركيين، مما أرسى خرقًا في العلاقات الخارجية بين المملكة والأميركيين مقابل الحصار الاستعماري البريطاني، عبر المحميات المحيطة. كانت هذه العلاقة ضمانًا لاستمرارية المملكة في ظل الحرب العالمية الثانية حيث أعلنت الحياد على الرغم من استمرار ارتباطها بالجنيه الاسترليني، إلى أن تم تمتين العلاقة مع الأميركيين عبر اللقاء بين ابن سعود والرئيس الأميركي روزفلت في ١٤ شباط عام ١٩٤٥[١].

لقد أثمر التعاون السعودي الأميركي تباعًا عن هوية جيوسياسية مغايرة للواقع القديم، فشهدت الحجاز والتي كانت تعتبر قلب المنطقة العربية، وجوهر سياستها منذ الثورة العربية، هبوطًا نسبيًا لاسيما بعد سطوع نجم جمال عبد الناصر والضباط الاحرار، حيث أيد ابن سعود مبدأ «ايزنهاور»، فيما تخلى عن التعاون مع الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨[٢]. ولم تستعد السعودية ذلك الدور، إلا بعد سقوط ناصر في مصر.

٢-٤ العراق، مزيج النفط والسياسة

يعتبر يوم ٢٣ آب عام ١٩٢٣ تاريخ تحول بالنسبة إلى العراق، فقد تحول إلى مملكة بزعامة الملك فيصل وفق رؤى مختلفة، وبسياسة متعددة الرؤوس جمعت بين المصلحة والسياسة البعيدة والقريبة المدى. فبعد ترسيم الحدود بين العراق والحجاز والعراق وايران عام ١٩٢٢، وقفت بريطانيا إلى جانب العراق في ضم الموصل، حتى تسنى لها ذلك عام ١٩٢٦، بعد انعزال تركيا في محيطها السياسي الجديد. فشكّل نفط الموصل حافزًا لبريطانيا دفعها لمساومة الفرنسيين، ولتأمين جسر عبور لهذا النفط من العراق وحتى البحر المتوسط، مرورًا بالأردن

(١) المرجع نفسه، ص٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٤١١.

وفلسطين[1]. لقد استمر الظل البريطاني لاعبًا ظاهرًا بشكل مباشر وغير مباشر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث استغلت بريطانيا التحولات في العالم العربي والموجة الناصرية، لتشكل حلف بغداد، عام ١٩٥٥، في إطار الحرب الباردة التي بدأت معالمها تتشكل في الشرق الأوسط. وحاولت بريطانيا إضفاء هوية جيوسياسية على دولة العراق بتحويلها إلى تركيبة مواجهة ضد المد الشيوعي الروسي من جهة، ضمن حائط الصد التركي-الايراني - الباكستاني؛ وتم التنسيق مع الفرنسيين في محاولة ضم لبنان إلى هذا الدرع لتطويق الجمهورية العربية المتحدة من جهة أخرى. غير أنّ السياسة المحلية، لعبت بعكس القدر الانكليزي أيضًا، وأخرجت العراق في ٢٤ آذار ١٩٥٩، من حلف بغداد، ومن منطقة الاسترليني. فكان مفاجئًا اختراق العراق شيئًا فشيئًا درع أيزنهاور في شمال المشرق ليعزز التعاون مع الاتحاد السوفياتي.

لقد أطاح التحول العراقي بكل مخلفات الاستعمار البريطاني، وشكل التقارب الاشتراكي عبر مشروع إتحاد فدرالي يجمع بين العراق وسوريا ومصر في ١٧ نيسان ١٩٦٣[2]، الهلال الجيوسياسي العربي الذي حصد أطماع الانكليز من جزء كبير من المشرق، ليدفعها إلى خارج رقعة الشطرنج خاسرةً أهم قلاعها ومربعاتها الرابحة التي رسمتها من عقود. إلاّ أنّ هذا التقارب لم يفلح على الرغم من المنبع الايديولوجي الموحد، والرعاية السوفياتية المنتظمة، من انتاج مشروع جغرافي سياسي يؤسس لوحدة جديدة تشكّل حالة جذب عربي للحجاز وجواره، وللبنان المدخل، ولفلسطين المحتلة.

خلاصة

لقد أسهمت عدة عوامل في استمرارية الكيانات السياسية التي انتجتها صراعات الانكليز والفرنسيين، فيما ضمنت فترة الانتداب على خمسة بلدان متجاورة لأكثر من عقدين استقرار الحدود السياسية لهذه الدول وتشكّل هويتها. غير أنّ هذا الاستمرار لم يكن مقدرًا له أن يقارب الوحدة، على الرغم من موجات زمنية سرت فيها قشعريرة التوحد، دون أن تصل إلى ورقة وقلم، تسطر حدودًا جديدة، تنسف خطوط سايكس بيكو المصطنعة. فمن توحد الدويلات السورية، إلى الدولة العربية المتحدة، إلى مشروع الأردن بضم الضفة، إلى مشروع الفدرلة بين مصر وسوريا

(١) د.ر. فوبليكوف، **تاريخ الأقطار العربية المعاصر**، مرجع سابق، ص٢٩٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٤.

والعراق، كان الضم مركّبًا تاريخيًا يعود إلى الظهور بحثًا، عن وحدة مفقودة، وعن هوية جيوسياسية فتتها القدر الاستعماري.

فحيث نجح صلاح الدين في محاصرته القدس، فشل العرب في توحيد سلطة مصر وسوريا جيوسياسيًا، إذ غذت الهويات الصغرى وخصوصيات الموارد المستجدة من نفط وتجارة، الخطوط المرسومة عبر الهندسة البريطانية الفرنسية سماكةً وسوادًا. لقد كان الترسيم الاستعماري بمثابة ساعة الرمل التي انقلبت بتوقيتها إلى غير رجعة، مطلقة مسارًا زمنيًا يرفض العودة إلى التوحّد، ويغطي بغبار الرمال المتحركة نزولاً كل بوادر التوجه نحو التوافق على قواسم مشتركة على الأقل، في حال استعصت الخطوط الحدودية المستحدثة على المحو والتغيير، أو التحول إلى رمادية العبور، لتسمح بإعادة المواطنية العربية إلى ما كانت عليه قبل الحرب الأولى. فهل تعود قوافل العرب للتنقل على تضاريس المشرق، دون أن تجد نفسها مضطرة للوقوف على بوابة عبور، طلبًا لوثيقة تثبت من عروبتها، وانتمائها لهذه الأرض؟

لائحة المراجع والمصادر

- احسان احمد رشيد، **دراسة موجزة عن مفهوم الدولة وأنواعها وأنواع السلطات العامة**، مطبعة زانا، ٢٠٠٦.
- بيتر تيلور، **الجغرافية السياسية لعالمنا الحديث والمعاصر**، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، عدد ٢٨٢، تموز ٢٠٠٢.
- **د. ر. فوبليكوف وآخرون، تاريخ الأقطار العربية المعاصر**، الجزء الأول، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥.
- غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٧.
- فالح عبد الجبار، جريدة المستقبل، الأحد ٨ آذار ٢٠٠٩ – العدد ٣٢٤١ – صفحة ١٢، **العروبة وإشكاليات الوطني والإثني – المذهبي في العراق، مقالة** القيت في مؤتمر «العروبة في القرن الواحد والعشرين» الذي نظمه «تيار المستقبل» في بيروت (٢٥ – ٢٨ شباط ٢٠٠٩).
- محمد رياض، **الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة**، ٢٠١٢.
- محمد عبد الغني سعودي، **الجغرافيا السياسية المعاصرة**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ٢٠١٠.
- نبيل خليفة، **جيوبوليتيك الاستراتيجية اللبنانية**، مركز بيبلوس، ط١، ٢٠٠٨.
- يوسف قزما الخوري، **البيانات الوزارية**، مصدر مذكور، المجلد الثالث، دستور ١٩٢٦، ص ١٨٤٩: محضر جلسة مناقشة الدستور، ١٩ أيار ١٩٢٦.
- Michel foucher, Fronts et frontières, Fayard, 1991
- Ronald W. Ferrier, J. H. Bamberg, The History of the British Petroleum Company, Cambridge University Press, Feb 25, 1994.

الشخصية في أعمال «سعيد أبو نعسة»

هبة العوطة

تمهيد:

تقوم هذه الدراسة على مهاد نظري ومبحثين أساسيين: يعالج المبحث الأول مجموعة «أغلى من الذّهب»، ويتناول المبحث الثّاني مجموعة «حكايات الزّمن الآتي»، ولقد بدأت بمجموعة «أغلى من الذّهب» لأنّها صدرت قبل الأخرى وهذا يمكّنني من رصد حركة تطوّر الفنّية عند سعيد أبو نعسة.

مهاد نظري:

ليست الشّخصية القصصيّة تسطيحًا لإنسان عادي ترسم ملامحه على الورق، ويقوم بالدّور الّذي رسم له، وإنّما هي في مفهومها «هذا العالم المعقّد الشّديد التّركيب المتباين التّنوع... تتعدّد الشّخصية القصصيّة بتعدّد الأهواء والمذاهب والايديولوجيّات والثّقافات والحضارات والهواجس والطّبائع البشريّة الّتي ليس لتنوّعها ولا لاختلافها من حدود»[١]. وقد تطوّر مفهوم الشّخصيّة القصصيّة وتبلور، بعد أن أغنته الدّراسات والأعمال.وعندما جاء الكلاسيكيّون بدراساتهم المتشعّبة على مدى ردح من الزّمن، أكدّوا دور العامل النّفسي الّذي يقف وراء الدّوافع الشخصيّة، ويكون محرّكًا لها، وذلك بغية تصوير العالم الواقعي وتجسيده. فقد كان «الرّوائي التّقليدي يلهث وراء الشّخصيات ذات الطّبائع الخاصّة، لكي يبلورها في أعماله، فتكون صورة مصغّرة عن العالم الواقعي»[٢]. وأصبحت الشّخصية القصصيّة فردًا ذا تكوُّن مكتمل، من حيث العلاقات العامّة، ومن خلال مزاياها النّفسية، «وإن كانت لا تقوم بأي عمل أو تتصرّف أيّ تصرّف، لقد جسّدت مباشرة جوهرًا نفسيًا»[٣]. لقد أتى النّقد البنيوي بعد

(١) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، الكويت، علم المعرفة، العدد ٢٤، ١٩٩٨، ص ٨٣.

(٢) م. ن. ص. ن. (٣) رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ص ٦٣.

ردح من الزّمن، ليقلّل من قيمة الجّوهر النّفسي للشخصيّة على حساب عوامل أكثر أهميّة. ومن وجهة نظر هذا النّقد، إن هناك إشكالاً مهمًّا رافق تطوّر النّظرة إلى الشّخصيّة. ويرى بعض أصحابه أن هذا الإشكال ينبغي له أن ينسحب على الأدب بأنواعه جميعًا، ويثير قضيّة شديدة الأهميّة، هي العلاقة الأساس بين المتخيّل والمرجعي.وهذه القضيّة تقود إلى التساؤل عن طبيعة هذه العلاقة، وكذلك عن دور اللّغة فيها. إذ إن «الدّاخلي الأدبي لا يطابق المرجعي الخارجي الاجتماعي، لأن الكتابة لها علاقة بالمتخيّل (الذّهني أو المفهومي)، أي بعالم يرتسم في المتخيّل وفاق رؤية ما للحياة، (فكري معين) منزاح لا يطابق واقعًا أو مرئيًّا معيّنًا»[١].

ربما يجيب هذا القول عن التّساؤل الأوّل الّذي أثير سابقًا. غير أن هناك حقيقة لا يمكن إغفالها، هي أنّه ليس باستطاعتنا أن نخضع الرّؤية إلى العالم دائمًا، وفاق الموقع الاجتماعي المرتكز إلى أرضيّة ماركسيّة. إن هذا التّعليل يتطلّب البحث في مفهوم الأدب، ووظيفته، بشكل عام، ذلك أن «الأثر الأدبي مكوّن أو مصنوع من الكلمات والجمل، وغيرها من التّعبيرات المختلفة، فهو إذن ليس إلاّ ما تعبّر عنه اللّغة»[٢].

وذلك يعود إلى أن الاعتقاد الصّحيح ربما يكون في النّظر إلى الأدبيّة كما يرى بارت (Barthes)، هي مقاومة جرثومة السّلطة الّتي تحملها اللّغة. بناء على هذه النّظرة، تغدو مهمة الدّارس العمل على كشف عن تلك المقاومة الّتي تواجه اللغة في النّص الأدبيّ، لأن اللغة، بوساطة هذه السلطة، تجذب الكلام، لينضوي تحت قوانينها، وتصنيفها للعالم.

ولذلك فإنه من خلال معطيات السّيميولوجيا (Semiology) يسعى الأديب إلى تطويع تلك اللغة، جاعلاً إيّاها خاضعة للتّعبير عمّا يريد.

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك فارقًا بين مصطلح (الشّخص) «والمقصود به الإنسان الفرد، كما هو في الواقع وبين مصطلح الشّخصيّة، والمراد به وجودها داخل العالم القصصي»[٣]، من وجهة النظر البنيويّة. إن مفردتي الشّخص والشّخصيّة، وإن كانتا تتشابهان في جملة من الصّفات، إلاّ أن تشابههما يبقى شكليًا، «لأن معيار الشّخصيّة الرّوائية مستمدّ من أدبيّة

(١) يمنى عيد، في معرفة النص، ص ١١.
(٢) Tzvetantadarov Qu'estÙceque le structuration¢p 108.
(٣) محمد سويرني، النقد البنيوي والنص الروائي، ص ٧٠.

الرّواية، وتابع لصوغ النّص التخييلي، وهو نص مغلق مكتف بقوانينه الدّاخليّة»[١].

١ - وظائف الشّخصيّة:

حاول الباحث بروب (Propp)، تحديد الوظائف للشخصيّة القصصيّة في الحكايات الخرافيّة، ورأى أنها ترتبط بسبع دوائر فعل هي: دائرة فعل الشّرير، دائرة فعل المساعد، دائرة فعل المانح، دائرة فعل الأميرة، دائرة فعل المرسل، دائرة فعل البطل، ودائرة فعل البطل المزيّف. وبناء على توزيع الوظائف ترتكز الحكاية عند بروب إلى أنموذج بسيط يعتمد سبع شخصيات دراماتيكيّة.

وهذا الأنموذج يصرف اهتمامه إلى «وحدة الأفعال التي تهبها القصّة للشخصيّات»[٢]. بعد ذلك، عرفت نظريّة بروب شيئًا من التّطوير، بخصوص الشّخصيّات وأفعالها على يد المنظر أ. ج. غريماس (A.J. Gremas) الذي تحدّث عمّا يسميه ب العوامل السّتة. وهذه العوامل يمكن إدراجها في ثلاث علاقات هي:

علاقة الرّغبة:

تعدّ علاقة الرّغبة من العناصر الضّرورية التي ينبغي دراستها في بناء الشّخصيّات. فهي تقوم بوظيفة الجمع بين قطبيّ الذّات/الموضوع. فالذّات هي التي ترغب، وما هو مرغوب فيه هو الموضوع. «وهذه الذات إمّا أن تكون في حال إيصال الموضوع أو انفصال عنه»[٣]. وعندما تكون في حال اتصال، فإنها ترغب في الانفصال، والعكس صحيح، أي انها عندما تكون في حال انفصال فإنها ترغب في الاتصال، وإذا رغب البطل في القصّة، في هدف ما، فإنه يبرم عقدًا مع النّفس، أو المجتمع، يقضي بتحقيق هذا الهدف.

علاقة التّواصل:

إن الدّافع أو المحرّك الذي يحرّك الرّغبة لدى البطل/الذّات هو المرسِل، وهذا يقابله عامل آخر يحقّق الرّغبة من أجله، وهذا هو المرسل إليه «كما أن تحقيق الرّغبة لا يكون ذاتيًّا بطريقة مطلقة، ولكنّه يكون موجّهًا إلى عامل آخر، أيضًا، يسمى مرسلاً إليه (Distinataire)»[٤]. إن الفرد نفسه يمكن أن يكون المرسل والمرسل إليه، وقد يكون الوطن، أو المجتمع، أو الحزب أو غير ذلك، وعلاقة التّواصل لا بد من أن تمرّ بالضّرورة، عبر علاقة الرّغبة أي عبر علاقة الذّات بالموضوع. إذا كان المرسِل هو ما يجعل الذات ترغب في شيء ما، فالمرسل

(١) م. ن. ص ٧٢.
(٢) رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ص ٦٣.
(٣) حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص ٣٤.
(٤) م. ن. ص ٣٥ - ٣٦.

إليه يقدّم البرهان للذات على أنها قامت بالمهمّة خير قيام، أو أخفقت في هذه المهمة، أو غير ذلك.

ج - علاقة الصّراع:

من المؤكد أن الذات تواجه عقبات كثيرة، في أثناء سعيها إلى تحقيق موضوعها، وبالتّالي فهي تبذل ما بوسعها لتخطّي هذه العقبات، ومن هنا ينشأ الصّراع. ومن خلال هذا الأخير ينشأ عاملان اثنان متعارضان:

نسمّي الأوّل العامل المساعد، وهذا العامل يقف إلى جانب الذات في صراعها، ونسمّي الثاني العامل المعارض أو المعاكس، ويؤدّي هذا العامل دور عرقلة الذات وإجهاض سعيها إلى تحقيق هدفها. ونستطيع القول إن هذه البنية يمكن أن تتواجد في كل حكي، بل في كل خطاب على الإطلاق.

د - العوامل والممثلون:

يمكن للعامل أن يتمثّل بطائفة من الممثلين الذي يشيرون إليه. وعندما بحث «غريماس» (Greemas) في هذه العوامل، أسقط صفة الشّخص / الإنسان الموضوعي عن الشّخصية القصصيّة، ليجعلها قريبة من الشخصية المجرّدة. ويمكن أن يتمثل العامل في مجموعة من الشّخصيّات. بل قد لا يكون العامل شخصيّة، كأن يكون الدّهر، أو القدر مثلاً، وربما يكون مدينة، أو جيلاً من الأجيال. هنا تغدو الشخصيّة مجرّد دور يؤدى في عمليّة القصّ، بصرف النظر عمّن يؤدّي هذا الدّور وبناء على هذا، «فإن التعقيدات التي تنشأ عن تعدّد الممثلين في العمل الواحد أو تعدّد العوامل في ممثل واحد، تؤدي هذه التعقيدات كلّها إلى جعل النّمط الحكائي في أنواعه المعاصرة على وجه الخصوص شائك العلاقات، فيتطلّب تحليله كثيرًا من الدّقة والحذر»[1].

يدرس «تودوروف» (Todorov) الشخصيّة المميّزة بأدوارها المتحوّلة، وفي علاقاتها بالشخصيّة الأخرى في العمل القصصيّ، في أثناء بحثه في تعدّدية العلاقات ويستند في دراسته إلى ما قدّمه غريماس (Greemas) عندما درس أنموذج العلاقات بين الشخصيات، ورأى تودوروف أن من الممكن إرجاع تعدّدية العلاقات إلى ثلاثة حوافز أساسيّة هي الرّغبة والتّواصل والمشاركة. وهذه الحوافز تؤدّي إلى التّقارب بين الشخصيّات، ويقابلها ثلاثة حوافز سلبيّة تؤدّي إلى التّنافر، هذه الحوافز هي الكراهيّة والجهل والإعاقة.

ليست الشّخصيّة القصصيّة واقعًا

(١) حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص ٣٧.

محسوسًا يتوضح في المكان والزمان. وإنّما هي «مفهوم لساني تخييلي، وبالتّالي، هي ليست سوى مجموعة من الكلمات لا أكثر ولا أقل»[١]. ولكي تفلت من طغيان النّزعة السّيكولوجيّة نظر على أنها علاقة، وذلك يعني إمكانيّة دمجها بمجموع العمل الأدبي، وبهذا تكون جزءًا من العلاقات التي يتكون منها نظامه، كما يمكن تحليل هذه الشخصيّة بوصفها وحدة دلاليّة، قابلة للتّحليل والوصف، أي من حيث هي دال ومدلول، وليس بوصفها معطى له إمكانيّة الثّبات. وهي، أي الشخصيّة، تغاير المفردة اللغويّة التي يعرف معناها فورًا – إلا إذا كانت منزاحة عن المعنى المعجميّ عبر الاستخدام البلاغي – كصحيفة بيضاء، ومن ثم بالانتقال إلى البناء المتدرّج لها.

يمكننا القول إن القاص يقوم بتخيل عالم فنّي جديد، كما يقوم بتشكيله، في أثناء تقديم العمل. ويتمّ بناء هذا العالم المتخيّل وفاق وجهة نظر بصريّة وفكريّة وجماليّة، أي إن هناك واقعًا ينبني على أسس ثقافيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة. هذه المكوّنات تساهم في تقديم رؤية ثقافيّة لدى القاص. وتنمو هذه الرؤية وتتطور وتتنامى وفاق جملة من المؤثّرات، فتنتج عملاً قصصيًّا يستند إلى وجهة نظر محدّدة يمكن تبنّيها. هذه الأخيرة، بدورها تشكّل موقفًا ثقافيًا، وإيديولوجيا من العالم المحيط، بعلاقاته وصراعاته وتناقضاته كلّها.

إنّ رؤية الكاتب تخلق عالمًا مزاحًا عن العالم الحقيقي الموضوعيّ، إلا أنّها تستند إليه وتفترق عنه، خالقة بهذا الاستناد والافتراق «مسافة توتّر تكشف عمّا يريد الكاتب قوله. فإذا نحن أمام واقع فنّي متمايز مغاير. «ومن هنا نميّز رؤية القاص من الرّاوي على أساس أن الأخير يشكل أداة البثّ التي يطلقها الأوّل ويستعين بها لأداء عمليّة القصّ، من غير أن يمتزج بها»[٢].

يقوم القاص بإطلاع المتلقي على مجريات الأحداث وتطوّرها، وتنامي الشخصيّات وفاق نظام محدّد، يعدّه الكاتب بعناية والقصّة التي هي خطاب الكاتب، على لسان الرّاوي الذي يقدّمها، يقابلها المتلقّي الذي يتلقّى الحكي. «وفي إطار العلاقة بينهما ليست الأحداث المحكيّة هي التي تهمّنا، ولكن الذي يهمّ الباحث بحسب هذه الوجهة هو الطّريقة التي بواسطتها يجعلنا الرّاوي نتعرّف إلى تلك الأحداث»[٣].

---

(١) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٢١٣.

(٢) W.Kaysaĭ Qui racote le Roman? laPoetique Du Reciĩ Pariš ED Seuil-Point 1977, Page 504.

(٣) T.Todorov, les Genres de discours, Edit, Seuil, Paris, 1978, Page 133.

يتبدّى عالم القصّة من خلال دور القاص، عندما يقدّم الشخصيّات بسماتها وملامحها الفكريّة، وأبعادها الثّقافية، وكذلك بعلاقاتها بالشخصيّات الأخرى، وبما قد تحمل من تناقضات. فصوت القاص «هو الصّوت غير المسموع الذي يقوم بتفصيل مادّة الرّواية إلى المتلقي وربما يكون الشخص الموصوف مظهرًا مخبرًا داخل النّصّ، ممّن يتولّى مهمّة الإدلاء بكامل تفاصيل عالم الرواية»(١).

إن العالم الفنّي الذي ينشئه الكاتب المبدع يتلبّس لباسًا واقعيًا، ينهض على خلفيّة رؤيته الكامنة وراء النصّ القصصيّ. والرّؤية التي يقوم الكاتب بنقلها قد تكون ذات بعد خارجي، يقف القاص فيها موقف المحايد، خارج إطار الذّات المتأثّرة. وهو هنا «يستطيع أن يصل إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل، كما أنه يستطيع أن يدرك ما يدور بخلد الأبطال»(٢).

وإما أن تكون الرّؤية داخلية، بمعنى أن يأخذ القاص بيد المتلقي في رحلتهما المشتركة، يطلعان معًا على مجرى الأحداث وتسلسلها، وكذلك يقوم بمشاركة الكاتب في كيفيّة النّظر إلى الأحداث والتطوّرات «ونضفي انطباعات الرّاوي ووجهة نظره على الأحداث والشخصيّات، والرّاوي هنا أحد شخصيّات الرّواية، يقدّم ما يشاهد من أحداث، ويكون شاهدًا عليها»(٣).

تقود هذه الرؤية إلى تعدّد وجهات النّظر بتعدّد الشّخصيّات بانسجام وتوافق، وتقوم أيضًا، بالكشف عن وجوه الصّراع، الخفيّ منه والمعلن ولعلّ هذه إحدى مميّزات القصّة الحديثة.

المبحث الأول: مجموعة أغلى من الذهب:

يقوم هذا المبحث بدراسة قصّتين هما: «الجذع»، «أغلى من الذهب».

١. دراسة قصة «الجذع»:

١. إحصاء الشخصيّات وتصنيفها:

قامت هذه القصّة على شخصيّات متعدّدة، فالرّجل هو الشّخصية الرّئيسة التي يدور حولها مجرى القصّة، والزّوج الشخصيّة الأساسيّة التي رافقت الشخصيّة الرّئيسة بكل معاناتها وأما حارس السّهل والخواجة وناظر المحطّة والمدير فقد مثلوا الشخصيّات الثانويّة والطّفل شخصيّة خلفيّة.

٢. نظام العلاقات بين الشخصيّات:

(١) عبدالله إبراهيم، المتخيل السردي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٩، ص ١١٧.

(٢) Categories du Recit, Page 148, T.Todorov.

(٣) عبدالله إبراهيم، المتخيل السردي، ص ١١٩.

١. البرنامج السّردي الأوّل: البحث عن عمل.

١. العامل الذات: الرّجل.

٢. العامل الموضوع: إيجاد بديل للعمل الذي خسره، عانت الشخصيّة الكثير في سبيل ذلك ويعود السبب لابن سرسق الذي باع أرضه للعدو.

٣. العامل المرسل: يتمثل هذا العامل بجملة من العناصر التي تنطلق من الذّات، لإشباع رغبة أو رغبات متمكنة في حنايا النّفس. إن معاناة الشخصيّة تمثلت، بإيجاد معاش لها ولعائلتها ولتربية طفلها، وكذلك لتحقيق إنسانيّتها فهي تسعى جاهدة لإيجاد عمل يغنيها عن اليهود. فالشخصيّة تعيش بأمل وجود عمل، لأنّه لا بدّ من وجود شخصيّات تحب وطنها وتدافع عن أرضها وتحافظ عليها وبالتالي ستعمل عندهم. وهذا ما يدلّ على إحساس الشخصيّة بإنسانيّتها وكرامتها فتقول الشخصية: «إسمع أيها المتعلّم: (العبوديّة عبوديّة مهما رفعت من شعارات برّاقة)،سنجوب أرجاء الوطن ولا بدّ أن تحظى بحقل ليس يملكه ابن سرسق»[١]. فلقد استعانت بهذا الأمل بوصفه النّقيض للواقع، لإنشاء مدينة مغايرة لما حولها، مدينة جديدة انتهى منها الظلم والقمع، فنجد حرصها على العيش والبحث عن عمل بديل،قد شكّل جانبًا من الإحساس بالإنسانية، التي تجد سبيلها إلى التّحقق ذات يوم. وكذلك فإنّ الفقر، الذي يعيشه الرّجل، أي الشخصيّة الرّئيسة، كان عاملاً أساسيًّا للبحث عن عمل،إذ أنّه لا يملك ما يمكن أن يعيل عائلته سوى العمل،فجاب وعائلته أنحاء فلسطين غير يائس، بل كان متفائلاً بالمستقبل.

٤. العامل المرسل إليه: الذّات، العائلة، الوطن.

إن العامل المرسل إليه يتّجه إلى الذات،التي ترغب في تحويل الواقع المؤلم القائم على بيع الأراضي لليهود، ممّا يدفع الفلاحين إلى ترك العمل والبحث عن عمل جديد يغنيهم عن اليهود وأمثالهم وبالتّالي يستطيعون الاهتمام بعائلاتهم، فإنّ الرّجل (الشخصية الرئيسة) سعى جاهدًا للبحث عن عمل جديد يحفظ من خلاله كرامته وعائلته ووطنه وذاته،ضمن إطار من القيم الأخلاقية، فقد جاب أرض فلسطين علّه يجد عملاً يضمن له كلّ هذه القيم ويحافظ عليها.

٥. العامل المساعد:

إن الإمكانيّة النفسيّة والعقليّة التي تحلّت بها الشخصيّة الرّئيسة،أعطتها عزمًا وقوّة لمواجهة الصّعاب التي اعترضتهامن أجل

(١) الجذع، ص ٢٤.

إيجاد عمل يساعدها على الاهتمام بعائلتها. فقد عانت الشخصيّة الكثير، إذ بدأت تتنقل هي وزوجها وطفلها على ظهر الحمار علها تجد طلبها، فتوقفت بجانب محطة السّكك الحديديّة، وعبّرت عن موقفها من الإنسان الذي ينازع أخاه الإنسان على لقمة العيش، بل ويحرمه منها في أثناء حديث دار بينها وبين ناظر المحطة تقول الشخصيّة: «الرجل: هل سمعت أن حمارًا قتل حمارًا أو سرق تعبه أو اغتابه أو اغتصبه؟».

– كلا.

إن هذا الحوار الذي دار بينهما ليس مجرد حوار، بل هدفه إيصال فكرة،وهي أنّ الإنسان لا يحترم أخاه بالإنسانيّة، بل يعتدي على حقوقه ويحرمه منها، كيف إذا كان الإنسان من أبناء وطنه، فلقد باع نفسه وغيره للعدو الغاصب وحرم أبناء وطنه من لقمة عيشهم.

وكذلك فقد رافقت الزوج الشخصيّة الرّئيسة طوال هذه المعاناة، فكانت خير سند لزوجها وعانته على همومه ووقفت إلى جانبه حتّى يصل إلى مبتغاه وهو إيجاد عمل بديل عن الذي خسره.

٦. العامل المناوئ:

إن الكاتب «سعيد أبو نعسة» قد كشف عن جانب من جوانب الظّلم والاضطهاد التي يعاني منها الشّعب الفلسطيني فإنّ الشخصية الرّئيسة (الرجل) عانت الكثير لإيجاد عمل بديل عن الذي خسرته،كونها فلسطينية وتعيش داخل أرض محتلة يسيطر عليها الاحتلال بقمعه وظلمه وهيمنته، وكون الشخصية الرّئيسة قد تميّزت بعقليّة وطنيّة لا ترضى بعمل يضر بأسسها وقيمها ووطنها، إذ ان ما تتمنّاه عمل بعيد عن اليهود وخدمتهم، فلقد تركت عملها الأول بسبب بيع الحقل ليهودي،ولقد رفضت فرصة عمل أتيحت لها في القطار لسبب واحد وهو خدمتها لليهود.

ففضّلت أن تسير في دنيا الله تبحث عن عمل، لا تعرف وجهة سيرها، علّها تجد عملاً يناسبها فشرّدت هي وزوجها وطفلها في سبيل تأمين لقمة العيش في ضوء القمع والإذلال اللذين ذاقت منهما الأمرين. ففرص العمل قليلة ووطنيّتها وقيمها تمنعها من قبول أيّ عمل، وكون الشخصية فلسطينية صعّب الوضع أكثر.

٣. هوية الشّخصية الرّئيسة:

بثّ الكاتب جملة من سمات الشخصية الرئيسة، النفسية والجسدية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية والوطنية في ثنايا القصّة،ومن الضروريّ أن نتمعّن في الوظيفة التي تؤدّيها هذه الصّفات.

١. الهوية النّفسية للشخصية الرّئيسة:

لقد اتّسمت نفسيّة الشخصيّة الرّئيسة

في قصّة «الجذع» باليأس، وظهر ذلك من بداية القصة، في أثناء تثاقلها إلى جذع (الحورة) حتّى نهاية القصّة. لقد تركت الشخصيّة الرّئيسة منزلها في سبيل بحثها عن عمل بديل عن الذي خسرته، ولقد ظهر بأسها في غير مكان فتقول الشخصية الرئيسة كردّ على تساؤل الزّوج حول مكان ذهابهما: «ومن في الكون يدري أين يمضي؟ سجن كبير مفتح الأبواب! وهْم أكبر اسمه (الحرية) أقنعة... أقنعة... باسم الدين ارتكبت أبشع مجازر التّاريخ.

وخلف قناعيْ الأخلاق والسّياسية تتأهّب وحوش ضارية (الوطنيّة حرباء يلوّنها البشر على أهوائهم). تأمّلي هؤلاء الغجر مثلاً، وطنهم خيمة وهدفهم لقمة، يعيشون على هامش الحياة (لا شعوريًا يتحسّس بطاقة هويتّه، وينظر إلى طفله كأنّما يعقد مقارنة)»[1].

من هنا نجد مدى يأس الشّخصية من الوضع الذي تعيشه وللحظة أحسّت نفسها، وكأنّ حالها كحال الغجر لا هوية ولا وطن، فإن تركها للعمل قلّت مجالاته في وطن سيطر عليه اليهود. جعل من الشخصية تعاني الظّلم والقهر.

٢. الهويّة الاجتماعيّة:

إنّ الشخصيّة الرّئيسة تعاني وضعًا اجتماعيًّا صعبًا، فهي تمر بحال معيشية قاهرة، فلقد تركت بيتها في سبيل البحث عن لقمة العيش، وكذلك فإنّها بعيدة عن التّقدم الذي يدركه العالم اليوم، ونلحظ ذلك من جملة إشارات دلّت على الوضع الاجتماعي الذي تعيشه الشخصيّة.

يقول الكاتب «تناهى إليه زعيق زوجه. هل أسرجت الحمار» تحامل على صرّته وقام يزاوجها على صرّة أخرى تاركًا بينهما مسافة تتّسع لظهر الحمار.

حد قت الزّوجة من النّافذة، واطمأنّت إلى سير الأمور. تناولت حذاءها، ألصقت النّعل بالنعل وغيّبته تحت إبطها. ثم (اعتلت) رضيعها وسلّة المؤن وخرجت تجرّ أذيالها مجدّفة[2].

ويدلّنا هذا على الوضع الاجتماعي الذي تعيشه الشخصيّة، إنّها تعاني الفقر الشديد.

٥. الهويّة الأخلاقيّة:

نلحظ جملة من القيم الأخلاقيّة التي تتشبّث بها الشخصية الرّئيسة كونها تنتمي إلى الأصول الرّيفيّة هذه القيم تتبدّى من خلال تعاطيها مع الشخصيّات الأخرى في القصّة،فالوفاء والإخلاص من القيم الأخلاقيّة التي تتحلّى بها. تقول عندما سلّمت المفتاح لحارس السّهل الذي كانت

(١) ص ٢٢.

(٢) ص ١٩-٢٠.

تعمل فيه رجع الرّجل القهقرى، وسلّم المفتاح إلى حارس السهل، طالبًا أن ينقل (للخواجة) هذه الرّسالة:

«بعت آخرتك بدنياك، وبعت دنياك بذميم الصّيت، ألا بئس البيع!!

ثم تناول قبضة من الطين وجعل يكوّرها بين كفيه... أسكنَها (الجرح) وهو يردّد: (الطين سلاح عند عدم السّلاح)[١].

فقد بينت لنا الشخصيّة مدى إخلاصها لأرضها وشهامتها تجاه المواقف الحاسمة، ولعلّ هذا اللوم لابن سرسق يكشف عن أخلاق نبيلة وشهامة، لأنها ترفض كل من يبيع أرضه ليهودي لأنها ذاقت منه الأمرّين.

ويظهر لنا الوفاء والإخلاص أيضًا عندما رفضت فكرة مجرد حمل متاع يهودي فتقول الشخصية: إسمع أيّها المتعلم (العبوديّة عبوديّة مهما رفعت من شعارات برّاقة)، سنجوب أرجاء الوطن، ولا بدّ من أن نحظى بحقل ليس يملكه ابن سرسق[٢].

هنا يكشف الكاتب عن نظرة الشخصيّة الرّئيسة إلى العبوديّة فهو يرفض رفضًا قاطعًا أن يخدم يهوديًا،حتى ولو كان على حساب لقمة العيش، فإيمانه بوطنه وبأرض وطنه جعله يعيش على الأمل،وشهامته المتوارثة التي هي جزء من عاداتنا وتقاليدنا الشّرقيّة ظاهرة متجليّة في تصرّفاته.

د. الهويّة الثقافيّة:

لم تمتلك الشخصيّة الرّئيسة مستوى علميًا يميّزها من النّاحية الثقافيّة. فهي مقاومة، عنيدة، بالدّرجة الأولى. وهي مقاومة تؤمن بالحرب حتى لو كان السّلاح قبضة من الطّين،لأنها تجده الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحقوق التي اغتصبها العدو. تقول: «الطّين سلاح عند عدم السّلاح»[٣].

فهي تؤمن بضرورة المبادرة إلى النّضال بما يتوافر من إمكانات، من أجل التخلّص من سيطرة الاحتلال وظلمه الذي يقف بينه وبين لقمة عيشه.

فهي إنسانة ذكيّة، مستوعبة للواقع، وللشعارات التي تطلقها الدّول. تقول: «سجن كبير مفتح الأبواب!! ووهم أكبر اسمه (الحرية)... أقنعة... أقنعة. باسم الدّين ارتكبت أبشع مجازر التّاريخ وخلف قناعيْ الأخلاق والسّياسة تتأهّب وحوش ضارية (الوطنيّة حرباء يلوّنها البشر على أهوائهم)»[٤].

فهي تعيش الواقع وتستطيع قراءة ما بين السّطور وما يدور من حولنا من قرارات حاسمة، وجدت فقط لأنّها وجدت.

(١) ص ٢٠-٢١. (٢) ص ٢٢. (٣) ص ٢١. (٤) ص ٢١.

٤. آلية الصراع وتحقق الذات:

تحدّد آلية الصّراع في قصّة «الجذع» من خلال المحبة والانتماء الوطني الذي تبيّن عند الشخصيّة، فإن تركها لعملها في بادئ القصّة، يعود سببه لهذا الانتماء وهذا الإخلاص، وقد سعت طوال القصة، لتبحث عن عمل بديل يكون في حقل لا يملكه يهودي ولكن لم تجد الشخصية عملاً بديلاً إلا في سكّة الحديد تعمل كـ «عتال» ولكن هذا العمل يصبّ أيضًا في خدمة اليهود، ممّا جعل الشخصيّة ترفضه رفضًا قاطعًا، بالرّغم من الوضع الاجتماعي الذي تعاني منه، فانتماؤها ووفاؤها للوطن وقفا عائقًا أمام تحقّق ذاتها وهو إيجاد عمل تحافظ فيه على كرامتها.

ويعني كل ذلك أن آليّة الصّراع التي حكمت القصّة هي ذات بُعد وطني أخلاقي.

القصّة الثانية: «أغلى من الذّهب»:

١. دراسة قصّة «أغلى من الذهب»

١. إحصاء الشخصيّات وتصنيفها:

تمحورت هذه القصّة حول أستاذ وهو الشّخصية الرّئيسة، والزّوج فاطمة شخصية أساسية وأما الشخصيّات الثّانوية فهي: التّاجر والشبان المقاتلون والعجائز وأخيرًا النّساء، هذه الشخصيات تداخلت مع بعضها البعض إلاّ أن الشخصية الرّئيسة هي المحور بمساعدة زوجه (فاطمة) ومكتملة مع الشخصيّات الثّانوية.

٢. نظام العلاقات بين الشخصيات:

١. البرنامج السردي الأول: الحصول على السلاح.

١. العامل الذات: الأستاذ الذي تتمحور حوله القصة.

٢. العامل الموضوع:

إن الشخصية الرئيسة في «أغلى من الذهب» همّها الوحيد الحصول على سلاح لمشاركة رجال الضّيعة بالواجب وكذلك لتحقيق ذاتها ورجولتها.

فمع مزاولتها (الشخصية) مهنة التعليم إلا أنّ نداء الواجب لم يمنعها من التفكير بوطنها وأرضها، وهكذا فإن أحداث القصّة تمحورت حول كيفيّة حصول الأستاذ على سلاح في ظلّ الفقر والوضع المعيشيّ الصّعب.

٣. العامل المرسل: حبّ الوطن وكرامته ورجولته.

إن الدّافع الأساسي الذي تميّز به هذا العامل هو محبّة الشخصية الرّئيسة لوطنها وحفظ أرضها وكرامتها،وكذلك إحساس الشخصية بالرجولة. فالأستاذ رجل كباقي الرّجال لديهم رغبة في إشباع رجولتهم، فهو كهؤلاء الذين يواجهون العدو، وجلوسه في المنزل يشعره بالحرج وكأنه يشبه النسوة القابعات في منازلهن ينقّين العدس.

تقول الشخصيّة الرّئيسة بحوار دار بينها وبين زوجه: نم!! الصّباح رباح!!

ليته لا يأتي !! غدًا.. يسري الخبر في القرية سريان النار في الهشيم. «الرجال يقتحمون لجّة المعركة، والأستاذ قابع مع النّساء ينقّي العدس تحت شمس الضّحى»[1].

٤. العامل المرسل إليه: المجتمع كلّه (أهل الوطن):

الشخصية الرّئيسة لم يعد باستطاعتها تحمل الوضع القائم آنذاك في الضّيعة وخصوصًا أن جميع الرّجال لبّوا نداء الواجب متوجّهين لقتال العدوّ بينما هو قابع في المنزل.

إن ما يرتكبه العدو بحق شعبه من مظالم، جعله يسعى جاهدًا للحصول على سلاح بشتّى الوسائل للدفاع عن أرضه وأهله، فالعدو سلب حقوقهم ولقمة عيشهم.

٥. العامل المساعد: التسول وقوف زوجه بجانبه:

لقد تملّكت الشّخصية مشاعر وأحاسيس أليمة من جرّاء عدم وجود سلاح يساعدها في الدفاع والحضور مع باقي المجاهدين الموجودين في لجّة المعركة،ومن جراء ذلك راحت تفكّر بوسائل عديدة لتفرج همّها، ومن بين هذه الوسائل: التّسول. وبعد تفكير عميق،قرّرت الشخصيّة أن تتسوّل إذ أنها لم تجد طريقة أخرى تجلب بها المال لشراء سلاح، وفي الصّباح الباكر كان الفرج عندما باعت زوج الأستاذ ذهبها واشترت بندقيّة له يقاتل بها العدو،وتبعد عنه تلك الوساوس والأحاسيس الجارحة التي أحسّت بها الشّخصية.

يقول الكاتب «ألفاها لدى الباب، تشرع ذراعيها تأهبًا لعناقه وقد رفعت بندقية.

ذهل...!! وتساقط إلى الأرض !! من أين يا فاطمة!

قالت: نحن والذّهب أبناء التّراب... والتّراب بحاجة إلى من سلّمته البندقية مودّعة: «بل إلى المسجد تعود، ولن تنقّي العدس مع النّساء»[2].

وهكذا فإن امرأة الأستاذ (الشخصية الرئيسة) قد ساعدت زوجها وهي نموذج من النّساء الفلسطينيّات اللواتي يبعن ما عندهن فداء للوطن وترابه.

٦. العامل المناوئ:

نجد غير عامل شكّل إحباطًا وقلقا للشخصيّة، ومنعها من تحقيق هدفها، ومن هذه العوامل:

١. الفقر وعدم وجود السّلاح:

ليس الكاتب «سعيد أبو نعسة» بحاجة

(١) ص ٦٨.

(٢) ص ٦٨-٦٩.

إلى اكتشاف فقر الفقراء في ظلّ الاحتلال، وقد بثّ إشارات متعدّدة من معاناة الفلسطينيين القاسية، نتيجة للاحتلال وقمع العدو.

نقرأ ما قالته الشّخصيّة: «لكن العين بصيرة واليد قصيرة حتّى البيض والدّيوك التي كنت أتقاضاها لقاء تعليم أطفال القرية بدأت تنضب؟

نقّل نظرات ذابلة حول متاعه فلم يجد بينها ما يصلح للبيع وغاب تحت اللحاف حين تقلّص القنديل معلنًا عطشه إلى الزّيت»[1].

هذا باختصار يسلّط الضّوء على الوضع المعيشيّ والفقر الذي تعاني منه الشخصيّة، فكيف ستحصل على سلاح في ظلّ هذا الوضع الصّعب،وكيف ستقاوم العدوّ من دون سلاح. فعاشت الشّخصيّة صراعًا مؤلمًا آملة إيجاد حلّ يخرجها من همّها وألمها.

فقد حرمت من مقوّمات الحياة التي يعرفها عصرنا اليوم.

٢. البرنامج السّردي الثاني:

إن البرنامج السّردي الثاني يكمل البرنامج السّردي الأول وهو ممارسة الجهاد لمقاومة العدو الغاصب،لقد سعت الشخصيّة جاهدة وفكّرت بشتّى الطّرق من أجل تحقيق هذا الواجب.

١. العامل المرسل: وطن محتل – شعور بالوطنّية – الرّجولة:

إن تحرير الوطن وإباءه متوقّف على رجاله ومقاوميه، ولذلك فإنّ الشخصيّة أحسّت بهذا الواجب وأحبّت تلبية ندائه ولكن الوسيلة (السلاح) لم تكن موجودة، ففكّرت بوسائل عديدة تستطيع من خلالها تحقيق هدفها وبالتّالي تلبّي نداء الوطن.

وخير مثال على ذلك عندما عرفت أن الرّجال في لجّة المعركة، بينما هي قابعة في المنزل كالنساء، فتعبّر عن ذلك بحرقة وألم وانزعاج لعدم استطاعتها الحضور معهم، وقد عبّرت عن هذا القهر في أثناء محادثتها مع زوجها.

تقول الشخصيّة: «ليته لا يأتي!!.. غدًا يسري الخبر في القرية سريان النّار في الهشيم: «الرّجال يقتحمون لجّة المعركة، والأستاذ قابع بين النّساء ينقّي العدس تحت شمس الضّحى ويرفو الثّياب، ينهش لحم الجارات، ويشحذ لسانه ليزغرد للأبطال العائدين، موتي يسبق يا فاطمة، موتي يسبق!!

وراحا يجهشان في نوبة البكاء»[2].

من طبيعة المرأة أن تبكي لأنها عاطفيّة،

(١) ص ٦٨.

(٢) ص ٦٦.

ولكن الرّجل موصوف بالرّجولية والعقلانيّة، وقلّة منهم يلجأ للبكاء وهذا ما حصل للشخصيّة، فالأستاذ لم يتحمل رؤية نفسه من دون سلاح ومع الرّجال، فلجأ إلى البكاء الذي يعبر عن ألمه ووضعه الصعب والمتأزّم، وكلّ ذلك من أجل إحساسه بالمسؤولية تجاه وطنه وكرامته وعزّته.

٢. العامل المرسل إليه: الوطن

إن ما سعت إليه الشّخصيّة وما فكرت به يصب في صالح الوطن ومحبّتها له، وقد عبّرت عن ذلك بطرق شتّى، وفكّرت بالمعقول واللامعقول في سبيل النّجاة من ألسنة النّساء، وكذلك شراء بندقيّة تجعلها تثبت ذاتها ووطنيّتها ومحبّتها لأبناء وطنها وكذلك لتحرير أرض وطنها.

٣. العامل المساعد:

الحضور في الوطن وقوّته وإيمانه وعزمه ومحبته لوطنه، كلّ ذلك ساعد الشّخصية على تأدية دور أساسي وجعلها جاهدة تفكّر في طريقة لتأدية هذا الدّور وهو مقاومة العدو وردعه.

وقد تجلّى ذلك في كلّ سطر من القصّة، إذ تبيّن لنا كيف كانت الشخصية صاحبة إرادة قوية وعزيمة صلبة.

٤. العامل المناوئ:

١. قوّة العدو:

إن العدو الإسرائيلي معروف بقوّته وقوّة أسلحته وتطوّرها ولذلك كان لا بدّ من وجود أمثال الشخصيّة الموصوفة بالعزم والقدرة ومحبّة الوطن لمواجهة هذا العدوّ وهذه القوّة.

٢. هويّة الشخصية الرّئيسة: (الأستاذ).

قدّم الكاتب الشخصية الرّئيسة (الأستاذ) بصورة واقعيّة في «أغلى من الذّهب»، وكذلك الشّخصيات الثانوية (التاجر، والزّوج، والرّجال، والنّساء)، فقد جعلها ذات هويّة متكاملة، ساعدته على تأدية رؤيته إلى العالم من حوله وخصوصًا العالم الفلسطيني.

ويجب أن نتمعّن بجملة السّمات التي تميّزت بها الشخصيّة الرّئيسة:

١. الهويّة النّفسية للشخصيّة الرّئيسة:

لقد أجاد الكاتب في إسباغ السّمات النّفسية على الشّخصية الرّئيسة، فهو رجل، أستاذ، تميز بكثرة التّفكير، ومواجهة الواقع وتحدّيه وهذا ما جعله يبحث عن وسيلة ليزيح المشكلات التّي يتعرّض لها، في تعامله مع النّاس والمجتمع الذي يعيش فيه.

فواجه واقعه خير مواجهة متحدّيًا الصّعاب للوصول إلى المبتغى (الحصول على سلاح) كان ذا حساسيّة شديدة فهو لم يتحمّل رؤية النّساء والجارات يتحدّثن عنه وعن جلوسه في المنزل كالنساء... وكذلك

فإنه يائس، حزين فكلّما فكّر بطريقة تمكّنه من جلب المال لشراء بندقية، أغلقت بوجهه الأبواب. يقول الكاتب: «نقّل نظرات ذابلة حول متاعه فلم يجد بينها ما يصلح للبيع».

«قادته خطاه إلى مضارب الغجر، فكر في الاستدانة... لكنه يعرف الجواب!!»[1].

فلقد كانت تصرّفات الشخصيّة تنطبق على ما ترى فيه نفسها من مميّزات ونلحظ أنّها تحظى بجرأة لا توصف، فهي تفكّر بالتّسول والعمل في إفراغ آبار الفضلات، وكلّ ذلك في سبيل تحرير الوطن ورفع رأس أبنائه عاليًا وتحقيقًا لذاته ولشخصه كرجل.

٢. الهوية الاجتماعية:

يظهر الأستاذ، في قصّة «أغلى من الذّهب» فقيرًا، متزوّجًا من إمرأة تدعى «فاطمة»، وهي التي تخفّف عنه معاناته اشترت له بندقية، تساعده في القتال مع الرّجال في الساحة، فكانت الأساس في كشف همّه ورفع رأسه أمام أهل القرية تقول الشخصيّة: «ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، حتّى البيض والدّيوك التي كنت أتقاضاها لقاء تعلّم أطفال القرية بدأت تنضب»[2].

هذا ما يدلّ على الفقر والحالة المعيشيّة الصّعبة التي تعيشها الشخصيّة فمع عملها ومهنتها كأستاذ، لا تستطيع أن تشتري بندقيّة، فما تتقاضاه من تعليمها للأطفال لا يكفيها قوت يومها.

٣. الهويّة الأخلاقيّة:

نلحظ من القيم الأخلاقيّة التي حملتها الشخصية الرئيسة، الوفاء، والشّجاعة وتحمّل المسؤوليّة وأهميّة الواجب ففي سبيل حماية الوطن، ظهرت كلّ هذه القيم في الشخصيّة فوفاؤها لوطنها ومحبتها له وكذلك شعورها بتحمل جزء من المسؤولية من أجل تحرير الوطن، جعلها تفكر بشجاعة بالتسوّل من أجل الحصول على مال تستطيع من خلاله شراء بندقيّة تمكّنها من الذّهاب مع الشّباب والرّجال إلى لجّة المعركة والجهاد معهم في سبيل تحرير أرض الوطن.

تقول الشخصيّة: «التّسول يصبح فريضة في حال واحدة فقط: الحاجة إلى السلاح»[3]، فهي تخفّف عن نفسها وقع التّفكير بهذا الموضوع لأنّها تعرف كلّ المعرفة معنى هذا التّصرف وتداعيّاته ولكن ربّما بهذه الكلمات تخفف ثقل ما ستفعله، فيصبح الأمر أكثر سهولة واستيعابًا.

(١) ص ٦٩.
(٢) ص ٦٨.
(٣) ص ٦٨.

٤. الهوية الثقافية:

تمتلك الشخصيّة الرّئيسة مستوى علميًّا تميّزت به، وهو اتخاذ التّعليم مهنة، وهذا ما كان يميّزها من النّاحية الثقافيّة.

كانت تعلّم أطفال القرية لقاء إعطائها بعض البيض والدّيوك، ومع ثقافتها ومستواها العلمي لم تستطع أن تتحمل البقاء في المنزل دون قتال.تقول الشخصيّة: «العلم الذي لا تحميه بندقيّة يطير مع رأس حامله»[1].

هذا ما يدلّ على مدى أهميّة المقاومة، لأن المتعلّم لن يدافع عن وطنه وعن نفسه بعلمه بل ببندقيّته، فالكلمة وحدها في عصرنا هذا، لم تعد تنفع، ولكنّها مع الرّصاصة تصنع المعجزات.

٤. آلية الصراع وتحقق الذات:

لقد عاشت الشخصية الرّئيسة صراعًا حول كيفيّة الحصول على سلاح من أجل مقاومة العدو ومشاركة رجال الضّيعة بالواجب، ولكن ما لبث أن مرّت الشخصيّة بمراحل من القهر واليأس في سبيل تحقيق الغاية، وفي هذه المراحل كادت (الشخصية) أن تحقق ذاتها ومبتغاها وإذ بها تغلق في وجهها كلّ الأبواب حتى فاجأتها زوجها بالبندقية وحقّقت كل آمالها وذاتها.

وإذ بنا نجد أنّ الزّوج هي التي قامت بتحقيق ذات الشخصيّة، بينما بالعكس فإنّ محاولات الأستاذ باءت بالفشل وكانت معوّقًا عن ذلك.من هنا نجد أن آلية الصّراع مادّية والحصول على المال وعلى السّلاح أدّى إلى تحقيق الذّات.

(١) ص ٦٨.

دراسة حول إمكانية إنشاء مطمر صحي للنفايات في المنطقة الواقعة غرب بعلبك استخدام نظام المعلومات الجغرافية

ماجدة شحيتلي الخطيب & جوسلين أدجيزيان جيرارد[1]

الملخّص:

يعدّ إنتاج النفايات الصلبة من بين أهم الأسباب التي تهدد الصحّة والبيئة، ولذلك فإنّ اختيار طرق التخلص منها يعتبر الأهم كعنصر وظيفي في نظام إدارة النفايات الصلبة.

يعتبر الطمر الصحي في البلدان المتقدمة المصير النهائي للنفايات التي لم تعد صالحة لإعادة التدوير والغير معدّة لعملية التسبيخ، لأن النفايات التي يتم إلقاؤها في المكبات المكشوفة والعشوائية أو في المواقع الغير مناسبة ومن ثمّ حرقها في الهواء الطلق، تشكل تهديدًا خطيرًا للبيئة وصحة الإنسان. (Ndira, 2006)

لإنشاء مطمر صحّي هناك عدة عوامل تدخل في عملية اختيار الموقع المناسب. يجب حماية التربة، ومعالجة المياه المتسربة من النفايات لحماية المياه الجوفية من خطر التلوث بمختلف المكونات خاصة الخطيرة منها مثل المعادن الثقيلة، عبر إنشاء محطة لتجميع عصارة النفايات وتكريرها.يجب أيضا إنشاء آلية «بيو غاز» لسحب الغاز من النفايات ومعالجته ومن الضروري تأمين إدارة يومية لكمية النفايات المنتجة في منطقة ما.

لذلك فإنّ إنشاء مكب صحي للنفايات في المنطقة الواقعة غرب بعلبك يستدعي دراسة لجغرافية الموقع والأخذ بعين الاعتبار النواحي الاقتصادية، الاجتماعية

(١) مركز البحوث للمساحة البيئية في شرق البحر الأبيض المتوسط (كريمو) - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا (جامعة القديس يوسف - بيروت).

والبيئية، والعوامل المتعلقة باستخدام الأراضي والجيولوجيا المائية. إنّ هذه العوامل أدّت إلى الاستعانة بنظام المعلومات الجغرافية لانّه يعدّ مثاليًا لمثل هذه الدراسات فهو يسمح بمعالجة كميات كبيرة من البيانات المكانية الحاصلين عليها من مصادر مختلفة. وبذلك فإنه يلعب دورًا مهمًا في اختيار موقع مطمر صحي للنفايات.

الهدف من هذه المقالة هو حل مشكلة النفايات من خلال إيجاد بديل للمكبات العشوائية المنتشرة في مختلف قرى منطقة غرب بعلبك، عبر دراسة احتمال إنشاء مطمر صحي يراعي تواجده مختلف المعايير البيئية والاجتماعية وذلك بالاستعانة بنظام متكامل وفعّال في إدارة النفايات والذي يعتمد على مجموعة من الأسس والبرامج والتقنيات لتسهيل عملية اختيار الموقع المناسب ضمن أراضي غرب بعلبك وهو نظام المعلومات الجغرافية.

المقدمة:

إنّ الحل الوحيد لمشكلة النفايات في معظم قرى منطقة غرب بعلبك هو رميها على مختلف مكوناتها في المكبّات المكشوفة والعشوائية. ونظرًا للخطورة التي تنجم عن سوء هذه الإدارة، كان لابد من التدخل لوجود حلول بديلة تهدف إلى الحد من التأثير السلبي للنفايات المنتجة على اختلاف مكوناتها على البيئة والصحة البشرية وذلك من أجل المحافظة على الموارد الطبيعية والاقتصادية. بشكل عام تعتمد خطط إدارة النفايات السليمة على بعض المبادئ الأساسية، مثل التقليل من كمية النفايات المنتجة من المصدر، إعادة استخدامها وإعادة تدويرها وأخيرًا وضع المواد المتبقية والغير صالحة في مطامر صحية للنفايات. (Leao et al. 2004)

وبذلك كان من ضمن الحلول المقترحة لمنطقة غرب بعلبك إنشاء مكب صحي كفيل باستيعاب كمية النفايات التي لم تعد صالحة لإعادة التدوير أو التسبيخ. ممّا يسمح التخلص من النفايات الصلبة في خلايا مصممة بعناية من أجل حماية المياه الجوفية من التلوث الناتج عن تسربات النفايات والحفاظ على البيئة من انبعاثات غاز الميثان. وتعتبر المطامر الصحيّة أكثر طرق التخلص من النفايات استخدامًا على نطاق واسع في العالم.

يبدأ تصميم مكان المطمر باختيار مواقع تتناسب مع الظروف البيئية للمنطقة والتي تراعي سلامة المواطنين

فتنقسم شروط اختيار مواقع مكبات النفايات والتي يجب أخذها بعين الاعتبار إلى ما يلي:

١ – الظروف الهيدرولوجية، المناخية والبيئية.

٢ – الظروف الجيولوجية والجيومورفولوجية.

٣ – حسين شتية، ٢٠١٢

المعايير الاقتصادية والاجتماعية

بحيث تعتبر معايير نفاذية التربة، الانحدار، البعد عن الأنهار ومجاري المياه الجوفية، المسافة من المناطق السكنية والغابات، البعد عن خطوط الكهرباء، المسافة عن الطرق، والبعد عن خطوط الزلازل من. (AINA, 2006) العوامل الأساسية التي علينا دراستها قبل البدء بهذا المشروع لذلك فإنّ اختيار الموقع المناسب أمرا معقّد ويخضع للعديد من الاعتبارات والمعايير ويحتاج إلى دراسات معمّقة للخرائط والبيانات وتفعيل للبرامج الحاسوبية المتخصصّة ممّا يساهم في التحكم في التنوّع المعلوماتي والخرائطي، ما يستدعي الحاجة إلى نظام متكامل وفعّال لإدارة النفايات من شأنه التعامل مع المعلومات والبيانات الجغرافية التي يحتاجها المخطّطون وصانعوا القرار، فنجد نظام المعلومات الجغرافية له قدرات واسعة كتقنية مساعدة في تقييم واقع مكبات النفايات في منطقة الدراسة، ومن ثم تخطيطها واختيار أفضل المواقع الصالحة لإقامة مكبات نفايات صحية بناءً على مجموعة من الشروط والمعايير بحيث يتم التخفيف من أثرها البيئي (شريفي، ٢٠١٧).

ليس هناك تعريف ثابت لنظم المعلومات الجغرافية بسبب تعدد التطبيقات. وينظر لها بالمفهوم اللّفظي على أنها تهتم بالعلوم الجغرافيّة دون غيرها، وذلك يعني ربط المعلومات مكانيّا مع توافر إمكانية التحليل المكاني للمعلومات. فهذا النظام يقوم بحصر وتخزين ومراجعة ومعالجة وتحليل وعرض البيانات التي تعتمد على نظم الإحداثيات المكانية أي بمواقعها الجغرافية على سطح الأرض. وتسمح هذه التقنية باستخدام الحاسوب لإدخال بيانات ذات صبغة جغرافية، وخزنها، والتعامل معها، وعرضها، وتحليلها، وإخراجها (حسين شتية، ٢٠١٢).

وتأتي هذه الدراسة من أجل تحديد أسس التخطيط السليم لمكبات النفايات الصحية والتي تعتبر إحدى مشاريع إدارة النفايات الصلبة والتي من شأنها تخفيف الأثر البيئي السلبي في منطقة غرب بعلبك، ووضع الحلول للكثير من المشاكل المتعلقة بهذا القطاع، من خلال استخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية.

منهجية البحث:

من خلال البيانات المتوفرة عن منطقة الدراسة، واعتمادا على تقنية نظم المعلومات الجغرافية، قمنا بدراسة المعايير المطلوبة، واستطعنا تحويلها إلى خرائط تمثل أهم المعايير الاقتصادية والاجتماعية، المعايير الجيولوجية، والمعايير البيئة، والتي تمت معالجتها باستخدام وظائف التحليل المكاني، لتصبح قاعدة معلومات رقمية أتاحت بناء نموذج كارتوجرافي لتحديد أكثر المواقع تناسبا في منطقة الدراسة لإقامة مكبات النفايات الصحية واستطعنا الحصول على خارطة المكبات العشوائية الموجودة حاليًا ضمن قرى الاتحاد.

بالنسبة لمنطقة الدراسة، فقد قمنا باختيار البيانات ممثّلة بخمس طبقات كارتوغرافية (جدول رقم١) وهي عبارة عن مجموعة من الخرائط على هيئة طبقات تشترك فيما بينها في إطار كارتوجرافي واحد يعتمد على المرجعية المكانية المعروفة بالاحداثيات (عزيز & محمد الخزامي، ٢٠٠١)، وهي تشكّل المعايير التي على أساسها سوف يتم اختيار موقع المكب ممّا يراعي الحفاظ على البيئة وعلى صحة الإنسان.

الطبقات الكارتوغرافية	شروط انشاء المكب
البعد عن الأماكن السكنية	مسافة لا تقل عن كيلومتر واحد من المناطق السكنية (Manoiu et al. ,2013)
البعد عن الغابات	مسافة لا تقل عن ٥٠٠ متر من الغابات (Manoiu et al.,2013)
الجيولوجيا	تربة عازلة (Sadek et al., 2001)
هيدرولوجيا	مسافة لا تقل عن ٥٠٠ متر عن الأنهار (الملحق الأول من التوجيه ١٩٩٩/ ٣١ / EC)
درجة الإنحدار	منحدر متوسط لا يتجاوز ٢٠ درجة (UNEP, 1994)

المعايير المستخدمة لتنفيذ الطبقات الكارتوغرافية. جدول رقم ١:

في الواقع، هناك معايير أخرى مهمة ولكنها بعيدة عن مجال دراستنا، مثل المسافة عن المطارات وعن محطات الطاقة والكهرباء، كمية التساقط المطري ومعدل التبخر وغيرها...

تقديم منطقة الدراسة:

تم تأسيس اتحاد بلديات غرب بعلبك في عام ٢٠٠٥ وتبلغ مساحة أراضيه ٢٣١ كم^{٢}، ويضم أربعة عشر قرية. ووفقًا لخريطة لبنان، تم تحديد حدود قضاء بعلبك، وبما أنّ اتحاد غرب بعلبك يشكّل جزءًا من هذا القضاء استطعنا الحصول على حدود البلديات لهذا الاتحاد(صورة رقم ١).

صورة رقم ١: موقع منطقة الدراسة على خريطة لبنان

بالنسبة لمكبات النفايات التي ينطبق عليها اسم مكبات عشوائية، يبلغ عددها ٥ وتتواجد في القرى الأكبر من حيث المساحة. ويجدر الإشارة إلى أن النفايات في هذه المنطقة تجمع وتنقل ويتم إلقاؤها في هذه المكبات

ويتم في أغلب الأحيان حرقها في العراء للتقليل من حجمها، دون مراعاة لما يرافقها من آثار بيئية وصحية.

وكان لا بد خلال هذه الدراسة إظهار خريطة توضح التوزيع الجغرافي لمكبات النفايات في منطقة غرب بعلبك لإظهار ما إذا كانت مواقعها تراعي الشروط البيئية والصحية لإنشائها أم لا (صورة رقم ٢).

صورة رقم ٢: التوزيع الجغرافي لمكبات النفايات العشوائية في قرى غرب بعلبك

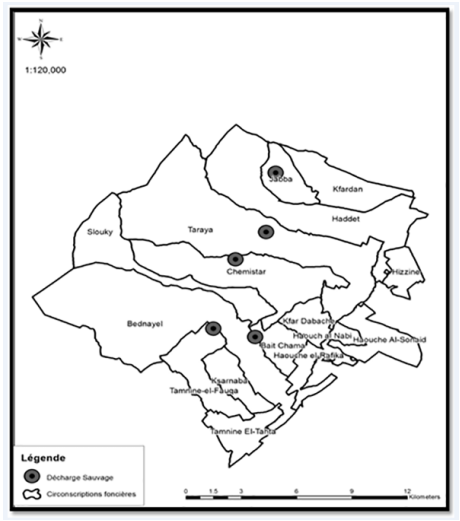

تتوزع هذه المكبات بين شمسطار، تمنين الفوقى، بدنايل، طاريا وأخيرا جبعا، مما يعرّض سكان هذه القرى للأمراض الصحية ويؤدي إلى تلوث الهواء، التربة والمياه الجوفية في هذه المنطقة.

واستنادًا إلى نظام المعلومات الجغرافية، استطعنا الحصول على خرائط مهمة ومفيدة تساعد في دراسة احتمال إنشاء مكبات صحية للنفايات على أسس علمية وبيئية.

وفقًا للمعايير التي ذكرناها سابقًا، وعبر استخدام نظم المعلومات الجغرافية واستخدامنا للأدوات Buffer التحليلية التي تساعد على استبعاد المناطق الواقعة ضمنها من عملية التخطيط، استطعنا الحصول على مجموعة من الخرائط العملية

والتي على ضوئها تمكنا من تحديد ما إذا هنالك موقع يصلح كمطمر للنفايات لتجنب المناطق التي تقع بالقرب من العناصر التي لا ينبغي أن توجد فيها مكبات نفايات:

١ - البعد عن التجمعات السكنية:

لمكبات النفايات تأثيرات سلبية على صحة الإنسان خاصّة عندما تتجمع وتتراكم بالقرب من الأماكن السكنية والمنازل، لذلك عند اختيار موقع مناسب كمكب للنفايات يجب أن يكون بعيدا عن التجمعات السكانية، وحسب المعايير التي تمّ اختيارها، يجب أن يكون المكب على مسافة لا تقل عن كيلومتر واحد من المناطق السكنية (صورة رقم ٣).

صورة رقم٣: المناطق السكنية في منطقة الدراسة والمنطقة الحاجزة

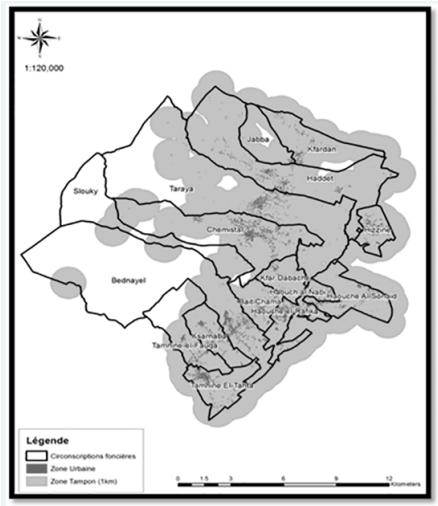

٢ - البعد عن مجاري المياه:

بفضل الخريطة الطبوغرافية (١/ ٢٠٠٠٠) التي أعدها الجيش اللبناني سنة ٢٠٠٤، تم تحديد جداول ومصادر المياه على التوالي كخطوط ونقاط. وعن طريق استخدام تقنية البافر تم استبعاد المناطق الحاجزة على بعد أقل من ٥٠٠ متر من الأنهار الدائمة والموسمية.

صورة رقم٤: المجاري المائية والمنطقة الحاجزة

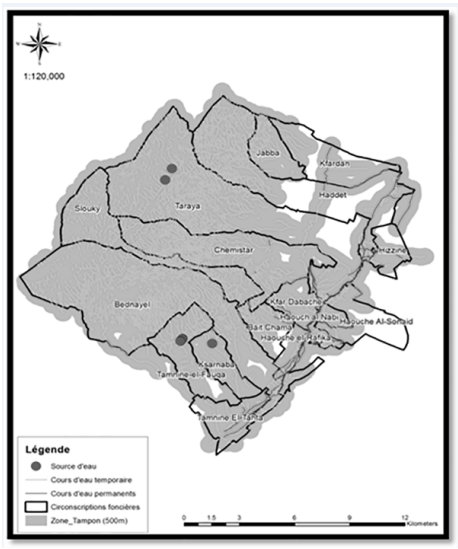

كما نلاحظ أن المساحة الحاجزة عن إمكانية إنشاء مكب صحي تشمل كافة أنحاء المنطقة، ما يجعل من الصعب اختيار موقع ملائم ضمن الشروط لحل مشكلة النفايات.

٣ - البعد عن الغابات:

لقد تم استبعاد الغابات من عملية المفاضلة، وتم إنشاء مناطق عازلة على مسافة ٥٠٠ متر حول الغابات، بالتالي لن تقع هذه المساحات ضمن المناطق التي سيقع عليها اختيار إقامة مكبات النفايات (صورة رقم٥).

صورة رقم٥: مساحة الأرض الملائمة بعد استبعاد الغابات الطبيعية

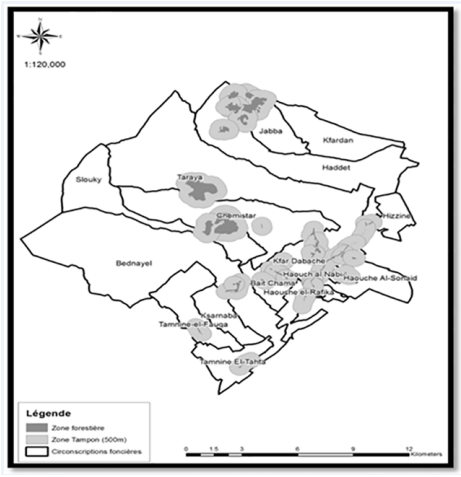

٤ - الانحدار:

تعتبر نسبة الانحدار من أهم المعايير في اختيار مواقع مكبات النفايات، وقد تم استنباط خريطة الانحدار من طبقة الطبوغرافيا. ويمكن التعبير عن المنحدر بالنسبة المئوية أو الدرجة، بحيث تأخذ المناطق الأقل انحدارا نسبة مئوية بين٠٪ – ٢٠٪.

صورة رقم ٦: درجة ملاءمة الأرض حسب نسبة االنحدار

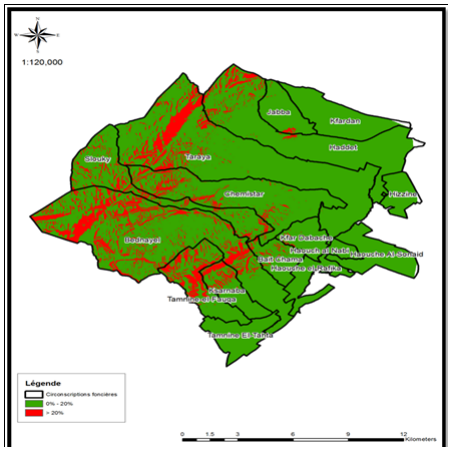

٥ - الجيولوجيا:

تتحكم المعايير الجيولوجية بشكل أساسي في ملاءمة مواقع التخلص من النفايات لحماية المياه الجوفية، لأن اعتمادًا على الطبقة الجيولوجية عالية النفاذية أو غير القابلة للنفاذ، يمكن أن تتسرب المادة المرتشحة من النفايات إلى المياه الجوفية أو على العكس. من خلال الصورة (رقم ٧) استطعنا تحديدالطبقات الجيولوجية غير المنفذة.

صورة رقم ٧: درجة ملاءمة الأرض بالنسبة لنوع التربة: **بناء على الدراسة والتحليل السابق فقد توصلنا إلى النتائج التالية:**

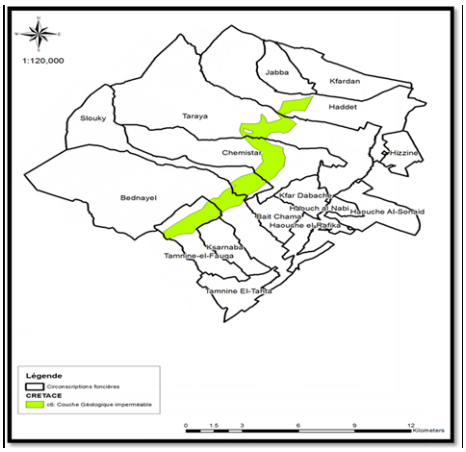

بعد تقييم مواقع المكبات الحالية، وفقًا للمعايير الجيولوجية والمعايير البيئية المطلوبة في تخطيط مكبات النفايات، وجد أنها لا تنطبق على المكبات الحالية، فقد تبيّن أنّه تم اختيارها من غير تخطيط وبالتالي يمكننا تسمية المكبات في منطقة غرب بعلبك بالعشوائية.

ومن خلال الدراسة وبالاعتماد على مختلف الخرائط الطوبوغرافية، تأكدنا أنّه من الصعب إيجاد موقع مناسب لإنشاء مكب للنفايات، وبالتالي أي وجود لمطمر أو مكب قد يعرّض حياة الانسان للخطورة من خلال إمكانية انتشار الأمراض، ويسبب تلوث التربة والهواء والمياه الجوفية.

الخلاصة:

للمكبات العشوائية العديد من الآثار السلبية على الصحة العامة حيث تتعرض غالبية التجمعات السكانية القريبة لأثارها الضارة؛ وخاصة عند حرقها. وكذلك لها آثار سلبية على مصادر المياه الجوفية والسطحية والتربة ومختلف النبات. هذا فضلاً عن امكانية تجمع الحشرات وبعض الحيوانات الناقلة للأمراض في هذه المكبات.

من خلال هذه الدراسة وبالاعتماد على نظام المعلومات الجغرافية وتقنياته، لم يعد لمكبات النفايات دورًا في حل المشكلة في منطقة غرب بعلبك، لأنه لم يوجد أي موقع يتناسب مع المعايير البيئية والجيولوجية المختارة للحفاظ على صحة الانسان والبيئة المحيطة.

ختامًا، من الضروري أن يتم التخلص من المكبات الحالية والبحث عن سبل أخرى لإدارة النفايات الصلبة بطريقة سليمة تتناسب مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والبيئية للمنطقة كتقنيات إعادة التدوير وتصنيع السماد العضوي والتأكيد على أهمية التقليل من انتاج النفايات من المصدر وعلى أهمية فرزها في المنازل.

المراجع

Aina M.P., (2006): Expertises des centres d'enfouissement techniques des déchets urbains dans les PED: contribution à l'élaboration d'un guide méthodologique et à sa validation expérimentale sur site. Université de Limoges, Thèse, 236p.

Leao, S., Bishop, I., Evans, D., (2004): Spatial Temporalmodel for demand and allocation of waste landfills ingrowing urban region. Computers, Environ. Urban. Sys.,28: 353-385.

Manoiu V., Fontanine I., Costache R., Remus Pravalie et Mitof I., (2013): Using GIS techniques for assessing waste landfill placement suitability. Case study: Prahova county, Geographia Technica, vol.8(2), 47-56p.

NDIRA V: (2006): Substances humiques du sol et du compost. Analyse élémentaire et groupements atomiques fictifs: vers une approche thermodynamique. Thèse. Toulouse: I N P de Toulouse, 2006, 274p.

Sadek S., El-Fadel M., El-Hougeiri N. (2001): Optimizing Landfill Siting Through GIS Application, Seventeenth International Conference on Solid Waste Technology and Management, Philadelphia, October 21-24.

UNEP, (1994): landfill for hazardous industrial wastes, a training manual, training report n17, 73-84p.

حسين شتية وضرغام عبد اللطيف.، (٢٠١٢): تقييم واقع مكبات النفايات في الضفة الغربية وتخطيطها بواسطة نظم المعلومات الجغرافية.

شريفي طارق وعثماني كوثر.، (٢٠١٧): استخدام نظم المعلومات الجغرافية في تسيير النفايات الصلبة المنزلية دراسة حالة «مدينة ميلة».

عزيز ومحمد الخزامي.، (٢٠٠١): «النمذجة الكارتوجرافية الألية لتطوير النمو العمراني في الكويت» رسائل جغرافية، العدد ٢٥٧د، ص..

الطائفية السياسية وأثرها على الاستقرار في لبنان

محمد سليمان[1]

وجد الاختلاف مقترنًا بالإنسان، سواء في الجنس أو العرق أو اللغة أو المعتقد، وقد ارتبطت هذه الاختلافات في معظم المراحل التاريخية بالصراعات التي تعددت أسبابها، فإمّا عرقية استتبعت تطهيرًا عرقيًا، وإمّا دينية أنتجت تطرفًا وتعصبًا قادا أحيانًا كثيرة إلى حروب سجل التاريخ آثارها المدمرة حتى يومنا هذا، وإمّا مذهبية ساهمت في تفتيت كيانات سياسية كانت من قبل مضرب الأمثال في القوة والاتحاد. في ظل مفهوم الدولة الحديثة، شكل هذا الاختلاف مصدر تهديد لاستقرارها باعتبار تشكلها من طوائف متعددة يصعب عليها غالبًا الوصول إلى توافقات تفضي إلى قرارات سياسية تراعي كافة الحقوق الاجتماعية والسياسية للأفرقاء من المواطنين ولعل أبرز نموذج لتجلي هذا الوضع هو حالة لبنان وتأثير الطائفية على استقراره ليس فقط في تاريخه الحديث بل من ابان تشكل نواته.

من هنا تبرز الإشكاليات التالية: ما الذي يجعل من الطائفية السياسية دافعا أو خطرا على الاستقرار السياسي للدولة؟

ويمكن أن تصاغ من هذه الإشكالية تساؤلات فرعية وهي كالتالي:

هل يحمل مفهوم الطائفية السياسية دلالة سلبية فقط؟

هل يمكن اعتبار نظام الطائفية السياسية في لبنان بصيغته التوافقية يمثل نموذجا ناجحا لديمقراطية حقيقية؟

فرضيات الدراسة:

تهدف الدراسة لاختبار ومعرفة صحة الفرضيات التالية:

– لا يحمل مفهوم الطائفية السياسية دلالة سلبية فقط بل يعبر عن إطار ديمقراطي يتم فيه تمثيل مختلف الطوائف

(١) طالب دكتوراه.

المكونة للمجتمع على المستوى السياسي.

– نجاح نظام الطائفية السياسية في لبنان في شكله التوافقي مرتبط بالرضا العام لجميع الفئات المكونة للمجتمع عن هذا النظام.

اقسام الدراسة:

أولًا: التعريف اللغوي للطائفية:

الطائفية لغة كلمة أصلها الطائفة، والطائفة من الشيء جزء منه وفي التنزيل العزيز: (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)، والطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وقيل الرجل الواحد فما فوقه، ويقال طائفة من الناس وطائفة من الليل، والطائفة الجماعة من الناس وتقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة(منظور، ١٩٨١)، ويذكر العلامة اللغوي محمد الدين محمد بن يعقوب في القاموس المحيط أن الطائفة من الشيء القطعة منه، أو الواحد فصاعدا أو إلى الألف، أو أقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس.

ثانيًا: تعريف الطائفية السياسية

في ظل هذا المفهوم نتحدث عن الطائفية في ميدان خاص وهو الميدان السياسي، أي انتقال الطائفية من تواجدها على مستوى الأفراد داخل المجتمع إلى التمثيل السياسي للطوائف التي ينتمي إليها هؤلاء الأفراد وتجسيدها على مستوى الدولة، وسنعرض فيما يلي أهم التعريفات المذكورة في هذا المجال في ظل اتجاهين:

أ – **الاتجاه السلبي:** سنتناول في هذا العنصر النظرة السلبية للمفهوم من خلال عدة تعاريف مجموعة من المفكرين وذلك على النحو التالي:

– **تعريف موسوعة السياسة:** الطائفية (secterialism بالانجليزية) و(confessionnalisme بالفرنسية) وهو نظام سياسى اجتماعى متخلف، يرتكز على معاملة الفرد كجزء من فئة دينية تتوب عنه في مواقفه السياسية ولتشكل مع غيرها من الطوائف الجسم السياسي للدولة، وهذا النظام هو كيان ضعيف لأنه مكون من مجتمع تحكمه الانقسامات العمودية التي تشق وحدته وتماسكه (الكيالي، ١٩٧٩)، إذن فالكاتب ينظر إلى الطائفية كونها نظام يحوي العديد من الطوائف ممثلة سياسيا في مجموعة من الأفراد، والذين يمثلون مجتمعين النظام السياسي وهم يتحدثون باسم الطائفة التي ينتمون إليها، فإن هذا يخلق انقساما يبدأ من بنية النظام السياسي لينتهي إلى طبقات المجتمع وبالتالي تخلق هذه الولاءات الطائفية انقسامًا داخل الدولة، وذلك لكونها تحل محل الولاء الوطني الذي يوحد كافة أفراد المجتمع تحت مبدأ المواطنة.

- **تعريف برهان غليون:** الطائفية تنتمي إلى مجال السياسة لا مجال الدين، وهي تعني مجموعة الظواهر التي تعبر عن استخدام العصبيات الطبيعية الدينية والإثنية والزبائنية المرتبطة بظاهرة المحسوبية والمافيا، وذلك من أجل الالتفاف على قانون السياسة العمومية، وتحويل الدولة والسلطة العمومية من إطار لتوليد إرادة عامة ومصلحة كلية إلى أداة لتحقيق مصالح جزئية وخاصة (غليون، ٢٠٠٠)، فحسب رأي الكاتب أن وجود التعددية المذهبية داخل الدولة أمر طبيعي لكن يتم استغلالها من طرف أصحاب صنع القرار أو كل من له مصلحة في تغليب طائفة على أخرى، أو استئثار طائفة بالسلطة السياسية على حساب الطوائف الأخرى لتأجيج الصراع المذهبي بين أفراد المجتمع الواحد، وإشغالهم بالنعرات الطائفية على حساب القضايا الرئيسية التي تشكل محور الاهتمام بالنسبة للمواطن، وفي نفس الوقت تشكل هذه النعرات سلعة رائجة ورابحة يستخدمها النظام السياسي وأصحاب النفوذ وورقة ضغط يلجأون إليها وقت الحاجة، إما بسبب ضغط اجتماعي أو ثورة شعبية أو ما شابه ذلك.

- **تعريف حسين العادلي:** الطائفية السياسية منهج يقوم على تسييس الانتماء الطائفي للمواطن وأدلجته (من الإيديولوجيا أي المعتقدات) في الحياة السياسية، وهي تعارض فكرة العقد الاجتماعي الذي يفترض بالدولة وجود مجموع مواطنين أحرار متكافئين ومتساوين بغض النظر عن هوياتهم الاجتماعية (العادلي)، فالطائفية السياسية في نظر الكاتب هي عبارة عن عملية نقل للطائفية المجتمعية القائمة على انتماء الأفراد إلى طوائف أو معتقدات معينة إلى الحيز السياسي الذي تحتكر فيه السلطة لمصلحة طائفة دون أخرى وهذا من شأنه تهديد استقرار الدولة.

ب - **الإتجاه الإيجابي:** يحاول هذا الاتجاه أن ينطلق في رؤيته للطائفية السياسية كنظام قانوني يناسب الدول متعددة الإثنيات والطوائف أكثر من أي صيغة أخرى، بغض النظر عن النتائج الواقعية للنظام التي تتسبب فيها عوامل متعددة:

- **تعريف عقل عقل:** الطائفية السياسية مكون أساسي وفعال للنظام السياسي والاجتماعي، فهي تؤمن التوازن السياسي بين مكونات المجتمع المتعددة، أي أن نظام الطائفية السياسية يسمح بتمثيل جميع الطوائف التي تتشكل منها المجتمعات شديدة التعددية، وتكون على مستوى واحد بدون تغليب فئة على أخرى، ولهذا يعد هذا النظام خيارا لابد منه ويعتبر الطريقة الأنسب لحكم المجتمعات التعددية (عقل، ٢٠٠٩).

- **تعريف شاربل نحاس:** على الرغم من أن الكاتب يرى أن نظام الطائفية السياسية يحمل نتائج سلبية في الواقع إلا أنه ينظر إليه من الجهة القانونية كونه يعد شكل من أشكال التنظيم السياسي للمجتمع، حيث يتم تنظيم جهاز الدولة على أساس الإرث التاريخي والديني للمؤسسات، وتتضمن حقيقة مفادها تمثيل الجماعات في مختلف المؤسسات المدارس، الشركات، الجمعيات الخيرية، الشركات العقارية، المحاكم، الجامعات.

كما هو عليه الخلاف في مفهوم الطائفية نجد أن الطائفية السياسية، اتخذت منحيين مختلفين أحدهما إيجابي والآخر سلبي، تجعلنا نعتبر أن الطائفية السياسية كنظام تعتبر خيارا توفيقيا ومناسبا لحكم الدول متعددة المذاهب والإثنيات، ومن ناحية أخرى نجدها في إطارها الواقعي تعتمد كثيرًا على سياسة المحاصصة الطائفية التي تخلف العديد من النتائج السيئة وتكرس الانقسام بين الطوائف وتنافي الولاء الوطن.

ثالثًا: تعريف الاستقرار السياسي

الاستقرار لغة من القرار ألا وهو الثبات، يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار»، أي مالها من ثبات(العواني)، أما اصطلاحا فسنستعين بأهم التعريفات لكتاب ومفكرين التي وردت حول الاستقرار السياسي وهي كما يلي:

- **تعريف سعد الدين العثماني:** الاستقرار السياسي يتمثل في قدرة النظام السياسي على التعامل بنجاح مع الأزمات التي تواجهه، وقدرته على إدارة الصراعات القائمة داخل المجتمع بشكل يستطيع من خلاله أن يحافظ عليها، في دائرة تمكنه من القيام بما يلزمه من تغييرات للاستجابة للحد الأدنى من توقعات وحاجات المواطنين (العثماني، ٢٠١٠)، فكلما كان النظام قريبًا جدا من جميع الفئات داخل المجتمع، ويملك خبرة كبيرة في التعامل السلس مع الأحداث سواء بين النظام السياسي والمجتمع أم بين أفراد المجتمع، كلما سمح ذلك بقدرة النظام على البقاء وقدرته على تمكين الأمن الاجتماعي داخل الدولة.

- **تعريف مارتن بالدام:** يرى بأن الاستقرار السياسي مفهوم ليس واضح المعالم، ولكنه يتحدد من خلال أربعة أبعاد أساسية وهي: حكومة مستقرة، نظام سياسي مستقر، القانون والنظام الداخلي، الاستقرار الخارجي (paldam).

- **تعريف حسن موسى الصفار:** الاستقرار السياسي والاجتماعي يعني وجود نظام مقبول من العلاقات بين قوى

الأمة وأطرافها ويقابل ذلك حالة الاضطراب، حين تختل علاقة الأطراف مع بعضها فيقع بينها العداء والنزاع والحرب (الصفار، ٢٠٠٥)، فالكاتب هنا يركز على مفهوم رئيسي ينبغي وجوده لتحقيق الاستقرار السياسي وهو مفهوم الشرعية، فحينما يستمد النظام السياسي سلطته من الشعب يكون هنالك استقرار لا محالة، وحينما تختل هذه العلاقة نصبح أمام ظاهرة اللاستقرار أو كما أسماها الاضطراب، والتي تؤدي إلى مواجهة وصدام حتمي بين أفراد الأمة.

- **تعريف كارولينا كورفال:** الاستقرار السياسي لايعني الجمود أو عدم التغيير، بل يتمثل في كونه ميزة للنظام المؤسسي القادر على معالجة المشاكل والنزاعات بطرق سلمية مع قوة الردع ضد من ينتهك النظام العام، وكذلك قدرة المؤسسات السياسية على الاكتفاء الذاتي، بحيث تستطيع الاستمرار والعمل بشكل طبيعي في أقسى الظروف (curvale)، فالاستقرار السياسي حسب الكاتب مربوط بطبيعة النظام السياسي، فمتى كان النظام لديه الدراية الكاملة بطريقة التعامل مع الأزمات بحيث يستعمل القوة ويستعمل الحل السلمي في الوقت المناسب، استطعنا القول إن هناك استقرارًا للنظام العام داخل الدولة.

يمكن أن نستخلص من هذه التعاريف أن الاستقرار السياسي هو غاية لاتتحقق إلا بتظافر جهود النظام السياسي وأفراد المجتمع على حد سواء، فعندما يحظى النظام يقبول شعبي نتيجة سياساته المشجعة، والتي تتضمن نتائج ملموسة، فإن المواطن يعتبر بأن هذا النظام يمثله، وينتج عن ذلك حفاظ المواطنين على مؤسسات الدولة والنظام الاجتماعي العام، وبالتالي في ظل هذه الوظائف المتبادلة يمكن الحديث عن حالة الاستقرار.

رابعًا: مؤشرات الاستقرار السياسي

لقد طرح الكاتب رائد نايف حاج سليمان مجموعة من المؤشرات التي تدل على وجود الاستقرار السياسي ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

الانتقال القانوني للسلطة داخل الدولة: عندما تتم عملية الانتقال بطريقة دستورية قانونية متعارف عليها فإن ذلك يعد مؤشرًا حقيقيًا للاستقرار السياسي، أما إذا انتقلت السلطة من طرف إلى آخر عن طريق الإنقلابات والتدخلات العسكرية فهذا مؤشر لعدم الاستقرار السياسي.

شرعية النظام السياسي: أي أن النظام السياسي يكتسب شرعيته من خلال تحقيق مصالح الشعب وصيانة استقلال البلاد وحماية الحقوق، وتظهر من خلال تقبل الشعب للنظام الحاكم وخضوعهم له عن رضا.

السيادة: وتظهر من خلال قوة النظام السياسي ومقدرته على حماية المجتمع من الأزمات والصراعات الداخلية وقدرته على ضبط الأمن الداخلي، ومن جهة أخرى القدرة على التصدي للأخطار الخارجية سواء أكانت غزوا استعماريًا عسكريًا مباشرا أو تدخلا خارجيا غير مباشر أو هجمات إرهابية منفردة تكون من خارج الوطن، وغيرها من التدخلات التي تضع استقرار الدولة على المحك.

الثبات في مناصب القيادات السياسية: أي أن بقاء القادة على رأس النظام السياسي لفترة طويلة مؤشر للاستقرار السياسي، مع اقتران هذا البقاء برضا الشعب عن حاكميه (سليمان، ٢٠٠٩).

الاستقرار البرلماني: باعتبار أن البرلمان هو الممثل للشعب فإنه يستمد شرعيته من الشعب، وبالتالي إذا حل البرلمان قبل استيفاء المدة القانونية، أو استقال عضو من الأعضاء، أو أسقطت عضويته، فإن هذا يعتبر مؤشرًا من مؤشرات اللااستقرار، واستقرار البرلمان وثبات أعضائه واحد من دلائل الاستقرار السياسي.

الديمقراطية وتدعيم المشاركة السياسية: تعتبر المشاركة السياسية أحد المعايير التي تحكم بها على استقرار النظام السياسي من حيث تطبيق الديمقراطية، حيث تعتبر المشاركة تلك الحالة التي يتوافر فيها للأفراد فرصة التعبير عن آرائهم في القضايا الوطنية، واختيار من يحكمهم واختيار من يمثلهم في المجالس النيابية والمحلية، ولذلك تعتبر المشاركة الشعبية وسيلة لتحقيق الاستقرار الداخلي وتدعيم شرعية السلطة السياسية.

غياب العنف واختفاء الحروب الأهلية والحركات الانفصالية والتمردات: حيث يعتبر العنف هو المظهر الرئيسي لعدم الاستقرار السياسي، ذلك أن العنف يعني الاتخدام الفعلي للقوة المادية لإلحاق الضرر والأذى بالآخرين.

وجود مبدأ المواطنة: حسب رأي الكاتب فإن المجتمعات التي لا تعرف ظاهرة التعدد تكون أقرب إلى الاستقرار السياسي، ولكن المشكلة ليست في التعددية، وإنما في طريقة التعامل مع هذه التعددية، وهنا يبرز نوعان من تعامل الأنظمة السياسية مع التعددية، فالنوع الأول يتعامل مع التعددية الأقلية منها بمنطق القوة، والثاني يتعامل معها بمنطق المساواة في الحقوق والواجبات، ومن هنا ينتج عن الأول بروز الولاءات التحتية غير الوطنية، وينتج عن الثاني توطيد اللحمة الوطنية وتقام الهوية الوطنية على باقي الهويات.

الاقتصاد الناجح: عندما يوجه النظام سياساته الاقتصادية نحو أهداف التنمية فإن هذه السياسات تساهم في رفع مستوى المعيشة للأفراد، وبالتالي تخلق نوعا من الطمأنينة والرضا الشعبي تجاه النظام السياسي.

قلة الهجرة الداخلية والخارجية: لأن وجود ظاهرة الهجرة تعني أن المواطن لاتتوافر له أوضاع معيشية جيدة، وبالتالي فهو غير راض عن الوضع الأمني والاقتصادي والصحي، وهذا مؤشر لعدم الاستقرار، وكلما كانت معدلات الهجرة قليلة دل ذلك على وجود استقرار سياسي، وقد تخلق ظاهرة الهجرة عدم الاستقرار حتى بالنسبة للدول المستقبلة للمهاجرين.

هناك عدد من الباحثين يلجأون إلى تحديد مؤشرات الاستقرار السياسي إنطلاقا من المفهوم المخالف اي تحديد مؤشرات العنف السياسي من خلال مؤشرات رسمية والتي تكون موجهة مباشرة ضد النظام السياسي، وتنطلق هذه المؤشرات بحكم وجود أحداث عديدة كو حود المظاهرات، أحداث الشغب، الأزمات السياسية الداخلية الحروب داخلية، وأخرى غير رسمية موجهة ضد مؤسسات النظام، وذلك بسبب أمور طارئة كارتفاع الأسعار، ارتفاع مستويات البطالة أو الفقر، أو أي قرارات تتعارض مع التوجهات العامة للمواطنين، لكن اعتماد مؤشرات العنف السياسي تكون غالبا مرتبطة بظاهرة معينة في دولة ما بسبب زعزعة الاستقرار فيها، وبالتالي يصعب تعميمها (الاجدع، ٢٠٠٥).

خامسًا: انعكاسات الطائفية السياسية على الاستقرار السياسي في لبنان منذ عام ١٩٨٩

إن ماخلفته الحرب الأهلية في لبنان من مآسٍ جعل الأطراف اللبنانية المتناحرة تقتنع بأن لغة العنف والعنف المضاد لم تأت بنتيجة بل خسرت منها جميع الأطراف، وأصبح من الضروري الاحتكام إلى طاولة المفاوضات، وهذا ما تجسد من خلال اتفاق الطائف عام ١٩٨٩ من أجل الخروج بصيغة توافقية ترضي جميع الأطراف، هذا الاتفاق الذي وضع النظام السياسي الطائفي في جدلية كبيرة بين من يسعى لإلغائه لكونه يضعف هيبة الدولة وقوة النظام السياسي، ويستدلون على ذلك بالتجربة التاريخية للنظام التي أثبتت هيمنة سلطة الطائفة على سلطة الدولة، وطرف أخر لا يقبل بفكرة إلغاء النظام الطائفي بسبب أن هذا النظام يفرضه الأمر الواقع على كل بلد يحتوي إثنيات وأعراقًا وطوائف متعددة، ويرى أصحاب هذه الرؤية بأنه يمثل مكمن الثقة للطوائف اللبنانية، بحيث يؤمن لها التمثيل السياسي ويمثل أساس التوازن الطائفي، وقد خلق هذا المد والجزر انقساما في الوسط اللبناني أثر ولا يزال

يؤثر على استقرار الدولة اللبنانية، وهذا ماسنتحدث عنه في العنصر الموالي.

أولا: إسهامات النظام السياسي الطائفي في استقرار الدولة اللبنانية

رغم أن اتفاق الطائف الذي وقع في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٩ اعتبر أنه من الضروري التخلي عن نظام الطائفية السياسية إلا أنه اعتبر ذلك وفق خطة مرحلية، تقتضي المزيد من الوقت وفقا لإدراك الأطراف المختلفة خطورة الغاء هذا النظام لما له من أهمية بالغة في قرار العيش المشترك بين الطوائف اللبنانية وذلك ضمن الإطار التوافقي، وسنحاول أن نطرح اهم الإيجابيات لهذا النظام والمتمثلة في الأتي:

- تمثيل وحماية الأقليات.
- التعددية السياسية والمذهبية.

أ - تمثيل وحماية الأقليات:

تزامن استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ مع صدور الميثاق الوطني، والذي كان هدفه طمأنة الطوائف والسماح لها بالعيش في تعاون وانسجام، وبالأخص الطائفة المسيحية التي تخوفت من الازدياد الديمغرافي الكبير للمسلمين وذلك منذ تأسيس دولة لبنان الكبير، وأصبح المسيحيون ينظرون إلى أنفسهم كأقلية بعدما كانوا أكثر عددا وأكثر سيطرة على السلطة السياسية، ولقد أبقى الميثاق للمسيحيين تفوقهم على المسلمين باستفرادهم بمنصب رئيس الجمهورية، وفي التمثيل لدى المجالس النيابية بقاعدة ٦ إلى ٥، والغريب في هذا أن الحجة في هذا التفوق معياره أهمية وحجم الطائفة المسيحية مقارنة بالمسلمين الذين بدورهم اعترضوا على الطريقة الإحصائية للسكان، واتهموا السلطة السياسية بالتضليل والتكتم عن الحجم الحقيقي للمسلمين، ومع مجيء اتفاق الطائف استحدت، تعديلات بحيث أصبحت هنالك قاعدة التساوي بين المسيحيين والمسلمين رغم أن المسلمين في هذه الفترة يبدون متفوقين بشكل واضح على المسيحيين عددًا، ومع هذا فقد ساوى بين الطائفتين في التمثيل النيابي مراعاة منه للحساسية الطائفية ولطبيعة النظام السياسي الطائفي، والذي يلتزم قانونيا بتمثيل كافة الطوائف بغض النظر عن القلة أو الكثرة (عدوان، ٢٠١١)، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار نسبة الطوائف داخل الديانتين الإسلامية والمسيحية أي بين كل طائفة وطائفة من نفس الديانة وهنا يكون التوزيع نسبيا، وهذا ما نجده في المادة الخامسة ضمن القسم الأول المتضمن المبادئ العامة والإصلاحات، والتي تنص على أن: «... محل النواب إلى أن يضع قانونًا انتخابيًا خارج القيد الطائفي

توزع المقاعد النيابية وفقا للقواعد التالية: بالتساوي بين المسلمين والمسيحيين، ونسبيا بين طوائف كل من الفئتين، ونسبيا بين المناطق»، كما حددت المادة السادسة من وثيقة الوفاق الوطني (أي اتفاق الطائف) عدد نواب البرلمان وهم ١٠٨ عضوًا أي ٥٤ لكل فريق، ومن هنا فإن المناصفة لاتكون بين الطوائف التي هي من نفس الديانة وتختلف في المذهب، ويعتبر العديد من الباحثين أن الدستور استعمل لفظ نسبيا للدلالة على الحجم، وبالتالي فالأرجح أن المعيار هنا يكون حسب الحجم الديمغرافي لكل طائفة، وبالتالي فإن تمثيل الأقليات يظهر بشكل حقيقي بين المسلمين والمسيحيين فرغم التفوق العددي للمسلمين على المسيحيين إلا أنه في ظل النظام السياسي اللبناني يساوي بين الفئتين، ويعطي ضمانات للمسيحيين بعدم الخوف من مسألة ازدياد المسلمين وتقلص أعدادهم، ليضع اتفاق الطائف حدا للخلاف الدائر بين الديانتين الذي يرى فيه المسلمون أن المسيحيين أقلية مقارنة بهم، ومن جهة أخرى يرد المسيحيون بأنهم متوازنون مع المسلمين في العدد وما يز يد من تعقيد الوضع هو عدم وجود إحصائيات دقيقة توضح الفوارق العادية بين الفئتين بسبب تكتم السلطة السياسية عنها، وبالتالي في ظل هذه المساواة تظهر ميزة النظام السياسي الطائفي، فلو كان نظام لبنان نظام الديمقراطية العادية لما وصل المسيحيون لما هم عليه في لبنان ولما أتيح لهم الإمساك بزمام السلطة التنفيذية، وزيادة على ذلك المناصفة بينهم وبين المسلمين في عدد النواب، وفي ندوة تمت مناقشتها في إطار أعمال اللجنة الوطنية لصياغة قانون الإنتخابات النيابية في لبنان بتاريخ ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٥، أكدت فيه على أن خصوصية النظام اللبناني تجعل من الحديث عن الأكثرية أو الأقلية أمر لاينسجم وقواعد اللعبة السياسية، بل ذهبت اللجنة إلى أبعد من ذلك باعتبار أن النظام اللبناني لا يمثل الأقليات فحسب بل أنه نظام أقلوي، يحكم ليس من قبل أقلية واحدة بل مجموعة من الأقليات ذات أوزان متباينة حيث أن تقاسم المقاعد النيابية والوزارية بالمناصفة بين المسلمين والمسيحيين رغم تفوق طرف على أحر يحول دون وصول أي أكترية واستفرادها بالحكم (بطرس، ٢٠٠٥).

ب – التعددية المذهبية والسياسية

يرتكز النظام السياسي الطائفي في لبنان على دستورين مهمين يمثلان المرجع القانوني الذي تعتمد عليه الدولة اللبنانية حتى الوقت الحالي رغم التعديلات التي جاء بها اتفاق الطائف على الدستور وعلى النظام البرلماني في لبنان، فالأول دستور

مكتوب ويتمثل في الدستور الذي وضع في عهد الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٦، والثاني يتمثل في الدستور العربي وهو الميثاق الوطني، الذي وضع غداة استقلال الدولة اللبنانية عن الحماية الفرنسية سنة ١٩٤٣، وهذا حسب رؤية العديد من الباحثين أبرزهم الدكتور عقل عقل، وقد حرص الدستور اللبناني على ضرورة تمتع كافة المواطنين بالحقوق المدنية والسياسية، وهذا ما نجده في المادة السابعة من الفصل الثاني، والتي نصت على أن: «كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم»، كما سمح الدستور لكل اللبنانيين بتعدد المذاهب وحرية الاعتقاد مراعاة لخصوصية المجتمع اللبناني وتركيبته الطائفية التي تستمد وجودها من التجارب التاريخية، فقد نصت المادة التاسعة من الدستور اللبناني المعدل بوثيقة الوفاق الوطني على أن: «حرية الإعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الإجلال لله تعالى تحترم جميع الأديان والمذاهب، وتكفل حرية إقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها، على أن لا يكون في ذلك إخلال بالنظام العام، وهي تضمن أيضا للأهلين على اختلاف مللهم احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح المدنية»، كما تضمنت مقدمة الدستور اللبناني والتي أضيفت بعد اتفاق الطائف بموجب القانون الدستوري الصادر في ١٩٩٩/٩/٢١ تضمنت في البند الثالث حرية الرأي والمعتقد، حيث نصت على أن لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية تقوم على احترام الحريات العامة وفي طليعتهاحرية الرأي والمعتقد، وبالفعل نجد أن لمختلف الطوائف في لبنان الحرية في الانتماء لتيارات سياسية مختلفة، ورفع شعاراتها والدفاع عن قادتهما ونلاحظ أن هذه التعددية تظهر على مستوى السلطة السياسية وعمل الأحزاب.

اما التعدد على مستوى السلطة السياسية: فقد تجسد بشكل فعلي بعد اتفاق الطائف، حيث ركز على عدد من المبادئ أهمها إلغاء هيمنة أي طائفة على أخرى، حيت ألغيت الهيمنة الطائفة المارونية على النظام السياسي رغم أن تقسيم السلطات الرئاسية التلات بين الطوائف كان موجودا منذ الميثاق الوطني ١٩٤٣، إلا أن هذا التقسيم الدستوري كان شكليا لكن في الواقع كانت رئاسة الجمهورية المارونية تمسك بزمام السلطة السياسية، فقد أثبتت الوقائع التاريخية أن رئيس الجمهورية منذ عهد الانتداب الفرنسي وحتى مجيء اتفاق الطائف بقي محتكرا للسلطات الأساسية في الدولة، وقد ألغى اتفاق الطائف هذه الهيمنة بتأكيده على التقسيم الفعلي للسلطات

الرئاسية الثلاث (رئيس الجمهورية مسيحي رئيس المجلس النيابي شيعي، رئيس مجلس الوزراء سي) بعدما كان تقسيما شكليا فقط دون ان نغفل تعدد الاحزاب السياسية ضمن الطائفة الواحدة.

نستطيع القول بشكل عام أنه على الرغم من انفتاحية النظام السياسي اللبناني وترخيصة القانوني لكافة القوى اللبنانية بتمثيل الطوائف الرئيسية والأقليات العرقية والدينية على المستوى السياسي، سواء بالمشاركة في المناصب الرئاسية الثلاثة أو عن طريق الأحزاب أو التمثيل البرلماني، إلا أن النموذج التوافقي اللبناني انحصرت معظم ميزاته في الإطار النظري أكثر منها تجسيدا على أرض الواقع، حيث نلاحظ العديد من التناقضات فلطالما استعملت النظرية التوافقية في لبنان من أجل خدمة طوائف معينة، وتحولت في الكثير من الأحيان من نظام الديمقراطية التوافقية إلى نظام المحاصصة والاجتثاث الطائفي، هذا الأخير الذي أنت مخاطر عديدة على استقرار الدولة اللبنانية، وهذا ما ستطرق إليه في العنصر الموالي.

سادسًا: النظام السياسي الطائفي وإشكالية اللاإستقرار السياسي

رغم اتفاق كافة الأطراف اللبنانية حول وثيقة الوفاق الوطني بالمملكة العربية السعودية، والتي أدمجت مع الدستور اللبناني لتشكل الإطار القانوني الذي تحتكم إليه كافة الطوائف اللبنانية، وهذا حفاظا على استقرار الدولة اللبنانية، إلا أن أجواء عدم الثقة بين القادة السياسيين وبين الطوائف خلفت انعكاسات خطيرة أثرت على الصيغة التوافقية للنظام اللبناني، وبالتالي سيكون محور حديثنا في هذا العصر عن أهم تلك الانعكاسات والمتمثلة في:

- الولاء الطائفي على حساب الولاء للوطن (المواطنة).
- تدني شرعية النظام السياسي.
- ضعف سيادة الدولة.
- استمرار ظاهرة الهجرة.

أ - الولاء الطائفي على حساب الولاء للوطن (المواطنة).

يرى الدكتور كامل مهنا أن الحكومات المتعاقبة لم توفق في بناء الدولة القادرة والعادلة التي تؤمن الانصهار الوطني لجميع اللبنانيين، فلقد برزت الشخصية الخاصة بكل طائفة حتى في المؤسسات غير الحكومية، مما جعل الوحدات الطائفية هي العناصر المكونة للدولة اللبنانية وليس المواطن اللبناني (مهنا، ٢٠٠٣)، ومع توقيع اتفاق الطائف والذي أراد أن يتجاوز الطائفية وفق خطة مرحلية، وذلك بإحلال الانتخاب على أساس وطني لاطائفي،

وبمرور الوقت اتضح أن هناك فجوة بين الجانب القانوني والجانب الواقعي، حيث أن مسألة إلغاء القيد الطائفي التي نص عليها الطائف لم تحرز تقدما ملحوظا، وبقيت العديد من ممارسات التمييز الطائفي التي تغذي ولاء الشخص لطائفته على حساب الولاء الوطني، ويظهر ذلك من خلال:

١ – قانون الاحوال الشخصية

يلزم هذا النظام الشخص بتسجيل هويته الطائفية بداية منذ ولادته، فالمواطن اللبناني يكتسب هويتين الهوية العامة النابعة من الجنسية اللبنانية والهوية الخاصة والتي تأتي من الطائفة أو المذهب الذي ينتمي إليه والد الشخص، كما لا يعترف هذا النظام بالجنسية اللبنانية للأبناء المولودين من أب أجنبي وأم لبنانية، ومع هذه الازدواجية في هوية الشخص اللبناني يعتبرها العديد من الباحثين تساهم في طمس الانتماء الوطني وروح المواطنة وهذا حسب الدراسة التي أوردها مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان سنة ٢٠١٠، حيث يستدل على ذلك بقوله إن نظام الأحوال الشخصية في لبنان هو نظام خاص بالطوائف وليس نظاما عاما للمواطن اللبناني، إذ أنه كان ينبغي إدراج الهوية اللبنانية في قانون الأحوال الشخصية دون الهوية الطائفية، وتكمن خطورة هذا القانون في كونه يكرس المحاصصة الطائفية لأنه يتبع المواطن اللبناني منذ ولادته إلى غاية وفاته، فإذا هو أراد الخروج من طائفته فإن القانون يلزم عليه الانتقال إلى طائفة أخرى يخضع لنظامها الخاص، وإذا هو أراد الخروج من نظام الأحوال الشخصية الخاص بالطوائف فسيفقد حقوقه الشخصية ولايتم اعتباره مواطنا لبنانيا، ويضيف المركز أن وجود هذه الوضعية هو بسبب غياب قانون مدني عام قائم على الارتباط الوحيد للفرد بالهوية اللبنانية، رغم ما نص عليه الدستور اللبناني من توفير الحريات للأفراد، إلا أن هذه الحرية في جانبها الواقعي تبقى حرية مرتبطة بالانتماء لطائفة معينة وليس التجرد تماما من الانتماء الطائفي، وقد اعتبرت الدراسة أن هذا النظام أي نظام الأحوال الشخصية الخاص بكل طائفة هو نظام سلطوي مغلق حال دون وحدة المجتمع اللبناني، وهو يثبت الانقسام الأهلي بسبب البنية الطائفية، مما أفقد المجتمع مناعته الوطنية، وجعله عرضة للانقسام والصراع على أساس طائفي (الهواري، ١١٧–١٢٠).

٢ – قانون التعليم

نص الدستور اللبناني على الحق في التعليم من خلال المادة العاشرة التي تنص على أن: «التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافي الآداب أو يتعرض لكرامة أحد الأديان أو المذاهب ولايمكن أن تمس

حقوق الطوائف من جهة إنشاء مدارسها الخاصة على أن تسير في ذلك وفقا للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية (الدستور اللبناني)، وبالتالي تشير هذه المادة إلى ازدواحية التعليم في لبنان بين القطاع العام والخاص، لكن ما تشهده الساحة اللبنانية هو تفوق التعليم الخاص على التعليم العام وخاصة في مراحله الأولى، حيث أن غالبية الأطفال يتم تنشئتهم وفق مدارس خاصة تابعة للطوائف التي ينتمون إليها، وهذا ما أشار إليه البرنامج التنموي للفترة مابين ٢٠٠٦-٢٠٠٩، حيث يستند إلى إحصائيات دقيقة تثبت مضاهاة المدارس الطائفية الخاصة للمدارس العامة وتفوقها عليها في المرحلة الابتدائية، وقد استعان البرنامج بإحصائية نشرها المركز التربوي للبحوث والإنماء والتي تشير إلى أن عدد التلاميذ الملتحقين بالمدارس الرسمية بلغ ٣٤٠ ألف تلميذ، في حين يرتفع عدد التلاميذ في المدارس الخاصة إلى ٤٦٥ ألف تلميذ وهذا خلال السنة الدراسية ٢٠٠٤-٢٠٠٥، وقد خلص البرنامج التنموي إلى أن التعليم الرسمي لم يستطع محاكاة القطاع الخاص رغم تفوقه في بعض المراحل، وأن المدارس الخاصة يطغى عليها في كثير من الأحيان الطابع السياسي الطائفي، وهذا ما أدى إلى غياب الرؤية الإستراتيجية للجامعة اللبنانية وضعف مركزيتها وهويتها الوطنية، بالإضافة إلى ضعف أجهزة الدولة وآلياتها الرقابية لاسيما مراقبة قطاع التعليم الخاص (والاعمار، ٢٠٠٦-٢٠٠٩)، وبالتالي فإن هذا القانون سمح باتساع التنشئة الطائفية على حساب التنشئة الوطنية، وهذا ما جعل الولاء الطائفي أولوية بالنسبة للمواطن اللبناني، وأصبح في كثير من الأحيان لايستوعب مفهوم المواطنة بل يراه مجرد مغالطة يروج لها الزعماء السياسيون لخدمة مصالحهم.

ب - ضعف سيادة الدولة

عانت الدولة اللبنانية منذ نشأتها إلى اليوم من إشكالية عدم الثقة سواء بين صانعي القرار داخل السلطة السياسية أو بين أفراد المجتمع، وهذا مرجعه بالأساس إلى الاختلاف العرقي والعقائدي الذي غذته التجارب التاريخية، والتي مر فيها لبنان بالعديد من التحولات انتصرت فيها طوائف على حساب أخرى، وذلك بفعل السياسة المنتهجة من طرف الحضارات والدول التي تعاقبت على حكم لبنان، وحتى مع استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ بقي الوضع كما هو عليه حيث كان من المفترض أن تعالج مرحلة الاستقلال سلبية التمثيل الطائفي ولكنها أقرت كنظام للتعايش والمشاركة النسبية في الحكم، وهذا يؤكد التمسك بالدستور القديم الصادر سنة ١٩٢٦، وما قام النظام

السياسي بفعله خلال هذه الفترة هو مجرد إدخال تعديلات لتخليصه من قيود الانتداب لكن الممارسة الطائفية بقيت على حالها ولم تظهر بوادر التوافق (قادري، ٢٠٠٨)، مما أسهم في العديد من الأزمات التي لم تستطع الدولة اللبنانية ايجاد حل لها، وهذا ما يؤكده الكاتب كمال حبيب حيث يرى أن النظام السياسي اللبناني ظل عاجزا عن حماية الدولة اللبنانية، وقد أثبتت العديد من الأحداث التاريخية التي تلت استقلال لبنان ان النظام السياسي لم يستطع أن يكون لنفسه شخصية مستقلة عن حكم الطوائف، وأصبحت السمة البارزة في هذا النظام هو سلطة الطوائف أكثر من سلطة الدولة، كل هذه التراكمات أعاقت تكوين نظام سياسى قادر على فرض الإرادة السياسية للدولة وحماية سيادتها سواء في الداخل أو الخارج.

ج – استمرار ظاهرة الهجرة

يعد لبنان بلدا متنوعا من نواحي عديدة دينيا وثقافيا وسياسيا، حيث أن هنالك ستة طوائف إسلامية واثنتي عشرة طائفة مسيحية، وبالرغم من إنشاء النظام المتزن بين الطوائف سنة ١٩٤٣ وذلك على إثر تغير الحجم الطائفي بين المسلمين والمسيحيين، إلا أن هذا لم يمنع من قيام الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥، وذلك بسبب السياسة المنتهجة من طرف السلطة الحاكمة، والتي لم تولِ اهتماما مسألة التوافق بين الطوائف، وبقيت السلطة محتكرة لطائفة معينة (كما تم ذكره سابقا)، وهذا ما أدى إلى قيام الحرب الأهلية، وقد أثبت هذه الرؤية كلا من الدولية للمعلومات ومركز رصد التروح الداخلي، وذلك وفق دراسات مقدمة تتضمن أسباب الهجرة في لبنان وأرقام وإحصائيات تتضمن أعداد المهاجرين، وقد عرفت هجرة اللبنايين أعلى مستوى لها من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠، وهي السنوات التي شهد فيها لبنان تزامن الحرب الأهلية بين الطوائف اللبنانية مع الاحتلال الإسرائيلي للدولة، وقد قدر عدد المهاجرين في هذه الفترة وفقا لشبكة «الدولية للمعلومات» بحوالي ٩٠٠ ألف شخص، ورغم عودة الأمن والاستقرار بعد اتفاق الطائف وانطلاق مسيرة الإعمار سنة ١٩٩٢، والتي أدت إلى عودة الكثيرين إلا أن ذلك لم يوقف ظاهرة الهجرة حيث شملت شرائح اجتماعية عديدة، بسبب غياب الامن الناتج عن ضعف النظام السياسي.

الخلاصة والإستنتاجات:

ظهرت سياسة التمييز الطائفي في لبنان منذ زمن الدولة العثمانية باستحداثها نظامًا طبقيًا يعطي الحكم للطائفة الدرزية، ويصنف بقية الطوائف في الدرجة الأدنى ومن الطوائف من لم يتم الاعتراف به أساسا، ثم انقلب الوضع في عهد الانتداب

الفرنسي حيث أعطى حكم البلد للمسيحيين ضمن سياسة الرد بالمثل، ولم يؤسس في كلا الحقبتين سواء العثمانية أو الفرنسية لنظام توافقي يشارك فيه جميع اللبنانيين في الحكم، بل تؤكد الأنظمة القانونية في تلك الفترة عكس ذلك من خلال نظام الملل العثماني، ثم نظام القائمقاميتين، ثم نظام المتصرفية الذي كان الحكم فيه لصالح المسيحيين، ويبقى الوضع كما هو عليه حتى بعد الاستقلال، رغم ما ينص عليه ميثاق ١٩٤٣ من ضرورة إشراك جميع الطوائف في الحكم، وبمرور الوقت خلق تفرد الموارنة بالحكم تراكمات وأحقادًا طائفية تفجرت من خلال الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥، وبسبب إدراك جميع القوى السياسية أن الخيار العسكري لم يقدم نتيجة لأي طرف، أصبحت هنالك حتمية اللجوء إلى الحوار برعاية عربية عبر اتفاق الطائف في المملكة العربية السعودية، الذي تضمن تقليص صلاحيات رئيس الجمهورية وإحداث التوازن داخل السلطة التنفيذية بالإضافة إلى إلغاء قاعدة الأغلبية التي كانت تحكم المجلس النيابي بين المسلمين والمسيحيين، وذلك بإقرار مبدأ المناصفة لتجاوز الخلافات الحادة بين الطرفين حول نسبة كل طائفة، وتجاوز مسألة عدم الثقة في الإحصاء السكان، وهذا لطمأنة جميع الطوائف بالمشاركة في الحكم عن طريق صيغة توافقية بغض النظر عن القلة أو الكثرة. قدم اتفاق الطائف نتائج ملموسة ساهمت في الاستقرار النسبي للأوضاع، حيث أصبح هنالك مجال أوسع للحقوق والحريات وضمان للمشاركة السياسية لجميع مكونات المجتمع، واتضح ذلك من خلال المناصفة في التمثيل النيابي بين المسلمين والمسيحيين ٥٤عضوا مقابل ٥٤ رغم الفوارق العددية بين الطرفين واعتبار المسيحيين أقلية مقارنة بالمسلمين، وهذا كله من أجل التأكيد على أنه لا مجال للحديث عن الأغلبية والأقلية وعدم جدواها في ظل المساواة القانونية بين الطوائف، كما برزت مشاركة الأقليات ودورها في الحياة السياسية ولعل أبرز مثال على ذلك التمثيل البرلماني للأقلية الأرمينية بثلاث أحزاب سياسية، وفي مجال التعددية السياسية أعطيت المزيد من الصلاحيات لرئيس الوزراء ورئيس المجلس النيابي بعدما كان دورهما شكليا في السلطة لا يخرج عن إطار تنفيذ أوامر رئيس الجمهورية، وفي المجلس النيابي تم زيادة عدد أعضاء مجلس النواب إلى ١٠٨ أعضاء، وأصبح المعيار الرئيسي هو التوافق وفق قاعدة التساوي في المجالس النيابية، حيث لم تعد قاعدة الأغلبية ٥-٦ لها مبرر قانوني كما كان عليه الأمر في السابق، وفي المجال الحزبي فقد انتعشت الحياة السياسية بظهور العديد من

التنظيمات السياسية كحزب التحرير الإسلامي، والحزب الديمقراطي اللبناني، والتيار الوطني الحر، وتيار المستقبل، وحركة التجدد الديمقراطي، وحركة اليسار الديمقراطي، بالإضافة إلى العديد من التنظيمات ذات الطابع الإسلامي الجهادي وأخرى ذات طابع خيري.

لكن مايؤخذ على الدستور اللبناني المعدل باتفاق الطائف ثغرات قانونية مهمة أضرت بالنظرية التوافقية وساهمت في زعزعة الاستقرار في لبنان، فبالرغم من سعيه لتعزيز السلطة التشريعية إلا أنه أبقى بالمقابل على صلاحيات واسعة لرئيس الجمهورية، بالإضافة إلى تعزيزه للانقسام الطائفي من خلال إبقائه لقانون الأحوال الشخصية والتعليم الخاص بالطوائف، أما في الجانب الواقعي فقد تم تسجيل العديد من الممارسات التي مست بشرعية النظام السياسي وأكدت المحاصصة الطائفية سواء في الانتخابات النيابية أو في تطبيق القوانين، مما زاد من إشكالية عدم الثقة بين القوى السياسية، والتي أعطت الضوء الأخضر للتدخلات الأجنبية، كما أن وجود ظاهرة التسلح داخل الدولة تناقض مفهوم السيادة للدولة وتساهم في زعزعة الاستقرار السياسي.

الخاتمة:

إن مفهوم الطائفية هو من المفاهيم الحديثة الاستعمال والتي لم تثبت على توصيف معين، رغم أنها تتخذ في ظل التوصيف العام مفهوما سلبيا انطلاقا من التصرفات العصبية التي تصدر من الطوائف، فاقتران الفرق والمذاهب والأعراق المختلفة في الكثير من الأحيان بظاهرة التعصب والتطرف، جعلا من الطائفية مفهوما تختلط فيه الدلالة الواقعية مع الدلالة الاصطلاحية مع غلبة الأول على الثاني، وهنا تظهر الجدلية في المفهوم هذه الجدلية انتقلت في ظل الدولة الحديثة المتعددة الملل والطوائف إلى الميدان السياسي فيما يعرف بالطائفية السياسية، وقد تطرقت الدراسة إلى عوامل نشأة الظاهرة من خلال العامل الديني بالنسبة للديانات غير الإسلامية، والعامل السياسي في الديانة الإسلامية، ثم مفهوم الطائفية بعرض التعريف اللغوي ثم التعريف الاصطلاحي، وذلك من خلال رؤية مجموعة من المفكرين الإسلاميين والباحثين السياسيين، مستعرضين بذلك الاتجاهات المختلفة في تحديد المفهوم، بالإضافة إلى المفاهيم المتداولة والتي تقترب من مفهوم الطائفية بحيث تلتقي به في جوانب معينة والمتمثلة في مفهومي التعصب والتطرف، ثم نتطرق إلى الطائفية السياسية هذا

المصطلح المنطلق من مفهوم الطائفية المتواجدة على المستوى الاجتماعي، والذي يستمد من الطائفية جدليتها وهذا ماتجسد من خلال التعريفات المتباينة في رؤيتها حول مفهوم الطائفية السياسية.

ومن خلال هذه الدراسة يمكن الوصول إلى النتائج التالية:

أثبتت التجارب التاريخية أن نظام الطائفية السياسية خلال العهدين العثماني وعهد الانتداب الفرنسي كان قائما على سياسة التمييز الطائفي، ويتجلى ذلك من خلال الأنظمة القانونية القائمة في المرحلتين التي أثبت في كل مرة فشلها، وأظهرت عدم اهتمام السلطة بالعدالة بين الطوائف اللبنانية في الحكم، بداية بنظام الملل العثماني الذي قسم المجتمع إلى طبقات متفاوتة، ثم نظام القائمقاميتين الذي فصل في الحكم بين مسلمي ومسيحيى لبنان بطريقة خلقت أغلبية مسيحية في الشمال بأقلية درزية، وجهة جنوبية للمسلمين لكنها تحوي أعدادا كبيرة من المسيحيين، وهذا ما تسبب في العديد من الأحداث والتوترات والتي أدت لإلغاء هذا النظام ليستبدل بنظام المتصرفية الذي اتضحت فيه البراغماتية الفرنسية العثمانية، من خلال تسليم الحكم لمتصرف مسيحي في لبنان ولكن بتعيين عثماني، ومع سقوط الدولة العثمانية وبداية الحماية الفرنسية للبنان منذ سنة ١٩١٩ ازدادت سياسة التمييز في نظام المنصرفية وذلك بتعيين متصرف مسيحي في الحكم بإرادة فرنسية، واستمر هذا النظام في حكم البلد حتى الاستقلال.

بصدور الميثاق الوطني سنة ١٩٤٣ واستقلال لبنان أصبح هنالك نظام قانوني يقر بمبدأ التوافق في الحكم بين الطوائف اللبنانية، يقابله تناقض في الممارسة على أرض الواقع، والذي يظهر من خلال استفراد رئيس الجمهورية من الطائفة المسيحية) بالحكم وعدم فاعلية منصبي رئاسة المجلس النيابي (للشيعة) ورئاسة الوزراء للسنة اللذين كانا يأخذان طابعا شكليا، مما جعل مطالب المسلمين تزداد بضرورة إشراكهم في الحكم، خاصة في ظل التوازن الديمغرافي بينهم وبين المسيحيين، إلا أن هذه المطالب لم تلق اهتماما من طرف النظام السياسي، وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى الصدام المسلح سنة ١٩٧٥، والذي لم يتوقف إلا بتدخل عربي من أجل حل النزاع وذلك من خلال اتفاق الطائف، وهذا ما يجسد إشكالية عدم الثقة بين الأطراف اللبنانية، والتي تحول دون الاتفاق البيئي (الداخلي من أجل حل المشاكل السياسية والاجتماعية دون اللجوء إلى الأطراف الخارجية.

على الرغم من النتائج الملموسة التي حققتها الديمقراطية التوافقية التي دعا إليها اتفاق الطائف، والتي ساهمت في استقرار الوضع نسبيا في لبنان، إلا أن المحاصصة الطائفية التي تطورت بمرور الوقت أثبتت صعوبة تطبيق نظام الطائفية السياسية بصيغة توافقية ترضي جميع الأطراف اللبنانية، وهذا ما الوقائع أبرزها الأحداث الطائفية سنة ٢٠٠٨، والتي أدت إلى تدخل عربي ثاني من أجل وقفها من خلال اتفاق الدوحة في نفس السنة.

وفي ظل صعوبة تطبيق النموذج التوافقي واتساع المحاصصة الطائفية وعجز النظام السياسي عن مواجهتها فإن العديد من الأطراف اللبنانية تلجأ إلى البحث عن بديل آخر من أجل حماية نفسها وإثبات وجودها، وذلك من خلال الاستعانة بالأطراف الخارجية، التي تجد في ظل هذا الواقع مبررا للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة اللبنانية، هذه التدخلات التي ساهمت بشكل كبير في زعزعة الاستقرار وتقويض نجاح النظام السياسي التوافقي في لبنان، وذلك باستغلال عنصر عدم الثقة المستشري داخل السلطة السياسية وبين أوساط المجتمع اللبناني، وبتزايد الأخطار الداخلية والخارجية على لبنان أصبح من الضروري البحث عن نظام سياسى قادر على حماية الدولة، وذلك باقتراح بدائل عديدة أبرزها الشروع الفعلي في إلغاء نظام الطائفية السياسية.

تبقى إشكالية إلغاء نظام الطائفية السياسية التي دعا إليها اتفاق الطائف محل جدل كبير، على الرغم من إعادة طرحها من قبل رئيس المجلس النيابي نبيه بري سنة ٢٠٠٩، والذي دعا إلى ضرورة تشكيل الهيئة الوطنية لإلغاء الطائفية السياسية، وذلك بسبب أن الإبقاء على هذا النظام يعني منح مزايا لبعض الطوائف دون الأخرى خاصة الطائفة المسيحية، والتي تجد في نظام الطائفية السياسية عاملا أساسيا في إثبات قوتها من خلال إبقاء إشكالية إلغاء نظام الطائفية السياسية التي دعا إليها اتفاق الطائف محل جدل كبير، على الرغم من إعادة طرحها من قبل رئيس المجلس النيابي نبيه بري سنة ٢٠٠٩، والذي دعى إلى ضرورة تشكيل الهيئة الوطنية لإلغاء الطائفية السياسية، وذلك بسبب أن الإبقاء على هذا النظام يعني منح مزايا لبعض الطوائف دون الأخرى خاصة الطائفة المسيحية، والتي تجد في نظام الطائفية السياسية عاملا أساسيا في إثبات تفوقها من خلال إمساكها بزمام السلطة التنفيذية، والذي يعوض لها التوازن الديمغرافي المفقود بينها وبين المسلمين وبالتالي عدم إلغائه، وهذا يمثل إجحافا بحق المسلمين حيث أنه بالرغم من ثقلهم العددي يجدون

أنفسهم بيد حكم أقلية مسيحية واعتبارهم كمشاركين في الحكم بدل أن يكونوا أهم صانعي القرار، ومن جهة أخرى فإن إلغاء نظام الطائفية السياسية يعني حكم الأغلبية المسلمة، والذي ربما يؤدي إلغاؤه إلى إهمال حقوق الأقليات ومشاركتها في الحكم، وهذا ما يؤدي إلى عواقب وخيمة على استقرار الدولة اللبنانية. من خلال هذه الدراسة يمكن تقديم التوصيات والاقتراحات التالية:

وبما أن الدستور اللبناني نص صراحة على إلغاء الطائفية السياسية وذلك بعد تعديله باتفاق الطائف سنة ١٩٨٩ بإجماع وطني ومن كافة القوى السياسية، فإنه من أجل الوصول إلى هذه الغاية ينبغي السعي إلى إعادة هيكلة الأحزاب السياسية، وذلك بتأسيس أحزاب ذات منطلق وطني تمثل كافة اللبنانين، وليس لها أي بعد طائفي، بحيث تجسد معنى التعددية السياسية بدل التعددية الطائفية، وهذا لن يتأتى إلا بإلغاء كل الإجراءات القانونية التي تزيد وتفاقم من سياسة التمييز الطائفي، وأبرزها قانون الأحوال الشخصية، الذي ينبغي أن يلغي بحكم أنه يلزم المواطن بإدراج هويته الطائفية ضمن بطاقة الهوية وهذا مايعرقل مفهوم المواطنة، وبالتالي ضرورة استبدال هذا القانون بقانون مدني عام منطلقه هوية وحيدة للمواطن اللبناني وهي الهوية الوطنية.

1 - carolina curvale. (بلا تاريخ). *does political particpation affect political stability*. departement of politics new york university.

2 - martin paldam. (بلا تاريخ). *does economic growth lead to political stability*. university of Arhus.

٣ – ابن منظور. (١٩٨١). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.

٤. اكرم محمد عدوان. (٢٠١١). *الطائفية واثرها على النظام السياسي في لبنان*. غزة: الجامعة الاسلامية.

٥. الدستور اللبناني. (بلا تاريخ).

٦. برهان غليون. (٢٠٠٠). نقد مفهوم الطائفية. *الحوار المتمدن*، ١٨٤٠.

٧. توفيق الهواري. (١١٧–١٢٠). الطائفية في لبنان: تمييز بين اللبنانيين قانونا. *التسامح*، ٢٩.

٨. حسن موسى الصفار. (٢٠٠٥). *الاستقرار السياسي والاجتماعي ضروراته وضماناته*. بيروت: الدار العربية للعلوم.

٩. حسين درويش العادلي. (بلا تاريخ). *الطائفية المجتمعية والطائفية السياسية*.

١٠. حسين قادري. (٢٠٠٨). *لبنان الحرب الاهلية والتدخلات الخارجية*. لبنان: دار قانا للنشر والتوزيع.

١١. رائد نايف حاج سليمان. (٢٠٠٩). الاستقرار السياسي ومؤشراته. *الجوار المتمدن*، ٢٥٩٢.

١٢. سعد الدين العثماني. (٢٠١٠). دور الوسطية في تحقيق الاستقرار السياسي. *الوسط البحرينية*، ٢٩٨٢.

١٣. طه العواني. (بلا تاريخ). *الحميد والخبيث في مفهوم الاستقرار السياسي*. بيروت.

١٤. عبد الوهاب الكيالي. (١٩٧٩). *موسوعة السياسة*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

١٥. عقل عقل. (٢٠٠٩). *العدالة الدستورية والمجتمع التعددي*. بيروت: المجلس الدستوري.
١٦. فؤاد بطرس. (٢٠٠٥). *قراءة تحليلية في الطائفية السياية: النظام الانتخابي نموذجا*. طرابلس.
١٧. كامل مهنا. (٢٠٠٣). المجتمع المدني في السياسات العامة. *تجمع الهيئات الاهلية التطوعية*، (صفحة ٣). صيدا.
مجلس الانماء والاعمار. (٢٠٠٦-٢٠٠٩). *البرنامج التنموي لقطاع التعليم*.

الهمّ الفلسطينيّ المشترك
بين القصيدة الايرانيّة والعربيّة

د. غسان تويني

الأدب المقارن:

تقديم:

الأدب المقارن شكل من أشكال المعرفة، يتناول المقارنة بين أديبيّن أو أكثر، ليظهر علامات التّشابه وعلامات الاختلاف بين الآداب، ومعرفة العوامل.

الأدب المقارن هو دراسة الأدب خارج حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الآداب من جهة، ومجالات المعرفة من جهة أخرى(١).

كما يدرس الأدب المقارن مواطن التّلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها المعقدة في حاضرها وماضيها، وما لهذه الصّلات التاريخية من تأثير وتأثّر(٢).

ويوضح بول «فان تييغم» أن الأدب المقارن يركّز على الصّلات بين الآداب، وعملية التّأثّر والتّأثير اللذين تتبادلهما(٣). وهذا ما تقول به المدرسة الفرنسية.

وإذا كانت المدرسة الفرنسيّة تركز على عملية التّأثّر والتّأثير، فإنّ المدرسة الأمريكيّة تهدف إلى دراسة الظّاهرة الأدبيّة في شموليتها من دون مراعاة الحواجز السّياسيّة واللسانيّة.

ويقول: «هنري ريماك» المؤسس الأول لهذه المدرسة، إنّه لا ينبغي النّظر إلى الأدب المقارن على أنّه نظام مستقل بذاته، بل يجب النّظر إليه على أنّه حلقة وصل بين الموضوعات أو المجالات الخاصة بموضوع واحد، لذا فإنّه من الممكن إجراء مقارنة بين اثنين أو أكثر من الآداب

(١) أحمد زلط، الأدب المقارن، نشأته وقضاياه واتجاهاته، ص٤٨.
(٢) محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، ص٦٣.
(٣) إبراهيم عوض، في الأدب المقارن، تعريفه وميادينه، ص٣.

المختلفة، وكذلك مقارنة الآداب بالمجالات الأخرى المعرفيّة[1].

يدفعنا الحديث عن الأدب المقارن إلى أن نعرّج سريعًا لنتحدّث عن مسألة التّداخل الثّقافيّ العربيّ الإيرانيّ، إذ تجلت معالم التّأثّر والتّأثير بين الثّقافتيّن في مجال الأدب في أكثر من محطة، عقد خيوطها أكثر من مفكر وباحث في العالم العربيّ والإسلاميّ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، حسين نجيب المصريّ في كتابه «الأسطورة بين العربيّ والفارسيّ والتركيّ»، وإبراهيم أمين الشّواربيّ في كتابه «حافظ الشّيرازيّ، شاعر الغناء والغزل في إيران»، وعبد النعيم محمد حسنين في كتابه «كليلة ودمنة بين العربيّة والفارسيّة»، وعبد الوهاب عزام في كتابه «الأدب الفارسيّ والأدب العربيّ»، وعمر شبلي في ترجمته لديوان «حافظ الشّرازيّ الشعريّ» وغيرهم.

حين ظهر الأدب الإيرانيّ الحديث، ظهر أدبًا إسلاميًّا يحتذي الأدب العربيّ في كثير من موضوعاته وأساليبه، فكتب بالحروف العربيّة، لا الحروف الفهلويّة، واستعار من العربيّة ألفاظا كثيرة.

كما تتشابه موضوعات الشّعر الإيرانيّ مع موضوعات الشّعر العربيّ، من مدح وهجاء وغزل ووصف. وقد تميّز الأدب الإيرانيّ بموضوعيّ القصص والتّصوف، فقد أغرم الشّعراء الإيرانيّون بالقصة فنظموا قصصًا دينيّة مثل، قصّة النبي يوسف وزليخا، وقصصًا تاريخيّة مثل، ليلى والمجنون. وبلغوا الغاية في الشّعر الصّوفيّ، اذ نظموا فيه منظومات قصيرة ومنظومات طّويلة، حتى نظم فريد الدين العطار زهاء أربعين منظومة فيها عشرات الآلاف من الأبيات الشّعريّة.

وتشتمل «الشاهنامة» على ألفاظ عربيّة كثيرة، وقد حاكوا في شعرهم الأوزان العربيّة، واستخدموا مصطلحات العروض التي كان العرب يستخدمونها.

لم يكن هذا التّداخل الثقافيّ العربيّ الايرانيّ في إطار الأدب المقارن، بقدر ما كان محاولة انتاج لواقع أدبيّ وفكريّ جديد، يعبّر عن العلائق والوشائج القويّة بين الحضارتين، العربيّة والإيرانيّة التي تجمعهما روح الإسلام وتعاليمه الإنسانيّة التي تتجاوز القطريّة والقوميّة إلى فضاءات أوسع وأرحب.

يطالب الإنسان بالإبداع والبحث والانفتاح والجهد المعرفيّ وطرح الأسئلة، والإجابة عنها، وإيجاد الحلول لها.

هذا كله أنتج فهمًا جديدًا للثّقافة

(١) سميرة شبال، الأدب المقارن، المصطلح والمفهوم، ص١٨.

الإنسانيّة التي تربط الإنسان، والكون بالخالق من جهة، وضرورة تعارف الشّعوب فيما بينها، وتقبل عناصر ثقافتها من جهة أخرى.

هذا التّداخل الثقافيّ إلى جانب عوامل أخرى عديدة، جغرافيّة وسياسيّة ودينيّة تحتّم على الشّاعر العربيّ والشّاعر الإيرانيّ أن تكون همومهما مشتركة، والقضايا التي تستحوذ على اهتماماتهما واحدة، خصوصًا، الهمّ المتمثل بالقضية الفلسطينيّة التي تبقى مركز الصّراع الحقيقي بين العرب والمسلمين من جهة، والكيان الصّهيونيّ المغتصب للأرض من جهة أخرى.

لذلك نجد على امتداد العالم العربيّ والإسلاميّ أصواتًا شعريّة تنشد للقدس، وتصرخ مع فلسطين، وتؤرخ لصمود الشّعب الفلسطينيّ، ومن هذه الأصوات الشّاعرة الإيرانيّة طاهرة صفّار زاده[1]، والشّاعر السّوريّ نزار قبانيّ[2]، والشّاعر الفلسطينيّ محمود درويش[3]، عبّر هؤلاء الشّعراء وفاق رؤيتهم عن المأزق العربيّ والإسلاميّ، جراء ما تتعرّض له القدس من عدوان همجيّ على أيدي الصهاينة، متجاوزين بشعريّتهم لحظات الانكسار والهزيمة التي تمسك بالأمّة العربيّة والإسلاميّة، راسمين بشعريّتهم طريق القيامة الذي يجب على الأمّة أن تسلكه للوصول إلى خلاصها.

إجراء المقارنة:

تقديم:

النصّ الشّعريّ طاقة منفتحة وفاعلة، تنشأ في لحظة عصف تجتاح الشّاعر ليعبّر من خلالها عن انفعالاته وقناعاته واهتماماته، ويكشف عن المستور من القضايا التي تشكّل أسئلة حرجة تفرض علينا أجوبة وحلولا، ولا يمكن للأديب أن يصل إلى أجوبة، إلا بوساطة الأساليب الفنيّة، الموصولة بثقافته.

ولا تبلغ العملية الشّعريّة غايتها عند الشّاعر إلاّ إذا أسعفته في ذلك ثقافة واسعة، يعرف كيف يوظفّها في نصّه الشعريّ، وكيف يستعين بمكوناتها في إنتاج واقع

(١) طاهرة صفّار زاده، شاعرة، وباحثة، وكاتبة، ومترجمة ايرانيّة، ولدت في مدينة سيرجان الايرانيّة، العام١٩٣٦. من نتاجها الشّعريّ، «السفر الخامس»، و«رحلة عاشقة» ترجمة، موسى بيداج.

(٢) نزار قبانيّ شاعر سوريّ، ولد في دمشق العام١٩٢٣. من نتاجه الشعريّ، «قصائد متوحشة»، «اشعار خارجة على القانون»، «أطفال الحجارة» وغيرها.

(٣) محمود دويش، شاعر فلسطينيّ، ولد العام ١٩٤١. من نتاجه الشعريّ، «عاشق من فلسطين»، «لا تعتذر عمّا فعلت» وغيرها.

جديد يقوم على أنقاض واقع عاجز في النّهوض بالمسؤوليّات، ومواجهة المشاكل التي تعترضه، وهذا ما يمكنه من تحديد رؤيته الكشفيّة في المستقبل.

حين تقرأ النّصوص الشّعريّة عند الشّاعرة طاهرة زاده، ونزار قباني، ومحمود درويش، تجد نفسك أمام قامات أدبيّة وثقافيّة عالية، قد تسربت ثقافتهم في تفاصيل نصوصّهم الشعريّة، وقدّموا بوساطتها رؤيتهم إلى الوجود من حولهم، هذه الرؤية المستندة إلى نظام علاميّ رمزيّ، يحدّد هويّة هذه الثّقافة، ويقدّمها بوصفها عين الشّعراء في تتبّع أحداث التّاريخ على السّاحة العربيّة والإسلاميّة في مسار ضعفها وقوتها، والخروج بها إلى منافذ الضّوء وتحقيق الهويّة والذّات.

ليس صدفة أن تجتمع رؤية الشّاعرة الايرانيّة طاهرة زاده برؤيّة الشّاعرين العربيّين، نزار قبانيّ، ومحمود درويش، حول قضية واحدة، هي القضية الفلسطينيّة، التي تستحوذ على اهتمامات الشّعراء الثلاثة، بوصفها قضية الصّراع المحوريّ والوجوديّ التي تجمع العالم العربيّ والإسلاميّ، إذ تمثل بعدا تاريخيًّا وحضاريًّا ودينيًّا وثقافيًّا. وحماية هذا الموروث والدفاع عنه، هو دفاع عن الهويّة العربيّة والإسلاميّة بألوانها المتنوعة، وتخليص المقدسات من براثن الإحتلال.

إنّ النّصوص الثلاثة التي ذكرناها، هي تعبير عن صوت واحد، يخترق الجغرافيا ويتجاوز اللّغة، ليعبّر عن الفعل المقاوم القادر على اجتراح النّصر وتحرير الأرض والإنسان.

١- <u>في اختيار العناوين:</u>

نقرأ ثلاثة عناوين لثلاثة نصوص عند هؤلاء الشّعراء، النصّ الأول للشّاعرة الإيرانيّة طاهرة زاده، الموسوم بعنوان (القبلة الأولى)، والنصّ الثاني للشّاعر السّوريّ نزار قبانيّ، الموسوم بعنوان (دكتوراه شرف فّي كيمياء الحجر)، والنصّ الثالث للشاعر الفلسطينيّ محمود درويش الموسوم بعنوان (في القدس).

لا تشذّ العناوين الثلاثة الا باتجاه واحد، هو فلسطين، نقطة الارتكاز الأولى عند العرب والمسلمين، إذ ترصد عين الشّعراء الثلاثة الأقصى والقدس بوصفهما هويّة الامّة ورمز كرامتها وعزّتها.

تقدم الشّاعرة طاهرة زاده المسجد الاقصى (القبلة الأولى)، كونه الهمّ الأول الذي يتقدّم على غيره من الهموم والقضايا التي تواجه الامّة الإسلاميّة، وهذا التّركيب الوصفيّ (القبلة الأولى) يستعيد إلى الذّاكرة الصلاة الأولى التي أقامها الرسول الكريم (ص) متوجها نحو المسجد الأقصى من جهة، ويشير إلى إصرار الشّاعرة على

أنّ الوجهة الحقيقية هي في توجيه البوصلة باتجاه القدس والمسجد الأقصى، لنعيد ما خسرناه في لحظة غياب عن المشهد/ الحدث.

وإذا كانت الشّاعرة طاهرة قد حدّدت الوجهة والمكان (القدس/الأقصى)، فإنّ نزار قبانيّ يرى بوساطة عنوانه (دكتوراه شرف في كيمياء الحجر)، أنّ أطفال الحجارة وحدهم من يقدرون إحالة غيبوبة الامّة وغيابها عن (القدس/ الاقصى) إلى حال رشد ووعي تستطيع معهما الأمّة أن تعيد حرمة مقدساتنا، وتسترجع هويّة الأرض المغتصبة والأسماء المسلوبة بارادة القوة التي تصنعها الأجيال الطالعة.

إنّ إيقاع العنوان المتشكّل من تركيبيّ إضافة (دكتوراه شرف/كيمياء الحجر)، لا يحيلك إلى إيقاع الحياة، بقدر ما يضعك أمام تلاحم تركيبين يشكّلان علامة سيميائيّة تدل على عجز ثقافتنا في إضافة شيء جديد للواقع المأزوم الذي تعيشه أمتنا، ونهوض جيل جديد بيده نهضة الأمّة وانبعاثها من جديد.

تجاوز العنوان مرحلة الخطابيّة العربيّة التي قدمت اخفقاتها وهزائمها على سنوات عديدة، إلى مرحلة الفعل التي تنطلق بقبضة حجر، يشقّ طريقه نحو مشهد مقاوم، سيترك بصمته في صراعه مع العدوّ الإسرائيليّ.

يعيش الشّاعر الفلسطينيّ محمود درويش في قلب القدس حين يختار عنوان نصّه (في القدس)، فإذا كان حرف الجرّ (في)، قد حدّد المكان بقوة، فإنّه أعطى القدس بعدًا حميميًّا ووجدانيًّا، يشيران إلى علاقة غير عادية يقيمها الشّاعر مع القدس، لا لأنه فلسطينيّ، إنّما لأنّ القدس تمثل الإقامة فيها تحديّا للعدو الصهيونيّ من جهة، وإصرارا على هويتها العربيّة وما تمثّله من قيم دينيّة جامعة. يحيلك الفعل «أعني» في قوله: «في القدس، أعني داخل السّور القديم»[1] إلى علامة شديدة الدّلالة تعبّر عن عمق التّاريخ الذي يقدّمه محمود درويش لمدينة القدس من جهة، والذّاكرة العربيّة المتمسكة بالمكان (القدس)، بوصفه هوية، يعمل العدوّ الاسرائيليّ على محوها.

إنّ العناوين الثلاثة مجتمعة تعبّر عن رؤية واحدة عند الشّاعرة الإيرانيّة والشّاعرين العربيّين، تحكم تفكيرهم قضية واحدة، وتقلق نصّهم هواجس مشتركة، لا يرون فيها إلا تمزق الأمّة العربيّة والإسلاميّة، وتفكّكها جرّاء ما تتعرّض له من عدوان مستمر من قبل العدو الصهيونيّ.

إنّ الجغرافيّا واللغة لم تمنعا الشّعراء

(١) محمود درويش، من مجموعة: لا تعتذر عمّا فعلت، ص٧٤.

من مقاربة القضية المشتركة (القدس/ الاقصى)، مقاربة تتلمّس جراحنا، وتدعو إلى ضرورة تخلّص الأمّة من محنها.

٢ - حركة تشكّل النّصوص والافكار السّائدة:

يتشكّل نصّ طاهرة زاده من ست حركات، تتخذ الحركة الأولى عنوانًا يعبّر عن حضور الأقصى في زمن كتابة القصيدة (هذا الزّمن زمن الأقصى)، ثمّ يأتي العنوان الثّاني ليرصد عدوانية المحتل (همجية العدو المحتل مع المصلين).

تتصل الحركة الثالثة بمقاومة المحتل على أيدي أطفال الحجارة (أطفال الحجارة)، وتكشف الحركة الرابعة مشهد القتل والإجرام التي تقوم به الآلة الصهيونيّة ومجرمو الحروب (تجار الدماء يوغلون بالقتل)، وتتصل الحركة الخامسة بقدرة الانتفاضة على رسم صورة الوطن (من الحجارة يولد وطنٌ)، وفي الحركة السّادسة تصل الشّاعرة إلى حقيقة مؤكّدة، وهي أنّ الطّغاة إلى زوال (الطّغيان والطّغاة إلى زوال).

إنّ لحظة تشكّل النصّ الشعريّ، هي لحظة العصف الذهنيّ والعاطفيّ، اللذين يواكبان الرؤية التي يرغب الشّاعر في الكشف عنها بوساطة أساليب بلاغيّة متنوّعة لتتبدّى أفكارًا تلامس الهموم والقضايا التي يعيشها الشّاعر، هذه الهموم والقضايا شكّلت همًا واحدًا عند الشّاعرة طاهرة ونزار ومحمود، إذ التقت أفكارهم حول قضية واحدة، وتوحّدت رؤيتهم في الكشف عن مواطن ضعف الأمّة وقوتها.

لا يمكن أن نقول: إنّ الصدفة قد جمعت في نصيّ، طاهرة زاده ونزار قبانيّ، أطفال الحجارة، تقول الشّاعرة الإيرانيّة: «طيور الحق/من قلب المسجد هذا/تحارب (الابرهات)/ بالحجارة»[١].

ويقول الشّاعر السّوريّ نزار قبانيّ:

«يرمي حجرًا... أو حجرينْ...

يقطع أفعى أسرائيل إلى نصفين

يمضغ لحم الدبابات،

ويأتينا من غير يدينْ[٢].

إنّ طفل الحجارة في نصّ طاهرة زاده الذي يتصدّى لرمز من رموز القتل والإجرام، (أبرهة)، هو ذاته الطّفل الذي يواجه الأفعى الإسرائيليّة في نصّ نزار قبانيّ.

تستحضر الشّاعرة رمز «ابرهة» لتقدّم الإرهاب في الماضي، شكلاً متصلاً

(١) طاهرة صفار زاده، من مجموعة: رحلة عاشقة، ص١٣٣.

(٢) نزار قبّاني، ثلاثيّة أطفال الحجارة، ص٤٣.

بالحاضر، يتمثّل بالإرهاب الإسرائيليّ ضدّ أطفال الحجارة.

لم يقع الشّاعران في قبضة الاستسلام الذي يمسك بالساحة العربيّة والإسلاميّة في لحظة كتابة القصيدة، لأنّهما يعوّلان على ثقافة المقاومة التي ترسم ملامحها أنامل أطفال ناعمة، في سبيل إنتاج واقع جديد قادر على مواجهة التحديّات، والنّهوض بالمسؤوليّات تجاه قضايانا، لذلك يممّ الشّاعران وجهيهما إلى انتفاضة الأقصى الاولى العام ١٩٧٨ التي تشكّل إضاءة في نفق عربيّ مظلم، وتتّفق الشّاعرة طاهرة مع الشّاعر نزار على أنّ الوطن لا يولد إلا من بين أيدي أطفال الحجارة، هذا الجيل الطالع نحو الشمس والحريّة، تقول الشّاعرة الإيرانيّة:

«والحجارة في طهر أيديك

سهام الغيب /سهام البدر / سهام مما لا يحسبون »[١].

ويقول نزار قبانيّ:

تسأل صحف العالم، كيف صبيّ مثل الورد.. يمحو العالم بالممحاة؟؟.

يقلب شاحنة التاريخ، ويكسر بلور التوراةْ؟؟..»[٢].

لعلّ أهمّ علامة من علامات الزّمن الفلسطينيّ عند طاهرة ونزار، هو إفساد الزّمن الاسرائيليّ، على أيدي أطفال الحجارة «سهام الغيب، سهام البدر، سهام... يمحو، يقلب، يكسر»، تلتقي سهام أطفال الحجارة عند طاهرة، بأفعال التحوّل والإرادة التي يرسمها أطفال الحجارة عند نزار، فلم يعد الزّمن الفلسطينيّ مرهونًا بما يخطّط له العدوّ، بل أصبح زمنًا معدًّا للمواجهة ومستعدًّا إلى الخروج من دائرة الهزيمة إلى دائرة الانتصار.

تؤمن الشّاعرة طاهرة أنّ هؤلاء الأطفال يؤسّسون لعالم إنسانيّ تسوده قيم الحق والخير والسّلام، ويؤمن نزار قبانيّ أنّ هؤلاء الأطفال سيسقطون الخطاب السياسيّ المترهل في ساحتنا العربيّة والإسلاميّة، ويفتحون أبواب النّصر والحريّة.

إنّ الالتفات إلى أطفال الحجارة في لحظة انفجار القصيدة، عند طاهرة ونزار، هو التفات إلى حدث تاريخيّ اجتاح ساحتنا العربيّة والإسلاميّة، إنّها انتفاضة الأقصى التي اندلعت العام ١٩٨٧.

حين يولي نزار قباني وطاهرة زاده الاهتمام بهذا الحدث، فهذا يعني أنّهما يعبّران عن تأسيس مشروع مقاوم يتجاوز الاطر التقليديّة في مواجهة المشروع الصهيونيّ المبني على التوسع والتدمير،

(١) طاهرة زاده، رحلة عاشقة، ص١٣٦.

(٢) نزار قبّانيّ، م. ن.

إلى مشروع مقاوم يولد من رحم العذابات والصّبر ويؤسّس لمقاومة تعرف كيف تدير المواجهة مع العدوّ الصهيوني.

إنّ إيمان الشّاعرة الإيرانيّة بحق الشعب الفلسطينيّ في استرداد ارضه المغتصبة، هو ما جعلها تضع في أولوياتها (القبلة الأولى) المسجد الاقصى، الذي ستفك أسره الدماء الطّاهرة، «والدّماء النقيّة/ ستدك عالم الظلام /فلينتظر الطغاة»[١].

ويجزم نزار قبانيّ أنّ عدونا وهمّ صائر إلى زوال «إنّ هذا العصر اليهودي، وهمّ.. سوف ينهار..»[٢].

يشارك الشّاعر الفلسطينيّ، محمود درويش طاهرة زاده حقيقة الهزيمة المؤكّدة التي ستلحق بالطّغاة والظّالمين في قصيدة (الأرض) إذ يقول: «سنطردهم من حجارة هذا الطّريق الطّويل سنطردهم من هواء الجليل»[٣].

يؤكّد الفعل «سنطردهم» حقيقة واحدة هي أن الغزاة الصّهاينة مصيرهم الرّحيل عن الأرض التي احتلوها، وطرد الغزاة لايتمّ إلا بسهام مسمومة، تقلب وجه التاريخ، وتكسر بلور التوراة.

قدمت النّصوص الثلاثة شعريّة الانتصار والمقاومة، وتوحدّت حول هدف واحد وقضيّة أساسيّة تشكّل نواة الصّراع بيننا وبين العدو الصّهيونيّ.

٣ – الرموز والشّيفرات الثّقافيّة:

تجتمع في النّصوص الثلاثة رموز دينيّة شديدة الاتّصال بالقدس، كونها تشكّل نقطة اجماع عند كلّ الاديان السّماويّة، وتتوزّع هذه الرّموز في نصّ طاهرة زاده على (الإسراء والمعراج)، الذي تبدّلت صورته في ظل الاحتلال، الذي يحمل كلّ بذور الشّر والإجرام، يصبح الإسراء والمعراج في نصّ الشّاعرة موضعًا لاهل الباطل «الهبوط عن الحقّ/والفتوة والمروءات»[٤].

ولا يغيب هذا المشهد الدينيّ عن ذاكرة محمود درويش في قصيدته (القدس)، إذ يحضر بقوة معبّرًا بوساطته عن ألم الرّحلة التي يقوم بها الشّاعر في ظلّ ظروف قاسية يتعرّض لها الشّعب الفلسطينيّ، يقول الشّاعر في رحلته:

«أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى تصوّبني، لا أرى أحدا ورائي. لا أرى أحدا أمامي»[٥].

إنّ استحضار هذا الرمز في النّصيّن الشّعريّين، لا يعبّر عن ثقافة طاهرة ومحمود المتمسكة بالمكان/الرمز،

(١) طاهرة زاده، رحلة عاشقة، ص١٣٩.
(٢) نزار قبّانيّ، ثلاثيّة أطفال الحجارة، ص٣٨.
(٣) محمود درويش، الديوان، ص٦٣٨.
(٤) طاهرة صفار زاده، رحلة عاشقة، ص١٣٣.
(٥) محمود درويش، لا تعتذر عمّا فعلت، ص٤٧.

وتوظيف التّراث الإسلاميّ بوصفه أداة لغويّة قادرة على الامساك بهمومنا وقضايانا الراهنة، بقدر ما يكشف عن ثقافة واحدة وهمّ مشترك واحد ورؤية واضحة.

إذا كانت الشّاعرة طاهرة قد استحضرت صورة الطّيور الأبابيل في رمي جيش أبرهة في أثناء غزوه مكّة المكرّمة، لتعبّر عن حجارة «طيور الحقّ» الّتي «تحارب الأبرهات»[1] في هذا العصر، فإنّ نزار قبّاني قد لجأ إلى غير رمزٍ دينيٍّ ليعبّر عن صورة أطفال الحجارة التي ترسم بأناملها إشراقة أمل الأمّة والنّصر القادم. فهذه الأنامل الطريّة والأيدي القابضة على الحجر هي التي ستقلع نجمة دواودٍ من أرضنا المغتصبة: «يرمي.. يرمي.. يرمي.. حتّى يقلع نجمة داوودٍ بيديْه، ويرميها في البحرْ...»[2].

يعدّ الرمز العمود الفقري في النّصوص الثلاثة، إذ يعبّر عن اجتراح ثقافة المقاومة، ثقافة تقلق العدوّ الصّهيونيّ، وتربكه في سبيل الوصول إلى الهدف الأساسيّ، وهو تحرير الأرض والمقدّسات والإنسان.

إنّنا أمام رموز تنبض بالحياة والقوّة، لا تعرف الانكسار في زمن الهزيمة، إذ تخرج بنا من ذاكرة الهزيمة إلى ذاكرة معافاة، رموزها واثقة مفتوحة، في النّصوص الثّلاثة، على بعضها، تعبّر بوضوح عن مناخٍ ثقافيّ جديد بدت ملامحه تظهر في القدس العام ١٩٨٧ حين انطلقت شرارة الانتفاضة الاولى من مخيّم جباليا، ثمّ امتدّت إلى قرى ومدن فلسطينيّة اخرى.

كان لكلّ نصٍّ من النّصوص الثّلاثة نظامه العلاميّ الرمزيّ في تحريكه الرّؤيّة التي يرغب الشّاعر في الكشف عنها، فشعريّة الانتفاضة والمقاومة في مواجهة الترمّد والخضوع، تحضر بقوّة في قصيدة الشّاعرة طاهرة زاده «القبلة الأولى»، إذا عدنا إلى النّص، نرى علامات مثل، (طيور الحقّ، الحجارة، حجارة أبابيل، سهام البدر) وغيرها قد خلعت عنها انتماءها اللّغويّ المستقرّ، إلى انتماءٍ علاميّ رمزيّ يخطّ طريق الانتفاضة والمقاومة نحو ذهنيّة ثقافيّة جديدة ذات بعد تغييري مقاوم.

يلتقي نزار قبّاني في نصّه «دكتوراه شرف في كيمياء الحجر» مع الشّاعرة الإيرانيّة، إذ تجتمع في نصّه علامات رمزيّة تشكّل بوساطتها شعريّة العبور إلى الحرّيّة عن طريق أطفال الحجارة الذين يعبرون بالأمّة إلى تاريخٍ جديد «يخلع أبواب التاريخ/يلقي تركة أهل الكهف/يكسر ذاكرة الصحراء/يقلع نجمة داوود».

إنّ إرهاب الأيديولوجيا المعادية (الكيان

(١) طاهرة زاده، رحلة عاشقة، ص١٣٣ - ١٣٤.

(٢) نزار قبّاني، ثلاثية أطفال الحجارة، ص٥٤.

الصهيوني)، لا يستطيع أن يقف حاجزًا في وجه النّظام العلاميّ المقاوم عند الشّاعرة طاهرة والشّاعر نزار، لأنّ النّصّين عندهما حافلان بالقوّة القادرة على مواجهة علاميّة الظلم والظّالمين.

ينتمي النّصّان (القبلة الأولى/ دكتوراه شرف في كيمياء الحجر) إلى همٍّ واحدٍ، وعقيدة دينيّة راسخة، هي أنّ القدس قبلة الجميع، وهي موروث ثقافيّ وحضاريّ ساهمت في انتاجه شعوب عديدة.

٤- النّصّ والعالم والأيديولوجيا والشّاعر:

تشكّل القدس والأقصى في فلسطين، اللّذان شهدا صراعًا مريرًا مع العدوّ الصهيونيّ مرجع هذه النصّوص الثلاثة.

والقدس التي نقرأها في النّصّ، لم تكن القدس الفلسطينيّة بجغرافيّتها البشريّة المقاومة والمنتصرة للحقّ والرافضة للاغتصاب، ولكنّها القدس التي أعيد إنتاجها في ضوء رؤية الشّاعرة طاهرة زاده، والشّاعرين: نزار قبّاني ومحمود درويش. فأرض فلسطين، بقدسها وأقصاها وأسوارها ومسراها، وأطفالها وحجارتها وشجرها وبحرها، كلّها أسماء خرجت في النّصوص الشعريّة عن حقائقها الموضوعيّة لتكتسب نظامًا علاميًّا جديدًا يكشف الأيديولوجيا التي ينظر من خلالها الشّاعر إلى العالم والوجود، تلك الأيديولوجيا التي تتحوّل من عمق إيمانٍ إلى طاقة تعمل على تبدّل ألوان الأشياء في فلسطين، وتسعى إلى تحوّل مُناخها من مناخ اليأس إلى مُناخ التّفاؤل، من ثقافة الضعف إلى ثقافة القوّة.

إنّ أيديولوجيا القوّة والمقاومة تحكم النّصوص الثّلاثة، ولا تنطلق هذه الأيديولوجيا من الإيمان العميق بانتصار المظلوم، واندحار الظالم، بل تنطلق من حكمٍ إلهي لا مردّ له: «ما بين هذا البيت والطريق/ فحافظُ الكلام[١]/ والمدافع عن المؤمن[٢]/ لا يخلف الميعاد/ ووعدُ الحقِّ/ حقٌّ»[٣].

لم نلحظ في نصّيّ الشّاعرة طاهرة زاده، ونزار قبّاني، أيّ ضميرٍ يعود إليهما، ولكنّنا نشير إلى أنّ حضورهما كان قويًّا، ثقافةً وطاقةً فنّيّةً متخفّيةً وراء الأقصى عند طاهرة زاده، ووراء أطفال الحجارة عند نزار قبّاني. اختفى حضورهما وراء لوحاتٍ فنّيّة أدخلتنا إلى المأساة التي يتعرّض لها الشّعب الفلسطينيّ على أيدي الصهاينة مرّةً،

(١) القرآن الكريم، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
(٢) القرآن الكريم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].
(٣) طاهرة صفار زاده، رحلة عاشقة، ص١٣٤.

وإلى الإصرار على الإنتصار والمقاومة مرّة أخرى.

وإذا كانت رحلة التجلّي في قصيدة «في القدس» عند محمود درويش تستوجب حضورًا لضمائر المتكلّم، إلاّ أنّها ضمائر تذوب في قضيّة الجماعة التي ترسم مشهديّتها رحلة الشّاعر من الأرض إلى السّماء.

يبقى أن نقول، إنّ الشّاعرة الإيرانيّة طاهرة زاده، والشّاعر السّوري نزار قبّانيّ والشّاعر الفلسطينيّ محمود درويش، قد عبّرت نصوصّهم الشعريّة عن مرحلة ثقافيّة اتّخذ فيها الصّراع مع العدوّ الصّهيونيّ أولويّة تتقدّم على كلّ المشاكل، والتحدّيات التي تشهدها السّاحة العربيّة والإسلاميّة.

ويوصلنا هذا الكلام إلى أنّ النّصوص الشّعريّة الثلاثة تستفزّها الأيديولوجيا المعادية للكيان الصّهيوني، وتعمل على مقاومتها بنظام لغويّ علاميّ مشفوعًا برؤية ثقافيّة قادرة على الإمساك بحركة التاريخ الماضية والحاضرة والمستقبليّة وتحديد مسارات تحوّلاتها السياسيّة والثقافيّة والفكريّة.

شكّلت هذه النّصوص مدخلاً لقراءة دلالة المقاربة فيها، في همومها الفنيّة التعبيريّة وفي همومها الفكريّة والمضمونيّة، وبيّنت أنّ الهمّ العربيّ هو ذاته الذي تحمله الشّاعرة الايرانيّة في نصّها الشّعريّ، وأنّ الضائقة القاسية التي تمرّ فيها المنطقة متصلة، تجمع بلدان المشرق، وتؤكّد وشائج العلاقات التي تربطها قديمًا وحديثًا.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. درويش، محمود: مجموعة (لا تعتذر عمّا فعلت)، بيروت، دار رياض الريّس للكتب والنشر، ط١، يناير ٢٠٠٤.
٣. زاده، طاهرة صفّار: مجموعة (رحلة عاشقة)، تر. موسى بيداج، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، ط١، بيروت، ٢٠٠٨.
٤. قبّاني، نزار: مجموعة (ثلاثيّة أطفال الحجارة)، بيروت، منشورات نزار قبّاني، ط١، آذار ١٩٨٨.

المراجع

١. الجربي، محمد رمضان: الأدب المقارن، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٩.
٢. جمال الدين، محمد سعيد: الأدب المقارن، دراسة تطبيقيّة في الأدبيّن العربيّ والفارسيّ، القاهرة، دار الاتحاد للطّباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٦.
٣. زلط، أحمد: الأدب المقارن، نشأته وقضاياه واتجاهاته، مصر، هبة النيل العربيّة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.
٤. عوض، إبراهيم: في الأدب المقارن، تعريفه وميادينه، بحث نُشر على موقعه الإلكتروني: WWW.IBRAWA-COCONIA.NET
٥. غنيمي هلال، محمد: الأدب المقارن، مصر، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط٢، ١٩٦٢.

التّعبيريّة في البلاد العربيّة

خولة الطفيلي[1]

مقدّمة

تُعتبر التّعبيريّة Expressionnisme ألمانِيّة المَنشأ في الأصل ثمّ انتَشَرت إلى كافّة البُلدان، وهناك مجموعتان طَبَعتا هذا الاتجاه هما مجموعة الجّسر (Die Brucke) ومجموعة الفارس الأزرق (Der Blaue Reiter)...[2].

واعتبروا أنّ الفنّ هو الوسيلة للتّعبير عن العصبيّات المرَضيّة الفرديّة وهو الضّمير والوعي المتمرّد تجاه المشاكل والأزمات، يُعتَبر الفنّان ادوارد مونخ (Edward Munch) والفنّان فان غوغ (Van Gogh) قد مهّدا لهذا الاتجاه التّعبيري، وذلك من خلال تعابيرهما عن قلق الفنّانين حيال التّحوّلات في القِيَم[3].

أهميّة اللّون في التّعبيريّة

إنّ التّصوير كفنّ يحتاج من المصوّر إلى عمليّات اختبار إبداعي للألوان وإلى قدرة متفوّقة على القيام بتصميمات وتكوين الأشكال، واللّون هو أكثر مظاهر التّصوير أهميّة بل هو جوهر التّصوير وهو كما يذكر راسكن J.Ruskin «مصدر الثّراء في أعظم الأعمال الفنيّة المُبدعة».

والألوان ليست مجرّد إحساسات على شبكة العين، إنّها ترتبط بعمليّات التّفكير والانفعالات وقد أكّد ذلك بول كلي (Paul klee) حين قال «إنّي مصوّر، أنا واللّون واحد»، وكذلك كاندينسكي W.Kandinsky أكّد أنّ الفنّان يجب أن يقوم بتدريب قلبه وليس عينه فقط، بل روحه أيضًا حيثُ تستطيع أن تزن الألوان بمقياسها الخاص

(١) طالبة في المعهد العالي للدكتوراه - الجامعة اللّبنانيّة - / قسم الفنّ وعلوم الفنّ.

(٢) CUMMING, Robert: le spécialiste L'Art, Grand, Paris, 2006, p. 50.

(٣) الصّوفي هند: «الاتجاهات التّصويريّة في العالم الغربي والعربي منذ عصر النّهضة وحتى الألف الثّالث»، الجامعة اللّبنانيّة، لبنان، ٢٠١٦، ص. ١٤٠

ومن ثمّ تصبح عاملاً حاسمًا في الإبداع الفنّي[١].

إنّ الفنّ ضروريّ للجّميع إنّه أقوى صلة بين الشّعوب، وهو واحد من أسرار السّعادة الإنسانيّة التي ترفع الرّوح إلى مرتبة عالية، إلى الكشفِ عن الحقّ، الخير، وأسرار الطّبيعة، إنّ الفنون هي الأساس الصّلب الذي تقوم عليهِ الأُمم والحضَارَات[٢].

أهمّية الشّكل

«وڤان غوغ» يؤكّد على أهمّية الوعي والدّراسة والمُلاحظة العميقة والتّركيز على أن يّكون لدى الفنّان هدف واضح يسعى إليه أيضًا: «إنّني أريد أن أعبّر عن المشاعر الإنسانيّة الصّادقة».. والفنّ لدى «ماتيس» هو تكييف الإحساسات إلى مدركات وتكثيف المدركات إلى أشكال لها دلالاتها وقد ميّز بين النّظام Ordre (أي وضوح الشّكل) وبين التّعبير Expression (أي نقاء الإحساس) وهو يؤكد على «أنّه إذا كان هناك نظام ووضوح في اللّوحة فإنّه يعني منذ البداية وجود هذا النّظام وهذا الوضوح في عقل المصوّر، أو أنّه كان واعيًا بضرورتها الملحّة».

ويظهر جليًّا أنّ البدايات التّشكيليّة في البلاد العربيّة قد تمّت بفعل التثاقف مع الغرب ولم يكن لدى الرّواد من هاجس سوى اللّحاق به ما عدا قلّة منهم حاولت تأصيل الفنّ التّشكيلي العربي بالارتكاز على التّراث المحلّي أمثال: محمود مختار في مصر وجواد سليم في العراق ومحمد راسم في الجزائر وإبراهيم الصّلحي في السّودان وسلوى روضة شقير في لبنان واسماعيل شمّوط في فلسطين.

والتّعبيريّون العرب الذين تميّزوا عن التّعبيريّة "Expressionnisme" ألألمانية وتماهوا فيها أمثال مروان قصّاب وبرهان كركوتلي سوريا وأحمد نعواش في تعبيريّته الطّفوليّة الأردن، إسماعيل الشيخلي وعامر العبيدي وعلي طالب في العراق، الحبيب بيده تونس وبول غيراغوسيان لبنان، ضياء العزّاوي في تعبيريّة السّبعينات العراق، وتيسير بركات فلسطين.

هذا ولم ينشأ فنّ الرّسم والتّصوير من عالم الوحي والإلهام والخيال وبمعزل عن واقع الحياة المادّية فحسب وإنّما في التّعاطي مع العلم وتفاعل الحياة المادّية والرّوحيّة معًا وتآلف الإنسانيّة مع هذا

(١) شاكر عبد الحميد: «العمليّة الإبداعيّة في فنّ التّصوير»، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٧، ص. ص. ١٣ - ١٥.

(٢) Ghossoub, Elsa: L'essor de l'art au liban au XXe sciècle MOUSTAPHA. FAROUKH et OMARONSI révisités, USEK, KASLIK, Liban, 2018, p. 27.

الواقع. فليس من قبيل المصّادفة أن تكون كلّ مكتسبات هذا الفنّ مرتبطة ارتباطًا لا تنفصل عُراه عن الذّهيّنة الموضوعيّة في سبيل خلق فنّ جديد صادق ومشحون بالقوى الإبداعيّة والإلهاميّة والرّوح المتصابية والمتجدّدة والمواكبة لكلّ جديد وطارئ.(١)

وبما أنّ الفنّ التّعبيري ذو مدلول يعكس مفهومًا، بل يعكس إدراكًا خاصًا للعالم لتخطّي الواقع بل وبالتّخلص منه والثّورة عليه مُطالبًا باستقلاليّة الخلق الفنّي عن طريق التّحرّر الفنّي الذي يقوم على تشويه الأشكال وعنف اللّون اللاّواقعي... فالتّعبيريّة تصوّر مشاعر الفنّان الذّاتيّة فهي إذن فرديّة تسعى إلى الإفصاح عن عواطف الفنّان مهما كلّف الأمر محاولاً أن يخلق إدراكًا للواقع أقرب إلى عواطفه وتجاربه الشّخصيّة، وهنا أطرح سؤالاً مفاده؛ هل نملك نحن كعرب تجربة فنّية تشكيليّة قائمة بحدّ ذاتها ودون أن نكون تقليديّين بل ودون أن تكون أعيُنُنا صوب الغرب؟؟؟ وهل استطاع الفنّان العربي أن يصنع فنًّا يمثل هويّته ومنطقته وحضاراته!! وإن استطاع ذلك أين موقعه من المنظومة الفنّيّة العالميّة؟؟ وهل نستطيع أن نقف وجهًا لوجه أمام الغرب ونقدّم لأنفسنا وله (أي الغرب) فنًّا أصيلاً عربيًا منبعه حضاراتنا وثقافاتنا ولغتنا وحاضرنا ومستقبلنا!!!.

فقد بدأ «البحث عن الهويّة في مرحلة الحداثة –عند العرب– التي واكبت منذ مطلع عقد الخمسينات في القرن العشرين مسلسل الثّورات وبدأت معها صراعات المتاريس الثّقافية (السّياسيّة) ومتاريس الأساليب الفنّية (الصّراع ما بين الواقعيّة والتّجريد) بين تلك المنفتحة على التّاريخ والميكانيكيّة الفرديّة للهويّة وبين الفنون المدجّجة بالعالميّة»(٢).

هل كان الفنّانون العرب التّعبيريون مجرّد متأثّرين بالتّعبيريّة الغربيّة! أم كان لهم بصمة خاصّة، والشّرق – والشّرق الأوسط يحفل بالأحداث الدّراميّة التي تستدعي من الفنّ والفنّان حالة تعبيريّة عظيمة.

التّعبيريّة وترجمة الانفعالات

– ما زال مصطلح تعبيريّة من المصطلحات الجماليّة التي تثير جدالاً في الوسط الفنّي والنّقدي، تمامًا كمصطلح «واقعيّة» الذي لا يقلّ إشكاليّة، وقد زادت المسألة تعقيدًا وغموضًا تلك البحوث

(١) سمعان، محمد علي: «العلاقة الجدليّة بين الرياضيّات والفنون التّشكيليّة»، لبنان، ٢٠٠٥، ص. ٣٢٩.
(٢) عزيزة، مهى: «الهويّة الرّاهنة للتّشكيل العربي المعاصر»، دار الأنوار، ط١، لبنان، ٢٠١٢، ص. ٨٩.

التشكيليّة الذّاتيّة التي ينشد أصحابها التّميز في الشّخصيّة الفنّيّة، بعيدًا عن عصر المدارس والقوالب والأُطر الكلاسيكيّة التي سادت مرحلة طويلة، من فجر النّهضة إلى «سيزان» Cezanne مفتاح الفنّ الحديث الذي تشعّبت جماليّته واتجاهاته من بعده. وحين نتحدّث عن التّعبيريّة فلا بُدّ أن نّميّز منذ البداية بين «مدرسة» و«اتجاه» ذلك أنّ «التّعبيريّة» ليست مدرسة قائمة بحدّ ذاتها، لها أُسُسها وقواعدها المدرسيّة وقوانينها الأسلوبيّة كالانطباعيّة والرّومانسيّة، وإنّما هي اتجاه فنّي ذاتيّ يُعنى بانفعالات الفنّان وعواطفه الذّاتيّة بالدّرجة الأولى، وهي بهذا المعنى أيضًا ترجمة انفعاليه لعاطفة ذاتيّه، وقد ارتبطت بمفهوم «الواقع النّفسي» والتّعبير عن تلك الانفعالات بأيّ ثمنٍ، لذلك تمثّلت بداياتها المعاصرة بشكلٍ من أشكال التّحوير والتّشويه لمظاهر الواقع الفيزيائي، الشكل الذي ينشد بالتّحديد المبالغة في تصوير المشكلات وتضخيمها وهكذا واصل الفنانون بالتحوير إلى التشويه وغرقوا فيه لحدود البشاعة المنفّرة ووصلوا بالمأساة إلى أحلك صورها، إلى ما هو فاجع وجنحوا إلى السّوداويّة نتيجة استغراقهم الذّاتي في المآسي الإنسانيّة والتّعبيريّة كتعبير انفعاليّ عن عاطفة ذاتيّة ليست حكرًا على مرحلة مجدّدة في تاريخ الفنّ أو عصرٍ معيّن، لذلك نرى جذورها في مختلف فنون العالم القديم، في رسومات كهوف «التسيلي» والتّاميرا وفي الأقنعة الأفريقيّة ومنحوتات الهنود الحمر كما نراها في الفنون الشّعبيّة العربيّة، وقد تميّزت «التعبيريّة» من مرحلة إلى أخرى ومن واقع إلى آخر بما يتلاءم مع خصوصيّة البيئة ومضامين المرحلة كالتّعبيريّة الألمانيّة والتّعبيريّة المكسيكيّة والتّعبيريّة الكوبيّة، وقد ظلّت التّعبيريّة لفترة طويلة تتّخذ من «التّشويه» وسيلة أساسيّة لترجمة الانفعال إلى إنجاز جمالي، إلى أن جاء «ڤان جوغ» وسلك طريقًا آخر هو طريق اللّون وبذلك حقّق ذاته وانفعالاته، وعواطفه كإنجاز تعبيريّ عبر نبض اللّون وتوهّجه، فاتحًا الطّريق لاتجاه تعبيري يتّخذ من اللّون لا من الشّكل «متنفّسًا لترجمة الانفعالات وتحويلها إلى إنجاز تشكيليّ يقع ضمن نطاق» التّعبيريّة «لذلك اعتبره النُّقّاد الأب الرّوحي للتّعبيريّة الحديثة»[1].

التّعبيريّة عند بعض الفنّانين العرب

وهكذا اتّسعت دائرة التّعبيريّة، فلم تعد حكرًا على الشّكل وما يخضع له هذا الشّكل من عمليّات تحوير وتشويه، بل امتدّت إلى عناصر أُخرى كاللّون والخطّ والحركة

(١) الحياة التّشكيليّة - وزارة الثّقافة - سوريا دمشق عدد «١٣» - ١٩٨٣ - ص. ٧٦.

والبناء، ومع تطوّر الفنون التّشكيليّة في هذا العصر استطاعت التّعبيريّة أن تعقد زواجها مع أساليب مختلفة اتّحدت بها وخرجت معها بولادات متنوّعة، واغنتها بما تحمله من قيم وهكذا تحقّقت «معادلات إبداعيّة جديدة»، «واقعيّة تعبيريّة – تجريديّة – تعبيريّة». ولأنّ البحث ينطلق من الذّاتيّة فقد تشعّبت المصادر والوشائج التي استخدمها الفنّانون التّعبيريّون كمادّة أوليّة للبحث التّشكيلي وللمعالجة الجديدة التي تتلاءم مع الوصول إلى التّعبيريّة، إلى الذّات في مختلف حالاتها، وصورها الدّاخلية وانفعالاتها بأيّ طريقٍ كان[1] وبذلك اتّسعت التّعبيريّة، وامتدّت قنواتها، مصادرها لتشمل تجارب مختلفة في مضامينها وجماليّاتها ومواقفها بما في ذلك أصحاب التّجارب التّراثيّة، ممّا دفعنا أخيرًا إلى الحديث عن «التّعبيريّة» في الوطن العربي، بل عن اتجاهات تعبيريّة أصبح لها حضورها في الحركة التّشكيليّة العربيّة المعاصرة بمختلف تقنيّاتها، بعد أن كانت تجارب فرديّة مبعثرة هنا وهناك.

ولقد أصبحت التّجارب التّعبيريّة المعنيّة بتبسيط وتحوير وتشويه مظاهر الواقع المرئي من أجل النّفاذ ليس إلى الواقع المادّي لكن إلى الواقع النّفسي، تمثّل اتجاهًا من الاتجاهات التّعبيريّة السّائدة في الحركة الفنّية المعاصرة في الوطن العربي، وترجع بدايات هذا الاتجاه إلى مطلع الخمسينات في هذا القرن، حيث تمثّلت المحاولات الأولى في تجارب مجموعة من الفنّانين العرب لعلّ أكثرهم أهميّة هو الفنّان «مروان قصاب باشي» الذي تطوّر ضمن هذا الاتجاه ليصبح رائدًا من روّاده، تجاوزت إبداعاته حدود الوطن لتدخل أعماله مختلف متاحف العالم. وقبل الحديث عن نماذج تمثّل هذا الاتجاه لا بدّ من التّنويه بمسألة تعبيريّة على غاية من الأهمّية، وتكمن في التّحوير كمنطلق يقود إمّا إلى «التّشويه» بمعناه الفنّي أو إلى «البشاعة» وخاصّة ما يتعلّق بصياغة العنصر الإنساني والتّعبير من خلاله عن المضمون الذي ينشده الفنّان، وتبدو هذه الإشكاليّة من أكثر القضايا الفنّية حساسيّةً، فكثيرًا ما نقود المعالجة التّحويريّة التي تمثّل منطلق البحث التّعبيري إلى بشاعة تنفر المتلقّي، منذ الوهلة الأولى وبذلك تنقطع الصّلة بين المتلقّي والأثر الفنّي، وحين حصرنا هذه الإشكاليّة لضرورات نقديّة بين التّشويه والبشاعة فذلك لقناعتنا أنّ «التّشويه» مسألة فنّية ليست خارج جماليّة العمل الفنّي، ومع ذلك فثمّة حدود للتّشويه داخل العمل الفنّي،

(١) LEMOINE, Serge: L'art moderne et contemporain, Larouse, Paris, 2010, p. 50.

الذي يبقى تلك الوسيلة الجماليّة للتّعبير عن مختلف المضامين وأكثرها مأساويّة فجماليّة العمل الفنّي تختلف كثيرًا عن جماليّة الواقع، وحين نناقش هذه المسألة لا نعني جماليّة الواقع بالمعايير السّائدة في عصرنا، وإنّما نعني بالتّحديد «جماليّة العمل الفنّي» ومن هذا المُنطلق نتّفق مع كانط في قوله إنّ: «الفنّ هو تمثيل لشيء ما وليس تمثيلاً للأشياء الجميلة» وهذا التّمثيل يشمل بلا شكّ الأشياء التي يراها النّاس قبيحة في الواقع، إذًا لا بدّ من جماليّة فنّية، وكم هي خالدة تلك المقولة التي أوجزت المشكلة بكلماتٍ معدودة «يبقى الفنّ ذلك الأسر الجمالي الممتع حتى ونحن نشهد عملاً مأساويًا، وقد ظلّ الفنّان مروان قصّاب باشي واعيًا هذه الإشكاليّة، متميّزًا في جماليّة تعبيريّة رغم اعتماده «التّشويه» في صياغة عناصر الإنسانيّة «شخوص – وجوه» – وإذا كانت جماليّة اللّون في مائيّاته وزيتيّاته تلعب دورًا بارزًا في ذلك الأسر الممتع الذي يقودنا دائمًا إلى انفعال خلّاق، إلى رعش بالإنسان والأرض والوطن...

ومن التّجارب الرّائدة في هذا الاتجاه التّعبيري نذكر تجربة الفنّان «بول غيراغوسيان» الذي «استطاع أيضًا أن يربط ما هو ذاتي بما هو عام، منطلقًا من طفولته وذكرياته الدّفيئة في أعماقه، مع التّأكيد على العناصر الشّعبيّة بمختلف جماليّاتها الفولكوريّة وبشكلٍ خاصّ المرأة وموضوعات الأمومة والطّفولة المختزنة في داخله وكغيره من أصحاب هذا الاتجاه عمل على تبسيط الأشكال والعناصر العضويّة تبسيطًا يعتمد الانفعال كأساس للمعالجة»[1].

«التبسيط والتّحوير بلا انفعال لا يقودان إلى التّعبيريّة»، لذلك سكنت أشكاله الجديدة أكثر من «قالب تصويري بنائيّ» فتارةً نراه يحافظ على جوهر التّصميم المثالي في آنٍ واحد وتلك مسألة ترتبط بالتّأكيد بدفق الانفعال في لحظات الإنجاز، ولعلّ تتبّع مسار ضربات فرشاته العريضة على السّطح والتي تفرش اللّون بكثير من التوتّر وعبر كلّ الاتجاهات إنّما تدفعنا إلى استشفاف تبدّل الانفعال وحرارته الذّاتيّة، لذلك يصعب أن نّجد مضمونًا إنسانيًا محدّدًا يُشكّل هاجسًا تعبيريًّا

فالفنّان أخيرًا يتعامل مع مختلف المضامين والتي تتبدّل بتبديل الانفعال ودرجة حرارته. وتتميّز تجربة «فائق

(١) NOUR, Salamé Abillama: Art from Lebanon - Modern and contemporary Artists 1880 - 1975, Wonderfuleditions, Beirut, Lebanon, 2012, p. 171.

حسن» عن غيرها من التّجارب التّعبيريّة المعنيّة بالتّشويه في تنوّع مصادرها ومعالجتها فقد سكب انفعالاته بكل متناقضاتها في شخوصه «رجال – نساء – أطفال» وعناصره الحيوانيّة المستمدّة من الحياة الشّعبيّة الرّيفيّة، والتي تعكس جملة مضامين فيها من الذّات بقدر مافيها من الواقع بجماليّاته وأحزانه وأفراحه. ترك تأثيره على عددٍ من طلّابه أمثال اسماعيل الشيخلي، وهو رغم أنّه درس الفنّ في باريس وتأثّر بالفنّ الحديث، إلاّ أنّه تميّز ببناء لوحاته بمواضيع شعبيّة تنتمي إلى التّقاليد الموروثة بشكلٍ تعبيري يقول: لا أستطيع أن أقول إنّ أسلوبي مرّ بعدّة مراحل، فمن الأكاديميّة التي ارتكزت عليها في فرنسا إلى رجوعي العراق ولّد لأسلوبي مناخًا دافئًا من ضياء الشّوق إلى ألوان البدو الدّافئة...[1]

ومن التّجارب الرائدة والمتميّزة ضمن هذا الاتجاه تطالعنا تجربة الفنّان «صلاح طاهر» الذي وصل في معالجته الانفعاليّة الذّاتيّة إلى صيغة تعبيريّة متميّزة وذلك عبر موضوع المرأة الشعبيّة الّذي طرحه في عشرات الأعمال التي تشكّل وحدة متكاملة لا يمكن الحديث عنها إلا مجتمعة.

وصلاح طاهر تصدّر الحركة الفنّية الحديثة في مصر منذ فجر السّتينات بعد أن تحوّل إلى اللاّتشخيصيّة والتّعبير الكامل للتّجريد بالألوان والخطوط في تمكّن تكنيكي لا يُضاهى ومهارة في الأداء أثارت الإعجاب بجاذبيتها وقوّة تأثيرها واجتذبت انتباه واهتمام المتابعين والصّحفيين ومختلف أجهزة الإعلام فقد دخل عالم التّجريد من باب الموسيقى التي ملكت عليه لبّه منذ الصّغر واستطاع أن يعزف بالألوان والخطوط والملامس على أوتار الرّوح ويهزّ مشاعر الذّواقة من فرط النّشوة والمتعة العقليّة.[2]

وصلاح طاهر يعطي أشكاله طابعًا تصويريًّا فيه الكثير من قِيَم النّحت وجماليّته، ولعلّ المسألة التّعبيريّة التي ينفرد فيها «صلاح طاهر» في هذه المجموعة تكمن في تأكيده على الدّفقة التّعبيريّة الواحدة، فكل لوحة من لوحاته تمثّل انفعالاً لا يتكرّر في اللّوحة الأخرى، لذلك يحسّ المتلقّي بأنّ اللّوحة الواحدة هي نتاج شحنة تعبيريّة تتوزّع على كامل مساحات اللّوحة وعناصرها الإنسانيّة وهي قضيّة معنيّة بالرّؤية للعالم فمثل هذا التعامل يشير في النّتيجة إلى رؤية طفل،

(١) البهنسي، عفيف: «روّاد الفن الحديث في البلاد العربيّة» دار الرّائد العربي، لبنان، ص. ١٢٩.
(٢) شال، محمد: «التّذوّق الفنّيّ»، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر؛ ١٩٦٤، ص. ١٥٨.

وهنا تكمن أزمة الانفعال غير المشذّب، إلاّ أنّ الانفعال لا يقود دائمًا إلى الدّاخل، إلى الإستغراق بالذّات وذلك حين تكون قضيّته لفنان هاجسًا جماعيًّا. وهذا ما تكشفه تجربة متميّزة للفنّان «شفيق رضوان» الذي استمدّ موضوعاته من الثّورة الفلسطينيّة، وقام بتحوير العناصر الإنسانيّة ليكشف عمّا هو خارق من فعل ثوري، لذلك وجدنا في المبالغة في تصوير

محتوى المقاتل تعبيرًا عن مجموعة، عن قضيّة، عن ثورة شعب وقد استطاع أن يوظف القيم التّحويريّة للشكل «المبالغة في تصوير الإنسان» بما يتلاءم مع المضامين التي طرحها، كما أراد أن يصل بالتّحوير إلى عمليّة ربط وتلاحم وتوحّد وذلك حين دمج العناصر بعضها ببعض للدّلالة على التّحامها بقضيتها ثم ربطها بالأرض ليرمز بذلك إلى توحّدها بالوطن...[1]

وتمثّل تجربة الفنّان غياث الأخرس الذي يعتبر الرّائد الحقيقي لفنّ الحفر – الغرافيك في سوريا، وكانت له مساهمات جادّة في تطوير فنّ الحفر والطّباعة في كلّية الفنون الجميلة في دمشق... فالفنّان «الأخرس» يرى أنّ التّراث والمعاصرة هما فكر قومي جغرافي، أعطيت لهما القيمة من قبل عامل الزّمان في المكان، وأنّ الرّؤية الحياتيّة تشكّل الأساس المتين لتكوين العمل الفنّي. وهي بالتّالي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتّسجيل (الفوتوغرافي) للعين المجرّدة، بيد أنّ الصّورة المسجّلة لمكان محدّد بعيدة كلّ البعد عن أن تكون لوحة فنّية، إذ لا يمكن أن نُسمّي عمليّة إعادة إنتاج المكان وثائقيًا عملاً فنّيًا، إذ لا بُدّ لهذا المكان أن يضاف إليه إحساس الفنّان الذّاتي الذي تشكّل من مداركه وثقافته والذي ينعكس في موقفه الأخلاقي، أو السّياسي، كانتماء حسّي حضاري له شكل المعاصرة.

واعتمد الأخرس عدّة سبل للوصول إلى التّعبيريّة وتعكُس أكثر من قضيّة، فقد أمضى سنوات عديدة معتمدًا «التّشويه الجميل» في معالجة عناصره الإنسانيّة التي استمدّها من حياة النّاس في الرّيف. ومن الأحداث التي شهِدتها السّاحة العربية في السّتينات وخاصّة نكسة حزيران، ففي التّجربة الأولى التي تمثّل الموضوع الاجتماعي الرّيفي يربط تعبيريّته بشيء من الشّاعرية لتحقيق المعادلة الجميلة «جماليّة الأرض والإنسان» والتّغني بذلك الواقع عبر الانفعالات والعواطف الذّاتيّة التي اتّخذت من التّعبيريّة متنفسًا كما هي كل التّجارب الذّاتيّة... "وانفعالاته ضمن هذا المنحى تحققت كترجمة إبداعيّة جمالية بعيدًا عن

(١) الحياة التّشكيليّة، مرجع سابق، ص. ٧٩.

مشكلات الرّيف ومعاناة الإنسان وآلامه وصراعه مع الطّبيعة إلاّ حين عالج الموضوع القومي، وبشكل خاص آثار القصف الهمجي الإسرائيلي الذي جلب الموت للأطفال والنّساء والشّيوخ فتنوّعت معالجاته التّعبيريّة بتنوّع موضوعاته ومواقفه»[1].

والتّعبيرية التّجريديّة أصبحت تشكّل اتجاها من الاتجاهات التّعبيريّة المطروحة في السّاحة التّشكيليّة العربيّة المعاصرة فإنّنا نرى في تجارب أصحاب هذا الاتجاه سمات وخصائص ومشكلات مشتركة، وتبدو مشكلة التّوصيل والإتّصال

بالنّاس على اختلاف المضامين والمواقف التي طرحتها التجارب التّعبيريّة التّجريديّة «موقف جمالي – موقف اجتماعي – موقف سياسي» من أكثر قضايا هذا الاتجاه إشكاليّة. ذلك إنّ صيغة التّعبير تَأخذ في كثير من الحالات شكلاً جماليًّا انفعاليًا مجرّدًا، رغم محاولات البعض ربط هذا الشّكل بفكرة واقعيّة ورغم الوظائف التعبيرية للألوان والمساحات والبقع والعناصر الهندسيّة والعضويّة، ولا شكّ في أنّ الانفعال الذي يسكُن مساحة لونيّة تجريديّة يعطي لهذه المساحة قيمة إنسانيّة، وبالتّالي فإنّ مجموعة العناصر المجرّدة التي تشكّل العمل الفنّي تكشف عبر القيم الانفعالية الذّاتية عن حالة، أو مجموعة حالات إنسانيّة لها ما يعادلها في الذّات والواقع، فقد تشير هذه الحالات إلى مجموعة حالات إنسانيّة لها ما يُعادلها في الذّات والواقع، فقد تشير هذه الحالات إلى صراع ما يبدو غامضًا لأنّه ينضح من الذّات أو تكشف عن لحظة ألم أو حزن أو فرح، لكن تبقى غامضة يصعب إيصالها إلى الناس وربطها بواقعهم، ومن المؤكّد أنّ الانفعالات التي أعطاها الفنّانون شكلاً تجريديًّا قد أغنت التّجريديّة حين حرّرتها من قيود التّزيين ونقلتها إلى التّعبير ويمكن الحديث عن نماذج متنوّعة ضمن هذا الاتجاه الذي ما زال بعيدًا عن النّاس لأسباب تتعلّق – بالتّأكيد – بالفنّان وقدرته على شحن المتلقي، كما شحن ما هو تجريدي بشحناته التّعبيريّة محقّقًا للجماليّة التعبير الإنساني.

ومن يلتقي بأعمال فؤاد كامل مرّة يستطيع أن يميّزها بعد ذلك لما تتّصف به رؤاه الفنّية من تفرّد وطابع خاصّ، إنّ في تصاوير هذا الفنّان إحساسًا قلِقًا بلا حدوديّة العالم، وتجاوزه لكلّ المقاييس، بضخامة التّركيب الكوني وبضآلة الوجود الفردي إلى جانبه.... ولقد تمسّكَ فؤاد كامل

(١) عزيزة، مهى: «روّاد من الوطن العربي»، محاضرة ألقيت في الجامعة اللّبنانيّة – كليّة الفنون الفرع الأوّل، ٢٠١١.

على الدّوام بأن يعبر فنّه عن موقف فكري قبل كلّ شيء، وهو موقف فكري سار إليه منذ طلائع حياته الفنّية، موقف فكري فيه نموّ وامتداد وليسَ فيه تخبّط وتهافُت[1].

وتجربة الفنّان فؤاد كامل أخذت مداها التّعبيري كشخصيّة مميّزة في السّتينيات أي في المدّ التّجريدي العربي على إختلاف مصادره «الأوروبيّة» و«التّراثية» ويمكن أن نحدّد ملامح التّجربة التي وصل إليها فؤاد كامل في معالجته التّعبيرية التّجريدية، بإنطلاقه من الذّات في أقصى حالاتها الانفعاليّة وقدرته على تحقيق شدّة الانفعال وترجمته بحرارة. فهو لم يستخدم البناء الهندسي ولا العناصر والمساحات الهندسيّة التي تحتاج إلى وقفة واعية عقلانيّة لكنّه سلكَ طريق البقيّعة اللّونيّة بامتدادها العفوي، وغير المقصود بدقّة فالتّحكم في تكوين البقعة ضمن هذه المعالجة يكون نسبيًا، واستخدم العجينة اللّونيّة إستخدامات جماليّة تعبيريّة متنوّعة من أقصى الشّفافيّة إلى أقصى الدّسامة والتي تعطي ملمسًا خشنًا ليصل الفنّان إلى بناء حالة خارج حدود الموضوع والمكان والزّمان.

ولعلّنا نجد في تجربة الفنّان «أحمد عبد العال» الذي يسير ضمن هذا الاتجاه التّعبيري التّجريدي والذي انتقل من «التّشويه» إلى التّجريد في تعبيريّته ما هو خارج نطاق الذّات وبصورة أدقّ خارج نطاق الانفعالات الذاتيّة، فالفنّ في النتيجة تعبير ذاتي وانفعال الفنّان مع مجتمعه ومع السّياسة ومع القوميّة.

وأحمد عبدالعال قد بنى كل تجربته على فكرة التّوحيد (شهادة لا إلَه إلاّ الله محمّد رسول الله) واستفادَ من الحضارة العربيّة الإسلاميّة وجمالياتها بوصفها حضارة توحيديّة كونية، لذلك قام بالدّعوى لتأسيس جمالي جديد يستفيد من الإمكانيّات الجماليّة والفكرة للحضارة الإسلاميّة وتجربتها التاريخيّة فقام بتأسيس مدرسة البعد الواحد التّشكيليّة.

ولم تقف الاتجاهات التّعبيرية للفنّ في الوطن العربي عند حدود المزاوجة مع المدارس الفنّية وتحطيمها وتجريدها من قواعدها وقوالبها البنائية والتّصويرية في سبيل إخضاعها للانفعال على اختلاف مصادره، لكنّها تجاوزت ذلك لتوسّع دائرتها التي كانت تدور بين الذّات والواقع، ولتصبح ضمن الذّات والواقع والتّراث. وتُغني التُّراث بقنواته المتنوّعة «المتحفيّة» و«الفلكلوريّة» بما في ذلك أقدم الحضارات الإنسانيّة فقد أوغل البعض في البحث عن

(١) عطيّة، نعيم: «العين العاشقة»، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٦، ص. ٥٥.

القديم والانفعال به كما فعل الفنّان التّعبيري فؤاد أبو سعدة حين سافر إلى شمال أفريقيا وشهِدَ رسومات إنسان الكهوف في «التسيلي»[١].

وتبدو لنا تجارب رفيق شرف وبرهان كركوتلي وعبد الحيّ مسلم منسجم بعضها مع بعض من حيث المصدر التّراثي الفولكلوري، "فتناول رفيق شرف الرّسومات الشّعبيّة التي تدور موضوعاتها حول السّيرة الذاتيّة للشّخصيات الأسطوريّة الشّعبيّة مثل عنترة بن شدّاد وحمّل الرّسم الشّعبي مضامين جديدة معاصرة ضمن إطار الشّخصية البطوليّة الأسطورة كان يقدم انفعالاته التّعييريّة ليستحضِر ذاك البطل العربي وليستنهض فينا العروبة والقوميّة[٢].

وتجربة الفنان برهان كركوتلي فتعتبر من التّجارب الهامّة التي ربطت «التّعبيريّة بالتّراث عبر المصدر الفولكلوري» «شخوص – أزياء شعبيّة – زخارف – كتابات – حكايا – أساطير» وهو الذي مارس التّعبيريّة عبر اتجاه تحوير مظاهر الواقع إلى الاتجاه الحالي المرتبط بالفولكلور الشّعبي. أمّا الفنان عبدالحيّ مسلم فقد تجاوز في جداريّاته النّحتيّة «تقنيّة خاصّة» والانفعال الذي حقّقه رفيق شرف في الرّسم الشّعبي و«برهان كركوتلي» في الفولكلور الشّعبي واعتماده على انفعالاته مع إنفتاح الذّات على قضيّة، بحيثُ نرى في قضيّته كمناضل وفنان فلسطيني – قضيّتنا جميعًا – ورغم استمرار الفواجع على الشّعب الفلسطيني ورغم حجم المجازر ومسيرة الآلام الطّويلة للشّعب الفلسطيني المناضل لم يستغرق «عبد الحيّ» فيما هو مأساوي وفاجع بل حقّق انتصاره على المأساة في العمل الفنّي بما في ذلك أكثر موضوعاته مأساويّة كمجازر «صبرا وشاتيلا» ودمار بيروت والشّيء المميّز في هذه التّجربة التّعبيريّة التي زاوجت بين جماليّات الفولكلور الشّعبي الفلسطيني والعناصر المعاصرة المستقلّة من الثّورة الفلسطينيّة يكمن في دافع التّعبير المتمثّل بالأحداث، وبالحدث الواقعي وفي بعض الحالات يعيش الحدث كما في حصار بيروت، وينفعل ثانية خلال الإنجاز صياغة الحدث صياغة تعبيريّة انفعاليّة متميّزة.

وهناك مجموعة من التّجارب التّعبيريّة التي عملت على إغناء تعبيريّتها باستخدام العناصر التّراثية استخدامًا يتلاءم مع المنطلقات التعبيريّة الذّاتيّة، وقد استطاع البعض أن يقدّم عبر هذا الاستخدام

(١) الحياة التّشكيليّة، مصدر سابق، ص. ٨٣.

(٢) NOUR, Salamé Abillama: Art from Lebanon - op. cit., 2012, p.p. 275 - 283.

مضمونًا إنسانيًا اجتماعيا وقوميًا كما في تجارب ضياء العزاوي ومحمد شبعة وكمال بلاطة... وغيرهم "في حين كان آخرين ذو رؤية مثالية تجربة شاكر حسن على سبيل المثال. ونرى وجيه نحلة قد "استخدم الخطّ العربي من جانبين تطبيقي وتزييني والجانب الثّاني انفعالي ذاتي، وتعامل معه (الخط) من الزخرف إلى التعبير[١] وشاكر حسن أعطى تعبيريته المستمدّة من العناصر التّراثيّة (الخط العربي) بُعدًا مثاليًا مع ارتباط ماديّ واقعيّ، وثمّة إضاءات ضمن هذا الاتجاه تتمثّل في تجربة «محمد شبعة» الفنّان الذي حقّق حالة صراع لعناصره التّراثيّة ومساحاته الهندسيّة التّعبيرية التي تنقُلُنا عبر ما هو تعبيري ورمزي إلى ما يعادلها من حالات إنسانيّة ومضامين وأفكار واقعيّة من منظور اجتماعي وقومي وإنساني وحضاري وهذا البعد الأخير «الحضاري» يتمثل في بعض اللّوحات التي تصوّر الصّراع العربي – الصّهيوني عبر استخدام الكتابات والزخارف التي تقف في مواجهة العناصر الدّاخيلة لتنتصر عليها وهكذا يوظّف محمد شبعة ضمن اتجاهه التعبيري ما هو تراثي لخدمة واقع عربي معاصر.

لا شكّ أنّ هناك تباين في الاتجاهات التّعبيريّة للفنّ في الوطن العربي والتي انغلقت على نفسها في بعض التّجارب التي دارت حول الذّات، وتسامت لتعبّر عن واقعنا في تجارب أصيلة هي بلا شكّ نتاج موقف متطوّر من الواقع.

من الصّعب في هذه العجالة أن نّذكر أغلب التّعبيريّين العرب لكنّي ذكرت بعضًا منهم على سبيل المثال لا الحصر، وهذا لا يعني أني أنحاز لأحد دون آخر وإن كنت أجلّ وأحترم فنّانين تعبيريين في بلاد المواجهة مع الكيان الصّهيوني.

خاتمة

إنّنا لسنا في حاجة إلى أن نّؤكّد مرّة أُخرى على أنّ الإبداع كان وسيظلّ دائمًا محاولة للتّجاوز والعبور، محاولة لتجاوز الذّات أثناء فعل الإبداع نفسه من أجل وضع أفضل يكون أكثر قدرة على تحقيقها، ومحاولة لعبور مظاهر النّقص والقصور في العمل أو في الظّاهرة التي يتعلّق بها العمل واقعيّة كانت أو تصوريّة ذهنيّة أو فنيّة تكنيكيّة ثمّ هو أيضًا بالإضافة إلى ذلك محاولة لتجاوز الآخرين السّابقين الذين قاموا بأدوارهم وتركوا ثغرات في أعمالهم يجب أن تكتمل، فخلال العمليّة التطويريّة الإبداعيّة الواعية التي مرّ بها المتميّزون من

(١) Ibid. p. 372.

المصوّرين، كان الفنان المُبدع كما يقول «بول كلي» يستكشف الأشكال المنتهية التي تصنعها الطّبيعة أمامه ويفحصها بعينيه ويقول لنفسه هذا العالم في شكله الحالي ليس هو العالم الوحيد الممكن وكلّما كانت نظرته أعمق ورؤيته أنفذ كانت قدرته على الإمتداد بتصوّراته من الحاضر إلى الماضي ثمّ إلى المستقبل أكثر سرعة وتأثيرًا.

هذه القدرة المميّزة للمبدعين على الحساسيّة للمشكلات ونفاذ الرّؤية والإمتداد بالتّصوّرات إلى أقصى ما يمكن للخيال أن يمتد إليه هي ما يميّز المبدع أثناء كل عمليّة إبداع متميّزة وأصيلة، وهي ما ميّزت أيضًا عمليّة الإبداع الكلّيّة الّتي مرّ بها فنّ التّصوير في تاريخه وخلال مراحل تطوّره المختلفة، بدءًا من الحاجز أو العقبة المتحدّية الّتي وُضِعَت أمامه حين اختُرِعت آلة التّصوير الفوتوغرافي ومرورًا بعديد من الحواجز والتّحدّيات الّتي كان المبدعون في هذا الفن يحاولون دائمًا التغلّب عليها ومن خلال ما يُشبه ما سُمّيَ بالتّحدّي والإستجابة الّتي لا بُدّ من أن تكون إبداعيّة وأيضًا من خلال ما سمّاه «فرناند ليجيه» برد الفعل، ورد الفعل الحسّاس المضاد، وما سمّاه «أرنهيم» بالاتجاه الكشفي وما سمّاه «جو ميرتيش» بالإكتشاف البصري وما سمّاه «هربرت ريد» بالنّشاط التفسيري لعمليّة الإدراك، وكل هذه التّسميات يمكن أن تندرج بطريقة أو بأخرى تحت إسم أو مصطلح عمليّة الإبداع. وبات الفن تجسيدًا عفويًّا للمعاناة، أو تجسيدًا للحركة أو الفعل، واللّون لم يعُد بالضّرورة مطابقًا لمظاهر الأشياء كما تراها العين بل اكتسب قيمًا ذاتيّة تُسهم في إعادة بنائها وصوغها من جديد، والتأليف تحرّر هو أيضًا من قوانين الأشياء المادّيّة واشكالها الهندسيّة وتحوّل إلى أنموذج يعبّر إضافة إلى اللّون عن بُنية فعل وعن إرادة خلق وهذا يعني أن العمل الفني اكتسب قيمًا ذاتيّة، أسلوبًا ومنهجًا بعد أن أصبح بحدّ ذاته هدفًا بل موضوع لا تقاس قيمته بالنسبة إلى ما يمثّله فتخطّى أنموذج عصر النّهضة ليقدّم لنا نماذج جديدة، تعبّر بدورها عن إدراك الفنّان للعالم وعن مقدرته على إعادة صياغته أو تعديله وتفسيره.

صحيح أنّ الغزو الثّقافي الغربي عمل على تطبيع الوعي العربي ومعلوماته فالحرب الّتي شنّت على الثّقافة العربيّة ليست فقط سياسيّة، ومعلوم أيضًا أن مشروع الثّقافة العربيّة بالإجمال أُهمل لأنّ الوطن العربي كان مسرحًا لحروب متواصلة ولا تزال، ولكن حين تستدير الذّات العربيّة الفنّيّة على حضورها لا بدّ لها أن تدرك أنّ ذاكرتها من فنونها ليست رَطِبة وأنّ المؤسّسة الفنّيّة العربيّة مبتورة الإمكانات منذ بداية القرن الماضي ولم

تتطوّر كآليات إداريّة تقوم على تنظيم الإمكانات، كما لم يَعُد سِرًّا هذا الانحطاط في الممارسات السّياسيّة العربيّة الّتي تمكّنت من جعل تراثها مرادفًا لديها وبالتالي ازداد تمسُّك من صدّقها بوحدة الشّخصيّة القوميّة العربيّة ومن لم يصدّقها ازداد رغبةً باللّحاق بركب العولمة، لذا وجب على الذّات الفنّيّة العربيّة في ضوء إعادة هيكليّة هدفها المعْرفي العربي للتّحرّر من التّبعيّة الغربيّة. «بدأ هاجس الهويّة في الفنّ العربي المعاصر يتبلور كمشروع ثقافي، لنظريّة إيديولوجيّة ترى إلى خصوصيّة الإبداع من وجهة تفاعل مع أحداث المجتمع والانتماء الوجودي إلى الإنسان والأرض والقضيّة العربيّة...»[1].

إذًا علينا أن نستخدم دلالات مختارة من جذور بلادنا العربيّة وحضاراتنا للتأكيد على الانتماء وعلى الهويّة، بالعودة إلى الأيقونة وإلى الخط العربي والزخرفة والتّبسيط والفريسك والمنمنمات والإستقاء من الحضارات القديمة الّتي هي لنا ومن أصلنا وتثبيت خصائص طبيعتنا وشمسنا وأرضنا الّتي تعكس جماليّات شرقيّة.

رغم كل ما قلناه، فلا بدّ من الإعتراف أنّ اللّوحة العربيّة قد حقّقت رؤى جماليّة ذات علاقة وطيدة ببنية التّشكيل، وخصائصه التّعبيريّة وفضائه التّخييلي على يد العديد من الفنّانين العرب، وهم نخبة صاغت مداميكه الحداثية الّتي نراها اليوم، وكان حريًّا بهذه النّخبة لو أنّها رافقت ذلك ببيانات تنظيريّة وجماليّة توازي الفعل الإبداعي وتمهّد له، كي تضيء فضاء التّجربة الجماليّة العربيّة، وتوسّع خطاب التّشكيل ومساحة تلقّيه، لكن هذا لم يحدث إلاّ في أضيق الحدود، وتبرز أمام الفنّان العربي المعاصر أسئلة كثيرة تتعلّق بكيفيّة تناول التراث، وكيفيّة انتقاؤه، ومشروعيّة هذا الانتقاء، أين تتوفّر شروط حسن النيّة في ذلك؟ ومتى تنتفي هذه الشّروط؟ وما مشروعيّة تغريب التّراث أو النّظر إليه بطريقة غريبة عنه؟ وما مشروعيّة الجدل في هذه التّساؤلات؟ وهنا لا بدّ من عدم التّسرّع في الإجابة ويتحتّم علينا التّأنّي في هذا التناول، وصولاً لفن قادر على الايصال والتّواصل، في عالم متغيّر تجاوز حداثته إلى حداثة متجدّدة، وليس أمام الفنّان العربي إلاّ أن يتجاوز ذاته متفاعلاً مع القديم والجديد، محتفظًا بحق الاختلاف مع الماضي ومع الآخر.

(١) عزيزة، مهى: «الهويّة الرّاهنة للتّشكيل العربي المعاصر»، مرجع سابق، ص. ٣٥.

تأثير عجز الكهرباء على القطاعات الرئيسية والدين العام في لبنان

أ. مازن محمد نديم جبري

مقدمة:

بالرغم من اعتماد لبنان نظام الاقتصاد الحر، وبالرغم من تمركز النشاط الاقتصادي في العاصمة بيروت وعواصم المناطق اللبنانية الأخرى، وتعاظم الديمغرافية السورية في لبنان، إلا أن عجز مؤسسة كهرباء لبنان ليس وليد اللحظة، بل نتج عن تراكم سنوات من الهدر والفساد وسوء الإدارة.

عرف لبنان الطاقة الكهربائية من خلال القطاع الخاص سنة ١٩٢٥، في العام ١٩٤٤ أصبحت الطاقة الكهربائية تحت سلطة الدولة لا سيما التوزيع والاستثمار، ١٩٦٤ أنشئت مؤسسة كهرباء لبنان وقد منحت امتيازات لإدارة القطاع في بعض المناطق، منها كهرباء زحلة، كهرباء قاديشا، كهرباء عاليه.

كما تملك مؤسسة كهرباء لبنان ثلاثة معامل إنتاج على الطاقة المائية. وهي معمل الليطاني، معامل شركة نهر البارد، معامل نبع الصفا.

مشكلة البحث:

واجهت مؤسسة كهرباء لبنان العديد من المشاكل أبرزها:

- الاستدانة التي تُنمي الدين العام.
- الهدر الذي يكلّف الدولة مبالغ طائلة لأن الدولة تتحمل تكاليف عجز مؤسسة كهرباء لبنان، كونها قطاعًا عامًا.
- تدني مستوى الإنتاجية في مؤسسة كهرباء لبنان.

هدف البحث ومنهجيته:

يهدف البحث إلى دراسة وتقييم وضع مؤسسة كهرباء لبنان المالي ومدى تأثير ذلك على القطاعات الرئيسية ومدى العبء الذي تلقيه على مالية الدولة.

تساؤلات البحث:

سوف نطرح عدة تساؤلات ونحاول في

نهاية البحث الإجابة عليها في ضوء التحليلات الاقتصادية:

- هل عجز مؤسسة كهرباء لبنان سيؤثر سلبًا على القطاعات الرئيسية في لبنان؟
- هل عجز مؤسسة كهرباء لبنان سيؤدي إلى زيادة مطردة في الدين العام؟
- ما هي أسباب فشل مؤسسة كهرباء لبنان؟
- هل الخصخصة تنقذ مؤسسة كهرباء لبنان؟
- ولتحقيق أهداف البحث سوف نتناول الموضوعات التالية:

أولاً: أثر عجز الكهرباء على قطاع الزراعة والصناعة والخدمات.

ثانيًا: أثر عجز الكهرباء على الدين العام.

ثالثًا: معالجة أسباب فشل مؤسسة كهرباء لبنان.

رابعًا: تأثير سياسة الخصخصة على مؤسسة كهرباء لبنان.

خامسًا: الاستنتاجات والتوصيات.

سادسًا: المراجع.

أولًا: أثر عجز الكهرباء على قطاع الزراعة والصناعة والخدمات

● **الصناعة:** إن عدم توافر الكهرباء بشكل دائم ينعكس سلبًا على القطاع الصناعي اللبناني، ويقدر البنك الدولي الخسائر السنوية للصناعة اللبنانية بسبب انقطاع التيار الكهربائي بـ ٤٠٠ مليون دولار بسبب ارتفاع كلفة الطاقة عن طريق المولدات، وبالتالي ترتفع كلفة الإنتاج للسلع الصناعية فتنخفض قدرتها التنافسية في الداخل والخارج مما أدى إلى عجز في الميزان التجاري الصناعي اللبناني.

● **الزراعة:** إن تراجع القطاع الزراعي اللبناني مردّه إلى الأزمة السورية التي أدت إلى كساد بعض السلع الزراعية اللبنانية، بالإضافة إلى انقطاع التيار الكهربائي، وبالتالي اعتماد المزارع على المحروقات لتوليد الطاقة الكهربائية التي تشكل ٦٠٪ إلى ٧٠٪ من كلفة الانتاج الزراعي، فارتفعت كلفة إنتاج السلع الزراعية وبالتالي ارتفع سعرها فانخفضت قدرتها التنافسية في الداخل والخارج مما أدى إلى عجز في الميزان التجاري الزراعي اللبناني.

● **الخدمات:** يشكل االقطاع السياحي العمود الفقري لقطاع الخدمات في لبنان، الذي يعتبر زئبقي التأثر جراء انقطاع التيار

الكهربائي، مما يؤدي إلى عدم قدوم المغتربين اللبنانيين والسياح العرب والأجانب.

إن مؤسسات السياحة لا سيما الفنادق والمطاعم تدفع فاتورة الكهرباء الأولى لمؤسسة كهرباء لبنان والثانية لأصحاب المولدات الخاصة، وينعكس انقطاع التيار الكهربائي على تراجع جودة بعض المنتوجات الغذائية أو المثلجة مما ينعكس سوءًا في التخزين وتراكم الخسائر وحالات التسمم.

ثانيًا: أثر عجز الكهرباء على الدين العام

إن النسبة المرتفعة من الهدر للطاقة في لبنان يكلف الدولة مبالغ طائلة، وبالتالي فهي دفعت أكثر من ٢٠ مليار دولار خسائر منذ العام ١٩٩٣ حتى نهاية العام ٢٠١٢، وقد بلغت قيمة ما دفعته الدولة ثمن للمحروقات وضرائب واستئجار بواخر وخدمة دين لصالح مؤسسة كهرباء لبنان في العام (٢٠١٢) ٣٤٠٨ مليار ل.ل، أي ما يوازي ٥،٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي وتشكل هذه النسبة إرهاقًا كبيرًا للاقتصاد الوطني وعبئًا على الدين العام.

ثالثًا: أسباب فشل مؤسسة كهرباء لبنان

أهم هذه الأسباب: السرقات على الشبكة والهدر وتدني الإنتاجية، فمنذ العام ٢٠٠٠ بلغت نسبة السرقات على الشبكة ٢٩٪ وبلغ الهدر الفني ١٥٪ أي أن نسبة مجمل الهدر كان حوالي ٤٠٪ ثم ارتفعت إلى ٤٢٪ فيما بعد. فالسلطة السياسية لا تبذل جهدًا لتحسين هذه المؤسسة، فالعاملون والموظفون حاليًا ما يعادل ٢٠٠٠ عامل وموظف، مقابل ملاك يتطلب ٥٠٢٠ عاملاً وموظفًا وارتفع معدل أعمار العاملين في المؤسسة إلى ٥٧ سنة. وبالتالي ما دفع المؤسسة إلى التعاقد مع متعهدين عند الطلب الذي يبلغ عددهم حوالي ١٨٠٠ مياوم.

ومن الأسباب التي تقف عائقًا أمام تحسين مؤسسة كهرباء لبنان، عدم دفع كامل مستحقات الإدارات والمؤسسات العامة والبلديات والمخيمات الفلسطينية التي تبلغ حوالي ١٥٠ مليار ليرة سنويًا للمؤسسة، وامتناع العديد من القادة السياسيين عن دفع ثمن الطاقة المستهلكة وعدم قدرة المؤسسة على قطع التيار عنهم، حتى سنة ٢٠٠٣ كان هناك ٣٣ ألف محضر بسبب السرقة والتعديات على الشبكة.

رابعًا: تأثير سياسة الخصخصة على مؤسسة كهرباء لبنان

عندما تطبق الخصخصة في بيئة سياسية فاسدة، وبغياب مؤسسات الرقابة أو تعطيل دورها كديوان المحاسبة

والتفتيش المركزي فعلى المؤسسة المخصصة السلام.

بدأت الخصخصة بالبريد وبسرعة كبيرة، فبيع لشركة كندية، واستمرت بالهاتف الخلوي، ثم أُممت الشركتين الخلويتين ثم طرح خصخصة إدارة الشركتين أو طرح خصخصة القطاع بالكامل، وخصخص قطاع النفط في لبنان ونتج عن ذلك ارتفاع أسعار المشتقات النفطية غير مبرر وتذبذب دائم بالعرض، أما قطاع الكهرباء في لبنان ما زالت سياسة التقنين هي السائدة إلى اليوم، مما يقوي دور المولدات الخاصة الأقل كفاءة والأكثر تلويثًا للبيئة. هذه المولدات أصبحت تنتج حوالي ٣٥٪ من الطاقة الكهربائية المستهلكة في لبنان.

خامسًا: الاستنتاجات والتوصيات

منذ أكثر من ثلاثة عقود ومؤسسة «كهرباء لبنان» تعاني عجزًا ماليًا كبيرًا، وقد أدى ذلك إلى زيادة حجم الدين العام اللبناني، وقيل في هذا الصدد إن مؤسسة كهرباء لبنان مسؤولة عن ربع الدين العام.

تبدو مؤسسة كهرباء لبنان عاجزة عن النهوض وكأنها صورة مصغرة عن فساد الدولة، وقد تحولت مسألة الكهرباء إلى مشكلة بالنسبة للبنانيين الذين يدفعون ما يتوجب عليهم دون الحصول على الخدمة المطلوبة.

نقترح على مؤسسة كهرباء لبنان أن تُعدّ لائحة سنوية بأسماء المؤسسات والمسؤولين الذين لم يسددوا رسوم الكهرباء المترتبة عليهم، كي يعلم الرأي العام من هو المسؤول عن تلك المشكلة المزمنة والمتمادية، أيضًا على مؤسسة كهرباء لبنان تنويع مصادر محروقاتها، أي عدم الارتباط ببلد واحد، والتوجه نحو استعمال الغاز الطبيعي كمصدر لإنتاج الطاقة الكهربائية، أيضًا اعتماد الخصخصة الجزئية ليس الكلية، وفق مبدأ BOT أي الإنشاء والاستغلال والتحويل.

سادسًا: المراجع

- د. سمير التنير، عهد الفساد الأسود.
- د. ناصر زيدان ٢٠١٤، قطاع الكهرباء في لبنان والآثار الاقتصادية المخيفة.
- شفيق أبي سعيد، مقاربة استراتيجة لقطاع الكهرباء في لبنان.
- غالب أبو مصلح ٢٠١٠، الخصخصة في لبنان انسحاب تدريجي للقطاع العام.

شكٌّ... ويقين

فاطمة البزال

أسكبْ على مُرّ السؤالِ حلاوةً ... ماذا إذا عِيلت تمائمُ صبرِهِ
تفْترَّ من ثغرِ الحياةِ رؤاكا ... وانهدّ من نَصَبٍ على مرآكا؟
وأدرْ براحِ الوجدِ كأسًا مُترعا ... أتبيحُه سرًا يرمِّمُ جرحَه
ترَ في الوجودِ مُعادلاً، إلاّكا ... والجرحُ من تحتِ الضمادِ يراكا
في زحمةِ الأرواح ما ضلّ الهوى ... أقصى الغواية أن تكون مُعاقرًا
شكٌّ اليقينِ مُتمَّم بهواكا ... حُزنا، يزيدُ الصَّحو في ذكراكا
ماذا إذا حنّ الغريبُ لرشفةٍ ... عشقُ المريدِ شريعةٌ لا تنتهي
وتعشّقَ الثغرُ الشفيفُ بذاكا؟ ... وأحبُ شيءٍ ما تنالُ يداكا

لولا القشرة لفسد اللبّ

زينب فايز راضي

تحدَثني عن القشور متسائلاً عن جدواها، متعاليًا عليها، مستصغرا قَدرها، لا يا صديقي فلولا القشرة لفسد اللبّ، ولطالما كانت القشرة بوابة العبور، والإناء الناضح بالمكنون والخبر لما سيكون.

لست على عجالة من أمري، فالدفاع عن القشور قضية صفحتي، فإذا كان قدر القشور ان ترمى – جلّها – فلا يجب ان نجعل جزاءها الإهانة والتحقير إنما العرفان بالجميل.

وجميل القشور يبدأ بالقشور التي فطرتها الطبيعة وصنعتها ايدي المبدع الأول، فكانت ملتصقة بما يلازمها متعشقة بأصلها لا تفارقه الا بعنوة حد مسنون، أعني بها ما نعرف وما لا نعرف من ثمار وخضار وإنتاج أرض. وليس أسهل من أن نحكم على جودة ما نأكل من خلال قشوره فالقشرة بداية وحماية ولولا «القشرة لفسد اللبّ».

وأعرّج على القشور صنيعة الانسان، والمستقدمة بمهارة المصانع، والتي سرعان ما تزول وتؤول إلى المنفى والعدم ناكرين لها حسن صنيعها فهي تحمي وتستر وتصون أعني بها كل غلافات الناس والبيوت والمنتجات، وقدر هذه القشور أنها إلى حين وترمى وهذا عيبنا وليس عيبها.

إذا لا تأخذنّ القشور على محمل التهكم والسخرية والدونية، إذ للقشور مقامها وعملها.فللإنسان قشوره ليس انتهاءً بالثياب إنما ابتداءً باللسان قشرة الفكر طالما لسان الفتى نصف ونصف فؤاده.

سأسهل عليك الأمر:أليس من قشرتك – أعني جلدك – نعرف صحتك ما بين اصفرار واحمرار وبرودة وسخونة.

أليس من قشرتك نعرف عرقك ما بين أسود وأبيض وبقية الألوان.

ودعني أقول: أليس ما أول ما يلفتك بالمرأة جمالها وهو قشور!

أليس أول ما يلفتك في البناء شكله وهو قشور!

أليس ما يلفتك من مدينة مظاهرها وهي قشور!

أليس غلاف الكتاب وعنوانه قشورا؟!

أليس لون البحر الأزرق قشرة أعماقه؟!

أليست النجوم والسماء قشورًا لما وراء؟!

ألم يزيّن الخالق حياتنا بالورود والفاكهة وأحسن التقويم وكل ذلك قشور!

أليست حواسنا قشور دواخلنا؟!

أليست حدودك قشرة وجودك؟!

بل أليس الوجود قشرة الواجد؟!

وأيضًا أليست الدنيا قشور الآخرة والعاجلة قشور الآجلة؟!

رجاء لا تحدثني ثانيةً عن القشور، فالقشور بوابة العبور و«لولا القشرة لفسد اللبّ، ولولا الكلمة لمات الحبّ»، لانّ سلام أحمد شوقي هو قشرة ذلك اللقاء. وأذكرك قائلةً لطالما أكلنا القشور ورمينا النواة والتمرة شاهدة...

ذكر تصحيح اسم

ورد خطأ اسم كميل مرهج كاتب مقالة «يوسف يزبك وأدلجة التاريخ» في العدد السابع والعشرين والصحيح أن كاتب المقال هو كميل أنطوان مرعب فاقتضى التوضيح

Works Cited

Boyer, Christine. *Cybercities*. Princeton Architectural Press, 1996.

Calvino, Italo. *Invisible Cities*. Harcourt Brace & Company, 1974.

Cavallaro, Dani. *Cyberpunk and Cyberculture*. The Athlone Press, 2000.

Davidson, Cynthia. "Riviera's Golem, Haraway's Cyborg: Reading 'Neuromancer' as Baudrillard's Simulation of Crisis." *Science Fiction Studies,* vol. 23, no. 2, 1996, pp. 188-198. *JSTOR*.

Foucault, Michel. "Of Other Spaces: Utopias and Heterotopias." *Architecture /Mouvement/ Continuité*, 1967.

Gibson, William. *Neuromancer*. Ace Books, 1984.

Gold, John R. "Under Darkened Skies: The City in Science-fiction Film." *Geography*, vol. 86, no. 4, 2001, pp. 337-345.

Grant, Glenn. "Transcendence through Detournement in William Gibson's 'Neuromancer'." *Science Fiction Studies,* vol. 17, no. 1, 1990, pp. 41-49. *JSTOR*.

Hollinger, Veronica. "Cybernetic Deconstructions: Cyberpunk and Postmodernism." *Mosaic: An Interdisciplinary Critical Journal*, vol. 23, no. 2, 1990, pp. 29-44.

Ostwald, Michael. "Virtual Urban Futures." *The Cybercultures Reader.* Eds. David Bell and Barbara Kennedy. Routledge, 2000.

Seed, David. *Science Fiction: A Very Short Introduction*. Oxford University Press, 2011.

Sponsler, Claire. "Beyond the Ruins: The Geopolitics of Urban Decay and Cybernetic Play." *Science Fiction Studies*, vol. 20, no. 2, 1993, pp. 251-265.

Sponsler, Claire. "Cyberpunk and the Dilemmas of Postmodern Narrative: The Example of William Gibson." *Contemporary Literature*, vol. 33, no. 4, 1992, pp. 625-644.

> light mounting his spine from the region of his prostate, illuminating the sutures of his skull with x-rays of short-circuited sexual energy. His teeth sang in their individual sockets like tuning forks, each one pitch-perfect and clear as ethanol. His bones, beneath the hazy envelope of the flesh, were chromed and polished, the joints lubricated with a film of silicone. (Gibson 154)

Drug use is related to the city in more than one way, being a product of its operations and a reason for its alienation. As an item of trade, besides software and body organs, it circulates at the heart of the *Neuromancer* street and business culture. It is sought and desired by members of its sub-cultures for varying purposes, be them sexual or medical among others. For Case, drugs constituted an alternative for the matrix immersion, especially when his nervous system was still maimed and he could not operate in cyberspace. He resorted to drugs in order to recreate similar thrills to those experienced in cyberspace. In any case, drugs are used to create a distancing from the suffering imposed by the wasteland, and so drug addiction becomes another form of alienation of the city that no longer attracts but repels its inhabitants who wish to flee from its ills. With drug use running rampant in the city streets, the city loses its hold on its people and is thus alienated as a threatening presence. It disappears once more behind the effect of the drug and behind the matrix screen.

One last attempt to ultimately transcend the city is presented at the end of the novel when Case manages to pull his hack and break the ice of the computer systems of the Tessier-Ashpool family. While in cyberspace, and after accessing the system, Case experiences a state of omniscience impossible to a mere human. His mind becomes aware of every iota in the system all at once; he could see, feel, and absorb all the bits of universal information, for he had become a "universe of data" (Gibson 258) with an unparalleled heightened awareness of every grain of sand at the beach he had visited when he flatlined. This state of transcendence, which is only available to the posthuman that he'd become through his union with technology and the intelligent machine, is the eventual and farthest break with the city which is to be traded for the limitless world of cyberspace. Although it is still there as a trace, the city disappears into the recesses of the posthuman mind, its pain forgotten, replaced by a euphoria that only cyber cowboys can experience.

Whether in the Sprawl, Chiba, or Freeside, the city flaunts its advanced technologies that craft the characters into posthumans through their interaction with the omnipresent technological thread. While the city-wasteland is disappearing, it is at the same time generating monstrous cyborgs who are in fact the human potential that will open vistas to new modes of evolutionary existence beyond the dreadful wasteland. The physical city remains as a trace, a palimpsest telling a most fantastic story of creation, evolution, and transcendence.

real and that is through someone else's body. This makes his experience of the city doubly removed from physical reality. In one mode, he is far from the real city only witnessing an image or a copy of it; in another mode, he is far away from the physical city and his physical self, enjoying the thrills of the matrix. As a result, the city again disappears behind a computer deck and a digital domain that has come to replace it.

The last section of the novel moves the readers into a different universe, that of Freeside. The elegant, luxurious place is physical and real like Night City, yet it seems to have been devised to replace it. By setting itself as a place of recreation and extravagance, Freeside claims to substitute the drab, polluted city of Chiba and the Sprawl with a cityscape that boasts expensive restaurants, rich and exuberant foreign tourists, high-end shopping stores, artificial bright light, and genetically engineered trees. Being the abode of the Tessier-Ashpool family-which comes to represent in the novel the multinational conglomerates of business and power in a postindustrial, late capitalist society-Freeside houses the Villa Straylight where cloned members of the family rest in cryogenized sleep awaiting their timely thawing to take over the family rule. With cryogenics, Gibson suggests immortality as an alternative to death, the archetype of the wasteland. Hence the city-wasteland is replaced with a domain of immortality, which is a recurrent theme in the novel. To illustrate, in the matrix, Case is introduced to the Dixie Flatline, which is the construct of a dead person whose mind had been uploaded to a computer and who manages to communicate and cooperate with Case through his disembodied voice. Disembodiment also reaches a certain climax with the two AIs, Neuromancer and Wintermute, that seem to be running the world of *Neuromancer* and the Tessier-Ashpool empire. It is this disembodiment, whether through a run in the matrix, a computer construct, or an AI that distances the city from the posthumans inhabiting it. To them, the city is no longer tangible and directly felt. It is left behind, traded for something better, something that lies beyond, that promises immortality and freedom. In her exploration of the relation between the city and the body, Boyer observes that over the successive historical eras, a projection of the body has been laid over the profile of the city which has been called the simulacrum of the body. What accompanies the fading of body awareness is the immateriality of space: as we withdraw into the solitude of our media-transformed worlds, immediate experience of the city withers. We cannot grasp the city as a totality anymore, for it becomes diverse, disjointed, decentered; and this blemished and mutilated city from which we withdraw could be a chief cause of our recent enamorment with the computer that we perceive as a clean engine (119). This shows that our despise of the weak flesh brings along a rejection of the city as the site of suffering and violence, and it follows that when we seek disembodiment or transcendence over the body, we effect an alienation of the city that subsequently disintegrates and disappears.

Drug use is also a common theme in the novel, as most characters are depicted as drug addicts, whether in the Sprawl, Chiba or Freeside. In many scenes, Gibson meticulously describes the effect of the drug on its users as an enhancing one:

> The drug hit him like an express train, a white-hot column of

having acknowledged and accepted technology as a powerful force and then utilizing that force to shape her identity (194).

Following a glance at the cyborg landscape above, one might view the city as a city of monsters, since many of these hybrid body constructions appear monstrous. Yet, it is argued that what might appear as an obsession with a dehumanizing destruction of the human is in reality a post-humanizing reconstruction and "technological destruction of the human condition leads not to future-shocked zombies but to hopeful monsters" (Sterling qtd. in Grant 45). It is these hopeful monsters that have gained access, through the technological means of hybrid body construction, to the heterotopias present in the city, and with this have effected the flight from the wasteland and the transcendence into the realm of cyberspace. This transcendence has rendered the city a mere blur, a bunch of signifiers manipulated by the posthumans to flee from physicality into virtuality. As a result, the realm of the city is exchanged for the possibilities offered by the virtual.

One interesting possibility provided by cyber technology that accentuates the human detachment from the city is the passive experience of urban space through a body that is not one's own. In *Neuromancer*, such technology is called "simstim deck," a device that allows the live broadcasting of someone's sensorium and experiences to be simultaneously felt and experienced by another person riding their body. The simstim deck allows Case to access Molly's sensorium by flipping a switch while he is in the matrix to ride her body on the city streets and experience everything she sees, smells, feels or says with a sudden jerk into other flesh:

> She was moving through a crowded street, past stalls vending discount software, prices feltpenned on sheets of plastic, fragments of music from countless speakers. Smells of urine, free monomers, perfume, patties of frying krill. For a new frightened seconds he fought helplessly to control her body. Then he willed himself into passivity, became the passenger behind her eyes. (Gibson 56)

The sights and experiences he gets are not his but Molly's, which means his experience of the city is not direct but mediated by technology, and in this way the city structure is no longer physical but informational. The city odors and sounds are signifiers that are removed from his direct experience and can only be transferred to him via the simstim deck. In addition, his experience of them is, as evident from the quote, a passive one, for he cannot control the movements of the body he is riding. He can only sit back and let himself be led into the urban experience provided to him by another person. Thus the interaction of people and environment in *Neuromancer*'s city gains complexity, especially that such an experience is paralleled with a cyberspace existence in the matrix. We learn that Case is jacked into the matrix while connected to the simstim deck, and by pushing a switch he converts to the simstim world in Molly's body. This means that Case intermittently switches between two existences, one that is not real and that is in cyberspace, and another which is also not

face the first time he jacks in after the neurosurgery (Gibson 52). Thus the experience of cyberspace is seen as a liberating one, for it allows Case the flight from the body cage. At the same time, it is this experience of disembodiment that makes the city disappear, as characters like Case become immersed in their virtual environment, and leave their body and the physical city behind, without any direct or close interaction with it. The physical city, then, is pushed back to the background and made redundant only to transform into a disappearing city, a distant hum or white noise in the television sky.

According to Sponsler, the technological and cultural changes governing the 1980s developed an examination of human experience inside the late capitalist, postindustrial, media-controlled society (''Cyberpunk and the Dilemmas'' 626-627). Such an exploration of human behavior is portrayed by *Neuromancer* whose characters convey a new or enhanced way of being human, since the characters inhabiting *Neuromancer*'s city are no longer fragile humans but enhanced cyborgs or posthumans. To start, the city which has been referred to by Gibson as a playground for technology is populated by characters that are a blend of human and machine, a fusion between the biological and the synthetic. Their bodies have been touched by technology and as a result display enhanced functions, making them more resistant and thus capable of transcendence. A thorough scanning of *Neuromancer*'s demographic landscape reveals a wide array of cyborgs roaming the city: a bartender with a prosthetic arm, high-ranked employees implanted with cutting-edge microchips, graftees or genetically engineered beings, clients for vatgrown members, surgically redesigned youths, and Microsoft heads equipped with a dozen of ''microsofts'' or chips coming out from a socket behind their ear. All these cyborg designs are described as fads sweeping the city of Neuromancer and inscribing it with technological and social change. As seen earlier, when redesigned by neurosurgery, Case's body comes to represent the ultimate symbiosis with the intelligent machine through his ability to jack in the matrix and enter the liberating world of cyberspace. His enhanced system is, according to Dani Cavallaro, ''a means of turning the tumultuous harlequinade of images unleashed by modern life-typified by the accelerating tempo of the metropolis-into orderly patterns'' (52). The female cyborg is also granted ample space in *Neuromancer*'s plot and its city through Molly, a bodyguard and hired gun who will be Case's partner in pulling the ultimate hack. She is the epitome of body manipulation, as she has had work done to enhance her body functions and become a posthuman, a more efficient version of the human she is. Molly had gained enough money working as a ''meat puppet'' or prostitute to be able to afford those surgeries. She boasts inset mirrors sealed to her eye sockets that allow her to see in the dark due to ''[m]icrochannel image-amps'' with a ''readout chipped into [her] optic nerve'' displaying the time. In addition to the mirror eyes, she has ten blades inserted under her artificial nails that slide out like claws when she spreads her fingers (Gibson 25, 32). Armed with these surgical enhancements, Molly transcends her mortal, fragile flesh to become a hired agent, a fighting machine with outstanding performance. Like most of the novel's characters, she becomes a cyborg, as Cynthia Davidson notes, the subject of Donna Haraway's *Cyborg Manifesto*,

face every day in their city combine adaptation and transcendence simultaneously. In other words, what Ostwald views as technological invasion is taken for granted by Cyberpunk literature in a post-apocalyptic stance. Ostwald relates that when the VR technologies first invaded the collective consciousness of pop culture in the 1980s, they were often portrayed as deviant and possibly harmful. Because of the computer's two-sided interface, it was perceived as an instrument of social fragmentation, a possible gateway into the back alleys and slums of the city, hence technology's ability to speed up the continuing process of social, moral, and urban disintegration (658-661). If technology's assailing impact on the city is viewed as an apocalypse, it follows then that Cyberpunk overlooks this event due to its boredom with such holocaust stories, as explained earlier. Consequently, the mode adopted by *Neuromancer*'s characters is one of adaptation to the status quo without attributing any value judgment to the causing circumstances. Technology is thus viewed as neither good nor evil but as an evolutionary era that one must cope with in order to survive, entailing the realization that survival is that of the electronically fittest in an age governed by cyber technologies.

On the other hand, while these sweeping technological changes are concomitant with devastating wasteland elements such as overpopulation, pollution, and crime among others, the characters inhabiting such city-wastelands must hustle in underground zones of resistance or heterotopias in order to elevate themselves beyond their dreary existence and transcend their wasteland. Interestingly, these vistas of liberation are offered by the city and can only be accessed and operated in through the use of technology itself, which is viewed in this regard as a liberating agent. Gibson writes that "burgeoning technologies require outlaw zones, that Night City wasn't there for its inhabitants, but as a deliberately unsupervised playground for technology itself" (11). In this way, Calvino's inferno and in this case the city contain within themselves portals into the beyond and offer the promise of passing to the other side through an interplay between humans and technology, whether in the form of holograms, computer simulations, or the matrix. David Seed argues that the city in this manner becomes a labyrinthine, fragmented space, a laboratory for technological change (47, 54). Cyberspace specifically is presented by Gibson as an ultimate tool of change and transcendence, and the character of Case represents those people who long to escape their own "meat" because it is the body or the flesh that keeps them moored in the wasteland. Being the site of the wasteland attacks, it is the body that is the most fragile component undergoing famine, pain, violence, disease, and ultimately death. From a posthuman perspective, if the body is transcended, then it is possible for the mind to soar beyond the ailing wasteland. Case experiences euphoria when he jacks into the matrix, a Foucauldian heterotopia that "projected his disembodied consciousness into the consensual hallucination that was the matrix" (Gibson 5). After his body is reconstructed by specialist surgeons in the black clinics with a new pancreas thrown into the deal, Case can experience the thrill of cyberspace once more using his brand new deck, an "Ono-Sendai Cyberspace 7" (Gibson 46). The thrill of experiencing this transcendental space is so intense that tears stream down his

view and interact with the world around them also applies to objects other than the natural elements and city organization. In fact, while contemplating the object of his love Linda Lee, Case notices that the pattern on her silk headband "might have represented microcircuits, or a city map" (Gibson 9), rendering his view one that is enmeshed in technological circuitry and expressed in technological discourse.

Boyer refers this abstraction of the actual city to the postmodern fading of reality as a referent and the upsurge of the virtual. The consequent alteration allows us to superpose the electronic matrix of data organization on the city with the purpose of identifying the "spaces of disjunction between the rows and columns of the data entries that represent the forgotten spaces, the disavowed places, and the bits eradicated because of the noise and redundancy they generate" (9). I prefer to use another term for these rebel spaces that defy absolute superposition and stand out as noise; to use Michel Foucault's term, I call them "heterotopias" or vistas of resistance. Foucault defines heterotopias as:

> places that do exist, real places, in every culture or civilization, which are something like counter-sites, a kind of effectively enacted utopia in which the real sites, all the other real sites that can be found within the culture, are simultaneously represented, contested, and inverted. (3)

The reason why anyone would want to look for heterotopias in the city is, according to Boyer, to escape the postmodern era's lack of social responsibility (11). In other words, in a postmodern world, people would interact with the city at distance, watching crime and violence escalate in urban environments while they sit comfortably behind their screens and do not act upon it in reality. Thus the dystopia they live in thrives unchecked but only in a distant background, and the most efficient way to escape it is through zones of resistance offered by the matrix.

Humans who have been turned into posthumans in Cyberpunk literature in general and in *Neuromancer* specifically are the catalysts that will operate in those heterotopias in order to transcend the wasteland of their existence. In Italo Calvino's *Invisible Cities*, Marco Polo ends on the following note:

> The inferno of the living is not something that will be; if there is one, it is what is already here, the inferno where we live every day, that we form by being together. There are two ways to escape suffering it. The first is easy for many: accept the inferno and become such a part of it that you no longer see it. The second is risky and demands constant vigilance and apprehension: seek and learn to recognize who and what, in the midst of the inferno, are not inferno, then make them endure, give them space. (165)

What Neuromancer's characters do is actually a bit of both of these two ways suggested by Marco Polo, for the tactics they employ in order to dodge the blows of wasteland they

will vanish, but at the same time if you go too fast, you will break the delicate balance of the black market. Both ways, you'll be exterminated with nothing left from you except a memory in a bartender's mind and your organs which will be sold in Chiba's black clinics (Gibson 7).

This dangerous hum of business which pumps life into *Neuromancer*'s city constitutes a socio-cultural landscape reflecting the postmodern consumerism of the late capitalist, post-industrial society. In this context, Sponsler argues that science fiction has grown to be the leading literary genre of the postmodern period, for it alone appears to be able to perceive the swift technological and cultural shifts happening in late capitalist, postindustrial society. She thinks that Gibson is famous for acknowledging late advances in culture, technology, and socioeconomic structure, trying through his stories to express what he views as their unavoidable outcomes. For this reason, the future conceived in his novels is one where multinational conglomerates manipulate world economies, and technology has molded new types of awareness and conduct ("Cyberpunk and the Dilemmas" 625-626). *Neuromancer*'s city is an abode of technology par excellence, one in which Gibson ingeniously imagines and writes the new technologies of the digital age, unfathomable and precocious apparatuses and devices. The novel's often-quoted sentence-"The sky above the port was the color of television, tuned to a dead channel" (Gibson 3)-reflects the heavily technologized cityscape with its holograms and neon lights, where even natural elements like the sky are depicted using the language of technology and can only be viewed through the lens of technology. Gibson's most innovative conception of the matrix or cyberspace as an interconnected field of data is also applied on his panoramic view of the Sprawl:

> Program a map to display frequency of data exchange, every thousand megabytes a single pixel on a very large screen. Manhattan and Atlanta burn solid white. Then they start to pulse, the rate of traffic threatening to overload your simulation. Your map is about to go nova. Cool it down. Up your scale. Each pixel a million megabytes. At a hundred million megabytes per second, you begin to make out certain blocks in midtown Manhattan... (Gibson 43)

This description brings to mind a bird's eye view provided by Google Maps, a concept unthinkable at the time of writing the novel, lending Gibson the title of the visionary, having been able to think up such groundbreaking configurations. At the same time, this urban topography pushes the physical city to the remotest background since it replaces the physical locations with computer simulations, morphs the city into electronic data, a bunch of flickering signifiers, and with this makes the actual city disappear behind the screen. Case realizes that if you "[g]et just wasted enough... it was possible to see Ninsei as a field of data" (Gibson 16). What Gibson and his characters, then, see is a virtual city floating somewhere in cyberspace, not the city of modernism, which was the main hub of metropolitan existence and research. The technological lens or frame through which Gibson's characters

The post-apocalypse setting that opens the novel is depicted as a smitten wasteland representing a dystopia at its best. The Sprawl or what is known as BAMA is itself an overpopulated area, spreading wildly without controlled city planning and representing the unusual growth in cities that is caused by the extensive social and technological changes which have impacted the collective consciousness of pop culture in the 1980s. Michael Ostwald relates how the city itself became the site of criminal transgression, pollution, and overpopulation due to the enormous social and technological alterations that made cities grow exponentially leading to a new phenomenon known as urban sprawl. As a result, the cities developed worldwide and the rapid growth of population placed a heavy burden on urban spaces that are already jammed. The public spaces of recreation have often turned into wastelands strewn with gangsters and governed by barbarity (658-661). This oppressive density of population is illustrated by Gibson in a depressing and somber tone when he describes Cheap Hotel, the place Case decides to stay in after arriving in Chiba, a hotel which is ironically more expensive than the other places he'd stayed at. Instead of being made of rooms, the hotel actually provides small enclosures called coffins made of white fiberglass. There were six rows of them with ten coffins on each side and each coffin was "three meters long, the oval hatches a meter wide and just under a meter and a half tall" (Gibson 20). This poignant description of what is supposed to be a place of comfort and relaxation illustrates the bleak and disturbing atmosphere that emanates from the city and highlights the motif of the city-turned-wasteland. Another component of the wasteland city is pollution which is an aftermath of the apocalypse, presenting itself in Neuromancer in the form of a "poisoned silver sky" (Gibson 7) and a contaminated atmosphere: "The air had gotten worse; it seemed to have teeth tonight, and half the crowd wore filtration masks" (Gibson 15). This topography is, according to Sponsler, typical of Cyberpunk stories and looks like any post-holocaust physical setting: wrecked, rubble-strewn, destroyed urban landscapes; large topographies of degeneration, desolation, and the debris of civilization; and the almost total lack of a gentle or attractive nature ("The Geopolitics of Urban Decay" 253). Violence and crime add yet another dystopian characteristic to the city which abounds with competitive criminal gangs weaving the constant hum of business and threatening to exterminate anyone who dares snitch or betray. Even *Neuromancer*'s protagonist is himself an anti-hero who hacks, steals, betrays, kills, and flirts with death at every corner of the city:

> A middleman's business is to make himself a necessary evil. The dubious niche Case had carved for himself in the criminal ecology of Night City had been cut out with lies, scooped out a night at a time with betrayal. Now, sensing that its walls were starting to crumble, he felt the edge of a strange euphoria. (Gibson 11)

Death comes as a concomitant factor with crime and violence, sharpening the blight of the wasteland in the ruthless city, especially in its black market business where Case notices that one has to be very careful in order to survive. He notes that if you operate slowly, you

our analytical engagement with the city is, to a certain extent, interaction at a distance (11). From this we understand that, as humans or posthumans, our interaction with the city is never immediate but mediated by technology that came to replace natural or romantic fusion with our environment. Another reason for Cyberpunk's overlooking of the city and subsequently leading to lack of research into this field is Cyberpunk's ennui with the motif of the apocalypse which dominated previous science fiction sub-genres. In this context, Claire Sponsler writes that ''the geopolitics of most cyberpunk stories appear... as post-apocalyptic'' (''The Geopolitics of Urban Decay'' 253), which means the events take place after the disaster has struck. She also says that in Gibson's work specifically, the concept of catastrophe is taken for granted and so is a type of white noise residing in the backdrop, whirring behind the ongoing action (''The Geopolitics of Urban Decay'' 254). Veronica Hollinger provides an explanation for this salient feature of Cyberpunk by suggesting that anti-humanist science fiction is increasingly devoted to the study of alterations that will happen to the self, to society at large, and eventually to social relations. In other words, they are more involved with historical developments than fascinated with the leaps of apocalyptic setups (38). As a result, the city in Cyberpunk is mere white noise in the background, unwilling to attach any value to the reason of its current existence and that is the apocalypse. Yet, it is still a city that yields interesting cultural discourse and I believe it deserves ample exploration.

In *Neuromancer*, the urban setting is made up of three main fictional entities, which often gets readers lost and in need of a Neuromancer map: the Sprawl, Chiba, and Freeside. The Sprawl represents the Boston-Atlanta Metropolitan Axis, and as its name suggests, it is an urban spread setting on a huge scale. We are told that Case, *Neuromancer*'s protagonist, used to live there before coming to Chiba City in Japan in the hope of restoring his damaged nervous system in the city's many black clinics. Chiba or Night City, with Ninsei Street at its heart, is ''a magnet for the Sprawl's techno-criminal subcultures'' and is likened to ''a deranged experiment in social Darwinism, designed by a bored researcher who kept one thumb permanently on the fast-forward button'' (Gibson 6-7). In other words, it is a hub of business and hustling where many techno subcultures thrive and operate. Case notices after his arrival that this is a ruthless environment that is constantly throbbing with the hum of business, and that death is ''the accepted punishment for laziness, carelessness, [and] lack of grace'' (Gibson 7). Freeside is a place of unique luxury, a space station in the form of a spindle, designed by the Tessier-Ashpool family as a resort of extravagance and recreation. It is also the abode of the ruling family whose cryogenized members are thawed respectively to take governance of the family business.

Among the three physical settings of the story, it is Chiba or Night City that is of most interest to this research since it illustrates a wasteland so typical of contemporary science fiction, unfolds a rich discourse between people and environment woven by technological circuitry, and presents a wide array of posthuman prototypes roaming its streets and back alleys.

Under Television Sky:
The Disappearing City in "Neuromancer"

Eliane Salameh

ABSTRACT: The city is a typical setting of science fiction literature. Yet, it loses its prominence in the Cyberpunk sub-genre, as it is marginalized by the behind-the-screen action. Cities in William Gibson's Neuromancer become disappearing cities, a hum in the background, and this is due to several factors inherent in the sub-genre characteristics and the plot elements. The first part of the article traces the theoretical explanations of post-holocaust fiction and explores the concept of the disappearing city in the novel's three cityscapes, while focusing mainly on Night City. The article also explores the city-turned-wasteland motif by highlighting pollution, crime, and overpopulation. The final section deals with the technological culture of the Neuromancer city and the construction of post-human characters that only interact with the city at distance.

Keywords: Neuromancer, city, wasteland, posthuman, technology, cityscape, cyborg, transcendence, post-apocalyptic, science fiction, Gibson, Cyberpunk, cyberspace, digital, virtual, matrix.

Cities as urban postmodern environments are the favored settings of science fiction works, acting as sites of alien invasions in one sub-genre and of apocalyptic events in another. Representations of the city also flourish in science fiction films, adding the much-needed dramatic effect for such a medium and manifesting the production designer's architectural flair. Despite having dominated the science fiction genre for many years, the urban prototype remains, as John R. Gold puts it, "a curiously underdeveloped area of research," lacking mostly an interpretation of the role of the city in science fiction as an "area of cultural discourse between people and place" (337). While this is true of most science fiction, it is mainly evident in the Cyberpunk sub-genre where the city recedes to a remote background, yielding more prominence to the behind-the-screen or behind-the-machine interactions that form the pulp of the plot rather than its earthbound urban happenings. I will tackle *Neuromancer* as the archetypal Cyberpunk novel and trace two explanations that are offered as to why the city loses its prominence in the Cyberpunk sub-genre.

Firstly, Christine M. Boyer explains that William Gibson concluded prior to writing *Neuromancer* that the action behind the video screen was far more fascinating than that taking place in front of it. That is to say, cyberspace attracts the user into the withdrawing space of the digital matrix in absolute retreat from the surrounding environment. Hence

Hoffman, F. (2007). Conflict in the 21st Century: The Rise of Hybrid Wars. *Potomac Institute for Policy Studies*, 13. VA.

Ignatius, D. (2014, October 2). *'Foreign nations' proxy war in Syria creates chaos', The Washington Post.* Retrieved from http://www.washingtonpost.com/opinions/david-ignatius-foreign-nations-proxy-war-creates-syrianchaos/2014/10/02/061fb50c-4a7a-11e4-a046-120a8a855cca_s

Jan-Joel, A. (2015, October). *Hybrid operations: lessons from the past. EUISS.* Retrieved from http://www.iss.europa.eu/ uploads/media/Brief_33_Hybrid_operations.pdf

Kem, J. (2009). Campaign Planning: Tools of the Trade. *Monograph, U.S. Army Command General and Staff College (Fort Leavenworth, KS: U.S. Army Combined Arms Center*, p. 85.

Khatib, L. (2015, June 29). *The Islamic State's Strategy: Lasting and Expanding. Carnegie Endowment for International Peace.* Retrieved Feb 25, 2018, from http://carnegieendowment.org/2015/06/29/islamic-state-s-strategy-lasting-and-expanding-pub-60511.

Lindley-French, J. (2015, April 29-30). *NATO and New Ways of Warfare: Defeating Hybrid Threats.Conference to the NATO Defense College, Rome.* Retrieved March 4, 2018, from http://www.natolibguides.info/hybridwarfare#s-lg-box-14426065

Mumford, A. (2016). *The Role of Counter Terrorism in Hybrid Warfare.* NATOs Centre of Excellence for Defense Against Terrorism.

Nissen, T. (2015). *The Weaponization of Social Media.* Retrieved March 6, 2018, from https://www.stratcomcoe.org/thomas-nissen-weaponization-social-media

Operations Change 1. (2011, Feb 22). *United States Army Field Manual 3-0*, 1-21. Washington, DC: Department of the Army.

Social Networking Motivations. (2015). Retrieved from Global Web Index Insight Report: http://www.globalwebindex.net/blog/top10-reasons-for-using-social-media

Strachan, H. (2006, November 9). The Changing character of War. *A EuropaeumLecctures delivered at the Graduate Institute of International Relations*, 11. Geneva. Published by the: Europaeum, Oxford.

Stupples, D. (2015, November 2016). *The next big war will be digital and we are not ready for it.* Retrieved from The Conversation: https://theconversation.com/the-next-war-will-be-aninformation-war-and-were-not-ready-for-it-51218

Von-Clausewitz, C. (1984). On War. *Edited and Translated by Michael Howard and Peter Paret*, 87. Princeton: Princeton University Press.

Laqueuer, W. (1999). The New Terrorism: Fanaticism and the Arms of Mass Destruction. Oxford: Oxford University Press.

Washington post. (2015, 01 27). *Foreign Fighters Flow to Syria.* Retrieved from https://www.washingtonpost.com/world/foreign-fighters-flow-to-syria/2015/01/27/7fa56b70-a631-11e4-a7c2-03d37af98440_graphic.html?utm_term=.1a4637fa55a0

Figure -2: Foreign fighters flow to Syria

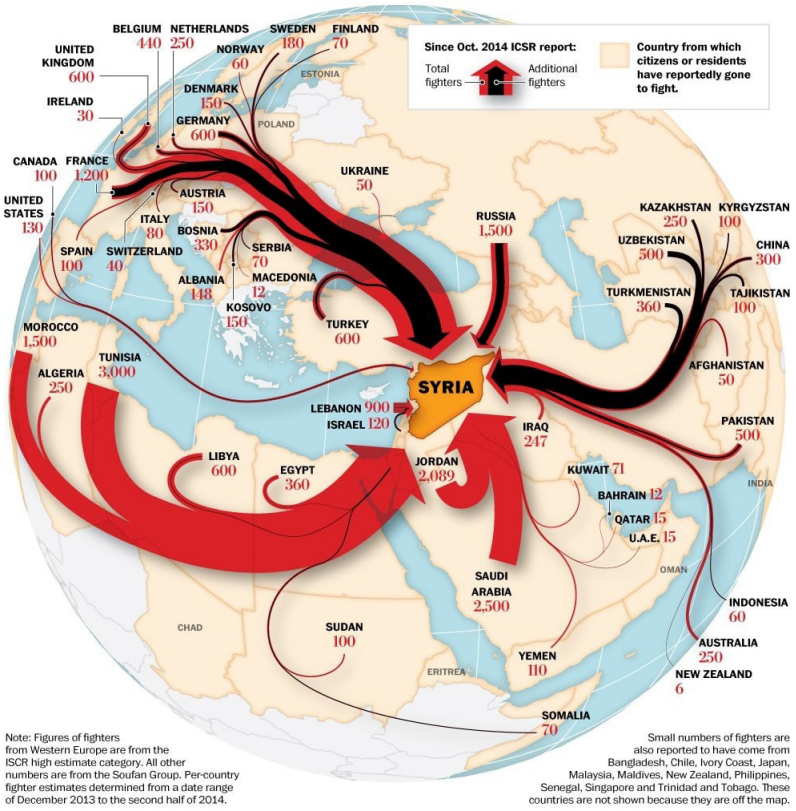

Map: Flow of foreign fighters to Syria | Gene Thorp and Swati Sharma/The Washington Post January 27, 2015

Source: https://www.washingtonpost.com/world/foreign-fighters-flow-to-syria/2015/01/27/7fa56b70-a631-11e4-a7c203d37af98440_graphic.html?utm_term=.1a4637fa55a0

Bibliography

AndrásRácz. (2015). *Russia's Hybrid War in Ukraine: Breaking Enemy's Ability to Resist.* Retrieved March 4, 2018, from https://www.fiia.fi/en/publication/russias-hybrid-war-in-ukraine

Brown, L. F. (2011, 03 23). *Twenty-First Century Warfare Will Be Hybrid.* Retrieved January 30, 2018, from http://www.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a553122.pdf

Gambhir, H. (2016, December 20). *Institute for Study of War, The Virtual Caliphate: ISIS's Information Warfare*. Retrieved from http://iswresearch.blogspot.it/2016/12/the-virtual-caliphate-isiss-information.html

Hall, J. (2014, September 18). *Daily Mail. ISIS Signs Up More Than 6000 New Recruits Since American Airstrikes Began.* Retrieved from www.dailymail.co.uk/news/article-2760644/ISIS-signs-6-000-new-recruits-American-airstrikes-began-France-says-start-calling-group-deroga

Figure -1: ISIS's Media Apparatus

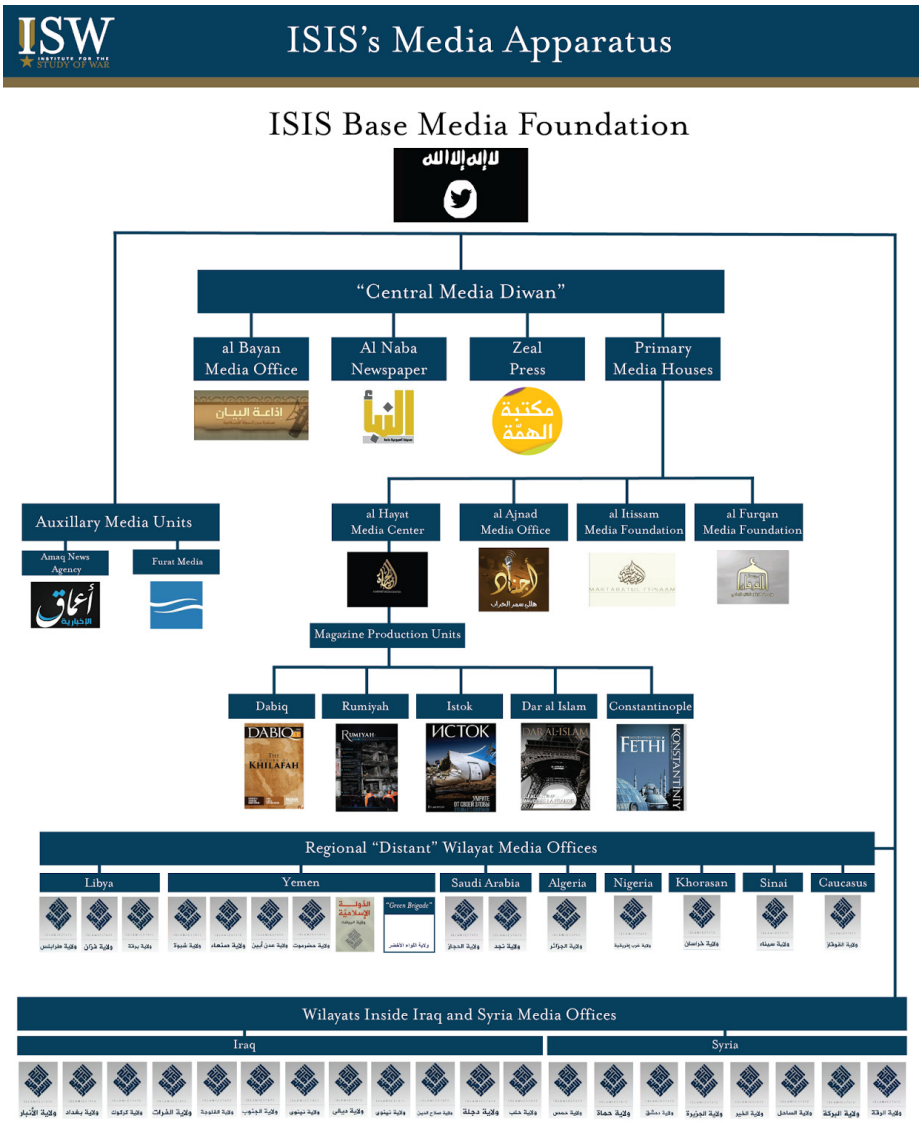

Source: HarleenGambhir, "The Virtual Caliphate: ISIS's Information Warfare" http://iswresearch.blogspot.it/2016/12/the-virtual-caliphate-isiss-information.html

a. The buildup of Innovative information technology tools to deny access to terrorists' messages on the social media platforms.
b. Foundation of 'international communication protocols' to produce positive narrative to counter terrorists' propaganda.
c. Elevation of International awareness International awareness to monitor foreign fighters' movement and recruiting processes.
d. Reframe International laws and regulations to combat cyberspace crime in an immune legal edge.
e. Construction of a universal counter psychological campaign to combat fanatic ideologies and propagate moderate attitudes and conducts of behavior.

Conclusion

International terrorism hybrid threat has been evolving and expanding. The main important factor that plays key role against international terrorism concept of expansion is the liberation of the ideology from the fanatic influence, and this resides in the concept of ''the war of ideas'.

The ideology of terrorism has transferred its headquarters into the cyberspace and the real and decisive battle will be in the virtual space. The elements of terrorists' grand strategy should be well identified along with its critical capabilities and critical vulnerabilities to decide the most suitable act and tool to defeat its centers of gravity. A long hard cyber fight is still ahead and its tools are the communication systems and devices, and its means are the online social networks, propaganda, psychological and information operations.

Taking out the physical structure of the hybrid form of international terrorism does not mean the end of its existence and the perils imposed upon global security. The cyber war goes on and its communication instruments are heavily active on the social networks in the form of propaganda, psychological and information operations. The ongoing war requires global awareness to the danger of the intangible state of hybrid terrorism.

Nations' resilience should be strengthened against actions of terror, and collective and cooperative counter measures are essential and necessary to combat the evolving terrorism and defeat it before it spreads and breeds in the electronic clouds and the human mental space. The Media and its social platforms are decisive elements in the new hybrid warfare and the information campaigns have crucial consequences in the attempt to combat radicalization and worldwide terrorism.

(1) Cyberspace; is the place where ISIS's conduct its illegal and criminal activities. It generated support from farther abroad foreign fighters [**figure -2: Foreign fighters flow to Syria**], including Europeans who were radicalized through sophisticated web-based campaigns (Washington post, 2015).

(2) Social media; is the main communication tool for ISIS. It includes YouTube, Twitter, and blog posts used to plot, recruit, fundraise, and marketing. Social media was used to publicize itself, and intimidate enemies. It was important to ISIS's promotion campaign to recruit 6,000 new fighters in compensation to the lost ones in 2014 (Hall, 2014).

(3) Propaganda; ISIS developed propaganda films to illustrate its firmness and paint its fighters as heroes. ISIS's propaganda campaigns provide near-real time footage of victorious militants hoisting their black flags and patrolling newly conquered towns as they subjugate vanquished foes through fear and humiliation. Propaganda is a tool of war that uses social networks for information activities and gain public support to supplement military action.

(4) Centralized Media Information Operations; ISIS's media efficiency is attributed to its careful control over what is publicized in a highly centralized media operation. It kept videos posted vague in order to shadow the militarily capabilities and avoid counter-attacks. Moreover, it leaked deceptive information about the location of planned operations and then conducted strikes elsewhere.

(5) Psychological Warfare; In its quest to instill fear among its enemies and own components, ISIS produced frames of violence and disseminated horrible graphic images on a regular basis as a form of psychological operation to intimidate both its enemies as well as locals under its domination (Khatib, 2015).

ISIS, and whatever terrorist organization that might appear later in their wake, seek to impose a universal political agenda that fulfills their ideological believes. Social Media as an advanced hybrid mean has been utilized as a tool of propaganda and information operation to attain the organization's objectives. ISIS has been conducting its propaganda to escalate ethnic and religious disputes. It used its religious narrative in terms of psychological operation to claim itself the 'real and justified' solution to the 'unfair' global system of governance. Social media has been extensively used as a mean of communication, recruitment and training. Media platforms connected to ISIS have been exchanging crucial data, disseminating their own version of information, victorious achievements, and messages to dormant cells, sympathizers and potential followers.

6. Information countermeasures to terrorists' information capacities

International, regional and local propaganda campaigns and psychological operations are necessary to be planned and produced to target the ISIS's brutal ideolo gy and expose its criminal motivations. The following measures could be applicable to counter terrorists' information capacities:

magnitude of manipulation of social perceptions, beliefs, attitudes and behavioral trends. Psychological operations find in the social networks the proper platforms to shape and influence the public opinion (Nissen, 2015, p. 17).

The quest to control people's perceptions and behavior has become a central measure in modern encounters.

b. Social media as a weapon

'Social media' has powers to shape public opinion, mobilize supporters, coordinate military activities, and collect information for targeting purposes. It has increasingly become the 'weapon of choice' both for state and non-state actors. Thomas Elkjer Nissen discussed the ways among which social media is used to support of military operations (Nissen, 2015, pp. 65-67):

(1) Intelligence Collection; analysis of information collected from social networks profiles, including content and conversations.

(2) Targeting; Analysis of trend, network, sentiment, location, content, behavioral and contributes to target audience analysis and psychological warfare.

(3) Inform and Influence; Shape and develop communicated materials to modify behavioral attitudes. Manipulate messages to create false perceptions and coerce an unwilling person to do something using force or threats. Deter the adversary from taking action by instilling fear of the consequences. Mobilize, organize and encourage a group of people to take collective action in pursuit of a particular objective. Convince a community to believe in the truth of something.

(4) Cyber war; Cyber war is conducted to prevent the adversary's components from communicating, coordinating and synchronizing actions in time and space, accessing information or distribution messages and propaganda. It consists of a complete set of cyber operations that include;

(a) Deny access to critical information, systems, and services.

(b) Disrupt, disturb or interrupt the flow of information.

(c) Degrade adversary's communications and information systems.

(d) Breach in and break through the defense or security measure.

(e) Destroy the existence of network systems by direct physical attack.

Such activities impede information dissemination, deny adversaries' access to the cyber space, seize opponents' cyber information centers, and extract data (Nissen, 2015, pp. 65-67).

5. Media Strategy as an element of ISIS's grand strategy

ISIS used the cyberspace and social media to release videos of violent acts, and to launch its propaganda, information operations and psychological warfare. [**Figure-1: ISIS's Media Apparatus** (Gambhir, 2016)]

on perceived vulnerabilities making them particularly effective (Operations Change 1, 2011). Hybrid warfare adds uncertainty to its characteristics and, as Frank Hoffman argued, in hybrid wars 'the irregular component of the force attempts to become operationally decisive rather than just protract the conflict' (Hoffman, 2007).

The terrorist group ISIS exhibits the above characteristics combined with propaganda networks and backed up with intense application of Cyber-Attacks, Information Operations and Psychological Operation.

Driven by unshakeable ideological or religious fanaticism to achieve fundamental overhauls in regional or even global governance (Laqueuer, 1999), ISIS as a notion of 'new terrorism' combined its criminal, terrorist activities with the military and administrative capacities to attack physical and psychological components. The physical course of action 'takes the line of least resistance' and the psychological one 'takes the line of least expectation'. It is both hybrid and attritional, ensuring that an enemy is weakened 'by pricks instead of blows' (Mumford, 2016).

It is evident that terrorism will be defeated physically if the proper military means and strategies are implied to destroy its multiple centers of gravities. However, the imminent and enduring international terrorism's hybrid threat configure in the intangible medium. Mental clouds invite corresponding extremists, gather and propagate fanatic ideologies, and interact on the social networks in the cyber space. Virtual terrorism connects with its bases anonymously in the cyberspace.

4. Social media and Cyber contribution to Hybrid threats

The psychological course of 'Indirect Approach Tactics' takes the line of 'least expectation'. Media is a crucial element of the grand strategy of international terrorism through which the 'war of ideas' is conducted.

a. Social Media and the New Information Environment

The new information technology permits every person equipped with a smart phone to film, edit, and share information, images, and videos in real time. This instantaneous access to the cyberspace has dramatically changed the global information environment, and gave every individual the opportunity to become a publisher to audiences around the world.

In January 2016 about half of the world's population (3.5 billions) was actively using the Internet, and its one third (2.3 billions) was using different social networking sites. Social media connects people with similar interests or agendas, allows free flow of personal opinions and storytelling, keeps track of friends' activities, and disseminate information in different audiovisual modes. (Social Networking Motivations, 2015)

Though social media could be a significant driver towards more open and direct dialogue among different social groups, it could also work as an anonymous virtual space to circulate extremists' views, deliberate misinformation, create cons and spread fear without revealing the person or organization identity (Stupples, 2015).

Cyber activities through social networks could cause at a little cost and effort a huge

The term 'hybrid warfare' first appeared in 2002 in a thesis by William J. Nemeth describing the way Chechen insurgents combined guerrilla warfare with modern military tactics and the use of mobile and Internet technology. In addition to their highly flexible operational tactics, the Chechens also used information activities and psychological operations against the Russian forces (AndrásRácz, 2015).

'Hybrid Warfare' can be characterized as a form of warfare, which comprises a mix of methods; conventional and unconventional, overt and covert actions involving cyber and information warfare 'aimed at creating confusion and ambiguity on the nature, the origin and the objective of these actions' (Jan-Joel, 2015).

b. Essential elements of Hybrid warfare

The core strength of hybrid warfare is that it can morph in nature due to the employment of all forms of war and tactics simultaneously. Hybrid warfare elements are composed of (Lindley-French, 2015):

(1) Political pressure and propaganda to intimidate and compel the opponent to yield to a set of undesirable political terms.

(2) Sustained and directed use of proxies to tackle the opponent on a low extensive protracted act of violence to avoid a comprehensive conventional war.

(3) Extended use of psychological-operations. Undermine the enemy and show no consideration to moral or ethical restraints displayed in the execution of adversary operations. Hybrid terrorism insolences legal and military concepts.

(4) "Information Confrontation" in cyberspace and social media. It is conducted to sway indigenous and international support in terrorists' favor, "the enemy does not fight fair and is fighting not only a fight in theater, but also in the living rooms." (Kem, 2009)

3. Hybrid Warfare's Scope (ISIS Modality)

Complexity, deception, and ambiguity are characteristics of warfare that date back to ancient times and are attributed to the recent conduct of hybrid warfare.

ISIS has been vociferous advocate of a modern re-working of the indirect strategic approach as manifest through its recent waging of hybrid war.

Since 2011 a myriad of foreign nations have been funding what Washington Post columnist David Ignatius has labeled "a chaotic mélange of fighters" inside Syria (Ignatius, 2014). Syrian conflict is a particularly anarchic hybrid model involving a broad network of shifting relationships between states, terrorists and their proxies, each with different goals in mind. Terrorists' hybrid threats in Syria are resembled by the group's simultaneous creation of a self-styled army to seize land in Syria and Iraq via the direct use of violence exported abroad to Western cities.

In the new era warfare generation; International terrorist organizations along with militias, guerrillas, and criminals combine their abilities to use and shift between regular and irregular tactics and weapons. These tactics and weapons enable hybrid threats to capitalize

At the geopolitical scene, political and military leaders witness a complex environment in the transformation from a unipolar into a multipolar globe. Ethnic, cultural, political, economic conflicts escalate through the Middle East, Southwest Asia, and Eastern Europe.

In consequence of the 9/11 2001 terrorist attack, the US retaliated and occupied Afghanistan and expanded the confrontation into Iraq. Those two expensive, extensive and protracted wars in Afghanistan1991 and Iraq 2003, in addition to the world financial crisis in 2008 have weakened the United States posture as the global power, and paved the way for China and Russia and other regional powers to advance on the geopolitical theater.

In 2011, the Arabic world plunged into what was called faultily the ''Arabic Spring'', and extremists pushed their way to the states' governing apparatus. The conflict scene in the Middle East is extremely complex, and for the purpose of this paper it will be addressed from the outlook on Syria and Iraq: Intensive international intervention is going on to counter terrorists' hybrid threats. The terrorist organization ISIS had wiped out the borders between Syria and Iraq, declared the state of 'Al- Caliphate', and embraced the 'Hybrid Warfare'.

b. The Elements and means of War

In his lecture 'The Changing Character of War' (2006), Hew Strachan addressed the issue of war and identified its elements (Strachan, 2006, p. 11):

(1) Force; the use or threat to use it is the first element to start a war.
(2) Existence of two opponents; who might not be in active fighting
(3) Degree of intensity applied and its duration.
(4) Public service; those who fights do so as public servants.
(5) Intended objective; war has an aim defined in political terms.

Strachan further discussed the new means of response to terrorism after 9/11 and argued that even if it is accepted that terrorism is an asymmetrical response to the military strength of the United States, ''both terrorism and asymmetry remain means of fighting, not descriptions of war itself''.

2. Hybrid Warfare Concepts

In World Wars I and II, states resorted to acts of propaganda, economic blockades and covert activities to support their fighting efforts to win the war. In this new era, 'hybrid warfare' is renowned due to the innovation in combat means and methods combined with increasing economic global interdependencies. Leslie Brown examined the new actors, means and end-states of the ongoing conflicts and postulated that 'hybrid warfare' will be the dominant form of warfare that most sovereigns will apply in the near future (Brown, 2011).

The internet and the media offer unprecedented scope for generating domestic support as well as influencing the 'opponent'. The cyber domain is not just a modern realm for espionage; it can also be used offensively to disrupt communication networks or other essential enablers for combat forces.

a. Hybrid Warfare Definition

The Role of Media in the Conduct of Terrorists' "Hybrid Warfare" ISIS Case Study

Prepared by: KASSEM ATEF HAMDAN

Introduction

International terrorism evolves and acquires new terrible means in relation with the advance of the state of globalization. As international terrorism resides to hybrid warfare to grow and expand, global security diminishes and the state of in stability augments. Hybrid terrorism relies on collective means to govern its subjugated populous, rule its equivocal state, finance its activities, terrify communities, and propagate its radicalized ideology. Economic, politic, military, and information means are collective elements of the hybrid warfare utilized by terrorist organizations to achieve their goals.

The Islamic State of Iraq and Syria (ISIS) is the last version of this new international terrorism hybrid threat that began to configure its physical state making use of ethnic and religious conflicts in areas of regional contests and confrontation. International terrorism witnesses huge expansions and introduces continuous developments to its capabilities as the scope of globalization widens in term of information connectivity, transportation and investment. International terrorism is achieving hybrid capabilities in term of acquisition of regular and irregular armed groups, regular and irregular operational tactics, in addition to its criminal and terrorist activities.

This paper reviews the elements of ISIS's media strategy to declare its Caliphate in the Iraqi-Syrian space in support of hybrid-warfare's spheres of politics, economics, military, legality, and information propagation in the cyberspace. Terrorist groups commit massacres and atrocities to terrify communities within and outside their areas of influence. In addition to fulfill its radical agenda, terrorist groups commit violent acts to attract the media's attention to publicize their identity, political objectives, brutality, and strategic goals. In this case, the ultimate strategic goal of ISIS is considered to be the establishment of the "Caliphate".

1. "Hybrid Warfare" a New Era and New Wars

"War is the continuation of politics by other means"

As such, Carl Von Clausewitz described the fundamental law driving military conflict. Advanced technology in our modern era has changed the means to conduct war and has invited new actors to achieve diverse political end-states (Von-Clausewitz, 1984, p. 87)

a. The Development of the Geopolitics Scene in the Middle East